

obeykhan.com

جنود مثالون

obeyikan.com

جنود مثاليون

الخاطفون في هجمات 11 سبتمبر / أيلول
من هم، ولماذا فعلوا فعلتهم تلك

تيري ماكديرمت

نقله إلى العربية

عبداللطيف أبو البصل

Original Title:

Perfect Soldiers

The Hijackers: Who They Were, Why They Did It

by:

Terry McDermott

Copyright © 2005 by Terry McDermott.

ISBN 0 - 06 - 058469 - 6

All rights reserved. Authorized translation from the English language edition
published by: Harper Collins Publishers Inc.
New York, Ny 10022. USA.



o b e i . k a n . c o m

obeyikan.com

إهداء

○ إلى ماك وبتی



obeyikan.com

لقد كان جنديا مثاليا: يذهب إلى حيث تأمره، ولا يبرح
المكان الذي تضعه فيه، وليس لديه أية فكرة تحول بينه وبين
تنفيذ ما تأمره به على أتم وجه.

داشيل هاميت
من رواية لعنة داين

obeyikan.com

■ الفهرس ■

الصفحة

الموضوع

- ١٣ _____ شخصيات الرئيسية
١٩ _____ توطئة
٢٣ _____ تمهيد: أهلاً وسهلاً

الكتاب الأول: جنود

- ٣٣ _____ بيت للتعلم
٤٩ _____ وحيداً في الغربية
٦٩ _____ أصدقاء
٨٩ _____ حجاج
١٢١ _____ تصاعد رائحة الجنة

الكتاب الثاني: المهندس

- ١٥١ _____ إعادة إحياء الجهاد
١٦٩ _____ البدون
١٩٧ _____ حرب عالمية
٢٤٥ _____ حرب، بعد حرب

الكتاب الثالث: الخطة

- ٢٦٧ _____ المجندون الجدد
٢٨٧ _____ التحضيرات
٣٢٧ _____ السنة الأخيرة
٣٥٧ _____ ذلك اليوم
٣٧٥ _____ ملحق أ: وصية محمد الأمير الأخيرة



- ٣٧٩ ————— ملحق ب: الليلة الأخيرة
- ملحق ج: نص مختصر لإعلان ابن لادن عام 1996 الحرب ضد
الأمريكان الذين يحتلون بلاد الحرمين (مختصر) ٣٨٣
- ملحق د: إعلان ابن لادن الجهاد ضد اليهود والصليبيين عام 1998 ٣٩٦
- ٤٠١ ————— قائمة المراجع والمصادر
- ٤٠٣ ————— تقدير وامتان
- ٤٠٥ ————— الهوامش



شخصيات رئيسة

مجموعة خلية هامبورغ

محمد الأمير والمعروف كذلك باسم محمد عطا: أحد طياري عملية الحادي عشر من سبتمبر، وقائد مجموعة إلى جانب رمزي بن الشيبية من مجموعة هامبورغ؛ مصري الأصل.

مروان الشحي: أحد طياري عملية الحادي عشر من سبتمبر؛ إماراتي الجنسية.

زياد الجراح: أحد طياري عملية الحادي عشر من سبتمبر؛ لبناني.

رمزي بن الشيبية: ويعرف كذلك باسم عمر: قائد مجموعة هامبورغ إلى جانب محمد عطا؛ حاول التدريب على الطيران، وقام بالتنسيق لهجمات الحادي عشر من سبتمبر؛ وهو من اليمن.

سعيد بهاجي: عضو في مجموعة هامبورغ، هرب قبل 11 سبتمبر؛ وهو ألماني من أصل مغربي.

زكريا الصبار: عضو في مجموعة هامبورغ، حاول التدريب على الطيران، ولكنه هرب قبل الحادي عشر من سبتمبر؛ مغربي الأصل.

منير المتصدق: عضو في مجموعة هامبورغ، متهم بالمساعدة في مؤامرة الحادي عشر من سبتمبر، من أصل مغربي.

محمد فزازي: إمام ومرشد مجموعة هامبورغ؛ وهو من أصل مغربي.

محمد بن ناصر بلفاس: مرشد لمجموعة هامبورغ؛ وهو يمني - إندونيسي

محمد حيدر زمار: الشخص الذي يحتمل أنه قام بتجنيد الخاطفين من هامبورغ في القاعدة؛ يحمل الجنسية الألمانية ومن أصل سوري.

محمد داركانزلي: أحد رفاق زمار ومعارفه المقربين، إسلامي متطرف، مرشد لمجموعة هامبورغ؛ ألماني الجنسية من أصل سوري.

عبد الغني المودي: من أصدقاء خلية هامبورغ، وجهت إليه التهمة في مساعدة الخاطفين في عملية 11 سبتمبر/ أيلول وحكم ببراءته. مغربي.

عبدالرحمن المخدي: المرشد الروحي لزياد جراح، وإمام مسجد غريفسوالد، صديق بلفاس وزمار؛ يمني الأصل.

محمد راغب: عضو في مجموعة خلية هامبورغ؛ يمني.

بشير مصلاح: صديق لجراح في غريفسوالد وهامبورغ؛ أردني الجنسية.

عباس طاهر: صديق لمصالح وجراح؛ سوداني الجنسية.

◎ الأصدقاء والمعارف

شادي عبدالله: صديق لأعضاء مجموعة هامبورغ، وعضو في مجموعة إرهابية أردنية تسمى مجموعة التوحيد؛ أردني الجنسية.

شاهد نيكلز: صديق لمجموعة هامبورغ، انفصل عن الجماعة؛ ألماني من جنوب إفريقيا.

أحمد مكالات: صديق لمجموعة هامبورغ، ترك المدينة خوفاً؛ سوداني.

ياسر بوغلال: زميل في الدراسة وصديق لزكريا الصبار، رفض الانضمام إلى المجموعة؛ مغربي.

آيسل سينغن: خلية زياد جراح؛ ألمانية من أصل تركي.

◎ القاعدة

✍ أسامة بن لادن: قائد تنظيم القاعدة؛ سعودي.

✍ خالد شيخ محمد: العقل المدبر لهجمات 11 سبتمبر/ أيلول؛ وقائد ميداني لعمليات القاعدة؛ باكستاني.

✍ محمد عاطف: الساعد الأيمن لابن لادن؛ مصري.

✍ أيمن الظواهري: الرجل الثاني في تنظيم القاعدة؛ مصري.

✍ أبو زبيدة، والمعروف سابقاً محمد حسين زين العابدين: أحد معاوني ابن لادن، ألقى القبض عليه في مارس/ آذار 2002؛ أردني الجنسية.

✍ توفيق بن عطاش، ويعرف أيضاً بخلاّد: أحد معاوني ابن لادن، نسق عملية الهجوم على المدمرة الأمريكية كول؛ سعودي.

✍ حنبلي، ويعرف أيضاً إنجب نورجمان، رضوان اسام الدين: قائد الجماعة الإسلامية، وهي مجموعة إرهابية تعمل في جنوب شرق آسيا وتتسق لعمليات القاعدة في المنطقة؛ إندونيسي.

✍ يزيد صفات: نائب حنبلي في الجماعة الإسلامية، قدم المساعدة لموسوي والحزمي والمحضار وخلاّد؛ ماليزي.

✍ علي عبدالعزيز علي: ابن اخت خالد شيخ محمد، كان يتولى إرسال الأموال إلى منفذي عملية 11 سبتمبر/ أيلول من الإمارات العربية المتحدة؛ باكستاني.

✍ مصطفى الحواسوي: أحد الذين قدموا التسهيلات المالية لعملية 11 سبتمبر/ أيلول؛ عمل مع علي عبدالعزيز علي في الإمارات العربية المتحدة؛ سعودي.

عماد الدين بركات يركاس، ويعرف أيضاً باسم دحداح: قائد خلية مدريد؛ سوري.
 زكريا موسوي: متهم بالتآمر في هجمات 11 سبتمبر/ أيلول، ينتظر
 محاكمته في فيرجينيا حول تهمة تتعلق بمحاولة التدريب على الطيران من
 أجل اختطاف الطائرات؛ فرنسي من أصل مغربي.

◎ حملة تفجيرات الطائرات في مانيلا

خالد شيخ محمد: العقل المدبر لهجمات 11 سبتمبر/ أيلول؛ باكستاني -
 كويتي.

رمزي يوسف، ويعرف أيضاً عبدالباسط عبدالكريم: نظم الهجمات التي
 وقعت في مركز التجارة العالمي عام 1993؛ مخطط عملية بوجينكا، وهي
 عملية تفجير طائرات مانيلا؛ باكستاني.

محمد جمال خليفة: ابن صهر أسامة بن لادن، يدعى بأنه قدم التمويل
 لعمليات إرهابية في الفلبين وأماكن أخرى؛ سعودي.

عبدالكريم مراد: شارك في عملية بوجينكا، حملة تفجيرات طائرات
 مانيلا؛ باكستاني.

والي خان أمين شاه: شارك في بوجينكا، حملة تفجيرات طائرات مانيلا؛ أفغاني.

◎ أفغانستان

عبدالله عزام: الزعيم الفلسطيني للعرب الأفغان؛ فلسطيني.

غلب الدين حكمتيار: قائد عسكري أصولي؛ أفغاني.

عبد رب الرسول سياف: قائد عسكري أصولي؛ أفغاني.

✍ زاهد شيخ محمد: شقيق خالد شيخ محمد، قتل في معركة جلال آباد؛ باكستاني - كويتي.

✍ عارف شيخ محمد: شقيق خالد شيخ محمد، باكستاني - كويتي.

✍ برهان الدين ريباني: أصولي، وزعيم سياسي طاجيكي؛ أفغاني.

✍ ملا عمر: زعيم الطالبان؛ أمير المؤمنين؛ أفغاني.

© 11 سبتمبر/ أيلول، 2001

✳️ الرحلة 11 التابعة لشركة أميركان إيرلاينز، ضربت البرج الشمالي

من مركز التجارة العالمي

✍ محمد عطا: طيار، مصري

✍ عبدالعزيز العمري: سعودي

✍ سظام السقيمي: سعودي

✍ وائل الشهري: سعودي

✍ وليد الشهري: سعودي

✳️ الرحلة 175 التابعة لشركة يونايتد إيرلاينز، هاجمت البرج الجنوبي

من مركز التجارة العالمي

✍ مروان الشحي: طيار، إماراتي

✍ أحمد الغامدي: سعودي

✍ حمزة الغامدي: سعودي

✍ فايز بني حماد: إماراتي

✍ مهند الشهري: سعودي

✈️ الرحلة 77 التابعة لشركة أميركانز إيرلاينز، هاجمت البنتاغون

✈️ هاني حنجور: طيار، سعودي

✈️ ماجد موقد: سعودي

✈️ سالم الحازمي: سعودي

✈️ نواف الحازمي: سعودي

✈️ خالد المحضار: سعودي

✈️ الرحلة 93 التابعة لشركة يونائيد إيرلاينز، كان من المفترض فيها أن

تهاجم مجمع مباني الكونغرس والحكومة في العاصمة

✈️ زياد جراح: طيار، لبناني

✈️ أحمد النعيمي: سعودي

✈️ أحمد إبراهيم الحزناوي: سعودي

✈️ سعيد الغامدي: سعودي



■ توطئة ■

في نوفمبر/ تشرين ثاني من عام 2001، وفي يوم بارد من أيام الشتاء القارص في هامبورغ شمال ألمانيا، تحدثت امرأة شابة، زوجة أحد الرفاق القدامى لمحمد الأمير عطا في سكن الجامعة، عن صورة انطبعت في ذهنها ولم تستطع التخلص منها. فعندما بدأت الحرب الأمريكية على أفغانستان في ذلك الخريف، وأخذت القنابل تتساقط، وبدأ الناس يموتون بالمئات، كانت تحدد بشدة في جهاز التلفاز لا تكاد أن تصدق ما تشاهده وتسمعه. لم تستطع أن تصدق أن هذا الصراع الذي يحدث فعلاً على أرض الواقع قد أشعل فتيله رفيق زوجها في السكن الجامعي، محمد.

حاولت أن تقارن في ذهنها مشاهد الدمار والانفجارات، وكل شيء حدث في العالم بعد 11 سبتمبر/ أيلول، بذلك الشاب النحيل الذي كان يمشي في سكنه الجامعي لابساً حذاء الحمام. إلا أن هذه المقارنة لم تستقم في ذهنها. فقد كان محمد من الأشخاص الذين يصعب فهمهم، كما أنها لم تكن تحبه. ولكن، هل يعقل أن يحدث كل هذا بسبب محمد؟ وكانت تجيب نفسها، هذا مستحيل. لا، ليس محمد البسيط المسكين بشبشه البلاستيكي الأزرق.

هناك الكثير عن محمد عطا، أحد الخاطفين في هجمات 11 سبتمبر/ أيلول، ورفاقه الذين لا يمكننا أن نعرفهم الآن. ولكن عندما يتحرك شخص ما حول هذا العالم فلا بد من أن يترك وراءه أثراً يمكن اقتفائها، بغض النظر عن الغشاوة التي يمكن أن تظمر تلك الآثار. وفيما يخص الآثار التي خلفها محمد عطا وراءه، فإن الصورة التي تتبدى للعيان هي صورة شخص هو على درجة من البساطة والضآلة يصعب معها تصور قدرته على تحقيق الشيء الكبير الذي فعله. وثمة شيء عميق لا يمكن إشباعه حول هذا الموضوع، لأننا

نريد أن تكون وحوشنا كبيرة جداً وضخمة. إننا نتوقع منهم أن يكونوا بنفس حجم الجرائم التي ارتكبوها. نريد منهم، أكثر من أي شيء آخر، أن يكونوا غير عاديين، لكي نقتنع أنفسنا أن ما فعلوه لا يمكن أن يتكرر. وهذا تفكير مريح بطريقته الخاصة. وعندما نبحث عن أشخاص قادرين على إلحاق مثل هذا الحجم من الضرر، فإن آخر شيء يمكن أن نعثر عليه هو محمد البسيط بشبشبه الأزرق.

هذا الكتاب، في معظمه، عبارة عن تحقيق صحفي يتناول الأشخاص الذين نفذوا هجمات 11 سبتمبر/ أيلول على الولايات المتحدة. والهدف من هذا التحقيق هو استكشاف ومحاولة لفهم هؤلاء الأشخاص، وفهم الأماكن والناس والأفكار التي شكلتهم. وليس من المستغرب لمثل هذا الوقع الإخباري الكبير، أن يتم الانتهاء من وضع سرد لتسلسل الأحداث والأشخاص المتورطين فيه بهذه السرعة الفائقة: فمع نهاية الأسبوع الأول من وقوع تلك الهجمات، تم الانتهاء من وضع القصة الرئيسية للحدث وتحديد كافة الشخصيات التي اشتركت في تنفيذه. وتم تصوير المهاجمين في 11 سبتمبر/ أيلول إما بالأشعار العباقر أو بالمتطرفين الغلاة. ومن سوء الحظ، كما في غيره من الأحداث الجسام ذات القيمة الإخبارية، كانت معظم المعلومات الأولية إما غير صحيحة من الناحية الفعلية، أو منقطعة الصلة بالحدث وتم تقديمها بشكل خاطئ، وهو الغالب. وفي الوقت الذي قد نجد فيه بعضاً من هذه العناصر المتطرفة في بعض الذين شاركوا في العملية، إلا أن معظمهم لم يكونوا على تلك الصورة. ويهدف هذا الكتاب إلى محاولة فهم أفضل لهؤلاء الأشخاص، وبالنتيجة فهم لسبب قيامهم بتلك العملية.

جاء معظم الأشخاص الذين اشتركوا في عملية 11 سبتمبر/ أيلول من خلفيات عادية وأوساط غير سياسية. تحولوا إلى شباب متدينين ملتزمين أتقياء، انجذبوا إلى الإسلام أكثر فأكثر بمرور الزمن. ومع زيادة حدة تدينهم،

كان يدور بينهم جدال غير متناه حول أفضل السبل التي يمكنهم من خلالها خدمة ربهم، وأداء ما كانوا يعتبرونه واجبات مقدسة مفروضة عليهم. كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم جند الرب، وهو ما يطرح التساؤل الآتي: ما هو هذا الاعتقاد الديني الذي يمكنه أن يدفع أشخاصاً عاديين إلى إحداث دمار بهذا الحجم وإفناء غيرهم من الرجال والنساء والأطفال؟ والجواب الذي تمخض عن التحري والتمحيص، هو جواب مزعج حقاً: لقد كان رجال 11 سبتمبر/ أيلول، من المؤسف، فيما أعتقد، أشخاصاً عاديين. وأنا أقول من المؤسف لأن كونهم عاديين يعني أن هناك أشخاصاً كثر مثلهم. وفي النهاية، هذه القصة هي قصة عن قوة الإيمان الذي يحول الأشخاص العاديين؛ إنها قصة حول القوة الخطيرة للأفكار التي تقاد بشكل خاطئ.

إنني على يقين أن بعض الناس سيحملون هذا الكتاب على أنه هجوم على الإسلام. وهو ليس كذلك. وأذكر أنني في مطلع شبابي، كنت أعشق الفكرة التي تقول بأن العالم مكان فاسد وأنه بحاجة إلى إصلاح، وفق أفكاره بالطبع. كنت أعتقد أنني أعرف ما ينبغي فعله لتحقيق ذلك. لم تكن أفكاره تلك نابعة من أي اعتقاد ديني؛ كانت أفكاراً لا دينية بحتة. وفي الواقع كنت أعتقد أن الدين جزء من المشكلة. ثم فيما بعد، وفي مرحلة مبكرة من حياتي المهنية، كُلفت بمهمة صحافية في كمبوديا. وكان ذلك بعد انتهاء الحرب وزوال الخمير الحمر، الذين لم يتركوا وراءهم سوى الدمار والخراب والعظام الباهتة. كان ذلك بلا منازع أكثر الأماكن التي رأيتها في حياتي سادية؛ وقد وصلت كمبوديا إلى تلك الحالة بسبب اعتقاد لا ديني عميق، لدى بعض الأشخاص بأنهم يملكون على وجه اليقين الطريقة الوحيدة والصحيحة. إنه هذا اليقين، وليس المعتقد بحد ذاته، هو الذي سبب المشكلة.

وإنني متأكد أيضاً أن هذا الجهد لفهم دوافع الذين كانوا وراء 11 سبتمبر/ أيلول سيزعج أولئك الذين يعتقدون أن أي محاولة لفهم هذه الدوافع هي



محاولة لتسويغ ما قاموا به وتقديم الأعذار عنهم، بل وحتى تمجيدهم. وهو ليس كذلك. إن من أعظم مهمات الصحفي، وأكثرها متعة بالنسبة له، هي أن يضع نفسه في موقع الأشخاص المعنيين بالحدث، أن يحاول فهم العالم كما يبدو في أذهان الأشخاص الذين يكتب عنهم. وقد حاولت أن أفعل ذلك هنا. لقد كانت هجمات 11 سبتمبر/ أيلول أحداثاً فظيعة، نبهت العالم من رقدته، وغيّرت حياة الكثير من الناس، وأنهت حياة عدد أكبر منهم. وبينما أكتب هذه السطور بعد ثلاث سنوات من ذلك الحدث، ما زال القتل مستمراً دون أن تلوح في الأفق أية دلائل على نهاية جيدة له. وكلما أسرعنا في فهم ما يجري، زادت سرعة فرصنا في إيقافه. وما دمنا لا نفهم، فلا يوجد أمامنا أي فرصة مطلقاً.



تقديم

أهلاً وسهلاً مسجد القدس

عندما تعصف الرياح العاتية القادمة من البحور الشمالية المجاورة لمدينة هامبورغ في فصل الشتاء، فإن هذه المدينة يمكن أن تكون مرتعاً لتوقعات مظلمة. وفي أيام الشتاء الموحشة القاتمة، وعندما يخيم الليل فوق تلك المدينة ويلتحفها البرد القارس، وبعد أن يغادر الرجال شوارعها الكئيبة متوجهين إلى مسجد القدس، فإنهم يجلبون معهم الدفء، فتتشابك الأيدي، وتتلامس الخدود الملتحية، وتتراص المناكب بإحكام، ويملاً همس الكلمات الرقيقة والضحكات الخفيفة مدخل المسجد.

يضم مسجد القدس مجموعة من الغرف قليلة الزينة، فوق بناية لناد للياقة البدنية في أفقر الأحياء السكنية لمدينة هامبورغ، أغنى المدن الألمانية. ويقع على شارع ستيدمان، وهو شارع وضيع سيئ مخيف يمتد شرق هوبتبانهوف، المحطة الرئيسية للقطارات في المدينة. ويضيف ستيدمان طابعه الخاص على شتاء هامبورغ القارس بابتسامات الشفاه المرطبة للمومسات الألبانيات اللواتي يتجمعن في مداخل البنايات فيه، إضافة إلى باعة المخدرات الذين ينتشرون في ممرات المشاة أسفل تلك البنايات. ويعد هذا المكان موقعاً مثالياً لمسجد القدس. فأجرة العقارات فيه رخيصة، كما أن قربه من محطة القطارات المجاورة تجعل من الوصول إليه أمراً سهلاً ويسيراً من كافة أنحاء المدينة. إضافة إلى أن الم لذات والشهوات الدنيوية في ستيدمان تذكر المؤمنين بالانحطاط والتفسخ الخلقي للحضارة الغربية.

يأتي الرجال لأداء صلاة المغرب والعشاء من مختلف مناطق المدينة، وبشكل أعم - من مختلف أقطار العالم العربي - تجمعهم اللغة والمعتقد. وفي هذه المدينة، وأيضاً في أماكن أخرى حول العالم - يجمعهم شعور مؤلم بالحسرة والغصّة من العزلة والتأخر عن باقي العالم، وكأنهم ينظرون إلى الدنيا من الخارج.

لم يشهد التاريخ حركة اجتماعية، ولا مثلاً ثورية، أو مملكة دنيوية استطاعت أن تتخطى سرعة ومدى الانتشار المؤزر للإسلام منذ القرن السابع الميلادي في موطنه الأصلي في الصحراء العربية النائية - وخلال فترة زمنية تجاوزت المائة عام بقليل، امتدت رسالة النبي محمد غرباً متخطية حدود إفريقية، وجنوباً متخطية المركز الاستوائي للقارة السوداء، وشمالاً حتى سلسلة جبال البرنس. وفي الغرب، امتد النفوذ الإسلامي ليشمل المناطق الممتدة من مضيق البوسفور متخللاً قلب آسيا، إلى أن ارتمت أطرافه في النهاية متجاوزة أرخبيل الجزر الشرقية رابطة المحيطين الأطلسي والهادي بأرض إسلامية شاسعة.

وقد تعززت سلطة الإسلام في هذه الأماكن بالاحتلال العسكري الذي قاده العرب، والذي غالباً ما رافق انتشار الإسلام. والإسلام يفرض سلطة مطلقة، لا تقتصر على فرض نظام عقدي، بل طريقة حياة تتناول بالتنظيم كافة تفصيلاتها الدقيقة.

وبرغم اضمحلال الإمبراطورية العربية في العصور الوسطى وتلاشيها في نهاية المطاف، حتى في الأرض العربية ذاتها، إلا أن الإسلام بقي في كل مكان وصلت إليه موجة الإمبراطورية. وعلى مدى أكثر من ألف عام، شهدت أرض الإسلام انقسامات عدة وتجزأت البلاد إلى دويلات صغيرة، وأعيد ترتيبها، ثم تفتت على يد الغزاة الذين قدموا من كل اتجاه. ولكن، وبغض النظر عن هوية المحتلين سواء جلبوا معهم الخير أم الشر، فإن راية النبي لم تسقط سوى في أماكن قليلة من هذه المناطق. لقد بقيت أرض الإسلام مسلمة بغض النظر

عمن حكم وسير شؤونها المدنية، وبقيت كذلك حتى هوى العالم العربي في عهد طويل وخطير - كما تبين لاحقاً - من التراجع والتخلف.

إنه، ولهذا السبب، عندما يسافر المسلمون إلى الخارج - وبخاصة العرب منهم، فإن معظمهم ينجذبون إلى الألفة والسلوان الذي يقدمه الإسلام لهم في أي مكان يتوجهون إليه. وعندما هاجر محمد الأمير عطا حين كان في الرابعة والعشرين من العمر خارج مصر لأول مرة في حياته وخارج كنف أسرته، ووصل إلى هامبورغ قادماً من مصر في صيف عام 1992، كان أول شيء سأل عنه لدى وصوله هو عنوان أقرب مسجد في المدينة. ولد محمد الأمير عطا ونشأ في أسرة طموحة من الطبقة الوسطى في مصر، لم تكن تظهر عليها علامات التدين. ووصل إلى هامبورغ حاملاً شهادة البكالوريوس في الهندسة المعمارية من جامعة القاهرة المرموقة. وجاء إلى ألمانيا ليتابع دراساته العليا. وكحال أي شاب عربي في الخارج، انجر عطا إلى تبني نهج متحمس وماندفع من الإسلام. ووجد طريقه إلى مسجد القدس.

يوجد في الإسلام، كما يقولون، رب واحد، وهذا الرب كبير. إلا أن أي دين يتطلب من أتباعه أن يؤديوا الصلاة خمسة مرات في اليوم يمكنه أن يتوقع منهم ممارسة نوع من التعقل في اختيار المكان الذي يؤديون فيه هذه الصلاة والأشخاص الذين يؤديونها معهم. ويوجد في مدينة هامبورغ جالية مسلمة كبيرة تشكل حوالي 5% من مجموع سكان المدينة الذين يتجاوزون الأربعة ملايين نسمة. وتنتشر المساجد في كافة أرجاء المدينة. وهذه المساجد، كما هي حال الكنائس في الدين النصراني، مقسمة بحسب الإثنية وبحسب الحالة الاقتصادية والتفسيرات المذهبية. وأقدم وأكبر المساجد في هامبورغ أصلها فارسي وتتبع المذهب الشيعي. أما المساجد المتبقية، فغالبيتها مساجد صغيرة تنتشر في الأحياء السكنية، وهي في الغالب أكبر بقليل من المخازن التجارية، وبعضها يقع بالفعل داخل المحلات التجارية وهو الوضع السائد بالنسبة

لمساجد الجالية التركية. ومسجد القدس هو أحد المساجد العربية القليلة في المدينة. ويتبع رواد هذا المسجد نمطاً من الإسلام السني يمكن وصفه بالمتشدد، والأصولية غير المهادنة، وروح قتالية عالية.

والمكان بحد ذاته متواضع المساحة، وتتسع قاعة الصلاة الرئيسية لحوالي 150 مصلاً، جدرانها مطلية باللون الأبيض المائل إلى الصفرة، وتتخللها آيات قرآنية مخططة باللون الأخضر، ويغطي أرضيته سجاد رمادي اللون. ويطغى على المكان شعور عملي أكثر منه جمالي. ويوجد في المسجد مطبخ حيث يجلس الرجال على مقاعد حديدية قابلة للثني حول طاولات واهنة لتناول وجبات بسيطة من اللحم المشوي والخضار، وشرب الشاي والمرطبات الغازية. وإلى أن يحين وقت الدرس، يخيم على المكان جو من الألفة والمودة الاجتماعية كالتي تجدها في نوادي طلبة المدارس. إلا أن تلك البراءة سرعان ما تحترق وسط لهيب الكلمات والخطب المستعرة التي أصبحت السمة البارزة لهذا المكان.

تفتقد الأصولية الإسلامية - شأنها شأن الأصولية المسيحية - إلى هيكل تنظيمي حقيقي للسلطة فيها. وقد تجد بعض التدرج القليل في المراتب، ولكن لا توجد سلطة مطلقة لشخص معين. وينحصر توجيه تلك الحركة في النصوص الشرعية والتفسيرات والشروح التي كتبها مشاهير العلماء عبر التاريخ. إلا أن عالمنا المعاصر هو أكثر تعقيداً ويختلف اختلافاً عميقاً عن العالم الذي عاصره علماء الدين. وهناك أشياء لم يكن باستطاعتهم التنبؤ بها - الحمض النووي والهندسة الوراثية، الموسيقى، الديمقراطية الليبرالية - واللجوء إلى التفاسير والنصوص الدينية قد لا يسعف كثيراً. وفي ظل هذا الفراغ الهيكلي، يسير كل خطيب بحصانة كاملة، فهو وكيل حر طليق يفكر ويقول بحسب هواه. ويتنافس الخطباء فيما بينهم على جذب أكبر عدد ممكن من الأتباع حولهم، وتتذبذب شهرتهم بين الصعود والهبوط. وفي المحصلة النهائية لا يخضع هؤلاء لأي رقابة، وليسوا مسؤولين أمام أحد سوى مزاج

جمهور المستمعين. ويرجع الفضل في اتساع شهرة نوع محدد من الخطباء إلى انتشار أشرطة الفيديو والكاسيت لخطبهم. وفي العادة يغلب أن يكون أكثرهم تشدداً أووسعهم شهرة. ويتزايد الطلب عليهم، ويتقلون داخل الدوائر الإسلامية الأوروبية لإلقاء الدروس والخطب.

تأسس مسجد القدس على يد أبناء الجالية المغربية، وبعضهم ما زال يخطب فيه. وأبرز هؤلاء محمد فزيزي. وكان فزيزي مشهوراً في المغرب بارتباطه بمجموعة إرهابية محظورة. ويرى فزيزي ذو القامة الطويلة (6 أقدام و 3 بوصات) أن العلاقات الاقتصادية بين الغرب والعالم العربي تضاهي الاحتلال العسكري، ويدعو دائماً إلى قتل غير المسلمين ويحث أتباعه على الشهادة، و"أن يحبوا الموت كما يحب الكفار الحياة"⁽¹⁾.

ومع أن مسجد القدس كان متميزاً بهذه النزعة في هامبورغ، إلا أنه لا يختلف عن آلاف المساجد حول العالم من الرياض إلى يوغياكارتا^(*) ولندن - وخلال عقد التسعينيات من القرن الماضي، ظهر طراز جديد من الإسلام وتم الترويج له في هذه المساجد. وهي ظاهرة أشبه ما تكون بنار كانت تستعر تحت السطح على مدى عدة عقود، وتغذت بالثورة الإسلامية في إيران وبالحرور التي تلتها لاحقاً في أفغانستان والشيشان والبوسنة. هذا الإسلام الجديد يقوم على دعامتين متساويتين: تطبيق النصوص القرآنية؛ ومشاعر الاستياء من موقع الإسلام المتأخر في العالم المعاصر.

أصبح المسجد المتواضع الواقع على شارع ستيدمان مقصداً للشباب الأصوليين العرب في ألمانيا، واختار بعضهم الالتحاق بالجامعات القريبة منه. وهناك انقسام حتى بين المصلين المتشددين في ذلك المسجد. ففي يوم الجمعة وعندما تمتلئ قاعة الصلاة ويضيق المسجد بالمصلين، يتجمع الأكثر تشدداً من

(*) مدينة إندونيسية في جزيرة جاوه، يبلغ تعداد سكانها حوالي نصف مليون نسمة.

المصلين في غرفة خلف القاعة الرئيسية للصلاة على يمين مدخل المسجد. ومن وقت لآخر، كان محمد عطا يجلس معهم. وكانت تلك المجموعة صغيرة ومتقلبة وشريرة. فقد كانوا يهددون من لا يتفق معهم، ويضربون من لا ينصاع لأمرهم. الأمر الذي اضطر بعض المصلين إلى ترك المدينة خوفاً على سلامتهم؛ بينما انجذب آخرون إلى اللهب فزادهم تصلباً وقسوة. وأفرزت هذه المجموعة الصغيرة ثلاثة أشخاص هم: محمد الأمير عطا، ومروان الشحي، وزيايد جراح - الذين قادوا في الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، الهجوم المدمر ضد الولايات المتحدة، إضافة إلى رجلين آخرين كان من المفروض أن يشتركوا في العملية إن سنحت لهم الظروف.

جاء هؤلاء الأشخاص من دول مختلفة وخلفيات متنوعة، ومع ذلك كانت تجمعهم أشياء مشتركة ملفتة للنظر. قدم معظمهم من ضواحي المجتمعات التي نشؤوا فيها، والمدارس التي درسوا فيها. والتحقوا جميعاً باستثناء واحد منهم بالجامعات والمعاهد الألمانية، ويعد ذلك في نظر الكثيرين توافقاً مختلاً. قدموا إلى ألمانيا في أوقات مختلفة، ولكنهم تلاحموا بالأفكار التي ارتسمت على جدران مسجد القدس. تلك الغرف التي كانوا يلتقون فيها. وهناك، كانوا يستمعون إلى الخطباء من أمثال فريزي الذي قال في إحدى خطبه لجمهور المصلين بأن عليهم أن يكونوا مستعدين لقتل كل من يقف في طريقهم. إن الله أمر بذلك، وقال في خطبته "إن من يشارك في الحرب على الإسلام بأفكار أو إيعاءات أو أغنية أو برنامج تلفزيوني للنيل من الإسلام يعتبر كافراً محارباً ويجب قتله سواء كان رجلاً أم امرأة أم طفلاً"⁽²⁾.

وكان فريزي يولي اهتماماً زائداً بالشباب من رواد المسجد، ويعقد معهم اجتماعات منتظمة بعد الصلاة لكي يحثهم على السير في طريق⁽³⁾. وكان يركز في تلك الاجتماعات وفي خطبه على حقائق الحياة والموت: "إن الجهاد في سبيل الله هو أمر شاق على الكفار، لأن ديننا أمرنا بقطع أعناقهم وأن نقتل

ذريتهم، وهذا أمر شاق وشديد... إن الله الرحيم قد خلق النار للكفار كما خلق الجنة للمؤمنين"⁽⁴⁾.

وبعد هذه الخطب المحمومة، يستمر النقاش والحديث بين المصلين حول ما جاء فيها لعدة ساعات، وأيام، بل وسنوات. وتجري المقارنة بين ما جاء في خطبة هذا الشخص أو ذلك، لأن المسألة لم تكن متعلقة بشخص واحد يحاول التخريب على الآخرين. ليس فريزي، ولا أسامة بن لادن. كان هناك عدد كبير من الخطباء يقولون ذات الشيء ولكن بدرجات متفاوتة في السواد. وكان هناك شيء واحد اتفقوا عليه جميعاً وهو أن هذه حرب، وأنهم جاؤوا يبحثون عن جنود.



obeyikan.com

دکتاب الاوصیاء

جنود

obeen.com

obeyikan.com

■ الفصل الأول ■

بيت تعلم

الدلتا

يكتظ معظم سكان مصر البالغ تعدادهم 65 مليوناً في الأراضي الزراعية الممتدة على طول نهر النيل والتي تحاصرها الصحراء من كل جانب. وقد أخصبت فيضانات النيل على مدى السنين هذه السافانا. واستوطن الإنسان هذه المنطقة منذ آلاف السنين بما يتجاوز حدود الذاكرة البشرية. وينقسم النهر شمال القاهرة عاصمة مصر إلى فرعين رئيسيين هما: الرشيد ودمياط. وحولهما عدد لا يحصى من الجداول والترع التي تتشابك كنسيج العنكبوت متصلة ببعضها بعضاً بين القناتين الكبيرتين. وتمتد دلتا النيل مسافة 100 ميل من شاطئ البحر، ويغذي النهر بطريقة عجيبة هذه الدلتا الخصبة. وتضم ضفاف النيل هذه واحدة من أعظم وأقدم الحضارات التي شهدتها الكرة الأرضية في زمن لم يكن فيه الغرب القوي الآن حتماً يخطر على بال أحد. وهو عصر وصفه أحد المتخصصين بالعالم الإسلامي " كان فيه سكان شمال أوروبا ما زالوا يجلسون على الشجر"⁽¹⁾. ولا تزال خصوبة الدلتا، وكما كانت عبر الزمان، تشكل منبع الثروة والموهبة التي أنتجت الحضارة المصرية. فالرؤساء والشعراء والثوار كلهم تشكلوا في قرى الدلتا.

وتبقى الدلتا حتى يومنا الحاضر سلة الخبز المصرية. أسواقها وافرة، شوارعها مزدحمة ومكتظة بحافلات النقل والعربات التي تجرها الحمير. أما الجرارات فقليلة، وما زالت أعمال الزراعة تتم بالطريقة ذاتها التي استخدمت

منذ آلاف السنين، اليد البشرية والثور. وتكتظ الدلتا بالسكان. وترتدي النساء الخمار أو الطرحة، ويلبس الرجال رداءً قطنياً يسمى الجلابية، ويعلق بأسفلها الطين بفعل العمل الشاق في الحقل والأرض المبتلة. ولا تكاد تتوارى قرية عن الأنظار حتى تلوح لك معالم قرية أخرى. وتمتد الحقول الصغيرة وغير المتناسقة على طول السهول الواسعة بين البلدات والقرى. وتتصب لوحات الدعاية الكبيرة لآخر موديلات هواتف نوكيا الجواله فوق ترع الري التي تتجمع تحتها القمامة. وتغتسل النساء ويغسلن أواني المنزل على الضفاف المتسخة للنهر.

ولد محمد محمد الأمير عواد السيد عطا هنا عام 1968 في أقصى مقاطعات النيل الشمالية كفر الشيخ. وقدم أبوه محمد الأمير عواد السيد عطا من قرية صغيرة. أما أمه بثينة محمد مصطفى شريفى فهي من ضواحي عاصمة إقليم كفر الشيخ، واسمها أيضاً كفر الشيخ. وكما هي عادة الريف المصري والتي ما زالت دارجة حتى الآن، فإن زواج محمد وبثينة تم بتسويق بين أسرتهما. وفي وقت الزواج، كان محمد الأمير - كما كان يعرف في ذلك الوقت - محامياً معروفاً في البلدة، بعد أن حصل على شهادتين في الشريعة والقانون. وكانت بثينة في الرابعة عشرة من العمر، ولأنها كانت من أسرة غنية تعمل في الزراعة والتجارة، فقد كان هذا الزواج يمثل بالنسبة لمحمد الطموح فرصة سانحة. رزق الزوجان بابنتين هما عزة ومنى، ثم رزقا ابناً سمي على اسم أبيه، محمد. ولم يكن لمحمد الأمير كثير من الأقارب، كما أنه لم يحتفظ بعلاقة قريبة مع أسرة بثينة، وكان ذلك بحسب رغبة محمد كما تقول أسرة بثينة. وكان والد ووالدة بثينة ينظرون إلى صهرهم محمد على أنه رجل غريب، عبوس، متشدد، ومنعزل عن الناس. وكان عنيداً لا يسمح لأحد أن يخالفه الرأي.

لا توفر حياة الريف في الوطن العربي أي قدر من الخصوصية الشخصية. وتفرض طبيعة الجغرافيا والحياة المكتظة في مصر أن تكون الحياة جماعية ومشتركة. حيث يتكدس السكان فوق بعضهم بعضاً. ومقاومة

ثقل القرون التي مضت في تشكيل هذا النمط من الحياة يتطلب جهداً كبيراً. وكان محمد الأمير - المشهور بعناده - مستعداً لبذل ذلك الجهد.

"كان الأب وحيداً، لم يكن لديه أي أخوة، وربما كان له أخت ولكننا لم نكن نعرفها" هذا ما تقوله حمديّة فاتح، أخت بثينة، وتضيف: "هنا، الأسر جميعها متقاربة، ولكن رغم ذلك كان الأب منعزلاً"⁽²⁾.

وتعتبر أسرة فاتح من الأسر المشهورة في كفر الشيخ. فهي أسرة تملك أراض زراعية، ومتجرّاً لبيع قطع السيارات، وعمارة تجارية مكونة من ستة طوابق. وتسكن الأسرة في منزل متواضع يقع في شارع مبلط كثير الغبار. وللمنزل مدخل ودرج ضيق وجدران مطلية بالشيد الأبيض. وفي الداخل مفروش بسجاد عادي، وفيه أثاث مرصوص، ومسجل ستيريو من نوع باناسونك، وتلفاز حجم 19 بوصة من نوع توشيبا. والمنزل غير مكيف، إلا أن بوابة الشرفة تبقى مفتوحة لتصريف حرارة المساء.

وتغطي فاتح رأسها بالطرحة، وهذا تمشياً مع التقاليد والعادات أكثر منه تديناً عن عقيدة بحسب قولها. إذ لم تكن أسرتها ولا أسرة الأمير من الأسر المتدينة. فقد كانوا جزءاً من الجيل اللاديني الذي نشأ في عهد جمال عبدالناصر، عندما لم يكن مستقبل البلاد يسير باتجاه الماضي بالدرجة التي يسير عليها اليوم. لقد كانوا من الجيل الذي كان يؤمل منه أن يصنع مصر من جديد ويستعيد أمجادها الماضية. وتضيف فاتح إننا أناس متعلمون، صحيح أننا من الريف، ولكننا لسنا فلاحين. درست فاتح الهندسة الزراعية في الجامعة، ودرس زوجها الهندسة الأليكترونية.

وكان والد محمد عطا الأمير هو الآخر طموحاً ومركّزاً على نحو استثنائي. وحقق عمله في المحاماة نجاحاً في كفر الشيخ، ولكنه لم يقتنع بذلك، "فانتقل إلى القاهرة" كما تقول فاتح "سعيّاً وراء الشهرة".

القاهرة

تستيقظ القاهرة من سباتها ببطء في الصباح. وبيزغ الفجر فيها على شوارع خالية من الحركة. ولا تتحرك أولى طبقات الغبار إلا بعد ساعات من شروق الشمس. وليس مستغرباً أن تجد محلات لم تفتح أبوابها حتى وقت الظهيرة. ويرى سكان القاهرة في ذلك دليلاً على تعقيد حياة المدينة. ولكن الحقيقة أن المدينة لم تبتعد كثيراً عن حياة الريف. وتعد القاهرة اليوم تجمعاً قروياً أكثر من غيرها من المدن الكبيرة. وتتلاً بأرضها قرى في حلقة حول مركز المدينة؛ وهذه القرى مملوءة بتجار المجوهرات والأزياء وسيارات المرسيديس. وهي في اتصال مستمر بالعالم الخارجي بما يتجاوز الصحراء المحيطة. وفي هذا الجزء من القاهرة يتم عرض الأزياء في الحدائق الخضراء المشجرة للسفارات الأوروبية. وتقدم البارات المشبعة بالدخان مشروب الفودكا الروسية المبرد، ويمكنك تناول وجبة الغداء في النوادي الاجتماعية ذات المائة عام. المنازل فيها محمية بالبوابات الحديدية والحراس المسلحين بالبنادق والرشاشات الأوتوماتيكية. وهناك طبقة من المجتمع المحلي تعيش حصراً وسط هذه المعارض والمتاجر والنوادي والمقاهي. إلا أن معظم سكان القاهرة لا يعرفون أن مثل هذه الأماكن موجودة حولهم.

تعيش الغالبية العظمى من سكان القاهرة حياتها في تلك الظروف المجهولة، مقيدين إلى فقرهم، وماضيهم، وربهم الموجود في كل مكان - وكما في باقي أرجاء الأرض العربية - يعلن عن وجوده من خلال مكبرات الصوت الصغيرة خمس مرات في اليوم في نداء إلى المؤمنين وغير المؤمنين إلى الصلاة. وتتعالى صيحات النداء للصلاة من مكبرات الصوت الرخيصة لتتردد في أزقة المدينة القديمة وتصطدم بجدران مغطاة بسخام وأوساخ تراكمت على مدى ألف سنة. وهناك القليل من الحرس في هذه الأحياء الفقيرة والتجمعات السكنية المكتظة، وخصوصية الإنسان مكفولة فقط بالالتزام المفترض بين

الجيران بعدم النظر إلى ما تفعل أو تقول أو ربما تفكر، أو في أي حال، التظاهر بعدم رؤية شيء، لأن عدم ملاحظة ما يقع عليه نظرك في المدينة هو من المستحيل.

إن الفجوة بين هذين العالمين - بين القاهرة الحديثة اللادينية الطموحة، وبين الجزء الأكبر المتبقي من المدينة المتمثل بالأحياء الفقيرة المكتظة بالسكان من المدينة الكبيرة - تمتد لتشكّل شرخاً هو من العمق بمكان بحيث يصعب على الناس العاديين أن يشاهدوه فضلاً عن أن يتمكنوا من اجتيازه. وفي جزيرة تقع بين ثقافتين - الأولى قديمة ومنتشعبة بالأساطير والتقاليد، والأخرى مؤنقة وبراقة، تقبع الطبقة الوسطى الصغيرة والمكافحة. وفي هذه الجزيرة من مجتمع القاهرة استقرت عائلة محمد الأمير عندما قدمت من كفر الشيخ.

سكنت الأسرة في شارع الدمليشة في حي عابدين الذي كان من أرقى أحياء القاهرة قديماً ولكنه فقد أمجاده القديمة وتحول إلى حي شعبي بجانب المراكز المالية والحكومية في المدينة. وفي الوقت الذي وصلت فيه أسرة الأمير في السبعينيات، كانت ثروة المدينة قد بدأت بالتحول إلى المقاطعات الجديدة غربي نهر النيل في حي المهندسين والدكي، وجنوباً شرقي الضواحي الأحدث في المعادي وهولوبوليس. وتُركت الأحياء القديمة مثل عابدين تترنح في مواقعها. وتعود البنايات السكنية المشيدة من الحجارة إلى بقايا عهد الاستعمار الإنجليزي الذي انتهى عام 1952. مداخل هذه البنايات مبلطة بالرخام وأحجار الجير، وتتكوم في زواياها قشور البلاط الذي تكسر بمرور الزمن.

كان محمد في ربيع العاشر عندما استقرت الأسرة هنا. واستغل والده تراجع أسعار العقارات في المدينة فاستأجر شقتين كبيرتين تحتلان طابقاً كاملاً في البناية، مما وفر لكل واحد من الأولاد غرفة خاصة به. وهو أمر

نادراً ما يحدث في تلك المدينة المكتظة بالسكان. هذه الشقق السكنية القديمة معتمة من الداخل، وتبقى النوافذ مغطاة بالستائر لكي تحجب أشعة الشمس الحارقة. فيما بعد اشترى والد محمد بيتاً صغيراً شمال البلاد على ساحل البحر الأبيض المتوسط للراحة والاستجمام وقضاء الإجازات فيه، إلا أن الأسرة عاشت معظم وقتها في المدينة. كانت بثينة، أم الأولاد، تقوم بأعمال المنزل من طبخ وتنظيف بنفسها. ويملك الأب سيارة قديمة من نوع أوبل، ثم استبدلها فيما بعد بسيارة متواضعة أحدث من نوع فيات. ولما جاء أهل بثينة لزيارة ابنتهم في عابدين وجدوا أن الأب قد غرس في أبنائه الطموح. وتقول فاتح في هذا الخصوص "لقد احترم الأولاد رغبة أبيهم وإصراره على التعليم، فكان المنزل بيتاً للدراسة والتعلم، لا لعب، لا ترفيه، فقط الدراسة ولا شيء آخر".

لم يكن مسموحاً للأولاد باللعب خارج المنزل، وكانت غرفة محمد الصغير تقع في الجهة الخلفية للبنية وتشرف على سطوح البنايات المجاورة وأكوام الأسلاك والنوافذ. ويقول الجيران بأن محمد كان يستخدم نافذة غرفته للتحدث إلى أبناء الجيران، وكان ذلك بحكم وقت اللعب بالنسبة له. وفي مناسبات ضئيلة كان يسمح له بمشاهدة بعض برامج التلفاز، كما يقول ابن خالته عصام عمر رشاد. وكان محمد يغادر الغرفة في الأوقات التي يعرض فيها لقطات من الرقص الشرقي الذي يشتهر به التلفزيون المصري.

ويقول محمد كامل خميس، صاحب ورشة لتصليح السيارات في الطابق الأرضي للبنية القديمة التي سكن فيها محمد: "كان أصدقاء محمد يجلسون هناك في تلك الزاوية، يأكلون الفستق الحلبي ويلفظون القشور على الأرض، ولكن لم يكن محمد معهم، لم يكن يجالس أصدقاءه خارج المنزل. فالقيود المفروضة عليه كانت صارمة" ويضيف خميس، "لقد جاؤوا من القرية، ومعهم تقاليدهم، وكانوا يعيشون حياة أسرية مغلقة. كانوا على درجة عالية من الأدب والخلق، إلا أن اتصالهم بالآخرين كان محدوداً". وقال أحد الجيران: لقد قام

الأهل بتوقيت مدة المسير من المدرسة التي تبعد 100 متر عن البيت، وإذا تأخر الأولاد عن الدقائق المحددة التي يستغرقها السير من المدرسة، فإن حساباً عسيراً سينتظرهم. وقال جار آخر بأنه سمع الأب يصرخ على أبنائه ذات مرة ولم يكن أحد من الأبناء يرفع صوته على أبيه". وكانت بشينة تستخدم عربية تجرها بيدها عندما تذهب إلى السوق، وهو ما كان مثار تندر واستهجان الجيران الذين رأوا في ذلك تظاهراً منها بالأفضلية والفوقية على البقية. ولكن عائلة الأمير، بالطبع، لم تلق بالاً لما يقوله الجيران، فقد كانوا واثقين من أنفسهم، وتابعت الأسرة سيرها في وجهتها الخاصة. كان الأب رجلاً متيناً فظاً ومن النوع الذي يعطي محاضرة للإجابة عن سؤال بسيط. ولا يقدم الأب أي اعتذار عن عدم تواصله الاجتماعي بالآخرين، وكان يقول: "إننا أناس نجب العزلة، ولا نخالط الآخرين كثيراً، وكلنا ناجحون".

يعد عابدين من أكثر الأحياء السكنية ازدحاماً بالسكان في أكثر المدن المكتظة بالسكان على وجه الأرض. وتطفح الحياة فيه إلى الخارج. وتصبح الشوارع مكاناً للترفيه وممارسة الرياضة والعمل. وعندما يأتي الزوار، توضع الكراسي المطوية والمنضدة القصيرة في الخارج، حيث يقدم لهم الشاي. ولا تبعد ورشة محمد خميس لتصليح السيارات سوى ذراع واحد من طاولة الشاي. وهذا المحل هو بحجم خزانة الحائط. ويقوم خميس بأداء عمله في منتصف الشارع. وفي أسفل الشارع وبمحاذاة الرصيف، هناك دكان لتجليس ودهان السيارات ولا يوجد في داخلها أي شيء. ويقف رجل نحيل وقد غطى الدهان يديه حتى يظن الرائي أنه يلبس قفازات مطاطية سوداء، يجلس غطاء محرك مصدوم لسيارة روسية قديمة من نوع لادا. فيما تمر عربية يجرها حمار محملة بالتمر. ويدفع بائع البطاطس عربته. وبين الفترة التي سكب فيها الشاي وأضيف عليه السكر، مر شاحذ السكاكين. وترددت أصدااء النداءات

الصاخبة لبائع السكاكين، وبائع التمر، وبائع البطاطس، بين جدران أزقة الحي متزامنة مع صدى صوت مطرقة مجلس السيارات بين البنايات.

يصعب على المرء أن يبقى منعزلاً عن الناس هنا. وربما أصعب من الدلتا. وقد تساءلت عما إذا سبق لأسرة محمد أن سجلت استثناءً وحيداً على قيود العزلة هذه، كما لو تشاركت مع الجيران مثلاً، في وجبة الإفطار الجماعي في شهر رمضان - وهو الشهر الذي يصوم فيه المسلمون عن الطعام والشراب في النهار بينما يحتفلون ويتزاورون في المساء. رد خميس قائلاً: لا، لقد كان الأب متشدداً جداً ولم يسمح بأي استثناءات، لقد كانت الأسرة بحسب تعبير خميس "مجموعة من الحلقات المتماسكة مع بعضها، لم يزوروا أحداً ولم يزهرهم أحد". وتوقف خميس عن الكلام برهة من الزمن وهو يحرك يده لطرده الذبابة التي كانت تحوم حول فنجان السكر، ونظر إلى الشقة أعلاه قائلاً: "لا، لم يستطع الذباب أن يدخل ذلك البيت،... ولا حتى الذباب".

الجامعة

كان أبناء الأمير طلبة متميزين. التحقت البنات عزة ومنى بكليات العلوم في جامعة القاهرة إحدى أرقى المؤسسات التعليمية في الشرق الأوسط. ومن هناك واصلتا الارتقاء: فأصبحت عزة دكتورة في القلب، وأصبحت منى أستاذة في علم الحيوان. وجامعة القاهرة التي تقع في منطقة الجيزة بين المدينة والصحراء هي صرح تعليمي ضخم يستوعب أكثر من 155 ألف طالب، وفيها ما يربو على سبعة آلاف مدرس. ويمتد الحرم الجامعي على ضفتي النيل، إلى جانب جزيرة في الوسط. وقد يلجأ بعض الطلاب إلى التنقل بالسيارة بين الدرس والآخر لبعدها المسافة بينهما. وتقوم الجامعة بتحديد القبول فيها بناءً على امتحان شامل. ويستغرق إكمال الدراسة خمس سنوات؛ السنة الأولى تحضيرية، يتم توجيه الطلاب إلى الأقسام الرئيسية في التعليم. فإذا كنت

ترغب بدراسة الطب مثلاً إلا أنك لم تحصل على المعدل الكافي في السنة الأولى، فقد تجد نفسك - وبدون أي استشارة أو موافقة - قد سجلت في قسم الفنون الجميلة.

تتبع محمد الصغير خطى أخته في المدرسة والجامعة، مدفوعاً في ذلك بإنجازاتها وإصرار أبيه. وتقوم الجامعة في السنة الأولى بتوزيع الطلاب في الشعب الدراسية بحسب الترتيب الأبجدي للأسماء. يقول محمد مختار الرفاعي: "وجدته واقفاً هناك، أمام قائمة الأسماء ليتعرف على برنامجه الدراسي.. فتقدمت إليه وقلت له - مرحباً، أنا اسمي محمد -، وكذلك كان اسمه. ونظرنا معاً إلى قائمة الأسماء. وكان هناك ثلاث شعب لطلاب أسماءهم محمد. ويا للهول... فكنا نستخدم أسماء آبائنا لتمييز بعضنا عن بعض. فكان اسمي رافعي، وكان اسمه دائماً أمير".

أصبح الاثنان أصدقاء منذ تلك اللحظة، وتميزا في السنة الأولى عام 1985، وتم اختيارهما في كلية الهندسة التي هي أكثر أقسام الجامعة هيبة واعتباراً. ويصعب على المرء أن يؤكد على مدى الاحترام الذي يحظى به المهندسون في معظم مناطق الشرق الأوسط، حيث يستخدم الناس لقب "المهندس" كما يستخدم الغربيون لقب "دكتور"، ويصبح اللقب جزءاً من اسم الشخص. وكلية الهندسة ضخمة جداً تضم ما يقارب الألف مدرس. وهذا الحجم يعني منافسة حادة بين الطلاب على اهتمام الأساتذة. وقلما يولي الأساتذة اهتماماً بالطلبة فيما عدا ما يحظى به قليل من الطلبة المتميزين. ومن ضمن كلية الهندسة، يتم اختيار أفضل الطلبة لقسم الهندسة المعمارية، وتم اختيار كل من محمد الأمير ومحمد الرفاعي في هذا القسم، بصرف النظر عما إذا كانا يرغبان في ذلك أم لا. وبعد أن حاز شرف الدخول في كلية الهندسة المرموقة لأول مرة في حياته، إلا أن محمد الأمير لم يكن من المتميزين في ذلك الحقل، فالعمارة تفوق أي حقل إبداعي آخر بكونها خليطاً

يجمع بين الجانب التطبيقي العملي - أي نوع من الزجاج تستخدم لجلب الضوء وحجب الحرارة؟ - والجانب الفني - ما هي المفردات التي يتحدث بها المنزل؟. وكان الأمير يتجنب المواضيع التحليلية، إلا أن منهاج العمارة في ذلك الوقت كان موجهاً نحو التصميم والجوانب الإبداعية من التخصص.

ويستذكر الرافي تلك السنوات فيقول: "كان محمد ذكياً وبارعاً في الرياضيات والمنشآت المادية. وأقل مهارة في التصميم والجوانب الفنية" ويضيف، " وكان واحداً من الطلبة الأوائل في الثانوية، وحصل على معدل مرتفع في السنة التحضيرية. في وقتنا، كان التركيز على التصميم، ويمكن القول بأنه لم يستطع أن يتكيف مع ما هو مطلوب منه. وفي السنة الثالثة، عندما كنا ندرس التربة، تخطيط الشوارع، والحديد، وهي الأشياء الثابتة، كان يبدع... ويمكنك أن تقول عنه بأنه مهندس أكثر منه مصمم معماري".

وتذكر إحدى زميلاته في الدراسة أن محمد كان يغضب ويتذمر عندما لا تأتي الأمور بحسب هواه. وتقول: "كان طفلاً،... كان يشبه الطفل لدرجة كبيرة، وفي إحدى المناسبات، حدث شيء ما ولم يحصل على الدرجة التي كان يرغب في الحصول عليها، فبدت على وجهه علامات انكسار النفس، فقال له أحد الحضور، - إنك تتصرف كالطفل - فغضب محمد منه غضباً شديداً، الأمر الذي يؤكد ما وصفه به زميله. لقد كان حقاً طفلاً. مدلاً".

وبشكل عام، فإن محمداً - وبحسب ما يتذكره زملاؤه - كان شخصاً طبيعياً. ويقول وليد خيرى، أحد زملائه في الدراسة "كان محمد معنا، يشاركنا أوقاتنا السعيدة. ويستمتع بوقته معنا. كان يقول النكت، ويضحك، كان واحداً منا".

هذا الهدوء الواضح، الذي عاشه محمد الأمير خلال طفولته وفي الجامعة، كان على النقيض تماماً من الاضطراب والبلبلية التي عاشتها مصر في ذلك الوقت⁽³⁾. كان هو وزملاؤه طلبة أذكيا جادين ومتحمسين - كبقية

الشباب المعماريين المثاليين - حول مستقبلهم المهني، وحول فكرة بناء عالم جديد. وفي الوقت نفسه، كان هناك آلاف من الشباب المصري يفكرون بجد بتغيير العالم بأساليب أقل اعتباراً.

تعتبر القاهرة جنة المتأمر. والمدينة تزخر دائماً بنقص مزمن في فرص العمل وفيها عدد كبير من المقاهي حيث تجد الشباب العاطل عن العمل مع أجيال أخرى مثلهم، يضيعون نهارهم بشرب القهوة التركية الحلوة، والأرجيلة، والكلبوترا المفلترة، مالتين الشوارع المتسخة بالحديث وسديم رقيق من الدخان. ولكن ليس كل ذلك الحديث ثرثرة فارغة.

في أعقاب استقلالها عن بريطانيا عام 1952، شهدت مصر حقبة من التفاؤل والطموح. ولم يقف طموح جمال عبدالناصر، الضابط الشاب الذي استولى على الحكم في البلاد، يقف عند تحرير البلاد من ربة الاستعمار وحسب، بل أراد أن يحرر البلاد من حالة التردّي الاقتصادي والثقافي التي رزحت تحتها مصر وبقية العالم العربي على مدى قرون من الزمان. فبذل جهوداً حثيثة في سبيل تحديث البلاد وإنعاش الاقتصاد، وبادر بمهمة طويلة الأمد لانتشال ملايين الفلاحين من حالة الفقر. كما ساهم الزعيم المصري في تأسيس حركة عدم الانحياز، وهو تحالف بين دول العالم الثالث التي أعلنت استقلالها عن صراع الحرب الباردة بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي. وعمل على رفع مكانة مصر على المستوى العالمي. واستطاع مناورة كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي مقتنصاً كل فرصة لكسب أي مساعدة أو عطية يمكنه الحصول عليها من أي من الدولتين العظميين. وأعاد عبدالناصر تأسيس القاهرة كعاصمة ثقافية للعالم العربي. ورفع آمال التقدم السياسي في كافة الدول العربية عن طريق دعمه غير المحدود للقومية العربية. كل شيء بدا ممكناً في تلك الحقبة، وربما أشياء أخرى كثيرة.

وفي مايو/ أيار من عام 1967، تقدمت جيوش مصر، والأردن، وسوريا نحو إسرائيل. وأعلن جمال عبدالناصر وزعماء آخرون أن الوقت قد حان لإعلان الحرب من أجل القضاء على الدولة اليهودية. وجاءت الحرب، ولكن بنتائج مختلفة تماماً. وفي أقل من أسبوع، دحر الجيش الإسرائيلي القوات السورية وأخرجها من مرتفعات الجولان، وأخرج القوات الأردنية من الضفة الغربية، والمصريين من صحراء سيناء، وأخضعت هذه المناطق كلها للاحتلال العسكري. كانت تلك الهزيمة كارثة لا يمكن تعويضها بالنسبة للعرب. وأدى خطأ العرب في تقدير القوة العسكرية الإسرائيلية إلى ترنحهم في هزيمة نفسية، وفقدان للثقة لم يتمكنوا حتى الآن، وبعد مرور أربعة عقود، أن يتعافوا منها. كما قدمت تلك الخسارة ذخيرة حية لمعارضتي النظام، وتطورت الأزمة إلى حرب دائمة بين الأصوليين الإسلاميين الذين يسعون إلى تحويل البلاد إلى جمهوريات إسلامية تطبق قوانين الشريعة تطبيقاً صارماً، وبين دعاة الحداثة من اللادينيون.

إلا أن المشكلة في مصر كانت أكثر حدة من بقية أقطار العالم العربي، ويرجع السبب في ذلك إلى ميراث مصر التاريخي وعظمة ماضيها. لم تكن مصر كبقية دول الشرق الأوسط. فلم تأت مصر إلى الوجود كنتيجة اعتبارية لأهواء القوى المستعمرة. فتاريخها حقيقي، وهو تاريخ قديم وعظيم. إلا أن هذا المجد متأخر كثيراً، وقليل من الناس من يشك بذلك. وعندما يتساءل الناس عن سبب ذلك، فإنهم يجدون الجواب الأسهل غرب صحراء سيناء - إسرائيل، وبالتالي الولايات المتحدة راعيتها الرئيسية. وقد أدى هذا الاعتقاد السائد إلى تأجيل اندفاع موجة الإسلاميين. وقد عمل جمال عبدالناصر ومن خلال قوة الإرادة والفكر على جعل مصر في ذلك الوقت محور العالم العربي؛ وبسبب فشله العسكري أصبحت بحكم موقعها محور ردة فعل الأصوليين. ولم يسعف موت جمال عبدالناصر وارتقاء السادات إلى سدة الحكم في التخفيف من حدة هذا التوتر. وظهر السادات بمظهر الدمية المسخرة لخدمة المصالح

الغربية. وتحولت أعظم إنجازاته - اتفاقيات كامب ديفيد وما تبعها من معاهدة السلام مع إسرائيل عام 1978 - إلى بنود إدانة ضده من قبل الأصوليين. ورد السادات على ذلك بحملة قمع لا هوادة فيها، فسجن الآلاف، معلناً في الوقت نفسه عن دعمه للقضايا الإسلامية واعتماد الشريعة مصدراً من مصادر التشريع في مصر. وبعد ثلاث سنوات من نجاح السادات في كامب ديفيد، تم اغتياله على يد عناصر إسلامية من جيشه. وكانت المجموعة التي اغتالته على درجة كبيرة من الجرأة والمجاهرة، إذ لم تقم بالعملية سراً أو تحت ستار الليل، بل اختارت أكثر الأماكن المكشوفة أمام الملأ: أثناء استعراض عسكري جماهيري.

خلف حسني مبارك السادات، وواصل انتهاج السياسات المزدوجة تجاه الأصوليين: مغاللتهم أحياناً، والسجن أو أسوأ منه أحياناً أخرى. وتعرض مبارك نفسه لأكثر من ثلاثين محاولة اغتيال طويلة فترة حكمه. وإلى حد بعيد، كان كل من القمع والتطرف سبباً في وجود الآخر وتعزيزه لدرجة يصعب معها التمييز أي منهما وجد أولاً⁽⁴⁾. ومن بين النتائج الواضحة لهذا الصراع ظهور نظام سياسي ديمقراطي في الاسم، واستبدادي متسلط في الواقع العملي. وكان أكثر من نصف الأحزاب السياسية المعترف بها حالياً محظورة من ممارسة نشاطها السياسي في وقت أو آخر. وفرض حظر بات وقطعي على تدخل الجماعات الدينية في الشؤون السياسية. وتعرض أعضاء أقوى وأوسع الجماعات الإسلامية الناشطة - الإخوان المسلمون - للسجن بشكل روتيني بسبب مخالفتهم هذا الحظر. كما أدى انعدام وجود منافذ قانونية للمعارضة السياسية إلى تهميشها ودفنها نحو التطرف. وقد وسعت جماعة الإخوان المسلمين من نشاطاتها وجهودها بهدف تجنيد المزيد من الأعضاء الجدد داخل الجامعات المصرية أثناء الفترة التي كان محمد الأمير يدرس فيها. وينادي الإخوان المسلمون بالعودة إلى المبادئ الإسلامية الأساسية، بما في ذلك التطبيق الكامل للشريعة الإسلامية، ويحذرون من الفساد القادم من قوى

الحدثة. واستشهد هذا النقد بميل مصر نحو الانحلال المادي للولايات المتحدة. وتزامنت نشاطات الإخوان المسلمين في الجامعات مع تزايد التوجه الديني في مصر عموماً، وكان هذا التوجه جزءاً من الصحوة الإسلامية التي عمت العالم العربي في أعقاب الثورة الإيرانية.

بذلت أسرة محمد الأمير جهوداً مقصودة لتجنب هذا النقاش برمته. وحذر الأب، وهو مسلم ملتزم، أبناءه من الإسلام السياسي. وكان أبعد ما يكون عن مناوئة الغرب، بل بالعكس، كان يحث ابنه على دراسة اللغة الإنجليزية إلى جانب المناهج الدراسية المقررة. وهو ما فعله محمد في جامعة القاهرة. ومن الواضح أن الأب كان يدعم التوجهات اللادينية للحكومة. وكان ينأى بنفسه عن السياسة والمجاهرة بالمعتقدات الدينية، وسعى بدلاً من ذلك إلى تحقيق المركز الاجتماعي والاحترام بين الناس. وعلى العكس من نظرائهم الأمريكيان، قل أن تجد محامياً مصرياً ثرياً، ولا يمكن لأي أحد أن يثرى في مصر دون أن يكون له روابط مع زمرة حسني مبارك الحاكمة. وأمضى محمد الأمير (الأب) معظم حياته المهنية في العمل لدى الخطوط الجوية المصرية. واستطاع أن يكسب دخلاً معقولاً وإن لم يكن مذهلاً. وانضم إلى واحد من الأندية الاجتماعية الكثيرة في القاهرة، وكانت هذه النوادي منذ أيام الحكم البريطاني درياً مهماً نحو تحقيق المكانة الاجتماعية في القاهرة. واعتادت النخبة الحاكمة في مصر على تناول طعام الغداء في الشرفات الخضراء لنادي الجزيرة منذ عهد الاستعمار. والشيء الوحيد الذي تغير بعد الاستقلال، بحسب وصف أحد الدبلوماسيين، هو أن الضباط المصريين حلوا محل الجنرالات الإنجليز في خمارة النادي. وكانت عضوية محمد الأمير (الأب) في النادي الذي ينتمي إليه عضوية رمزية. فهو لم يتمكن من الصعود إلى حلقة النخبة في السلم المحلي الذي يحتله نادي الجزيرة، أقدم وأرقى النوادي الاجتماعية في مصر، إلا أنه استطاع الدخول في نادي الرماية، وهو واحد من أفضل نوادي الدرجة الثانية للطبقة الوسطى.

وكان محمد الأمير يحب أن يرى ابنه محمداً وقد حقق نجاحاً يضاهاه نجاح ابنتيه. وكان الأب يوصل محمد من وإلى الجامعة بسيارته. ولم يكن هذا الفعل مستهجناً على الإطلاق، فمعظم الشباب المصري يواصل العيش في كنف أسرته، ما لم ينتقل إلى مدينة أخرى للدراسة، ويسكن مع أبويه حتى يتزوج. ولا يزال كثير من الشباب في الثلاثينيات من العمر يتناولون طعام العشاء على مائدة أمهاتهم كل ليلة.

أنهى محمد دراسته الجامعية بمعدل متوسط وبمرتبة أقل من المرتبة التي حصلت عليها الأختان، وهو ما حرمه من متابعة تعليمه العالي في جامعة القاهرة. وقدم له أبوه سيارته التي كان يستخدمها وهي من نوع فيات موديل 1974 ككوب، هدية بمناسبة تخرجه، ولكنه شجع ابنه على متابعة دراسته. وكان الأب يقول لابنه دائماً إذا أردت أن تكون ناجحاً، فيجب عليك أن تحصل على لقب "دكتور" ليكون أمام اسمك، كما فعلت أختاك. وألح على محمد أن يبحث عن جامعة مناسبة في الخارج لهذا الهدف. وعمل محمد في وظيفة مؤقته في الإشراف على ورشة إنشاءات لمشروع بنايتين في القاهرة. ونزولاً عند رغبة أبيه، التحق بدورة لتعليم اللغة الألمانية في معهد غويث⁽⁵⁾.

يقول محمد الأمير: "إن ابني محمداً شخص حساس، ورقيق ومتعلق بأمه كثيراً. لقد تحايلت عليه لكي يذهب إلى ألمانيا لإكمال دراسته. ولولا ذلك لما فكر في مغادرة مصر". ويضيف الأب "لم يكن محمد يرغب بالسفر إلى الخارج. وبمحض المصادفة، كان لدى صديق لي ضيوف من ألمانيا، وهما مدرسان في مدرسة ثانوية في هامبورغ. فدعوتهما لتناول العشاء، وكان محمد نجم الجلسة لأنه كان يتحدث الألمانية بطلاقة".

وبعد أسبوعين، كان محمد الشاب في هامبورغ، يسأل عن كيفية الوصول إلى أقرب مسجد.

obeyikan.com

■ الفصل الثاني ■

وحيداً، في الغربية

هامبورغ

في صيف عام 1992، وصل محمد الأمير إلى بيت يقع شمال هامبورغ، يملكه مدرسان متقدمان في العمر تعرف عليهما أبوه أثناء وجودهما في القاهرة. وسكن محمد في غرفة زائدة في البيت الصغير مجاناً. وعمل الزوجان منذ مدة في برامج مبادلة الطلاب بين مصر وألمانيا. وكانا مبتهجين لمساعدة المعماري الشاب. وصل عطا ومعه حقيبة واحدة، ولكنه كان، من جوانب أخرى، يحمل معه أثقالاً أخرى [من الأفكار والمفاهيم والمعتقدات] أكثر من أي شخص آخر عرفته تلك الأسرة المضيئة⁽¹⁾.

كانت أسرة محمد الأمير بحسب المعايير المصرية، أسرة غير متدينة. إلا أن المعايير المصرية لم تؤخذ من ألمانيا، فحتى لو بقي الأمير محتفظاً بمعتقدات أسرته غير المتدينة والتزاماتها الدينية المتساهلة ونقلها معه إلى شمال أوروبا، فإنه يكون بالمقارنة أكثر تديناً من معظم أقرانه الألمان. ولكنه بدلاً من ذلك، وكما يحدث لكثير من الشباب عندما يسافرون إلى الخارج، ازدادت حدة معتقداته وممارساته الدينية. فكان يحافظ على أداء الصلوات الخمس في المسجد متى كان ذلك ممكناً. وبدأ بالالتزام بالأكل الحلال - لا يأكل الخنزير ولا يشرب الكحول. وتجنب محمد الملذات التي ينساق وراءها الطلاب في العادة. كان قليل الخلطة بالناس، لم يدخل قط النوادي ولم يحضر

المناسبات الرياضية، وكان لا يتساهل مع إظهار الأنتى لمفاتها الجنسية، وكانت حتى البلوزة بلا أكمام تثير عبوسه.

تعتبر هامبورغ مدينة غير مكبوتة جنسياً؛ فصناعة الجنس من مساح ونواد ليلية ودعارة ودور نشر المطبوعات الجنسية، هي صناعة رائجة. وبالنسبة لشخص مثل محمد الذي كان يخرج من الغرفة حين تظهر على شاشة التلفاز مشاهد الرقص الشرقي، فإن هذا الوجه الفظ والمنحل من هامبورغ شكل مقدمة نابية إلى العالم الغربي.

ويعكس هذا المظهر العام من الإباحية الموقف المحلي بأن هناك أشياء أكثر أهمية ينبغي أن تشغل البال. وترسخ هذا الاعتقاد بعد كفاح مريير شهدته المدينة. فقد كانت هامبورغ، وعلى مر الزمان، مدينة ذات شكيمة وتحمل لدرجة تبعث على الإعجاب. وتعرضت لموجات من الطاعون والكوليرا خلال العصور الوسطى. كما التهمت النيران كامل مركزها التجاري في الحريق العظيم الذي أصاب المدينة عام 1842، ثم أمطرتها طائرات الحلفاء بوابل عنيف من القنابل على مدار ثلاثة أيام كاد أن يضع المدينة في طي النسيان صيف عام 1943. وبعد كل كارثة من هذه الكوارث، كان يعاد بناؤها. وهي الآن أغنى مدينة ألمانية، ومركز النخبة الإعلامية في ألمانيا. والعلامة الوحيدة البارزة من ماضيها الصعب هو اللافتات التي توضع أمام بناياتها والتي يذكر فيها تواريخ هدمها وإعادة بنائها.

يعتبر نهر الألب بروافده المتشعبة والملاحة التجارية التي تمر عبره، السبب الأصلي لثراء المدينة بوصفها أكبر ميناء تجاري من بين تجمع المدن التجارية في العصور الوسطى والتي كانت تعرف بـ"الهانز". ويقطع نهر الألب مدينة هامبورغ الحديثة بخط مائل واصلاً إياها ببحر الشمال الذي يبعد عن المدينة 50 ميلاً شمالي غربها، ويوصلها من الجهة المقابلة بمدينة براغ مركز العمق

الأوروبي. ويبقى الميناء ذو الألف عام بسفنه التجارية الكبيرة، ورافعات الحاويات، وحقول التفريخ، جزءاً حيوياً ومهماً لازدهار المدينة. إلا أنه وكغيره من الموانئ العاملة، موجود فقط في العالم البديل بالنسبة للملايين الأربعة الذين يسكنون حاضرة المدينة. فهم لا يشاهدون الميناء إلا من خلال لحظات عارضة من نوافذ القطارات أو السيارات العابرة. وقلب المدينة بالنسبة لغالبية سكانها يقع شمال الميناء. حيث تربط شبكة من القنوات بين بحيرتين رئيسيتين للمدينة بالنهر. هذه القنوات تزخر بالمطاعم والفنادق والنوادي ومحلات بيع الكتب ودور الأزياء، وتعج بسكان هامبورغ ذوي القامات الطويلة والبشرة البيضاء والملابس الأنيقة. وكباقي سكان المدن الشمالية، يشتهر السكان المحليون بالتحفظ والانعزالية. فهم يسيرون بخطى حثيثة إلى حيث يقصدون ولا يتوقفون للحديث.

ويشكل هذا الميناء أيضاً نقطة اتصال المدينة بالعالم العربي ووسط آسيا. وما زالت حركة التجارة فيه ذات شأن. فقد كانت ألمانيا تتمتع بأفضل علاقة شريك تجاري أوروبي بالعالم العربي على مدى معظم القرن الماضي. والسبب الرئيسي في ذلك هو أن ألمانيا وحدها من بين هذه القوى لم تستعمر العالم العربي. وكانت الإمبراطوريتان الألمانية والعثمانية تتلامسان وتتنافسان فيما بينهما في الجناح الجنوبي لأوروبا، إلا أنهما وبمرور الوقت استقرتا على علاقة سلمية، فيما كانت فرنسا وبريطانيا تحاربانها من أجل إحكام السيطرة على الأراضي العثمانية. وألمانيا بوصفها عدو أعداء العالم العربي، أصبحت صديقة له. واستمرت العلاقة خلال الحرب العالمية الثانية، حيث كانت المشاعر العامة في العالم العربي تتعاطف وتؤيد النصر الألماني. وبرغم أن الحرب كانت تعتبر شأناً أوروبياً، إلا أن العرب وقفوا مع القوة التي لم تستعمرهم.

وبعد الحرب، ظهرت ألمانيا قوة اقتصادية. ومن بين الذين ساهموا في تعزيز هذه القوة ملايين من العمال الأجانب ومن بينهم، وللمرة الأولى في تاريخ ألمانيا، سكان مسلمون، يشكل الأتراك والأكراد غالبيتهم العظمى. وكان هناك أيضاً إيرانيون، وفلسطينيون، وفيما بعد وصل لاجئون من يوغوسلافيا وألبانيا. وأصبح الإسلام الدين الثالث في البلاد.

وبالإضافة إلى القوة الجاذبة الكبيرة للاقتصاد، وفرت ألمانيا للأجانب سهولة الاستفادة من نظامها التعليمي في الجامعات بتكاليف منخفضة. وأصبح التعليم المهني وتحديداً الهندسة طريقاً تقليدياً للتطور الاقتصادي في العالم العربي. وحرصت الجامعات الألمانية على استقطاب الطلبة الأجانب.

قدم محمد الأمير إلى ألمانيا عن طريق تأشيرة دخول سياحية، ولكن دخول الجامعة يتطلب تأشيرة دراسية ولم يكن يعلم أنه كان عليه الحصول عليها في القاهرة قبل مجيئه، ولا يمكن إصدار تلك التأشيرة في هامبورغ. وحدث أن كان الزوجان اللذان يسكن معهما محمد في زيارة إلى القاهرة للمساعدة في إجراءات قدوم مزيد من الطلاب المصريين إلى ألمانيا. وبينما هما هناك، قدما طلباً لفيزا دراسية لمحمد دون أن يخبراه بذلك كنوع من إسداء الخدمة والمعروف له. وعندما رجعا إلى هامبورغ وأخبراه بأنهما قد أنجزا له طلب تأشيرة الدراسة وأراحاه من عناء تلك المهمة، أبدى محمد مشاعر الضيق والانزعاج، وكان رده على ما قدماه من خدمة بالقول: "إنني رجل بالغ عاقل الآن؛ وأستطيع أن أتولى هذا الأمر بنفسى".

وتقول الأسرة المضيفة "لقد كان يردد مثل هذا الكلام كثيراً"، "إنني في الغربة الآن، ولست صغيراً، أستطيع أن أقرر بنفسى ما أريد".

وقد بدا من الحماسة رفض تلك المساعدة، "إلا أنه هكذا كان يتصرف"، هذا ما تقوله زوجة صاحب المنزل⁽²⁾.

كان الزوجان المضيفان يسافران إلى مصر كثيراً؛ ويقدران الفروق والاختلافات الثقافية لدى محمد. وكانت المرأة معجبة بجدّه وعزيمته، واصفة إياه بالحديدي. ومن حين لآخر، كان يجري بينهما نقاش في المسائل الدينية. وكانت الزوجة على اطلاع وفهم جيد بالعهد القديم (التوراة)، وحاولت أن تقنع محمداً أن جذور الإسلام والمسيحية متصلة ببعضها وأن هذه الديانات بواقع الحال تتوجه بالعبادة إلى رب واحد. وكان محمد يصغي إلى الحديث، ويرد قائلاً، نعم، إلا أن ما جاء به القرآن هو الصحيح، والأهم من ذلك كله، أنه هو الحقيقة الوحيدة. وتضيف المرأة بأنهما كانا يتجادلان إلى أن تغادر الغرفة مشمئزة من انغلاق عقله قبل نفاذ صبرها وتفجر غضبها.

وكان لمحمد بعض الأصدقاء. وبإمكانه أن يكون أنيساً ومؤدباً مع الناس. ولكنه لم يكن أبداً ودوداً. وشعرت مضيفته "بوجود جدار عازل بينه وبين الأسرة دائماً". وأضافت بأنها أصبحت تشعر بعدم الراحة في بيتها بسببه. فقد كان محمد يتضايق عندما كانت تأتي ابنتها الكبيرة غير المتزوجة لزيارتها وتحضر معها ابنتها الصغيرة. كان الأمر غريباً، كما تذكر صاحبة البيت، فقد كان محمد يلاعب البنت الصغيرة، ومن الواضح أنه كان يحب ذلك، "لقد كان حراً، وهي المرة الوحيدة التي رأيته فيها حراً طليقاً هكذا"، إلا أنه كان ينتقد الأم لعدم وجود زوج لها مما يفهم منه ضمناً الانفلات الخلقى الذي كانت نتيجته إنجاب تلك البنت. وكما كانت حاله في مصر. إذا ظهر على شاشة التلفاز برنامج يخدش الحياء، كان محمد يغادر الغرفة. وفي ربيع 1993، وباتفاق ثنائي، انتقل محمد من البيت الصغير.

هاربورغ

لدى وصوله إلى هامبورغ، كان محمد ينوي الالتحاق ببرنامج الدراسات العليا للهندسة المعمارية في جامعة هامبورغ للعلوم التطبيقية في فصل الخريف. إلا أن الجامعة رفضت طلبه لعدم وجود شاغر في البرنامج في ذلك الفصل. استشاط والد محمد من ذلك القرار، وادعى أن الجامعة بقرارها ذاك تمارس التمييز العنصري ضد ابنه لأنه كان عربياً. وهدد الأمير برفع دعوى ضد القرار. إلا أن الجامعة تراجع بسرعة عن قرارها، وتم قبول محمد في خريف 1992. ثم وبعد أسابيع فقط من التحاقه بالدراسة، ترك محمد البرنامج فجأة ليلتحق ببرنامج التطوير الحضري في جامعة مختلفة هي جامعة هامبورغ - هاربورغ التقنية (Technical University of Hamburg-Harburg) وتعرف اختصاراً (TUHH) وأخبر الأسرة التي تستضيفه بأنه تبين له بعد أن بدأ الدراسة أن برنامج العمارة لم يكن متطوراً إلى الدرجة التي كان يطمح إليها، فهو إعادة لما درسه في مرحلة البكالوريوس في القاهرة؛ ولذلك قرر الالتحاق ببرنامج التخطيط الحضري في جامعة هامبورغ - هاربورغ التقنية.

تقع الجامعة التقنية في الضواحي الصناعية من مدينة هامبورغ جنوبي نهر الألب. ويشكل نهر الألب ما يطلق عليه المخططون هنا "الحد الثقافي". وقد بنيت الجامعة التقنية جنوب ذلك الحد قبل عشرين سنة كإجراء للتطوير الاقتصادي للمنطقة الصناعية التي كانت تشهد تراجعاً اقتصادياً. وعندما التحق محمد بالجامعة، كانت ما تزال في ربيعها العاشر، وتضم خمسة آلاف طالب، ولم تكن معروفة على نطاق واسع في ذلك الوقت لكي يقصدها الطلاب الأجانب. وفي خريف 1992 كان فيها أقل من مائة طالب مصنفين على أنهم طلاب أجانب⁽³⁾. والواقع أن أكثر من نصفهم ليسوا بالأجانب إطلاقاً ولكنهم من أبناء الأسر التركية التي استقرت في ألمانيا لعدة سنوات، وأحياناً لعدة

أجيال، ولكنها لم تحصل على الجنسية الألمانية. وعليه فإن عدد الطلاب الأجانب على وجه الحقيقة كان حوالي الأربعين، وكان محمد الأمير واحداً من بين الطلبة العرب القلائل منهم.

كان برنامج التخطيط الذي يطمح محمد أن يحصل منه على درجة الماجستير مناسباً جداً له، وينسجم مع قدراته التحليلية و دقته في التفاصيل. ويقع هذا القسم في ثكنة قديمة للشرطة في بناية خشبية مستطيلة تركت كما هي بين الأبنية الزجاجية الحديثة للجامعة الجديدة. ومن حسن حظ محمد أن رئيس القسم ديتمار ماشول كان متخصصاً بالشرق الأوسط. وذكر ماشول بأنه استشعر أن محمد الأمير يشاركه مشاعره العميقة نحو المدن القديمة في الشرق الأوسط. ووصف الأمير بأنه "رقيق، وحساس، وله عينان داكنتان عميقتان، وتكاد عيناه أن تتحدثا إليك، يمكنك أن تشاهد خلالهما الذكاء، المعرفة واليقظة"⁽⁴⁾. ويصف أستاذ آخر هو هانز هارمز محمد الأمير بأنه "كان خجولاً جداً في البداية، ولكنه بدأ بالتفاعل، كنت أرى أنه يستمع باهتمام، وأن ما أقوله كان يؤثر فيه"، ويضيف قائلاً، "كان محمد متأثراً وقابلاً للتأثير"⁽⁵⁾. ويستذكر هارمز ومعه مارتن إيبرت وهو طالب درس مع الأمير في بعض مواد القسم، أن الأمير لم يكن يقفز على النقاش، بل كان يجلس ويستمع، وأحياناً لا يتفوه بكلمة واحدة، ثم يأتي لاحقاً بعد أسبوع بتعليق حول الموضوع. ويضيف إيبرت بأن الأمير لم يكن يختلف كثيراً خارج فصول الدراسة، كان حذراً بشأن ما يقول - يزن كلامه، ولم يكن سريع الانفعال. "لا أظن أنه يمكنك أن تدخل في شجار معه" على حد قول إيبرت⁽⁶⁾. ويقول هارمت كايزر، وهو أيضاً من زملاء محمد في الدراسة، كان من الصعب أن تجذب الأمير إلى نقاش سياسي داخل الدرس، حتى وإن كان للسياسة علاقة مباشرة بموضوع النقاش. "لم يكن شخصاً يتصرف وكأنه يريد أن يغير العالم، على خلاف كثير من الطلاب في المجموعة"⁽⁷⁾.

وعندما يبدي الطلاب تدمرهم - كما هي عادتهم في كل مكان حول العالم - من خصوصيات الدراسة، كان محمد الأمير يشارك في النقد فقط إذا كان يرى أن الأستاذ لم يحضر الموضوع بشكل جيد أو إذا لم يكن لديه إلمام ودراية بالموضوع الذي يدرسه. وبالنسبة للأساتذة المتمكنين من تخصصاتهم فكان يظهر لهم قدراً كبيراً من الاحترام يصل إلى درجة التبجيل والانبهار.

وعلى العكس من ذلك، كان محمد يظهر قليلاً من الاحترام لرفاقه في السكن الجامعي. وتكررت معه الصعوبات التي واجهها في المنزل الصغير الذي سكنه مع الأسرة الألمانية في هامبورغ عند بداية قدومه من مصر. انتقل محمد إلى مسكن تابع للجامعة يسمى سنترماشوز. وتضم كل شقة من هذه البناية السكنية غرفتين للنوم ومطبخ وحمام. سكن محمد في الطابق الثالث لسنترماشوز من عام 1993 وحتى عام 1998. وسكن معه في الشقة شخصان على التتابع. وفي النهاية، بلغت مضايقاته لهما حداً لم يطق أي منهما السكنى معه في الشقة. كان نادراً ما يغسل أطباق الأكل حتى عندما يستعيروها هو منهما لكي يضع فيها طعامه. كما أنه لم يكن ينظف الحمام، وعندما يطلب منه ذلك، كان ينظفه مرة واحدة ويتركه لعدة شهور بعدها. وكان يترك طعامه مكشوفاً داخل الثلاجة لعدة أسابيع مما يؤثر على طعم الأشياء الأخرى الموجودة في الثلاجة. وكان المطبخ المشترك صغيراً جداً تتوسطه طاولة خشبية تطل على الشارع. ويعتبر المكان مناسباً لشرب الشاي أو القهوة في الصباح. إلا أن محمداً كان يدخل الشقة ويخرج منها دون أن يعير اهتمامه لأي شخص موجود فيها.

تنامت مشاعر النفور من محمد لدى رفاقه في السكن أكثر من نفورهم من تصرفاته⁽⁸⁾، وكان هذان الشخصان يختلفان عن بعضهما اختلافاً جذرياً. فقد كان الأول نشيطاً رشيقي الحركة، ابناً لأبوين مهاجرين من آسيا. أما الآخر

فكان ألمانياً هادئاً. اختارته إدارة السكن عقب شكوى رفيقه الأول على أمل أن ينسجم ويتوافق مع محمد في الشقة⁽⁹⁾. إلا أن ذلك لم يكن مجدياً. فقد اشتكى كلاهما من طباعه الشخصية: عزلته الكاملة التي تصل إلى حد العدوانية. وعلى الرغم من كونه قليل البنية - كان طوله 5 أقدام و 7 بوصات - نحيل الجسم، كان حضوره ثقيلاً ومنذراً بالشر. فقد كان متلكناً نوعاً ما، جامداً، ومنطوياً على نفسه. وكانت تقاطيع وجهه المنحدرة وحواجه الداكنة القريبة من عينيه تعكس انطباعاً عابساً مثيراً للخوف.

حاول رفيق محمد الأول أن يلين من تلك الشدة قليلاً بدعوته إلى مناسبات اجتماعية مع زملائه. في البداية دعاه إلى مرافقة مجموعة من أصدقائه لمشاهدة عرض لفيلم كرتوني من إنتاج ديزني بعنوان كتاب الغابة. وأثناء وجوده في صالة العرض، غضب محمد من صخب الجمهور قبل بدء عرض الفيلم، وما اعتبره محمد صخباً ورعونة من الجمهور كان في نظر رفيقه نقاشاً طبيعياً، إلا أن محمد الأمير لزم مقعده وأخذ يردد عبارة "فوضى، فوضى" بطريقة تعكس امتعاضه من الموقف. ولم يتحدث بكلمة أخرى خلال عرض الفيلم أو أثناء العودة إلى المسكن. ولما دخلا الشقة، توجه محمد إلى غرفته فوراً وأغلق الباب وراءه بحدة.

وفي مناسبة أخرى، سأل محمد الأمير صديقه إن كان لديه بعض الكتب التي تصلح للقراءة الخفيفة بالألمانية. فتفاجأ رفيقه من هذا الطلب، وناولته كتاباً للهزليات بعنوان مونتي بايثون - قصص قصيرة كانت شائعة في ذلك الوقت بين طلبة الجامعات الألمانية. وتمنى صديقه أن يوفر هذا الكتاب بعض التسلية والترويح عن محمد، ولعله أن يكون مناسبة لفتح باب اهتمام مشترك بينهما. أخذ محمد الكتاب. وفي صباح اليوم التالي، وعندما ذهب رفيقه إلى المطبخ لتناول الشاي، وجد الكتاب موضوعاً على الكرسي الذي يجلس عليه في العادة

حول طاولة الفطور. ولم يكن هناك أي كلمة مكتوبة أو توضيح أو حتى شكر - ولا كلمة من أي نوع. ويقول رفيقه: "كان محمد يرفض أي نوع من المتعة".

كان محمد يحمل بطاقتي ائتمان، إلا أنه قلما استخدم أيًا منهما⁽¹⁰⁾. فهو لم ينفق سوى القليل من النقود على الطعام ووقتاً أقل في الأكل. وكان يتذمر من ضرورة الأكل أثناء تناوله الطعام. وفي العادة كان يأكل وحده. "لم نتشارك في الأكل مطلقاً. كنا نتشارك في الأطباق. وفي الغالب كان يستخدمها ويتركها متسخة وكنت أقوم أنا بغسلها". هذا ما يقوله رفيقه الأول في المسكن. "إنني أذكر أنني كنت جالساً حول الطاولة ذات يوم وكان محمد يقول متذمراً - هذا ممل، الأكل ممل - . ليس لأنه كان يرغب بطعام مختلف، بل كان يقصد فعل الأكل ذاته".

وفي بعض الأحيان، كان محمد يحضر وجبة مكونة من البطاطس المسلوقة بكاملها، ثم يقشرها ويهرسها ويجعلها في وعاء واحد. وكان يأكل من هذه البطاطس دون أن يسخنها، لمدة أسبوع أو أكثر تاركاً ملعقته في الوعاء بعد أن يزرجه في الثلاجة.

تحتوي كل غرفة نوم في الشقة على سرير وطاولة ورف. والنشيء الوحيد الذي أضافه محمد إلى الغرفة هو طاولة لجهاز عرض سينمائي (بروجكتر). فقد كان لديه كاميرا وكان يلتقط الصور للمشاريع الخاصة بدراسته. وتلك هي المحاولة الوحيدة التي عرفت عن محمد لعمل شيء مبتكر⁽¹¹⁾. وفي كثير من الأحيان، كان يستخدم الطاولة لوضع نسخته من القرآن عليها. وكان يؤدي الصلوات الخمس، ويصوم في رمضان، ويذهب إلى المسجد متى كان ذلك ممكناً. وفي المرات التي لا يستطيع فيها الذهاب إلى المسجد، كان يصلي في غرفته، وفي عمله، وحتى في زاوية من زوايا قاعة الدرس في الجامعة. وكان دائماً يلبس الثياب ذاتها: سروال قطني، وسترة صوفية، وتحديداً سترة بنية اللون حاكتها له أمه، ومعطفاً بنياً من الجلد في أيام الشتاء.

كانت غرفته مرتبة لدرجة ما، وذلك بسبب قلة مقتنياته. وكان قليلاً ما يلبس الحذاء داخل الشقة، فقد كان يغير ملابسه سرعان ما يدخل الغرفة ويلبس شبشب الأزرق. ويذكر رفيقه الثاني في السكن بأنه بعد مرور حوالي ثلاث سنوات على اشتراكهما في المسكن، لم يكن الاثنان يتبادلان الحديث. فقد كان محمد متشدداً للغاية لدرجة أن رفيقه في السكن قال لأصدقائه ذات يوم مازحاً بأنه يأمل ألا يكون محمد في الشقة يصنع قنبلة ليفجر بها نفسه.

ويقول: "في النهاية، كنت أحصي الأيام التي بقيت لمغادرة محمد الشقة نهائياً". وبحسب أنظمة الجامعة يسمح للطلاب الإقامة في السكن الجامعي في سنترماشوز لمدة تصل إلى أربع سنوات كحد أقصى، ولكن يمكن تمديدتها إلى خمسة إذا كان الطالب على وشك التخرج. وحصل محمد على التمديد، الأمر الذي نعّص على صديقة رفيقه في السكن التي كانت تزوره كثيراً في الشقة. وكانت أكثر تأدياً من محمد؛ فقد كان يجيب عن أسئلتها بنبرة جافة، وكان لا ينظر إليها وهو يكلمها.

وتقول: "لقد كان اليوم الذي يغيب فيه محمد عن الشقة يوماً سعيداً بالنسبة لي"⁽¹²⁾. وكانت الفتاة مستاءة جداً من سلوكه تجاهها لدرجة أنها فكرت بالانتقام منه. فأقنعت صديقها بأن يعلق لوحة عارية من رسم الفنان ديغاس في الحمام. وكان الحمام صغيراً؛ ولا يمكن لشخص أن يدخله دون أن يلاحظ اللوحة المرسومة. لم يصدر عن محمد أي ردة فعل على تلك الخطوة الاستفزازية التحرشية. وأخيراً، وبعد مرور ثلاثة أشهر، طلب محمد من رفيقه إزالة تلك اللوحة. ثم قامت الصديقة بتعليق لوحة تظهر فيها صورة شخصية ميس بيغي الكرتونية من برنامج مابيت وهي ترتدي قميصاً للنوم يظهر مفاتها. لم يعلق محمد على تلك الصورة بكلمة واحدة.

أبدى ديتمار ماشول، رئيس قسم التخطيط في الكلية، اهتماماً خاصاً بمحمد. وكان ماشول مستشرقاً ملتزماً، ويؤمن بأن دوره في الجامعة هو دور المدرس، ودور المشجع للتواصل الثقافي. وعندما اختار محمد موضوعاً لرسالة الماجستير - المحافظة على المدن الأثرية في الشرق الأوسط - أبدى ماشول ابتهاجه بهذا الاختيار.

ويقول ماشول: "عندما يأتي الطلبة المسلمون إلى عالمنا، يكون لديهم مشاكل في التعامل مع الثقافات الأخرى. فهم يحاولون إما الابتعاد أكثر فأكثر عن الثقافة الغربية، أو الأخذ من هذا وذاك. وبالنسبة لمحمد، كنت منبهراً منه بعض الشيء، وأجد لزاماً علي القول، لأنه شخص لم يتغير، وحاول أن يبقى كما كان، حاول أن يتعلم، ويبقى كما هو. وكنت أعتقد أن هذا الشاب لو عاد إلى وطنه الأم، فسيكون قادراً على التعامل مع شخص أصولي، ويمكنه أن يعمل مع الأشخاص المتدينين لأنهم سيصدقونه"⁽¹³⁾.

كان ماشول، وعلى مدى عدة سنوات، يقوم بمشروع بحث شمال سوريا، حيث كان ينقب في آثار مدينة أثرية قرب حلب. وفي عام 1994 قام بدعوة محمد لزيارة الموقع واختيار حلب كموقع عملي لأهداف رسالته. وكان محمد قد أعد نفسه لرحلة استكشافية في الصيف مع مجموعة من الطلبة في اسطنبول.

ويقول ماشول: "قلت له، - محمد، حاول أن تأتي إلى سوريا؛ هناك رحلات مباشرة بالحافلة من تركيا إلى حلب - فاستجاب لطلبي وحضر إلى حلب في شهر أغسطس/ آب، ووصل في الصباح الباكر بعد أن أمضى ثلاثة أيام في الرحلة"، وأضاف، بأن محمداً كان منهكاً ورتباً جراء السفر لدرجة أنني لم أملك سوى أن أشعر بالأسى على الرجل.

أمضى محمد بضعة أيام مع ماشول في موقع التنقيب، ثم توجه إلى حلب، وهي من أقدم المدن الأثرية التي ما زالت مأهولة بالسكان في العالم. وفي

العالم النامي، وفي أماكن مثل حلب، لم يكن التصادم بين القديم والجديد نظرياً. بل إنك تراه كل يوم بمجرد أن تنظر إلى الأحياء المبنية من حجارة الطين، مكتظة، مبعثرة لم يطرأ عليها تغيير منذ عهد النبي. ويمكنك أن تتتبع الطرق التي سلكها تيمورلنك وهو متوجه لسلب المدينة في القرن الرابع عشر، على طول خطوط ملتوية عبر التلال والهضاب، فتفقد نفسك كلياً في رحلة في العالم القديم، ثم ما تلبث أن تظهر أمامك فجأة بنايات سكنية من الإسمنت تبدو وكأنها قد وصلت للتو من موسكو أو من المريخ، أو أمام مركز صغير للتسوق ذي ثلاثة أدوار قدم لتوه من سانت خوزيه(*).

زار محمد الأمير حياً يسمى ميدان المدينة. وهذا الحي عانى هو الآخر من التحسينات الحديثة. فقد قامت الحكومة في السبعينيات بشق طرق جديدة واسعة، وعملت على تسهيل الوصول إلى المدينة القديمة والتنقل فيها. وقامت ورشات الأشغال العامة بشق جزء من الطريق خلال قلب المدينة وهدم ما يلزم هدمه لشق الطريق بغض النظر عن قيمته التاريخية. وتوجوا إنجاز ذلك المشروع بتشييد مبنى صغير جانب الطريق لبيع التحف التذكارية للسياح.

يقول رازان عبدالوهاب، المهندس السوري الذي عمل في مشروع المدينة: "كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي أثار حفيظة محمد وأثر فيه. لقد كان غاضباً جداً جراء هدم معالم التراث القديم"⁽¹⁴⁾.

وعندما عاد محمد الأمير إلى هامبورغ، أبلغ ماشول بأنه سيجعل من حلب محور بحثه في رسالة الماجستير. وقام محمد برفقة زميل آخر له اسمه فولكر هوث بزيارة ثانية إلى سوريا نهاية العام لأهداف البحث. كان محمد منتعشاً بعمله بحسب قول هوث. وفي رحلة جانبية إلى دمشق العاصمة السورية، ذهب

(*) مدينة في ولاية كاليفورنيا الأمريكية تقع جنوب خليج سان فرانسيسكو.

هوث برفقة محمد لزيارة أحد المساجد القديمة. وكان هوث بروتستانتياً متديناً، وغالباً ما كان الاثنان يتحدثان حول الدين، إلا أن هوث لم يسبق له أن شاهد محمداً في أوضاع تعبدية. وأثناء وجودهما في المسجد، تفاجأ هوث عندما شاهد محمداً وهو يؤم المصلين، مبدئاً ثقة بنفسه ولباقة في سلوكه. كان ذلك المشهد شيئاً جديداً بالنسبة لهوث الذي كان عهده بمحمد في هامبورغ بأنه الشخص العبوس والانطوائي. أما هنا فهو شخص مختلف تماماً - كان طليقاً، أكثر حديثاً، نشيطاً، وفي بعض الأوقات مرحاً. وبدا وكأنه كان في سجن وتحرر منه، "كالسمة التي أعيدت إلى الماء"، بحسب وصف هوث (15). حتى إنه بادر بمغازلة فتاة تعرف عليها في حلب، وهي بدورها بادلته المداعبة واصفة إياه بفرعون (16). وفيما بعد أخبر محمد والده عن جاذبيته نحو تلك الفتاة، إلا أنه قال بأنه لا يمكنه مواصلة التفكير بها لأنها كانت جريئة جداً، وهذه ليست من الصفات الإسلامية في المرأة (17).

كانت الأمور تسير في صالح الأمير. فبعد أن أرغمه والده على الذهاب إلى ألمانيا لمتابعة دراسته، في بيئة غريبة عنه، وجد نفسه في نظام مؤسس الأركان استمتع به، ووجد عملاً انخرط فيه بمتعة وتحد؛ فازدهرت حياته، ونال قدراً كبيراً من القبول والتشجيع من أساتذته لم يجد مثيلاً له عندما كان يدرس في القاهرة. فهو لم يسبق له أن تحدث عن طموحاته وعن مستقبله المهني. أما الآن فهو يتحدث عن المستقبل الذي وجده، وعن رغبته في العودة إلى مصر كما يعود "العربي إلى بلاد العرب" (18) لكي يساعد في بناء أحياء سكنية يعيش فيها الناس حياة فضلى.

القاهرة القديمة

في صيف 1995، حصل محمد الأمير وهوث على هبة من جمعية كارل دويزيبرغ، وهي مركز دراسات يهتم بإعادة التطوير والمحافظة على

التراث. ومكنت هذه المنحة كلاً من محمد وهوث وطالب ثالث هو رالف بودنستاين من الذهاب إلى القاهرة لدراسة وتحليل الخطط التي وضعتها الحكومة المصرية لتطوير قسم قديم من المدينة يطلق عليه المدينة الإسلامية. وهو قسم يزخر بالمعالم والآثار القديمة والمتاجر الحديثة، والعمارة من القرون الوسطى. ولا يوجد في القاهرة مكان يبرز عظمة التاريخ المصري ومكانته مثل هذا القسم الذي يحويه سور مرتفع مبني من الحجارة الكبيرة يمتد من البوابة الشمالية إلى بوابة النصر، وتتخلله المساجد والكنائس وحتى معبد يهودي. وتتراكم طبقات التاريخ على جوانب الشوارع الملتوية والأزقة المضاءة جزئياً والتي تمتد على طولها صناديق العدس والمعكرون والفلفل الطازج والليمون بحجم البلوط، والزيتون الأسود بحجم كرات التنس.

ارتعب المعمارليون الثلاثة مما شاهدوه. فقد كانت خطط الحكومة "لترميم" المنطقة تقضي بترحيل كثير من سكانها الأصليين، وإجلاء باعة البصل والثوم، وإصلاح البنايات القديمة، وجلب فرق مسرحية لتمثيل أدوار الناس الذين رحلتهم. يقع الجزء القديم غرب مدينة الأموات الآخذة بالتوسع، وهي المقبرة الرئيسية للقاهرة، ويرقد فيها موتى المدينة عبر القرون، ويعيش فيها كذلك آلاف من السكان حول الأقبية والأضرحة. وكان مهندسو المشروع يعملون على ترحيل سكان المقبرة الأحياء منهم والأموات. وقامت الجرافات بشق ممرات على طول طرف مدينة الأموات بعمق متر من السطح مزيلة معها الأقبية والرفات الموجود تحتها. وكانت تلك هي فكرتهم عن "ترميم" المقبرة ذات الألف عام.

ناقش المعمارليون الثلاثة العيوب الكبيرة في المشروع، وحاولوا نقل قلقهم إلى المسؤولين والقائمين على المشروع. ويصف بودنستاين ما حدث: "دار نقاش مهم بيننا وبين البلدية. إلا أنهم لم يتفهموا وجهة نظرنا. هم يريدون إكمال عملهم، وإقامة مناطق سياحية يلبس فيها الناس الأزياء الشعبية. وكانوا

يعتقدون أن تلك فكرة ممتازة، ولا يتخيلون وجود سبب لاعتراضنا عليها⁽¹⁹⁾. وكانت تلك المناسبة أول احتكاك مهني متواصل لمحمد الأمير مع البيروقراطية المصرية، وكانت مصدر إزعاج كبير له، بحسب وصف بودينستين. "كان محمد حاداً جداً في انتقاده لإدارة التخطيط، وبخاصة المحسوبة. وكان يحاول الحصول على بعض المعلومات حول حصوله على وظيفة بعد إنهاء دراسته، وواجه صعوبة في العثور على أي شيء. فهو لم يكن داخل الشبكة، حيث تنتقل الوظائف من الجيل السابق إلى الجيل اللاحق، والحلفاء السياسيين. كان محمد مثالياً جداً، إنسانياً؛ ولديه مثل اجتماعية يريد تحقيقها".

لم تكن شكوى الأمير من صعوبة تأمين وظيفة محترمة خاصة به. فالنظام الطموح والمجاني للتعليم العالي في مصر يرفد من الخريجين كل عام أكثر بكثير مما يمكن للاقتصاد المصري أن يستوعبه. وتخرج جامعة القاهرة التي درس فيها أكثر من 1000 مهندس كل عام. وكانت المحصلة النهائية هي كلما ازداد تحصيلك العملي، قلت فرص حصولك على وظيفة مناسبة. وفي إحدى الأعوام تبين أن فرص البطالة في صفوف الشباب المصري من حملة الشهادة الجامعية أكبر بمعدل 32 ضعفاً مما هي عليه بين الفلاحين الأميين⁽²⁰⁾.

ويقول بودينستين بأن انتقاد الأمير للحكومة توسع وازداد مع المضي قدماً بتنفيذ المشروع. وما أقلق محمد هو أن مشروع التطوير سيعمل على تحويل المدينة القديمة إلى ديزني لاند إسلامية. وهذا التأثير الغربي ناتج عن تملق حسني مبارك وسعيه الشديد إلى كسب ود الولايات المتحدة. وشعر بودينستين أن ما أهم محمد كان أكثر من مجرد مشروع التطوير: "كان هناك أشياء كثيرة ربما ساهمت مجتمعة عبر السنين وتسببت في مشاعر المرارة لديه. ولا أعتقد أن هذه الأسباب كانت دينية. لقد ساهم الدين في تقديم المفردات، وليس القضية. فالقضية كانت سياسية".

استمرت دراسة المشروع خمسة أسابيع. وبعد إتمامها، عاد هوث وبودينستين إلى هامبورغ، وبقي محمد في القاهرة ليقضي بعض الوقت مع عائلته التي انتقلت من عابدين غرب النهر إلى الجيزة. ذهب محمد لزيارة الحي القديم الذي كان يسكنه. وطلب من جاره القديم الميكانيكي خميس فحص سيارة الفيات القديمة التي كانت معه. وقال خميس بأنهما تحدثا عن الأيام السالفة بينما كان يتفقد السيارة. وفي أثناء الحديث نودي لصلاة العصر، فاستأذن محمد للذهاب لأداء الصلاة. وكانت تلك المرة الأولى التي شاهد فيها خميس أحداً من أسرة الأمير يذهب إلى المسجد.

أصبح الدين محور اهتمام رئيسي في حياة محمد. وبتشجيع من والده، وروابطه بشركة الطيران المصرية، ودعمه المالي، ذهب محمد إلى الحج في ذلك العام إلى مكة في المملكة العربية السعودية. ويعتبر الحج تجربة مهمة ومؤثرة في حياة المسلم. ويتحتم على كل مؤمن قادر أن يقوم بهذه الرحلة مرة واحدة على الأقل في حياته. ومن باب الضرورة، عملت الحكومة السعودية على تحديد أعداد تصاريح الحج التي تصدرها كل عام خوفاً من اكتساح الحجاج للأماكن المقدسة. وليس من السهل الحصول على هذه التصاريح لشدة الطلب، وكان من الحظوة أن يتمكن شخص شاب من الذهاب إلى الحج في عمر محمد الذي كان وقتها 27 عاماً.

عندما عاد محمد في شتاء ذلك العام إلى هاربورغ، لاحظ هوث أن محمداً أصبح أكثر هدوءاً، وأكثر انطواءً، وأكثر اندفاعاً في ممارساته الدينية⁽²¹⁾. ولاحظ جون صادق، وهو زميل دراسة وعمل مع محمد بدوام جزئي، ذات الشيء على محمد⁽²²⁾. وذكر محمد لهوث بأنه يريد في النهاية أن يعود إلى مصر ليعمل كمخطط إلا أنه محبط من الوضع السياسي الذي يعتبر الأصولية الإسلامية خطراً على الحكومة. ويقول هوث: "كان محمد يخشى أن يُجرّم بسبب معتقداته الدينية".

لم يكن لمحمد كثير من المعارف الألمان، ولا واحداً ممن يمكن اعتباره صديقاً مقرباً. ومن أسباب ذلك عزلته وانطوائيته. ومن الأسباب الأخرى ضيق مجال اهتماماته. فقد كان وإلى حد بعيد شخصاً حازماً، منضبطاً، سلبياً. لم يملك أي كتاب، لا يحب الأكل، ولا يستمع إلى الموسيقى. والفيلم الوحيد الذي شاهده محمد كان الفيلم الذي جره إليه رفيقه الأول في السكن في هامبورغ والذي بالطبع لم يعجب محمد. وليس بإمكانك أن تستأنس برفقته إلا إذا كنت تريد أن تتحدث عن الإسلام، أو القاهرة، أو تخطيط المدن، وهي ليست من المواضيع التي من شأنها أن تولد مشاعر الصداقة لدى فئات الألمان الذين يطلق عليهم جيل الغولف (نسبة إلى سيارة الفولكس واغن وليس رياضة الغولف) وهو الجيل المعروف عنه بأنه الأكثر مادية في التاريخ الألماني. وكانت ثقافة الطلاب الألمان التي عاش فيها محمد مشبعة بالبيرة، وتهتم بمنافسات كرة القدم أكثر من اهتمامها بالدين أو السياسة.

في سنواته الأولى في هامبورغ، حصل محمد على وظيفة بدوام جزئي لدى مكتب تخطيط مدني يسمى بلانكونتر. ويقول جوغ لوين⁽²³⁾ أحد الشركاء في المكتب، كان محمد موظفاً ممتازاً. وتصفه هيلغا ريك وهي شريك آخر في المكتب، بأنه كان يراعي أدق التفاصيل دون أن يعي الصورة الأكبر⁽²⁴⁾. ويقول لوين: "أعتقد أنه جسد فكرة الرسم، وكأنني به يقول: أنا الرسام، أنا أرسم".

كان محمد يذهب لمعينة موقع المشروع ليكون فكرة أفضل عما سيرسمه، وهو أمر يتعدى ما هو مطلوب منه، أو ما يفعله الآخرون. يقع مكتب بلانكونتر في أرقى أحياء هامبورغ، وتحيط به مطاعم مشهورة، ومسرح فني. لم تكن بيئة العمل في المكتب رسمية جداً، بل كان له طابع خاص بمسايرة التيار الدارج، كبقية الشركات الصغيرة من هذا النوع. ويفتخر المكتب بالمحافظة على علاقة متساوية بين الموظفين ورؤسائهم، وبيئة عمل مريحة وودية. وكان أبعد

ما يكون عن احتقار محمد لأنه كان عربياً، بل على العكس، كان موظفو المكتب فخوريين بشموليتهم، ويستغريون من رفض محمد لها. وعلى الرغم من الاحترام والمحبة التي أوليت له في العمل، إلا أنه لم يندمج في أسرة بلانكونتر. وفي كل مرة توجه إليه الدعوة للمشاركة في رحلات الأعياد، كان محمد يرفض المشاركة في أي منها. وكان يرفض دعوات المشاركة في تناول الغداء التي يوجهها إليه زملاؤه في العمل. لم يكن نابياً في تعامله، بل كان يرفض كل ما يوجه إليه من دعوات التواصل الاجتماعي مع زملائه. كان يعمل ولا يبرح طاولة الرسم، وعندما يحين وقت الصلاة كان يصلي جوارها. كان محمد ملائماً إلى حد بعيد كطالب في الدراسات العليا - يحترم السلطة كثيراً. كان يعمل ما يطلب منه، بحسب وصف لويين، وينجز عمله بنفسه على نحو غير عادي. وعلى الرغم من أنه معماري متمرن وعلى وشك أن يصبح مخططاً مدنياً، إلا أنه وخلال طيلة عمله في المكتب التي دامت أربعة أعوام، لم يبد رأيه ولو مرة واحدة بالمخططات التي يطلب منه رسمها. كان يكلف برسم الخرائط؛ فكان يرسم الخرائط.



obeyikan.com

■ الفصل الثالث ■

أصدقاء

هامبورغ

مع حلول عام 1996، أنهى محمد الأمير معظم متطلبات شهادة الماجستير في الهندسة المعمارية، ولم يتبق أمامه سوى كتابة الرسالة⁽¹⁾. إلا أنه بعد أن عاد من رحلة الحج، بدا وكأنه فقد اهتمامه بالعمل الأكاديمي. وبدأ بالتعمق أكثر بالدين حتى أصبح شخصية معروفة في المساجد المحلية. أطلق لحيته - وهي علامة على التدين والتفسير الأصولي للإسلام. وفي النهاية طور حلقة من المعارف من مسجد القدس، أكثر المساجد تطرفاً في هامبورغ، وغيره من مساجد المدينة. وبدأت علاقاته بزملائه الألمان بالتقلص والفتور شيئاً فشيئاً. فمثلاً لم يشاهده زميله الألماني في الدراسة فولكر هوث طوال العامين التاليين. وكان أصدقاء الأمير الجدد يتصلون به في السكن الجامعي في سنترماشوز. وكان يدعوهم أحياناً لتناول العشاء عنده ويصنع لهم الحساء⁽²⁾. وفيما عدا فتح باب الشقة لهم عند مقدمهم، لم يحدث أي تعامل بين أصدقاء محمد ورفاقه في السكن. ولم يقيم حتى بالتعريف بينهم.

وعلى الرغم من أنهم كانوا جميعاً من الرجال المسلمين، إلا أنهم كانوا من أصول مختلفة. وكانوا يضمون أشخاصاً من شمال إفريقية، ومن عرب الخليج، ومن المسلمين الألمان، ومنهم سوريون، وحتى إندونيسيون. وكان معظم هؤلاء الأصدقاء من الطلاب، وبعضهم من كبار السن، بمن فيهم أشخاص هاجروا إلى ألمانيا منذ عدة قرون وكانت وظيفتهم تعريف القادمين الجدد من الشباب

بالمجتمع الألماني، ومساعدتهم في العثور على وظائف ومعاهد، وفي بعض الأحيان على "قضايا" ليتبنوها. وكان محمد الأمير من القادمين الجدد غير العاديين؛ فقد كان يتحدث اللغة العربية بإتقان واللغتين الألمانية والإنجليزية بشكل لا بأس به، بينما كان كثير من الشبان لا يجيدون التحدث بهذه اللغات بطلاقة⁽³⁾. وبسبب ذلك، أصبح الأمير حلقة الوصل. فكان يساعدهم في الحصول على الإعانات التي تقدمها الحكومة الألمانية والتي تتطلب المرور عبر إجراءات بيروقراطية معقدة، وهي مساعدات قد تكون سخية إذا كنت لا تمنع قواعدها الكثيرة والمعقدة. وكان الأمير أكبر سناً من بقية أقرانه الطلبة، فكان أيضاً، بحكم الجسر الذي يربط بين الأجيال المختلفة.

كان عدد كبير من الأشخاص الأكبر سناً في المجموعة جزءاً من الجيل الذي قدم إلى ألمانيا في السبعينيات والثمانينيات. ومن بينهم على وجه التحديد، عدد من الذين فروا من سوريا بعد أن أعلن الرئيس السوري السابق حافظ الأسد (والد الرئيس السوري الحالي بشار الأسد) حرباً شاملة على الأصوليين الإسلاميين عام 1982. وكان عدد كبير من السوريين أعضاء في جماعة الإخوان المسلمين، وهي الجماعة ذات الجذور الثورية والتي تأسست في مصر في العشرينيات من القرن الماضي، وتفرع عنها معظم الجماعات الإسلامية المتطرفة في الوقت الحاضر. والإسلام السياسي لم يتم اختراعه فجأة من قبل الإخوان. فمنذ عهد النبي محمد وما بعده، تزاوجت السياسية والدين وتلاحما لدرجة يصعب فيها الفصل بينهما. إلا أن النشاط السياسي بين المؤمنين كان ساكناً منذ قرون. وكان الحوار المدني في العالم العربي في معظمه حواراً من جانب واحد: من الأعلى إلى الأسفل. وجاءت جماعة الإخوان لتتحدي احتكار السلطة للنقاش السياسي، ودفع كثير من أعضاء الجماعة ثمن هذا التحدي بأرواحهم. بينما هرب آخرون.

وعلى مدى ثلاثين عاماً، كانت هناك مجموعة صغيرة، إلا أنها قوية العزيمة، من الناشطين السياسيين في ألمانيا. وأشارت إحدى الدراسات إلى وجود 58.800 عضو ينتمون إلى "منظمات متطرفة أجنبية" في ألمانيا⁽⁴⁾. وغالبية هذه المنظمات هي من المنظمات الإسلامية المتطرفة ومعظمها تركية أو كردية. ومن بينهم 2800 شخص من العرب تنتمي غالبيتهم إلى منظمات فلسطينية مختلفة⁽⁵⁾. وشكل المهاجرون من الإخوان المسلمين الذين نزحوا إلى أوروبا من الشرق الأوسط في الثمانينيات الجيل الأول من الوطنيين العرب والإسلاميين في أوروبا والذين يؤمنون بالقضايا الأكبر التي تهم الأمة. وشكلت الحرب المقدسة على الاتحاد السوفييتي التي دارت رحاها في أفغانستان حافزاً قوياً لهم، كما حافظوا على شبكة متراخية حول القارة الأوروبية. وقد تبين فيما بعد لبعض المحققين أن شبكات الناشطين هذه كانت جزءاً من مؤامرة كبرى لأنه يبدو أن هؤلاء الأشخاص كانوا يعرفون بعضهم بعضاً. وبالفعل كان كل واحد منهم يعرف الآخر جيداً. إلا أن هذه الظاهرة خاصة بطبيعة الجالية أكثر من كونها جزءاً من مؤامرة. ومع ذلك يستحيل أحياناً التفريق بين الاثنين.

تميل المجموعات الإثنية المختلفة إلى التجمع حول نفسها في الدول التي تهاجر إليها، تماماً كما حصل للمهاجرين غير السياسيين، ولذات الأسباب المتعلقة بالتاريخ الاستعماري والثقافي: فكان غالبية الإسلاميين في فرنسا من الجزائر؛ وشكل التونسيون جزءاً كبيراً من الإسلاميين في إيطاليا؛ وكانت لندن على الدوام مأوى للمتطرفين من دول الخليج ومصر، وأصبحت بريطانيا العاصمة الروحية والفكرية للأصوليين الإسلاميين في أوروبا؛ وكانت كل من إسبانيا وألمانيا موطناً لنخبة من السوريين، إلا أن الغالبية العظمى من الناشطين في هاتين الدولتين كانوا من المغاربة. أما بلجيكا وهولندا، فكانت

تضم جزائريين ومغاربة. وكان أعضاء هذه المجموعات الإثنية في كل دولة يعرفون أقرانهم في الدول الأخرى. وكانوا يتبادلون المواد التعليمية والجهادية الخاصة بتجنيد المتطوعين. وكان الخطباء والوعاظ يتنقلون بسهولة في طول القارة الأوروبية وعرضها. وقامت بعض هذه الجماعات بوضع آليات فعالة لجمع التبرعات، كما قامت الجماعات الموجودة على ساحل البحر الأبيض ببناء مراكز للراحة والاستجمام للأشخاص الذين اشتركوا في القتال في القضايا الإسلامية في أفغانستان والشيستان والبلقان.

وخضعت بعض هذه الجماعات لعمليات مراقبة مكثفة وطويلة الأمد من قبل الأجهزة الأمنية. وحافظت إسبانيا وفرنسا وإيطاليا، هذه الدول بالتحديد، على مراقبة لصيقة بالجماعات التي كانت تعتبر في نظرها متطرفة. وخضع بعض الأصوليين في إيطاليا وإسبانيا إلى رقابة الشرطة لأكثر من ستة أعوام. وفي معظم الأماكن، تركزت نشاطات الإسلاميين حول المساجد، كما كانت حالهم في هامبورغ.

بدأ محمد الأمير بإلقاء الدروس الدينية غير الرسمية للشباب المسلم في مسجد القدس وفي مسجد تركي آخر قرب الجامعة في هاربورغ. وكانت هذه الدروس تخلط بين التعليمات الدينية والمناقشات السياسية. وكانت محنة الفلسطينيين من القضايا التي تثار دائماً. وعلى عادته، كان محمد الأمير حازماً جداً مع تلاميذه⁽⁶⁾. فقد كان يوبخهم على ارتداء أطواق الذهب حول أعناقهم وربط جديدة شعرهم على شكل ذنبة الفرس، وعلى استماعهم للموسيقى من خلال مشغلات الأقراص المضغوطة النقال (ووكمان). وقال الأمير بأن الموسيقى هي من إنتاج الشيطان⁽⁷⁾. وعندما قدمت بعض الفتيات لحضور الدرس، أرسل الأمير أحد الأشخاص ليخبر آباءهن بأنه غير مرحب بهن في دروسه، وأن عليهن أن يلزمن بيوتهن ولا يحضرن ثانية إلى الدرس⁽⁸⁾.

وقرر معظم الطلاب أن الأمير ليس المدرس الذي يرغبون في الاستماع له، فانسحبوا من دروسه بسرعة. وكان عدد الذين حضروا درسه في البداية حوالي 80 طالباً، وفي الوقت الذي غادر فيه محمد هامبورغ كان العدد لا يتجاوز عدد أصابع اليد⁽⁹⁾.

وحتى في خارج أوقات دروسه، كان محمد الأمير يفكر بالإسلام طوال وقته، بحسب ما يذكر أحمد مكلات، وهو طالب في جامعة هامبورغ - هاربورغ التقنية، ومن الذين انضموا إلى دروس الأمير⁽¹⁰⁾. وكان الأمير يعرج على السكن الجامعي الذي يقيم فيه مكلات ومنير المتصدق، وهذا الأخير طالب مغربي في كلية الهندسة، تعرف عليه الأمير في المسجد وسكن في هاربورغ وكان يمشي معهما من وإلى الصلاة. وكان يتحدث عن معنى الصلاة في الذهاب والعودة، ويبين لمكلات الوجه الأصح لأداء الصلاة.

قال لي محمد ذات يوم: "لا تحاول الاختصار في صلاتك"، وأضاف، "صل آخر ثلاث صلوات من الأربع المتبقية لبقية اليوم في أوقاتها ولا تجمعها مرة واحدة. وأد الصلاة المفروضة والسنن، وتقرب إلى الله بالنوافل". وغير ذلك من كلام الوعظ الذي لا ينتهي. وبدأ مكلات بمغادرة المسجد مبكراً حتى لا يتعرض لانتقادات الأمير في طريقه إلى البيت. وبدأ يطلق على الأمير لقب آية الله.

يتطلب عمل الدعوة الكثير من الوقت. وكان الأمير يلقي دروسه مساء كل جمعة وأحد. ويشارك في حلقات نقاش يعقدها شخص آخر أيام السبت. وكان يساعد أيضاً في إدارة مجموعة أخرى كانت تجتمع كل ثلاثاء وخميس⁽¹¹⁾. ويتأسسها شخص ألماني اعتنق الإسلام. وكان لا يحب التشدد الذي يبيده الأمير ويتحين الفرصة لتحبيده كلما جاء متأخراً، فقد كان يأتي عن طريق القطار قاطعاً عرض المدينة⁽¹²⁾.

وهناك شخص آخر كان يعطي دروساً متفرقة وأصبح فيما بعد من الأصدقاء المقربين من محمد. واسم هذا الشخص رمزي بن الشيبه، مع أن الجميع كانوا يعرفونه باسم عمر. ولأن اسمه الحقيقي، بحسب رأيه، لم يكن يحمل أي معنى ديني، فقد قرر تبني اسم الخليفة الثاني للنبي محمد. ولم يكن معظم أصدقاء ومعارف عمر في هامبورغ يعرفون أن له اسماً آخر. وهناك سبب آخر لاستخدام عمر هذا الاسم. فقد كان الاسم الذي استخدمه عندما جاء إلى ألمانيا، مدعياً أمام سلطات الهجرة أنه طالب جامعي سوداني هارب من الاضطهاد. وقام بتلفيق قصة بارعة حول كيفية هروبه على متن سفينة سودانية، وكيف أنه كان ينام على أرضية السفينة في حجرة القيادة طيلة الرحلة البحرية. وفي الشهر التالي مثل أمام سلطات الهجرة في هامبورغ وسلمهم الرسالة التالية:

سيدي العزيز، أتقدم إليكم بهذا الطلب راجياً منحي حق اللجوء السياسي.

المخلص

رمزي عمر (13)

وعلى إثر ذلك، قامت سلطات الهجرة الألمانية التي تواجه سيلاً عارماً من طلبات اللجوء يفوق طاقتها الاستيعابية، بإعطائه تذكرة سفر عن طريق القطار إلى لوبك شمال هامبورغ وأرشدته إلى كيفية تقديم طلبه هناك. أخبر عمر السلطات في لوبك بأنه عندما كان طالب اقتصاد في سنته الجامعية الأولى في الخرطوم، شارك في مظاهرات ضد الحكومة وتم اعتقاله، وأن الحكومة السودانية قامت فيما بعد باقتحام منزله وسرقت وثائق سفره وإثباتات شخصيته، وأضاف "لا يوجد حرية في السودان، ولا حقوق إنسان، ولا احترام لبني الإنسان" (14) بحسب قوله.

قبلت السلطات الألمانية طلبه ووضعتة على قائمة الانتظار للمثول أمام المحكمة. وخصصت له مسكناً ضمن سلسلة من المخيمات الخاصة لإقامة اللاجئين أنشئت خصيصاً لطالبي اللجوء السياسي.

وما فعله عمر كان عملاً احتيالياً لم يكن هو الوحيد الذي يمارسه. فخلال فترة التسعينيات، تلقت ألمانيا ما معدله مائة ألف طلب لجوء سياسي سنوياً، وكانت نسبة الذين استطاعوا إثبات أنهم فروا من أي شيء وأنهم أهل للجوء السياسي أقل من 10%. وكل ما كان يسعى إليه طالبو اللجوء السياسي هو الحصول على الامتيازات السخية للمعونة الاجتماعية التي تقدمها الحكومة هناك والتي تخولهم الحصول على الرعاية الصحية المجانية والمساعدة المالية للحصول على الطعام والمسكن طيلة بقائهم على قيد الحياة. كما أن الحصول على اللجوء السياسي يمنحهم وضعاً سياسياً يمكنهم من خلاله الذهاب أينما شاؤوا في أوروبا. واللجوء السياسي متى ما تم الحصول عليه يعني ببساطة تذكرة لحياة جديدة.

والواقع أن عمر قدم إلى ألمانيا قبل شهر من التاريخ الذي ادعى أمام السلطات الألمانية أنه قدم فيه، أي في أغسطس/ آب من عام 1995م بعد أن غادر الإمارات عبر القاهرة⁽¹⁵⁾. فلم يكن في يوم من الأيام سودانياً أبداً، كما لم يكن له أي نشاط سياسي ولم يدخل أي جامعة في أي مكان لأنه لم يكن لديه القدرة المالية على ذلك. فقد عمل مراسلاً في إحدى مصارف صنعاء العاصمة اليمنية، حيث كان يقطن مع والدته واثنتين من إخوته. وكان والده قد توفي قبل ذلك بعشرة أعوام. وكانت وفاة والده بالإضافة إلى الفقر الذي كانت تعاني منه أسرته سبباً في تعقيد حلم الحياة الذي كان عمر يطمح إلى تحقيقه: وهو الذهاب إلى الولايات المتحدة ودراسة الحاسوب⁽¹⁶⁾. ولكنه قدم إلى ألمانيا بدلاً من ذلك.

صنعاء

تقع اليمن في الزاوية الجنوبية الغربية لشبه الجزيرة العربية. وتشكل نقطة انتهاء الصحراء التي يمتد طولها ألف ميل عند قاعدة سلسلة قديمة من الجبال البركانية التي تفصل بين الرمال في الشمال والبحار غير المتناهية في الجنوب. ويقع في الأودية والهضاب الواقعة بين هذه السلاسل الجبلية أقدم الحضارات على وجه الأرض. ويتميز البلد الذي بقي على أنقاض تلك الحضارة بجمال الطبيعة، والتخلف، والفقر المدقع، والإباء والأنفة، والتاريخ القديم قدم التوراة؛ ويقال بأن ملكة سبأ حكمت معظم أجزائه قبل مجيء المسيح بعشرة قرون؛ ويقال أيضاً بأن نوحاً صنع سفينته قرب ميناء على الساحل الجنوبي هناك. وسواء أغمر طوفان نوح تلك المنطقة أم لا، إلا أن البلاد ومنذ ذلك الوقت لقيت من الكوارث والمصائب أكثر من نصيبها. وكان آخرها، وربما أعظمها، الحرب الأهلية التي اشتعلت في الستينيات من القرن الماضي واستمرت بشكل أو بآخر ثلاثين عاماً. وكانت في حقيقتها حرباً بالإنابة بين الإمبراطوريتين السوفييتية والأمريكية. وتركت المكان وراءها غارقاً في الأسلحة، والكراهية، وعدم الاستقرار. ويعيش في اليمن 18 مليون نسمة من السكان. ويوجد فيها 60 مليون قطعة سلاح، وحكومة مركزية ما زالت تواجه المعاناة والفسل في إحكام سيطرتها على البلاد. وكما قال أحدهم: "لقد انتهت الحرب، ولكن الأسلحة ما زالت موجودة"⁽¹⁷⁾.

والشرخ الرئيس الذي يقسم البلاد هو بين الشمال، حيث تقع العاصمة، والجنوب الذي يقع فيه ميناء عدن العاصمة السابقة لجمهورية اليمن الشعبية الديمقراطية لأكثر من خمسين عاماً. وتوحد الشمال والجنوب أخيراً ولو اسمياً على الأقل، عام 1990. إلا أن معظم البلاد بقي يتشكل من تجمع لمناطق نفوذ قبلية ومناطق أخرى خارجة على القانون والتي ترفض الخضوع لأي سلطة سوى سلطتها هي. وينسجم هذا الوضع مع تاريخ المكان. وعلى الرغم

من وجود حس وطني واضح، إلا أن البلاد لم تكن موحدة في يوم من الأيام. وأصبحت هذه الفرقة، وبأكثر من طريقة، السمة البارزة التي تحدد اليمن.

ولد رمزي بن الشيبة في المحافظة اليمنية الوسطى، حضرموت، عام 1972م. وتشتهر حضرموت بمدنها ذات البنايات المرتفعة المشيدة من الطين في الأودية الداخلية البعيدة التي كانت في يوم من الأيام مركزاً لتجارة البخور العالمية. وقد جعل البخور الذي يستعمل في الاحتفالات والمراسيم الدينية من اليمن دولة غنية، إلا أن هذه التجارة تلاشت واندثرت في القرن التاسع عشر. ومنذ ذلك الوقت لم تشهد البلاد خيراً يذكر.

عاشت أسرة رمزي جنوب الجبال في الأراضي الزراعية التي تشكل سهول الساحل الجنوبي. وكان والده محمد تاجراً رحل بأسرته إلى صنعاء عندما كان رمزي في أول صباه. وتعد صنعاء مدينة حديثة مقارنة بباقي مناطق اليمن، وترتبط بالعالم الخارجي برحلات طيران منتظمة وفيها عدد من الفنادق وبعض المراكز التجارية المزدحمة وسط المدينة. وتمتلى الشوارع بالموديلات القديمة من سيارات بيجو ونيسان المرقعة بالبلاستيك اللاصق. ويتنقل الناس الذين لا يقدرّون على شراء السيارة، وهم الغالبية، بسيارات الأجرة والحافلات الصغيرة المفتوحة من الخلف التي قد يتكدس بداخلها دزينة من الركاب.

وتقع المدينة على هضبة بركانية ترتفع سبعة آلاف قدم عن مستوى سطح البحر، وتمتاز بلطف الحرارة وكثرة الأمطار أكثر من أي مكان آخر في شبه الجزيرة العربية. ويرتدي الرجال تنورة طويلة مغلقة [الوزرة] ومعطف بدلة على النمط الغربي، وعادة ما تكون ماركة الصنع مخططة على كم الشمال أعلى الرسغ بقليل. وأحياناً يرتدون على أكتافهم وشاحاً مزركشاً بالمربعات الحمراء والبيضاء. ويرتدي معظم الرجال خنجراً معقوفاً يبلغ طوله 10 إلى 12 بوصة. ويمشي الرجال والشباب في الشوارع وأيديهم موضوعة على يد الخنجر

وكأنهم في وضع الاستعداد لسلّ الخنجر في أي لحظة. ويوضع بيت الخنجر عادة وسط الحزام وليس على جنبه. وتبرز يد الخنجر إلى أعلى وخارج الحزام تماماً كمقبض السرج. أما النساء، وفي المناسبات النادرة التي يخرجن فيها إلى الأماكن العامة، فيرتدين الأسود من الرأس وحتى أخمص القدم على الطريقة السعودية، بالرغم من أنك أحياناً يمكن أن تلمح السراويل الزرقاء أسفل الكعب.

واليمن هو الدولة الوحيدة في شبه الجزيرة العربية التي لا تحتوي على مخزون يذكر من النفط. ويشهد اقتصاد البلاد حالة ركود منذ سنوات عدة. وهناك القليل من فرص العمل المتوفرة. وتتجمع مجموعات صغيرة من الرجال في المساء وخلال فترة الغروب، على عتبات المنازل وفي زوايا الشوارع، أو على رصيف الشارع، لمضغ القات. والقات هو نبتة مخدرة تزرع في المناطق الداخلية من اليمن. ويبدأ الرجل بمضغ القات عند الظهيرة، وبعضهم يقضي بقية يومه في المضغ وهم جلوس حول أطباق الحمص.

أدى اقتصاد القات إلى قلب توزيع الثروة بين المدينة والريف في البلاد، مثرياً قرى الريف التي تزرع القات ومفقراً المدن التي تستهلكه، والتي يفترض فيها أن تكون أكثر تقدماً وغنى في الأوضاع الطبيعية. ويعد القات مادة منبهة، والأثر المباشر لتناوله هو فقدان النوم (الأرق). والذين يتناولونه في المساء لا يمكنهم النوم طوال الليل مما يضطرهم إلى النوم في الصباح في أثناء ساعات العمل.

وأفضل أنواع الأعمال في المدينة هي الأعمال الصغيرة لبيع التجزئة. وتنتشر جيوش الباعة المتجولين في زوايا الشوارع عارضين كل شيء من المناديل إلى ثريات الزجاج. ويدفع الصبية عربات مليئة بالكرم وأوراق التبغ. وتبيع المحال الصغيرة الموز، والمانجو، والساعات المستعملة والهواتف الخلوية، والبهارات، وبالطبع الخناجر. ويقضي الرجال الساعات تلو الساعات في معاينة هذه الخناجر لمعرفة الفرق بين أنواعها المعروضة. وهي فروق لا يمكن

لأي أحد سوى اليماني أن يعرفها ويقدرها. وتمضي النساء ساعات مشابهة في معاينة أنواع غير متناهية من الملابس السوداء.

سكنت أسرة الشيبة في منزل صغير في منطقة الحسبة شرقي مركز المدينة. وهو حي تسكنه الطبقة العاملة، وتملؤه البيوت الطينية الرمادية والمشيدة عمودياً والتي تتميز بها البلاد. وترتفع هذه البيوت إلى طابقين أو ثلاثة أو أربعة طوابق. وتثقب فجوات في واجهة البناية على نمط عشوائي كنوافذ لهذه البيوت مما يجعل البناية تبدو من مسافة بعيدة وكأنها قد تعرضت لوابل من قذائف المدفعية. ويوجد في الحي مسجد ومئذنة أسطوانية مبنية من الطين، وأزقة ملتوية لا نهاية لها.

عندما توفي الأب نتيجة المرض عام 1987، تولى الابن الأكبر أحمد مهمة رعاية الأسرة. وكان رمزي ولداً شقيماً، ومتورطاً دائماً بمشكلة أو بأخرى، إلا أنه كان يفلت منها دون عقاب لأنه كان دائماً منفتحاً وسعيداً. "أحبته أمه كثيراً، وكان الابن المدلل عندها"، ويقول أحمد: "كنا نسأل أمنا دائماً، لماذا تحبين رمزي أكثر منا؟ فكانت لا تجيب وتكتفي بالابتسام بدلاً من ذلك. وكان رمزي يحضر لها الهدايا - الملابس الشتوية، المجوهرات، الدواء لأسنانها، لقد كان ابناً باراً"⁽¹⁸⁾.

وعندما كبر رمزي، كان العم المفضل لدى أبناء إخوته. "لقد كان دائماً الشخص الذي يلعب مع الأطفال، وكانوا يحبونه" كما يقول أحمد.

لم تكن الأسرة متدينة باستثناء رمزي، وقلّ ما يذهب إخوانه إلى المسجد للصلاة. أما رمزي فقد كان جاداً في دراسته الدينية، وأحياناً كان يساعد في المدرسة التابعة للمسجد في تحفيظ القرآن للأطفال⁽¹⁹⁾. وسكن في المسجد لعدة أشهر.

حدث هذا كله في الوقت الذي كانت فيه سحابة الإسلام المتطرف تكرر الأجواء اليمنية. وخلال الثورة الإسلامية الكبيرة في أفغانستان، قدمت اليمن الدعم للمجاهدين ضد السوفييت أكثر من أي دولة عربية أخرى. وتطوع آلاف اليمنيين للذهاب إلى أفغانستان للمشاركة في القتال. ويشتهر اليمنيون بكونهم مقاتلين شرسين منذ عهد النبي محمد. كما أن الثقافة اليمنية تصور الرجل اليمني بأنه المقاتل المسلم الحقيقي⁽²⁰⁾.

ويقول حسام سنباني، وهو يمني بلغ سن الشباب أثناء الجهاد ضد السوفييت، "كان الخطباء يحثون عليه. وكانت الحكومة تشجعه"، وحتى طلاب الثانوية كانوا يذهبون إلى الجهاد خلال العطلة الصيفية. ويضيف سنباني "وفجأة لا تكاد ترى أحداً منهم هنا"، وكثير من هؤلاء الشباب ذهبوا إلى أفغانستان على حساب جمعيات خيرية سعودية وقادة دينيين. وقد حدث هذا في الوطن العربي كله، إلا أنه لم يبلغ المدى الذي بلغه في اليمن التي هي من أفقر الدول العربية، والأقل تأثراً بالغرب، والأعمق والأطول تاريخاً في القتال.

إن ما يميز اليمن أكثر في هذا المجال هو ما حدث بعد ذلك، بعدما انتهى الجهاد. كانت كثير من الدول العربية سعيدة بإرسال الرجال إلى الجهاد، إلا أنها لم تكن سعيدة بعودتهم. فقد اشتعل الجهاد في هذه الدول وأصبحت ناره حامية. والأشخاص الذين تلتهب فيهم حرارة الجهاد يصعب عليهم تبريدها بعد عودتهم إلى أوطانهم. وسعت كثير من الدول وعملت كل ما في وسعها للحيلولة دون عودة المجاهدين إليها. وكانت اليمن عكس ذلك، فرحبت بالمجاهدين من أبنائها بل ومن أبناء الدول الأخرى. وفتحت حدودها أمام الجهاديين الذين لم يجدوا مكاناً آخر يذهبون إليه⁽²¹⁾. وكانت اليمن كذلك تصدر لهم تصاريح الدخول دون إشعار وفور وصولهم مطار صنعاء⁽²²⁾. وكل ما يحتاجه الأمر هو أن تذهب إلى هناك وتدعي أنك كنت مجاهداً. وأصبحت

اليمن موطناً لآلاف من المقاتلين الإسلاميين الثوريين الذين ليس لهم موطن، ومن بينهم عدد كبير ليس لديهم أي عمل آخر سوى التخطيط لمزيد من الثورات.

تأسست المدارس والجامعات الدينية بتمويل من دول الخليج الغنية بالنفط والتي كانت متحمسة لنشر الإسلام الذي يوافق مفايهما. ومن بين هذه المدارس تحديداً - جامعة الإيمان - التي نالت شهرة واسعة بسبب التطرف الملتهب الذي يدرسه مؤسسها الشيخ عبدالمجيد الزنداني، الذي قاتل إلى جانب صديقه أسامة بن لادن خلال الحرب الأفغانية. وأنشئت هذه المدرسة بأموال جمعت من تبرعات في دول الخليج. ويعتبر خطاب الزنداني في نظر أي محلل مستقل، خطاباً معادياً للغرب بشكل واضح، ولكنه كان استثنائياً في مدى وسرعة انتشاره بين دوائر الإسلاميين.

كان أحمد بن الشيبه منشغلاً في تأمين لقمة العيش للأسرة التي خلفها والده إلى جانب أسرته هو. فكان يذهب إلى عمله كمحلل في معهد اقتصادي. ومر هذا الإسلام المتطرف الجديد دون أن يسترعي انتباهه، كما يقول. كما أن رمزي، بالرغم من أنه كان متديناً، لم يتأثر هو الآخر به. وكان رمزي يعمل موظفاً إدارياً بدوام جزئي في أحد المصارف بمنصب "كاتب"، وهذا الوصف الوظيفي يعني في اللغة المحلية الشخص الذي يحمل كتابات الآخرين - أي مراسل بمعنى أدق. بدأ رمزي وظيفته تلك خلال الإجازة المدرسية الصيفية وهو في المرحلة الثانوية. "فأحب تلك الوظيفة وبقي فيها بعد ذلك، رغبة منه بمساعدة الأسرة، وكان أيضاً يحاول جمع المال لنفسه كذلك"، كما يذكر أخوه الأكبر أحمد. واستمر رمزي في وظيفته بعد تخرجه، ولكنه بعد أن كبر في السن أصبح أقل اعتمادية في وظيفته، فكان يأتي إلى عمله متأخراً ويجادل رؤسائه حول عمله (23).

التحق رمزي بمعهد للإدارة لوقت قصير، ولكنه كان يفكر في التوجه إلى الخارج؛ يقول أخوه الأكبر أحمد: "كان يتحدث دائماً عن رغبته في الدراسة في الولايات المتحدة أو في أوروبا"، ويضيف بأنه "وَقَرَّ بعض النقود من أجل ذلك على مدى عدة سنوات. وكان يرغب بتطوير نفسه، كان طموحاً جداً وينظر إلى الأمام، لكن لم يكن بوسعنا أن نرسله إلى الخارج.

"كان عليه أن يقوم بذلك بنفسه... لم يكن وارداً في حساباته أن يذهب إلى ألمانيا للدراسة. كان خياره الأول بريطانيا أو الولايات المتحدة. كان بعض زملائه في المصرف من الذين درسوا الحاسوب في أمريكا، وشعر أنه يجب أن يكون مثلهم، لكنه لم يتمكن من الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة الأمريكية".

وفي النهاية، أخبر رمزي أسرته بأنه قرر الذهاب إلى ألمانيا لدراسة الاقتصاد والسياسة. ولم يذكر لهم لماذا اختار ألمانيا تحديداً. ويذكر أحمد بأنه اعتقد أن ألمانيا كانت المكان الوحيد الذي كان بإمكانه الحصول على تأشيرة دخول إليه. وتولّى رمزي بنفسه جميع التفاصيل.

الحاوية

اكتسحت ظاهرة اللجوء السياسي أوروبا في التسعينيات من القرن الماضي. وفي عام 1996 وحده نظرت المحاكم الألمانية في 194451 قضية لجوء سياسي. ويوجد في العالم الكثير مما يهرب منه الناس، وكانت أوروبا تحديداً مكاناً مضيافاً يلجأ إليه الناس. إلا أن المسألة أصبحت تثقل كاهل الدول المضيفة. وتعرض الساسة لضغوط من أجل كبح جماح هذه الظاهرة. ولم يكن الساسة الألمان بمعزل عن تلك الضغوط. فقد شرعوا قانوناً يقضي بالترحيل الفوري لطالبي اللجوء إذا وصلوا عن طريق البر. والافتراض الذي بنيت عليه هذه السياسة هو أن أي شخص قادم من الدول المحيطة بألمانيا لا يمكن أن

يكون هارباً من أي اضطهاد، وإنما جاء طمعاً في الحصول على امتيازات الرفاه الاجتماعي السخية التي تكفلها الدولة. لم يكن هذا التعديل في القانون خافياً على طالبي اللجوء. فبعد أن أصبح نافذ المفعول، بدأ اللاجئون بالادعاء أنهم جاؤوا عن طريق الجو، وفي هذه الحالة يطلب منهم تقديم إثباتات الرحلة الجوية من تذاكر سفر وغيرها، أو عن طريق البحر، وهو ما يوفر لهم مخرجاً من إثبات طريقة وصولهم لصعوبة ذلك. وقد ساعد ادعاء الشبهة بأنه قدم على متن سفينة شحن سوادنية في تجنبه الترحيل الفوري، كما جعل من المستحيل إثبات نقيض ادعائه أو نفيه.

ومع ذلك، رفض طلبه الأول على أساس أن الادعاء الوارد فيه بعيد الاحتمال، ولا يمكن تصديقه. فاستأنف ابن الشبهة القرار، وخلال مدة الانتظار لحين صدور حكم الاستئناف، تم تحويله إلى مخيم يقع شمال هامبورغ في بلدة تسمى كمرفيلد، وتعني بالألمانية حقل المأساة، لينتظر هناك حتى صدور الحكم النهائي في قضيته. لم يكن كمرفيلد مخيماً بمعنى الكلمة على الإطلاق، فقد كان يتألف من بناية واحدة بحجم حاوية السفينة، وهذا الاسم هو ما كان يطلق عليه بالفعل، مخيم الحاوية. والبناية مقسمة إلى ثلاث غرف للنوم، وحمام واحد ومطبخ. وكانت الغرف مكتظة جداً ومقرزة.

ويتلقى نزلاء الحاوية إعانات مالية متواضعة. وتقوم السلطات الألمانية بتشجيعهم على العمل، وإذا لم يجدوا أي عمل، فيكلفون بأداء بعض الأشغال اليدوية لحساب البلدية. ومع ذلك لم يكن هذا النظام متشدداً. وانسجاماً مع البيروقراطية الألمانية الحديثة، أعطي طالبو اللجوء الحرية في التنقل والذهاب أينما شاؤوا، ما داموا ملتزمين بالحضور شخصياً كل أسبوع لإثبات وجودهم. كما كانوا يتلقون مبلغاً يعادل 500 دولار أمريكي شهرياً لتغطية احتياجاتهم الأساسية. ومع ذلك، لم يرغب في الإقامة في هذا المخيم سوى

عدد قليل من اللاجئين. وكان سكان المخيم يشكون ويتذمرون كثيراً من ظروف المعيشة فيه، ونادراً ما كانوا يمكثون فيه أثناء النهار. واشتهرت بعض هذه المخيمات ومنها مخيم كمرفيلد في الأوساط الألمانية الألمانية في كونها أوكاراً آمنة لبيع المخدرات، ونقاط توزيع لبيع الوثائق المزورة⁽²⁴⁾.

قدم رمزي الشيبية إلى ألمانيا مستعداً لكل شيء. فقد كان مسجلاً كمقيم في شقة سكنية تعود لشخص يمني يدعى محمد بن ناصر بلفاس وذلك قبل قدومه إلى ألمانيا بستة أشهر⁽²⁵⁾. وليس من الواضح حتى الآن كيف تعرف رمزي على هذا الشخص واتصل به. إلا أن بلفاس تولى القيام بالتحضيرات الأولية اللازمة لقدم رمزي إلى ألمانيا على حد قول أحمد الأخ الأكبر لرمزي. أما بلفاس نفسه، فقد كان بجد ذاته شخصاً غير عادي. ولد في إندونيسيا لأبوين يمنيين، وأمضى جزءاً من طفولته في اليمن. ثم درس في جامعات القاهرة وقدم إلى ألمانيا عام 1972 بموجب تأشيرة دخول سياحية صالحة لمدة ستة أشهر. وبقي مقيماً في ألمانيا لثلاثة عشر عاماً قبل أن تكتشف السلطات الألمانية أنه تجاوز مدة إقامته، فأدخل السجن مدة وجيزة. وبعد الإفراج عنه، كانت السلطات الألمانية تعتزم ترحيله، ولكن إلى أين؟ فحينذاك كان قد أقام في ألمانيا أكثر من إقامته في أي مكان آخر، ولم يكن لديه جواز سفر ساري المفعول، ولا يوجد أي بلد لترحيله إليه. فتراجعت الحكومة الألمانية في النهاية وسمحت له بالإقامة في ألمانيا، وأعطيت تصريح عمل، وحصل بعدها على وظيفة في مصلحة بريد هامبورغ بدوام ليلي. ونال الجنسية الألمانية عام 2000.

لم يكن بلفاس الذي كان في منتصف عمره متزوجاً في الوقت الذي وصل فيه رمزي بن الشيبية إلى ألمانيا. كان رجلاً قصير القامة ممتلئاً، منفرد الوجه، ويتخلل الشيب مفرقيه حول رأسه الأصلع، وله لحية قصيرة بيضاء تميل إلى اللون الرمادي. نذر بلفاس معظم أوقاته لخدمة القضايا الإسلامية، وكان

معروفاً على نطاق واسع بين المسلمين في ألمانيا. ويشبّهه أصدقاؤه بالداعية الذي أخذ على عاتقه مهمة توحيد المذاهب والإثنيات المسلمة في ألمانيا⁽²⁶⁾. وكان مسكن بلفاس غير المرتب في العادة، بحكم مكتبة عامة لإعارة الكتب الدينية. حيث كان يقصده الناس من كافة أنحاء المدينة لاستعارة كتبه⁽²⁷⁾. وكان يسافر في طول البلاد وعرضها في عمل الدعوة، مستقلاً القطار أحياناً، أو بالسيارة مع أحد رفاقه، ويتحدث في أي مكان لأي شخص يود الاستماع: في الجامعة، في المسجد، وأحياناً أمام مجموعة من الأشخاص لا يتجاوز عددهم أصابع اليد. ولا شك أن عمله الليلي وكل هذه الأسفار قد أنهكته. وكان دائماً يأتي متأخراً إلى صلاة الجمعة في مسجد القدس، وعرف عنه تكاؤه إلى الحائط وقت الخطبة واستغراقه في النوم على تلك الحالة⁽²⁸⁾.

كان رمزي بن الشيبة مسجلاً كمقيم في مخيم الحاوية لأكثر من سنتين. وكان ضمن مجموعة من العرب المقيمين في المخيم والذين يطلق عليهم القائمون على المخيم لقب "الثيران"، وذلك بسبب طريقتهم العدوانية في تدميرهم من ظروف المعيشة في المخيم. وكان بن الشيبة من أكثر الثيران ألفة، "كان دائماً في المؤخرة، وعندما تحدث مشكلة، كان يختفي"، بحسب ما يذكره مايكل هيرسيكورن، مدير المخيم.

ويبدو أن الشيبة كان مصمماً على الخروج من الحاوية. فقد عمل في عدة وظائف، وأحياناً كان يجمع بين وظيفتين في آن واحد. فعمل في مخبز للبريتزل، ورعى حديقة منزل لزوجين مسنين. كما عمل فراشاً، وتورط في مشكلة لدى عمله في مطعم صيني⁽²⁹⁾.

وفي النهاية، رفضت المحاكم الألمانية طلب استئناف الحكم الصادر بطلب اللجوء السياسي. وقال القاضي الذي نظر القضية بأنه كان يشك في أن الشيبة سوداني أصلاً، ناهيك عن هروبه من اضطهاد الحكومة السودانية⁽³⁰⁾.

وكان القاضي محقاً. إلا أن هذا الرفض لم يكن له أي تأثير. فقد كان الشيبة يتوقع رفض الاستئناف، لذلك اتخذ بعض الإجراءات الاحترازية للحصول على إذن إقامة عن طريق وسائل أخرى. ومع أنه أخبر أسرته بأنه أتى إلى ألمانيا بهدف الدراسة، إلا أنه لم يبذل أي جهد في ذلك الاتجاه. وبدلاً من ذلك، سجل عدة مرات في كليات مختلفة تقدم دروساً أولية في اللغة الألمانية للطلبة الأجانب. وقبل في جامعة العلوم التطبيقية في بلدة ويسمار شمال شرق هامبورغ على ساحل البلطيق. إلا أنه لم يحضر لأكثر من بضعة دروس⁽³¹⁾. ولو كان لديه رغبة في تعلم اللغة الألمانية لفعل ذلك عندما كان مقيماً في مخيم الحاوية الذي كان يقيم دروساً مجانية لتعليم الألمانية. ولكنه لم يحضر درساً واحداً منها. ويبدو أن هدفه الحقيقي هو تأمين وثائق رسمية تمكنه من الحصول على تأشيرة إقامة طالب. وقبل أن يتم البت في قضية اللجوء السياسي، كان قد أمن المتطلبات اللازمة لتلك التأشيرة. فعاد إلى اليمن واصطحب معه رسالة من أحد رجال الأعمال في هامبورغ هو يوسف مسعود أحمد السيد، تفيد بأن السيد مستعد لدفع راتب شهري للشيبة بقيمة 400 دولار خلال مدة دراسته. والواقع أن الشيبة لم يعمل لدى السيد، ولم يكن عنده نية للعمل عنده في المستقبل. وكان كل همه هو ضمان إقامته في ألمانيا في حالة رفض السلطات الألمانية طلب اللجوء السياسي الذي تقدم به. أخذ رمزي الرسالة ووثائق قبول الجامعة وتوجه إلى السفارة الألمانية في صنعاء. وهناك، استطاع الحصول على تأشيرة قانونية لإقامة طالب، مستخدماً هذا المرة اسمه الحقيقي، وليس اسم عمر. ودخل ألمانيا ثانية تحت هوية مختلفة رغم كونها هويته الحقيقية: رمزي بن الشيبة.

مكث الشيبة في مسكن بلفاس لفترات متقطعة، واستخدم عنوان بلفاس البريدي لعدة سنوات. وقلما كان لديه عنوان خاص به. وكل ما يحتاجه بحسب قول أحد أصدقائه هو فرشاة وزاوية في غرفة ليضعها فيها. وبطريقة ما،

أصبح الشيبة مقلداً لبلفاس، ناذراً نفسه لقضايا الإسلام. وقليلاً ما مكث في وظيفة لأكثر من أسبوع أو أسبوعين، ونتيجة لذلك، كان دائماً مديناً لشخص أو لآخر⁽³²⁾. وكان كثير السفر، ويلتقي الناشطين الإسلاميين في أنحاء ألمانيا وأوروبا.

وفي بداية رحلته في النشاط الإسلامي، تعرف على محمد الأمير، وبعد أسابيع فقط من وصوله هامبورغ، وجد الشيبة طريقه إلى ستيدمان. وكان يتسوق في متجر هناك⁽³³⁾. وكان يتردد على مطعم في ذلك الشارع، ويحضر الصلاة في مسجد القدس الذي يقع قبالة المطعم. وما دام أنه برفقة بلفاس، فإن بإمكانه التعرف على أي شخص. فمثلاً، تعرف بلفاس على محمد الأمير عن طريق طالب مصري درس اللغة الألمانية مع الأمير في القاهرة. وبغض النظر عن كيفية حدوث ذلك، ومع حلول شتاء 1995 اجتمع محمد الأمير بالشيبة، وأصبح الاثنان صديقين مقربين لدرجة أن رمزي بن الشيبة سكن في مسكن الأمير الجامعي طيلة فترة غياب هذا الأخير في إجازة الشتاء⁽³⁴⁾.



obeyikan.com

■ الفصل الرابع ■

حجاج

هاربورغ

استمر محمد في الإقامة في سكن الجامعة وفي العمل في مكتب التخطيط بلانكونتر أثناء دراسته في جامعة هامبورغ. وفي عام 1996 تراجعت أعمال مكتب التخطيط واضطر أصحابه إلى تسريح بعض العمال. وكان محمد من بين الذين سرحوا من العمل. كره محمد فقدان وظيفته، بحسب ما ذكره مديره جوغ لوين، ولكنه غادر بالمعروف⁽¹⁾. ومن باب الحرص الذي يتميز به، أعاد محمد مبلغاً من المال من آخر راتب تلقاه من الشركة اعتقاداً منه بأنه يزيد عن أجرته المستحقة عن الساعات التي عملها نتيجة خطأ في الحساب. وأنهى محمد المساقات الدراسية المطلوبة منه في الربيع التالي. ولم يبق أمامه سوى كتابة رسالة الماجستير للحصول على الشهادة. وبدلاً من العمل على كتابة الرسالة اختفى من الجامعة كلياً. ولم يحدث بينه وبين الجامعة أي اتصال تقريباً على مدى سنة كاملة حتى خريف 1997.

غادر محمد مدينة هامبورغ لبعض الوقت، إلا أنه اختفى فيها وليس بعيداً عنها بقية المدة. فقد أقام عدداً من الحلقات التدريسية والندوات في مركز الأبحاث الذي قدم له منحة البحث في القاهرة. وكانت هذه الحلقات لطلاب يرغبون القيام بمشاريع مشابهة لتلك التي قام بها في القاهرة. لم يختلف محمد في التدريس عما كان عليه عندما كان طالباً. كان جيد التحضير، يراعي التفاصيل الدقيقة، جاداً، غير ممتع، هذا بحسب وصف أحد

الأشخاص الذين حضروا واحدة من الحلقات⁽²⁾. وأضاف هذا الشخص، وهو من مصر، بأنه كان متشوقاً لمقابلة مصري آخر في بلاد الغربية بعيداً عن الوطن الأم، إلا أن محمداً، مع أنه لم يكن عدائياً، لم يبد سوى قليل من الاهتمام بالتحدث إلى الرجل. وكانت تلك الحلقات تضم ضمن فعاليات بعضها النشاطات الاجتماعية المسائية. لم يحضر محمد أياً منها. وقال الشخص المصري بأن محمداً كان يبدو دائماً منشغلاً. وكان هناك "حاجز" بينه وبين الطلاب، بحسب وصفه.

أما الشيبية، أو عمر كما يسميه كل الذين يعرفونه، فلم يكن عنده مثل هذه المشكلات. فبينما كان محمد شديداً، كان عمر حالمًا. وبينما كان محمد مركزاً، داكناً، ومقطباً (حديدياً كما وصفته صاحبة البيت الذي سكن فيه عندما قدم إلى ألمانيا)، كان عمر هادئاً مرحاً، مبتهجاً طليقاً. ويصفه شهيد نيكلز، وهو من جنوب إفريقية اعتنق الإسلام وأصبح صديقاً لعمر بعد أن تعرف عليه في مسجد القدس، قائلاً: "كان متشدداً في المسائل الدينية، إلا أنه كان مسترسلاً،...وعلى أية حال... كان أكثر ارتياحاً في تعامله من محمد الأمير مثلاً، الذي كان دائماً متشنجاً"⁽³⁾، ويضيف نيكلز كان عمر "يعشق الحياة"، وكان يرى نفسه فارساً مقاتلاً، وكبقية اليمنيين، كان يتفاخر بجمال الطبيعة في وطنه الأم، وبخاصة جبال حضرموت.

ويضيف نيكلز: "كان عمر شديد التدين، جذاباً، خفيف الظل، ذكياً. لا يمكنك إلا أن تحب الرجل... كان لا ينتقد الناس مباشرة، بل كان يتحدث عن أخطاء مشابهة ارتكبها هو. كان ذكاؤه العاطفي ومعرفته بطبائع الناس محل إعجاب؛ كنت ترى دائماً أنه يتفهم دوافع الناس الذين يقابلهم. كان يعرف كيف يقدم نفسه وكيف يتصرف معهم".

وكان مظهر عمر الخارجي يعزز شخصيته. فقد كان صغير الحجم نحيلاً يعلوه وجه منشرح دائم التبسم، وبشرة بنية داكنة، وصوت رقيق مرتفع يخلو من أي نبرة تهديديه. كان لديه معتقدات متشددة إلا أنه كان يقدمها بسلاسة ورقة، بحسب ما يصف نيكلز. ونادراً ما كان يشعر بالكآبة، ولكن عندما يتناهبه حزن كان يضع كل ثقته بالآخرة. "ما قيمة هذه الدنيا؟ إن الجنة أفضل منها بكثير،" هكذا كان يقول⁽⁴⁾.

كان نيكلز ضمن مجموعة غير رسمية تضم عناصر من الجامعة ومن المساجد بدأت تتراقد حول عمر ومحمد الأمير عام 1997. والمجموعة مكونة من الشباب بشكل عام، يفتقد معظمهم إلى المعرفة الشاملة بالإسلام، أو كما في حالة نيكلز، ليس لديهم أي معرفة بالإسلام. كان عمر أول من أخبر نيكلز بالحقيقة البدهية أن اسمه الأول "شهيد" يعني الشخص الذي يموت في سبيل الله باللغة العربية. (أحب والدا نيكلز هذا الاسم لطريقة لفظه فقط لا لشيء آخر) وكان عمر ومحمد الأمير بحكم المرشدين لشباب المجموعة الذين كانت غالبيتهم من الطلاب. ولم يبذل عمر والأمير جهوداً في نشر الدين بقدر محاولتهما الدعوة بين صفوف العرب. فكانا يذهبان إلى المساجد وحلقات التعليم حول المدينة ويعرضان خدمة ترجمة وتوضيح معاني القرآن⁽⁵⁾. وتوسعت المجموعة لتضم محمد راجح وهو يماني مثل عمر، وعددًا من الشباب المغاربة من مسجد القدس - زكريا الصبار، منير المتصدق، وعبدالغني مزودي، وسعيد بهاجي. وكان المتصدق ومزودي يعرفان محمد الأمير منذ عام 1996 على الأقل، عندما شهد الاثنان على وصيته التي كتبها⁽⁶⁾. وكان الصبار من القادمين الجدد، أما بهاجي المولود لأم ألمانية وأب مغربي، فولد ونشأ منذ صغره في ألمانيا قبل أن ينتقل والده بالأسرة إلى المغرب، وكان عائداً لتوه إلى ألمانيا.

يصعب على المرء أن يتخيل كم أمضى هؤلاء الشباب من الوقت في التفكير والحديث والمناقشة والقراءة حول الإسلام، لدرجة أن ذلك أصبح العمل الوحيد بالنسبة لبعضهم. وكان بعض أعضاء هذه المجموعة يلتقون في مؤخرة متجر لبيع الكتب قرب مسجد القدس، حيث كانوا يستمعون إلى أشرطة الخطب والدروس والأناشيد المتعلقة بالجهاد. ومن الأمثلة على بعض هذه الأناشيد تلك التي تقول: "عندما أموت شهيداً فإنني أموت أنساناً أفضل"⁽⁷⁾. وكانت تدور بينهم نقاشات حادة حول معاني الآيات القرآنية وأحاديث الرسول. وكانت الغالبية العظمى من تلك المناقشات متعلقة بالدين. ويقول أحد المحققين الألمان: "هؤلاء الأشخاص لا يتحدثون عن قضايا الحياة اليومية، ك شراء سيارة - فهم يشترون سيارات ولكنهم لا يتحدثون عنها، كانوا يتحدثون ويتناقشون في المسائل الدينية كل الوقت... هؤلاء الناس يعيشون فقط لأجل دينهم، وهذا يعني بالنسبة لهم أنهم يعيشون الآن من أجل حياتهم بعد الموت، الجنة. يريدون أن يعيشوا حياتهم في طاعة ربهم، حتى يدخلوا الجنة. وما سوى ذلك ليس له أي أهمية"⁽⁸⁾.

بيروت

كانت المجموعة مرنة ومتغيرة. ابتعد بعض عناصرها شيئاً فشيئاً، وهرب آخرون بعدما شاهدوه من الشدة التي أخذت تترسخ في المجموعة. وقد بلغ الخوف في بعضهم درجة دفعتهم إلى الرحيل إلى مدن أخرى. وعلى مدى ثلاثة أعوام، تعاقب على المجموعة أكثر من عشرين شخصاً بين خارج منها ومنتم إليها. ومن بين المنتمين الجدد شاب لبناني اسمه زياد جراح، وكان بحسب كل المعايير مرشحاً بعيد الاحتمال ليكون محارباً إسلامياً.

كان جراح ولداً وسيماً متوسطاً والابن الوحيد لأسرة مثابرة مجدة من الطبقة الوسطى اللبنانية. ولد عام 1975، وكان أبوه موظفاً من الدرجة

الوسطى في الشؤون الاجتماعية، وكانت أمه المنحدرة من أسرة غنية تعمل مدرّسة. وتمتلك الأسرة سيارات مرسيدس، وشقة سكنية في منطقة مكتظة للسنة في بيروت. وتشكل المنطقة اليوم صورة مثالية لأزمة حياة المدينة المزدحمة. حيث ينشر الغسيل في الشرفات التي ترتفع ثمانية وتسعة وعشرة طوابق فوق الشارع. ويلعب الأولاد كرة القدم بين أعمدة الكهرباء التي تتدلى منها أعلام النوادي المحلية، ويتجمع الرجال الذين يلبسون القمصان ذات الأكمام القصيرة حول طاولات الزهر على جانبي الطريق. لم يكن هذا المكان آمناً عندما نشأ فيه زياد. فقد كان منزل جراح لا يبعد سوى شارعين عن الخط الأخضر الذي كان يفصل بين الأطراف المتصارعة خلال الحرب الأهلية اللبنانية الطويلة. وعلى بعد شارعين من الجهة الأخرى، كان يقع مخيم صبرا وشاتيلا المتمدد، حيث قتل مئات من الفلسطينيين في ظل الاحتلال الإسرائيلي عام 1982. ومنذ ذلك الوقت تحول المخيم إلى مستعمرة فلسطينية دائمة ومكتظة⁽⁹⁾. ولا تزال كثير من البنايات في المنطقة تتخللها ثقوب الأعيرة النارية للأسلحة الرشاشة. وبعضها الآخر عانى من دمار أكبر بفعل قذائف المدفعية والهاون؛ وما زالت بعض البنايات تفتقد إلى واجهات وأجزاء كبيرة منها.

وفي أوج الحرب الأهلية أواخر السبعينيات من القرن الماضي، اشترت أسرة زياد منزلاً ثانياً للمأوى في منطقة المرج، وهي القرية التي تنحدر منها أسرة زياد في وادي البقاع. ويقضي سمير والد زياد معظم وقته في المنزل الريفي. أما زياد فكان يحب المدينة، وقلما كان يذهب إلى البقاع خاصة بعد أن عاد الهدوء إلى بيروت في التسعينيات. والتحق زياد بمدرسة مسيحية خاصة - وهي علامة على الثراء والطموح، ولا صلة لها بالميول الدينية. وكان زياد فطناً إلا أنه لم يكن مهتماً بدراسته، وأوشك في إحدى السنوات أن يرسب في صفه⁽¹⁰⁾. وكان اهتمامه، بحسب رأي أسرته، منصباً على الفتيات أكثر منه على الدراسة.

كانت أسرته مسلمة لا دينية، وهو التوجه السائد في بيروت، وهي المدينة التي تفتخر بطابعها المدني. ويقول جمال جراح، عم زياد، لقد كانت الأسرة متساهلة جداً في أمور الدين لدرجة أن جمالاً نفسه لم يعرف أنه مسلم إلا عندما بلغ سن المراهقة⁽¹¹⁾. وكانت الصديقة المقربة من أمه تعمل لدى قسيس بروتستانتى، وكانت تأخذ جمالاً معها إلى الكنيسة كل يوم أحد؛ ونشأ وهو يظن أنه مسيحي. ولم يكن والد زياد متديناً هو الآخر. وكانت الأسرة متحررة جداً - كان الرجال يشربون الويسكي، وكانت النساء يرتدين التتورة القصيرة حين يخرجن من المنزل والمايوه حين يذهبن إلى شاطئ البحر للسباحة.

وكان زياد ذكياً، ولكنه كان مهملاً للدراسة في الثانوية. وعندما أنهى الثانوية، خيرته أسرته في الدراسة الجامعية بين مكانين يوجد فيهما أقارب له في الخارج، وهما: مدينة تورنتو في كندا، أو مدينة غريفسوالد في ألمانيا، وهي مدينة صغيرة تقع في الشمال الشرقي لألمانيا على شاطئ البلطيق. وصل زياد وابن عمه سالم إلى غريفسوالد في ربيع 1996، وذلك بعد وقت قصير من التحاق فتاة مفعمة بالحياة اسمها آيسل سينغن في كلية طب الأسنان في تلك الجامعة.

تعرف زياد على آيسل خلال شهر من وصوله المدينة الألمانية، وتحديدًا في اليوم الذي انتقل فيه إلى سكن الطلاب في جامعة غريفسوالد، وكانت آيسل، التي أمضت في الجامعة فصلاً دراسياً واحداً، تسكن في الطابق نفسه الذي سكنه زياد. وهي ابنة لأسرة تركية محافظة هاجرت إلى ألمانيا لكسب الرزق واستقرت جنوب ألمانيا. وكانت ترتبط بعلاقة مع شاب آخر، إلا أنه يبدو أن زياد كان الجواب الأنسب لكثير من الأمنيات والأحلام: فهو شاب نشأ في المدينة وترتسم على وجهه ابتسامة عريضة، وهو مثلها مسلم معتدل يحب الاستمتاع بالحياة. وكانت تتساءل في نفسها عن بعض المشاكل المحتملة، إذ أسرت إلى أختها بأن الرجال العرب ينزعون إلى السيطرة والتحكم بنسائهم، إلا أنها مع

ذلك، قبلت بالمجازفة⁽¹²⁾. وارتبط الاثنان. فكانا يطهوان الطعام معاً. وتساعده في تعلم الألمانية. وتدل الصور التي التقت في تلك الفترة، بما فيها الصورة التي يبدو فيها زياد وهو يشعل الأرجيلة، أنهما أخذتا قسطهما من المرح واللهو.

لم ينضم الجميع إلى المجموعة. ومن الأشخاص الذين أصبحوا من الأصدقاء المقربين من جراح، شخص يدعى عبدالرحمن المخدي، ويدرس في كلية الأسنان التي تدرس فيها آيسل، وكان يشتهر عنه حول الجامعة بأنه الشخص الذي نصب نفسه مسؤولاً عن فرض الدين الإسلامي؛ وكان ينطلق من مسجد صغير مبني من الطوب يسميه السكان المحليون "الصندوق". وبداخله، كان المخدي، وهو يماني، يدعو إلى تفسير متشدد للإسلام، ويجمع التبرعات لصالح الجماعة الفلسطينية المسلحة حماس. وفي الخارج، كان المخدي لا يتوانى عن مضايقة المسلمين في جلبهم لحضور الصلاة. وكان جراح يذهب هناك أحياناً، أيام الجمعة، كمناسبة اجتماعية أكثر منها دينية⁽¹³⁾. وكان جراح وأصدقائه يذهبون إلى الصلاة، ثم يحاولون التهرب لشرب البيرة بعد ذلك، إلا أن المخدي لم يكن ليفسح المجال لأي أحد بالخروج. وكان يجلس بعد الصلاة يدرس حتى الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً.

يقول عاصم جراح، ابن عم زياد، والذي سكن غريفسوالد عندما أقام المخدي المسجد: "لقد قلت [للمخدي] بأن هذا الأسلوب خطأ"، وأضاف "إن الله ليس بحاجة إلى هذا"، إلا أن ذلك لم يثن المخدي عما كان يفعل. وكان المسجد يوفر للرجل اليمني، الذي كان متزوجاً وله عدة أبناء، مصدراً للعيش. فقد كان يشتري الأغذية العربية من هامبورغ ويحضرها إلى المسجد في غريفسوالد ليبيعه هناك، كما يذكر عاصم.

عاد زياد إلى بلاده خلال إجازة فصل الشتاء. وعندما عاد من هناك بدا وكأنه تغير، فلم يعد ذلك الشاب المرح المستهتر. ولاحظ ابن عمه سالم، أن

زياداً بدأ بقراءة مجلة إسلامية متطرفة تسمى الجهاد⁽¹⁴⁾. وتذكر إحدى صديقات آيسل أنه في بداية عام 1997 تحدث إليها زياداً وأخبرها عن أنه "غير راض عن حياته حتى تلك اللحظة". وقالت الصديقة بأن زياد قال لها بأنه يريد أن يحدث أثراً في حياته وأنه "لا يريد أن يغادر الأرض بطريقة طبيعية"⁽¹⁵⁾.

ولا يوجد أي مؤشر حول سبب هذا التغيير⁽¹⁶⁾. وفي تلك السنة، وفي سهل البقاع، بدأت حركة إسلامية سنوية بالظهور، مستخدمة الإنترنت والاجتماعات المصغرة لنشر رسالتها. وكانت الجماعة آخذة في الانتشار عندما كان زياد في لبنان أثناء إجازة الشتاء، ولكن لا يوجد دليل على حدوث اتصال بهذه الجماعة. ويقول سالم جراح، بأن ابن عمه كان يحكم الشجرة التي تفتقد إلى الجذور؛ و لم تكن غريفسوالد مكاناً مناسباً لتلك الجذور بالنسبة للعربي. فالمدينة تبدو أنها في عالم آخر يختلف عن العالم الذي توجد فيه بيروت المدينة الكبيرة ذات الجو المشمس، والتي تعتبر نفسها، كباقي العواصم، مركز العالم. وسكان بيروت بأنماقتهم وبهجرتهم ينافسون سكان نيويورك وباريس في غرورهم وخيالاتهم. وقد سخر سالم وزياد عندما شاهدا المكان الذي قيل لهم بأنه المكان المفضل في غريفسوالد للسهر والسمر، وهو فلاي إن ديسكو. كانت المدينة قاتمة ومعتمة، وتشبه إلى حد كبير مدن القرون الوسطى، وتبدو وكأنها متأخرة عن بقية ألمانيا بعدة قرون. وتبدو الأزياء التي تباع في المدينة متأخرة عشرين سنة إلى الوراء. ويوجد في المدينة منذ سنوات عديدة مجموعة كبيرة من السكان تنتمي إلى النازيين الجدد، لذلك فهي ليست بالمكان الرحب بالنسبة للأجانب.

تسبب تدين زياد في إحداث مشاكل مع آيسل على الفور. إذ بدأ زياد ينتقد نوعية صديقاتها اللاتي تخالطنهن، ولباسها غير المحتشم، وشربها الكحول. وكان الاثنان مختلفين في نواح عدة. كان هو في الغالب هادئاً

ومنعزلاً. بينما كانت هي تتحدث طوال الوقت عن أي شيء وأمام أي شخص يبدي رغبة في الاستماع. "هذه هي طريقة حياتي، هكذا هي شخصيتي. فأنا أفضل حل المشاكل عن طريق المحادثة" هذا ما قالته آيسل في إحدى رسائلها لزياد، واشتكت هي من شح زياد في إعطاء المعلومات، ومن عدم مشاركته إياها بما يدور في نفسه⁽¹⁷⁾. وفي العادة كان رد زياد بأنه أخبرها بكل ما تحتاج أن تعرفه بحسب ما يراه هو.

وفي مرحلة ما من حياتهما، يبدو أنها كانت تتفهم الظروف التي كان زياد يمر بها. فقد عايشت هي نفسها أزمة مماثلة من قبل. فبعد أن أنهت دراستها الثانوية، أرسلها والداها إلى تركيا، في محاولة منهما لتعريفها بثقافتها وتراثها. إلا أن تلك الخطوة أتت بنتائج عكسية. وبدلاً من التكيف مع البيئة المختلفة حاولت الانتحار. وتقول واصفة تلك التجربة: "كنت أعيش صراعاً ثقافياً حاداً".

"وعندما طلب مني أن أتغير، كنت أقول له أحياناً، - نعم، أنت محق -، ولكنني لم أفعل شيئاً مما يطلبه، لأنني أعرف ذلك النوع من الثقافة - إنها لا تختلف كثيراً عما يفعله الأتراك".

إلا أن هناك شيئاً واحداً كانا متفقين عليه مائة بالمائة وهو الخروج من غريفسوالد. ولدى وصوله إلى ألمانيا، أدرج زياد في الدروس التحضيرية في اللغة الألمانية كما هو متطلب من جميع الطلبة الأجانب. وكان يتوقع منه أن ينهي هذه المتطلبات خلال عام واحد، وفي ربيع 1997 بدأ بتقديم طلبات الالتحاق بالجامعات في التخصصات التي يختارها. وكان يرغب بدراسة طب الأسنان كما فعلت آيسل، فقدم طلباته إلى كليات الطب في مختلف الجامعات الألمانية. وفيما بعد، وبخطوة مفاجئة، تقدم بطلب إلى برنامج الكيمياء الحيوية في غريفسوالد، وربما كان ذلك من باب الاحتياط في حالة عدم

تمكنه من دخول كلية طب الأسنان، وبطلب آخر لدراسة هندسة الطيران في هامبورغ. وأخبر آيسل بأن هامبورغ هي المكان الوحيد الذي قبل فيه⁽¹⁸⁾. وهذا غير صحيح. فقد قبل في كلية الطب غربي ألمانيا، وفي كلية العلوم في جامعة غريفسوالد، وفي هامبورغ التي وقع عليها اختياره. لم يقدم أي سبب لهذا الاختيار كما لم يكن لديه أي معارف في المدينة، باستثناء صديق مقرب منه هو بشير مصلح، كان تعرف عليه مع مجموعة أخرى أثناء قيامه بوظيفة مؤقتة في إجازة الصيف في السنة الماضية. وكان بشير ذاهباً إلى هامبورغ؛ إضافة إلى أن المخدي كان يعرف كثيراً من الأشخاص في مسجد القدس في هامبورغ، وانتقل المخدي إلى هامبورغ مؤقتاً ليقضي فترة تدريب في عيادة لطب الأسنان.

انتقل زياد جراح إلى هامبورغ برفقة مصلح والتحقا بجامعة العلوم التطبيقية، وهي الجامعة المفضلة لدى الشباب المغربي في مسجد القدس. وسكن الاثنان في مسكن للطلبة تابع للجامعة مع شخص ثالث اسمه عباس طاهر، وهو طالب سوداني أكبر منهما سناً، وعلى صلة وثيقة بدوائر الإسلام الأصولي في ألمانيا. وأصبح طاهر على مر الزمان صديقاً مقرباً ومؤتمناً على أسرار زياد، فكان الشخص الذي يلجأ إليه حين يريد اتخاذ قرار مهم. كان في غريفسوالد إسلامي واحد متشدد هو المخدي. أما في هامبورغ، فكان فيها عشرات وربما المئات. وعن طريق طاهر، تعرف زياد على كثيرين منهم. في البداية كان زياد يزور غريفسوالد مرة كل أسبوعين لمشاهدة آيسل. وأحياناً كان يسافر بالقطار برفقة المخدي الذي أبقى أسرته في غريفسوالد.

رأس الخيمة

كان من بين القادمين الجدد إلى هامبورغ شاب اسمه مروان الشحي. وهو مواطن إماراتي قدم إلى بون لدراسة الهندسة الملاحية عام 1996، في بعثة دراسية على حساب الجيش الإماراتي، وهو ليس من بين الجيوش الضاربة في

العالم، إلا أنه من أكثرها سخاءً، حيث يقدم لمبعوثيه مخصصات شهرية بقيمة 2.200 دولار أمريكي للشخص الواحد.

ويقول شهيد نيكلز بأن الشحي كان خالي البال إلى حد بعيد، كان "كثير الأحلام، أخرق، بليداً، لين الجانب، ومدللاً شيئاً ما، هادئاً، ويحب إشباع شهواته، ورومانسياً. كان ودوداً محبباً وصافي المزاج دائماً، مثقفاً، فكاهياً وأحمق أحياناً... وفيه أيضاً نوع مميز من الحس التهكمي، فكان لا يتحدث مباشرة، بل يلمح بالكلمات أو بالإشارة، لم يسبق له أن تحدث سلبياً عن الآخرين ولم أسمعه يتلفظ بكلمة سلبية. لم يشاهد قط مجهداً... كان الهدوء يشع منه⁽¹⁹⁾.

كان الشحي رجلاً سميناً، وعلى العكس من محمد الأمير، كان يحب الأكل. وكان يمضي ضعفي الوقت الذي يمضيه الآخرون على طاولة الأكل ويستمتع بكل لحظة منه، وكان يدور حبات الأرز بين أصابعه الغليظة على شكل كرات صغيرة ليأكلها بينما يدندن، بشكل لا شعوري، أناشيد الجهاد وهو يمضغ طعامه. وكان لديه شهية جامحة لحب الحلوى، وعادة ما يحمل معه كيساً من الشوكولاتة ويشرك من حوله فيها. وهذا أبعد ما يكون عن حال محمد الأمير الذي كان "زاهداً بكل أنواع المتع والملذات"، فقد كانت الحلوى، والشوكولاتة بالتحديد في نظر محمد من الرذائل. كان الشحي بفضل منحته الشهرية من الجيش الإماراتي، أيسر حالاً من بقية رفاقه، وكانت آثار ذلك تظهر عليه أحياناً. كان يعاني من قصر النظر، فاشترى نظارة ثمينة بقيمة 400 دولار أمريكي. وكان يشتري الملابس الثمينة، واستأجر أكثر من مرة سيارات ألمانية فاخرة، ومع ذلك لم يكن ثرياً. وكان ذوقه في الملابس غير متناسق، ويميل نحو سروال رسمي وقميص مبلط. وفي واقع الأمر كان الشحي من أسرة متواضعة، وكان يستاء عندما يفترض الناس تلقائياً أنه غني فقط لأنه من الإمارات.

وحدث ذلك كثيراً؛ وكان بعض الشبان المغاربة يدعونه إلى تناول وجبة العشاء معهم أملاً في أن يدفع الفاتورة عن الجميع⁽²⁰⁾.

كانت لغة الشحي الألمانية رديئة، إلا أن لغته العربية كانت ممتازة، وكان ملماً بالأدب العربي أكثر من أي شخص آخر. وعلى الرغم من كونه الأصغر سناً في المجموعة، إلا أنه كان مرجعاً في الكتاب والسنة. وفي كثير من الأحيان كان يتحف الجميع بالقصص والأساطير العربية. وفي الثقافة التي تثنى الكلام، يتلألاً الشحي.

لم ييدر عن الشحي أدنى شك بعقيدته. ولم يتحدث عن المرأة بأي شيء سوى كونها زوجه محتملة. ولم يكن يتحدث إلى النساء إطلاقاً، إلا إذا كان مجبراً. ولم يكن في خلفيته وتثنته أدنى نفحة من اللادينية. وبوصفه واحداً من عرب الخليج القلة في المجموعة، وابتناً لأب متمكن من الدين، فقد عاش نموذجاً متشدداً من الإسلام طوال حياته، وتلقى من العلم الشرعي أكثر من أي شخص آخر في المجموعة.

تتكون الإمارات من اتحاد يضم سبع مشيخات تقع جنوب الخليج العربي. وشهرة هذه الإمارات في العالم هي بقدر شهرة إمارة دبي، المدينة التي نمت لتصبح عاصمة مالية ومدينة للترف واللهو بأضوائها اللامعة وأبنيتها العجيبة، ونسائها ذوات السمعة المشبوهة التي تنافس سمعة فتيات مدينة لاس فيغاس [عاصمة القمار واللهو] في الولايات المتحدة، بالإضافة إلى عدد كبير من المصارف الكبيرة. ودبي هي واحدة فقط من بين الإمارات السبع، وتختلف عن البقية اختلافاً بارزاً؛ فهي أكثر مدنية وعمراناً، وأكثر انفتاحاً على العالم، وتتميز عن الإمارات الأخرى بطابعها الغربي. يتحدر الشحي من إمارة رأس الخيمة التي تبعد مسافة 70 ميلاً شمال شرقي دبي، وتتأخر عنها بقرن أو قرنين من الزمان.

ويشكل البترول والغاز معظم مصدر ثروة الإمارات. ولا يكاد يوجد أي من هذه الاحتياطات في إمارة رأس الخيمة التي تظهر عليها علامات الفقر والفاقة. ويعتبر سوق الماعز الذي يقع على طرف المدينة من بين أبرز المعالم التجارية في رأس الخيمة. ولا يوجد الشيء الكثير بين الماعز والطرف الآخر من المدينة حيث تسكن أسرة الشحي. وترعى الماعز بين الأحياء السكنية هناك برغم قلة العشب بين الصخور والرمال، وتعيش الماعز على ما يمكنها أكله من الأغصان المتدلية من بعض الشجيرات المتناثرة هنا وهناك.

تعيش أسرة الشحي في منزل متواضع وصغير مبني من الطوب وله أبواب حديدية ثقيلة؛ وقد تحول طلاء المنزل الخارجي ذي اللونين الأبيض والزهري إلى لون باهت من شدة أشعة الشمس الحارقة والرياح المحملة بالرمال التي تهب على المنطقة. وعلى جانب الطريق الترابي، يسكن أخ غير شقيق للشحي، وهو شرطي متقاعد، في منزل أكبر وأفخم من منزل أهله. وكان والد الشحي يعمل مؤذناً في مسجد الحي الذي يقع أسفل المنزل. وكان الشحي يلازم أباه كثيراً، وأحياناً يؤذن للصلاة عندما يغيب أبوه، بحسب ما يقوله سكان الحي.

انضم الشحي إلى جيش الإمارات عقب إنهائه دراسته الثانوية⁽²¹⁾. وبعد انتهائه من فترة التدريب، كافأه الجيش مع ثلاثة من زملائه ببعثة دراسية إلى ألمانيا، وذلك برغم أن سجله العسكري لا يظهر أنه كان لديه طموحات دراسية. وصل الشحي ورفاقه الثلاثة من الجيش إلى بون في ربيع 1996. والتحق بدورة في اللغة الألمانية، ثم أدرج في السنة التحضيرية في إحدى كليات بون. وكان يحضر دروسه ويجتهد في الدراسة، إلا أنه لم يكن ناجحاً فيها. توفي والده في ربيع 1997، وطلب الشحي إجازة من المدرسة للعودة إلى الإمارات لحضور العزاء، إلا أن الجيش رفض الموافقة على الإجازة؛ ولكن الشحي غادر على كل حال، ونتيجة لذلك رسب في تلك السنة. وعندما رجع إلى ألمانيا أعاد دراسة السنة التحضيرية ونجح في السنة التالية.

كان الشحي يذهب لأداء صلاة الجمعة كل أسبوع برفقة زملائه الإماراتيين في مبنى السفارة الإماراتية في بون. وكان يظهر التزاماً كاملاً بتعاليم الإسلام، وهو ما كان محل استغراب من بعض زملائه الإماراتيين. فقد جاؤوا إلى الغرب وكانوا يتصرفون كالغربيين، بحسب قولهم⁽²²⁾. وهذا يشمل شرب الخمر ومعاقرة النساء، وهما من أبرز المحرمات في الإسلام. ولم يتفهم أصدقاء الشحي رفضه المشاركة في هذا المرح واللهو. وأبدى بعضهم استياءهم منه⁽²³⁾، إلا أن الشحي كان حازماً في موقفه، وكان يصر على عدم الذهاب إلى المطاعم التي تقدم المشروبات الكحولية، وهو قرار ليس بالسهل في ألمانيا. فهؤلاء الشباب لا يصنعون الطعام في بيوتهم، وربما لا يجيدون الطبخ أصلاً. وقد جعل تشدد الشحي من الأكل في المطاعم أمراً عسيراً ومعقداً، إلا أنه كان مصراً، وسائره الآخرون على مضض. وانتهى بهم المطاف إلى المقاهي الشعبية التركية غير النظيفة. وهي الأماكن الوحيدة في ألمانيا التي لا تقدم البيرة مع الطعام. وبدلاً من أن يلفظ من تشدده بعد أن استقرت أوضاعه في الحياة الألمانية، ازداد الشحي تشدداً. وبعد وفاة والده، كان يرفض حتى الذهاب إلى مطاعم ماكدونالدز لأنه سمع أنها تستخدم شحم الخنزير في قلي البطاطس⁽²⁴⁾.

وسكن الشحي مع أسرة ألمانية مضيضة، وفيما عدا تكدره وانزعاجه عندما كان يُسأل عن سبب عدم وجود صديقة له وعدم شربه المشروبات الكحولية، فقد عاش معهم بتوافق وأريحية. ومع ذلك تقول هذه الأسرة بأنه أضفى نوعاً من البرود على جو الحياة في المنزل.

وفي شتاء ذلك العام، وعلى نحو مفاجئ، طلب الشحي من السفارة الإماراتية السماح له بالانتقال إلى جامعات هامبورغ⁽²⁵⁾. وقام مكتب الملحق العسكري بإجراء بعض الاتصالات نيابة عنه، وانتقل على إثرها إلى هامبورغ في بداية عام 1998، وانضم فوراً إلى مجموعة هاربورغ، وانتعشت شخصيته بعدها بشكل ملحوظ. وتحول من الشخص المكتئب العبوس الزاهد في بون إلى

شخص نشط مرتاح البال، متهلل الوجه، يحب الضحك والغناء، (وهذه الصفات كانت موجودة أيضاً في عمر الذي وصفه رفاقه القرييون منه بأنه شخص ميّال إلى السرور والبهجة؛ أما الذين كانوا لا يعرفونه جيداً فقالوا عنه بأنه شخص نكد ومزعج. وربما كان محمد الأمير على درجة عالية من الكآبة والسوداوية بحيث إن أي شخص يمكن أن يبدو مرحاً بالمقارنة معه. أو ربما أن أعضاء المجموعة، على الأرجح، كانوا يشعرون بالطمأنينة والراحة فيما بينهم على نحو لا يجدونه في الآخرين).

أفغانستان

غادر محمد الأمير هامبورغ كعادته في إجازة الشتاء نهاية عام 1997. وفي هذه المرة، لم يرجع إلا بعد ثلاثة شهور. وعندما عاد أخيراً، أخبر رفاقه في السكن أنه ذهب مرة أخرى إلى مكة لأداء الحج⁽²⁶⁾. مع العلم أنه كان قد ذهب إلى الحج قبل ثمانية عشر شهراً، ومن غير المحتمل بالنسبة لطالب - مهما كانت درجة تدينه - أن يذهب إلى الحج مرتين تباعاً، وأن يمكث هذه المدة. وكانت هذه الفترة أطول إجازة قضاها محمد خارج ألمانيا منذ قدومه إلى هامبورغ، كما أنه لا يوجد أي دليل أنه أمضى أي مدة من إجازته في القاهرة مع أهله. ويبدو على الأرجح أنه ذهب إلى أفغانستان إلى معسكرات الجهاد. ومن بين الدلائل على ذلك، أنه بعد عودته في الربيع، تقدم بطلب لتجديد جواز سفره بالرغم من أن جواز سفره القديم لم تنته مدته بعد⁽²⁷⁾. وقال في طلبه: إنه فقد جواز سفره القديم. ويعد هذا الإجراء من الأساليب الشائعة بين الجهاديين من أجل إزالة الآثار الظاهرة لأسفارهم. وبغض النظر عن المكان الذي سافر إليه محمد، فقد أقام له أصدقاؤه حفلة احتفاءً بعودته، وهو أمر غير معهود بينهم فيما يخص الأشخاص الذين يعودون بعد زيارة طويلة إلى الوطن الأم⁽²⁸⁾.

كما غادر كل من عمر ومروان الشحي مدينة هامبورغ، وغابوا لفترات طويلة بعد ذلك عام 1998. فغاب عمر معظم إجازة الصيف، ومرة أخرى بداية الشتاء⁽²⁹⁾. كما اختفى الشحي طيلة معظم الخريف وبداية الشتاء دون أن يعرف أحد مكانه. وسحب قبل مغادرته مبلغ خمسة آلاف دولار أمريكي من رصيده في المصرف. وظلت حسابات بطاقات ائتمانه متوقفة عن الحركة طيلة فترة غيابه، ولم يتم باستخدام تلك البطاقات لا للشراء ولا لسحب النقود طيلة الفترة الممتدة من 3 سبتمبر/ أيلول وحتى بداية ديسمبر/ كانون أول. وكحال محمد الأمير، لا يوجد أي دليل موثق يشير إلى أنهما كانا في أفغانستان، إلا أن هناك مؤشرات تدل على المكان الذي يمكن أن يذهبا إليه. فائناس في العادة لا يختفون بالكامل إلا إذا قصدوا ذلك. ومن الناحية العملية، هناك مكان واحد يمكن أن يكونوا قد توجهوا إليه، وهذا المكان هو أفغانستان.

إن الذهاب إلى المعسكرات لم يكن أمراً خارجاً عن العادة بالنسبة للشباب العرب. ويذهب عشرات الآلاف إلى المعسكرات كل عام من مختلف أنحاء العالم. وتعود غالبية الشباب منها إلى الأماكن التي كانوا يعيشون فيها دون تغيير كبير. وتوفر المخيمات أنواعاً كثيرة ومختلفة من الخبرات، والأهم من ذلك، أنواعاً كثيرة من الخبرات المكثفة. والأمر الأهم هو أن نعرف من هو الشخص الذي ذهب لكي نعرف من هو الشخص الذي عاد. وبالنسبة لكثيرين منهم، كانت هذه المعسكرات أكثر من فرصة لتغيير الجو، وأكثر من إجازة مرح ومغامرة. أما بالنسبة لمجموعة هامبورغ، فلم يكن قضاء عطلة في الخارج هو ما يسعون إليه أو هو ما وجدوه هناك.

ويلهلمزبيرغ

بعد عودة محمد الأمير إلى ألمانيا ربيع 1998، بدأت المجموعة تتحرك وتتصرف ككتلة واحدة وليس كمجموعة أفراد. وظهر كل ما يفعله قادة المجموعة

وكأنه يتم بالتنسيق مع الآخرين. ترك عمر مخيم الحاوية ليسكن مع أحد أصدقائه. وفي الصيف، عمل كل من الصبار والمتصدق وجراح في ورشة دهان تابعة لمصنع سيارات فولكس واغن في مدينة وولفسبيرغ. أما محمد الأمير وعمر والشحي وبلفاس وآخرون فقد عملوا في مستودع لتغليف الحواسيب في طرود وشحنها بالبريد. ويقول صاحب المستودع بأنه كان يلجأ إلى توظيف الطلاب عندما يزداد العمل عنده، وهكذا وجدوا طريقهم إليه. فكان يتصل بالطلاب الذين عملوا عنده في السابق، فكانوا يخبرون بعضهم بعضاً بفتح باب التوظيف. وكان هذا العمل يبدو عادياً ومناسباً بالنسبة للطلاب ما عدا بلفاس؛ وحتى صاحب المستودع استغرب من مجيء هذا الشخص المتقدم في العمر والذي يعمل في مصلحة البريد في أثناء الليل، للعمل في مستودع لتغليف الحواسيب في أثناء النهار⁽³⁰⁾.

استنفد الأمير الحد الأقصى من المدة التي يمكنه قضاؤها في سكن الجامعة. فقد مكث في هذا السكن قرابة الستة أعوام، وهي أكثر بسنة مما تسمح به الجامعة. وذكر محمد الأمير لمدير السكن مانفريد شرودر أنه ينوي استئجار شقة قريبة مع أصدقائه⁽³¹⁾. وربما كان شرودر الشخص الوحيد الذي أسف لرحيل محمد من السكن الجامعي. فقد كان شرودر رجلاً مسناً، طويل القامة، مشدوداً، وفيه نفحة من السلطة العسكرية. وهو ما لم يرق لمعظم الطلبة في السكن. أما محمد، فقد كان كعادته يعامل كبار السن بالاحترام، وكان يدعو شرودر إلى شقته لتناول الشاي والشوكولاته. ومنح شرودر الأمير تمديداً لمدة سنة في السكن، إلا أنه مكث في سنتروماشوس طويلاً، والآن قال له شرودر بأن عليه أن يغادر المكان.

غادر محمد الأمير سكن الطلاب صيف ذلك العام. وقام هو ومجموعة أشخاص، لا أحد يعرف كم كان عددهم بالضبط، باستئجار شقة في

ويلهلمزبيرغ، وهي جزيرة تقع في منتصف نهر الألب، في تجمع سكني مبني من الطوب الأحمر قبل الحرب العالمية، ويقع على شارع عريض، قاتم، يطل على سياج حديدي وعلى ميناء هامبورغ. وكانت ويلهلمزبيرغ منطقة صناعية مستنفذة، ومنعزلة سيكولوجياً عن بقية مناطق هامبورغ لدرجة أنها تسمى أحياناً الجزيرة المنسيّة. ويمر بها الناس وهم في القطار دون أن يعرفوا ما يشاهدونه من النافذة، فهي هناك ولكنها مخفية. وإذا كنت تتوي الاختفاء عن وجه الأرض والبقاء قريباً، فإن هذا المكان هو المكان المثالي لذلك.

استأجرت المجموعة شقة مكونة من غرفتين في الطابق الثالث، في واحدة من المباني المتعددة، والتي ترتفع الواحدة منها إلى ستة طوابق، بأجرة تبلغ 250 دولاراً شهرياً. أما الشقق الأخرى، فكانت مليئة بشكل رئيس بأفراد الطبقة العاملة من الجالية التركية، وهي أكبر جالية في ألمانيا، إضافة إلى عدد من سماسرة ومروجي المخدرات، والمومسات.

اكتملت المجموعة أخيراً وباشرت بعملها. وكان هناك ما يشبه الهمجية في نشاطاتهم. فكانوا قلما يشاهدون في الخارج، وعندما يخرجون، كانوا يخرجون في مجموعات⁽³²⁾. في الداخل، أبقوا الستائر مغلقة ليلاً ونهاراً، ولم يكن لديهم أي أثاث، فقط الفرشات. وكانوا يكوّمون ملابسهم في زاوية الغرفة. ويفرشون الصحف على الأرض بدلاً من كساء الطاولة لتناول طعامهم وهم جلوس على الأرض. لم يكن لديهم هاتف في السكن، وفيما عدا المصاييح، لم يكن لديهم أي أجهزة كهربائية من أي نوع. كانوا يتحدثون حتى الليل في معظم الأحيان ويختفون خلال النهار. هذا ما ذكرته هيلغا ليك، جارتهم التي كانت تسكن الطابق السفلي في الشقة الواقعة أسفل شقتهم بالضبط. وكانت تسمع كل خطوة يخطونها على الأرضية الخشبية فوقها. لم تسمع قط صوت الراديو أو التلفاز ولا حتى مقطع موسيقي - فقط صوت الخطى الخفيفة وصوت أحاديث الرجال.

كان أول عنوان سجّله الشحي لنفسه لدى وصوله هامبورغ هو عنوان تلك الشقة في ويلهلمزبيرغ. وسرعان ما أصبح الشحي عضواً رئيسياً ومرحباً به في مجموعة عمر - الأمير⁽³³⁾. فمن ناحية، أضفى وجوده نوعاً من البهجة على المجموعة، فكان عاملاً ملطفاً من الأمزجة الداكنة فيها. ومن ناحية أخرى، كان يبدو مستعداً لأن يكون مريداً مطيعاً وموالياً لعمر ومحمد الأمير؛ فكان لا يخالفهما ولا يناقشهما، ويعترف لهما بسلطة العلماء لا المتعلمين. كان لديه خلفية عميقة في المسائل الدينية، ويحمل شعوراً بالمسؤولية الأخلاقية. ولكنه كان متواضعاً في ذلك.

عمل محمد الأمير على تنظيم المجموعة، وفرض القواعد التي تلتزم بها. أو على الأقل، حاول ذلك. وفي إحدى المرات وبينما كان هو وعمر ومكلمات ومصالح يسرون عائدين إلى محطة القطار بعد انتهائهم من أداء الصلاة في مسجد القدس، قرر محمد الأمير السير في شارع آخر لتجنب مشاهدة المومسات اللاتي يقفن على جانبي شارع ستيدمان⁽³⁴⁾. استهجنت البقية هذا الاقتراح لأن المسجد ومحطة القطار يقعان على الشارع نفسه، فضلاً عن أنهم يسرون فيه كل يوم. وقال مصالح لمحمد أغمض عينيك إذا كنت لا تحتمل المشهد. وأصر محمد على المشي من طريق آخر، ورفضت البقية هذا الاقتراح، فقام محمد، كعادته في المعاندة، بالسير في طريق آخر وحده. وبعد أن توارى محمد عن الأنظار، سخرت المجموعة من تشدده وتذمروا من القواعد التي وضعها. كما بدأ محمد باستخدام مكياج أحمر؛ ولا أحد يعرف لماذا كان يفعل ذلك. وكان ذلك أيضاً محل سخرية وتندر من زملائه.

شكل عمر حلقة الوصل بين المجموعة والعالم الخارجي. وكان يبدو وكأنه على صلة بكل شخص. ففي يوم من الأيام تجده يقوم بإعداد هاتف محمول يعمل عن طريق الأقمار الصناعية، أو في اجتماع مع بعض الألبان الذين

يعرفهم من كوسوفو، وفي اليوم التالي يتوجه إلى ميونيخ أو غريفسوالد. وكان دائماً يحمل هاتفاً خلويًا، وكأنه كان يغير رقمه مراراً لدرجة يصعب معها معرفة آخر رقم عامل لديه. وكان يحمل هاتفه مع دفتر ملاحظات وقلم في جيب السترة الصدرية التي كان يلبسها دائماً. وليس من الواضح كيف كان يدفع فواتير الهاتف. فبعد أن خرج من مخيم اللاجئين السياسيين، لم يعمل عمر في أي وظيفة. وكان ينام حتى الظهيرة، ليبدأ بعدها جولته في المساجد ومنازل الطلاب وحلقات الدراسة الإسلامية في هامبورغ. وأحياناً كان يزور عشرة مساكن في اليوم الواحد. كان دائماً متأخراً بحكم العادة. وكان يتباطأ في مغادرة المكان الذي يزوره مما يفوّت عليه الوصول إلى المكان التالي في الوقت المحدد.

وأثناء زيارته المتكررة، تعرف عمر على زياد جراح بعد وقت قصير من وصول هذا الأخير إلى هامبورغ، واستطاع أن يجذبه إلى الفلك الخارجي للمجموعة. ونظراً لكثرة أسفاره داخل ألمانيا، كان من السهل عليه أن يلتقي الشحي في إحدى أسفاره. وكان عمر غامضاً بشأن أسفاره هذه، وإذا سئل عنها كان يجيب بابتسامة تأمرية. وعلى العكس من محمد الأمير الذي كان يغض بصره إلى الأرض عندما يشاهد حوله نساء، كان عمر ينظر إلى الفتيات في الشارع ويتبعهن في نظراته، وإذا لاحظ أحد فإنه يبتسم ابتسامة خجولة وينظر إلى الجهة الأخرى⁽³⁵⁾. وكان يتحدث عن النساء كثيراً، ولكن ليس بحضور محمد الأمير. وقال لأصدقائه ذات مرة بأنه يبحث عن زوجته. وفي أثناء سفراته العديدة، استطاع أن يقيم علاقة غرامية جادة مع امرأة في برلين وأقام معها أثناء وجوده في المدينة⁽³⁶⁾.

استمر محمد الأمير وعمر في إلقاء الدروس بانتظام في المساجد، وفي محاولاتهم لجلب المزيد من الأعضاء إلى مجموعتهم، وذلك بالرغم من أن

نجاحهما في العثور على الأعضاء الجدد كان أكبر من قدرتهما على الاحتفاظ بهم. وكان محمد الأمير على وجه التحديد مقطباً ومتشدداً جداً في ممارسته للإسلام لدرجة نفرت الطلاب وأبعدتهم عن الحلقة. ويقول شهيد نيكلز في هذا الصدد: "في النهاية، لم يبق أحد في الدروس، فكان محمد يجلس فيها وحده".

كانت حلقات محمد قاسية في هيكلها، وكانت المشاركة والأدوار موزعة على الحضور: فكانت تقرأ صفحة من القرآن (من قبل شخص يختاره محمد)، يتبعها تفسير لتلك الآيات، وتعليقات من الأحاديث المتعلقة بها، ثم تفسر هذه الأحاديث. وبعد ذلك يعلّق محمد برأيه على ما قرئ من مواد. وبعد الفراغ من ذلك يسمح بطرح الأسئلة. وإذا حاول أحد أن يخرج عن هذا النظام المتبع، تظهر مظاهر الانزعاج على محمد الذي يبدأ بعض شفته السفلى كإشارة على ذلك⁽³⁷⁾. ولما حاول مكلمات أن يقوم بدور القارئ في إحدى حلقات التعليم، رفض محمد طلبه قائلاً: "إنك ضعيف جداً"، وعندما سأله مكلمات: لماذا لا يضحك، أجابه محمد: "كيف تضحك والناس يقتلون في فلسطين"⁽³⁸⁾.

وقال له محمد الأمير في مناسبة أخرى: "الضحك يميت القلب". وحتى بلفاس الذي كان يعتبر الأمير بحكم الابن بالنسبة له، قال له ذات مرة: "ربما إنك بكل هذه الشدة مرسل إلينا من قبل [اليهود] لخلق البلبلة والتشويش بين المسلمين"⁽³⁹⁾. وذكر الأمير لأصدقائه بعد تلك الحادثة بأنه بدأ يفقد احترامه بلفاس لأن هذه الأخير بدأ يتساهل في دينه⁽⁴⁰⁾.

ومن المرات القليلة التي شوهد فيها محمد الأمير وهو يضحك من أي شيء، كانت أثناء التقاء مجموعة من الأشخاص لمشاهدة برنامج وثائقي حول الانتفاضة في شقة بلفاس. وكان من بين الحضور شخص يدعى فولكر هارن بروهن، وكان يدرس الإسلام على يد بلفاس. وقال فولكر بأن البرنامج يحكي قصة شاب فلسطيني حاول أن يفجر نفسه في عملية انتحارية، إلا أن القنبلة

انفجرت قبل موعدها، فتسبب ذلك في إحداث إصابات بالغة في جسمه⁽⁴¹⁾. فتم تحويله إلى مستشفى إسرائيلي وهو فاقد الوعي. واستيقظ وهو في غرفة العمليات، ونظر حوله فرأى الأطباء والممرضات في زيهم الأبيض وتغطي وجوههم الكمامات وهم يحيطون به من كل جانب، فتساءل الشاب: "هل أنا في الجنة؟" فرد عليه أحد الأطباء بسؤال من عنده وجهه إلى الانتحاري وهو ما إذا كان يعتقد بإمكانية أن يوجد في الجنة يهود.

فرد الانتحاري، "لا".

فقال له الطبيب: "أعتقد أنك لست هناك بعد".

وقد أضحك هذا المشهد كل الحضور بمن فيهم محمد الأمير.

وعلى الرغم من عبوس الأمير إلا أن روحاً من الأخوة سادت بين أعضاء المجموعة. وبالرغم من تطرف أهدافها، عاشت المجموعة في بيئة تشبه روضة الأطفال. فقد كانوا يتشاركون في المسكن، وفي حساباتهم المصرفية، وفي سياراتهم، وكانوا يلتزمون بتعاليم دينهم التزاماً حرفياً، ولكنهم سخروا من أنفسهم ذات مرة لأنه لم يوجد من بينهم من يحسن ذبح شاة بحسب الأصول في عيد الأضحى. كانوا يصلون في اليوم خمس مرات، وغالباً ما يمسون بأيدي بعضهم بعضاً أثناء الصلاة، وكانوا يلتزمون بأحكام الأطعمة الإسلامية، وحتى إنهم ناقشوا ذات مرة أحكام طول اللحية الموافق للشرع. وكان الشحي هو الخبير باللحي، موضحاً أن طول اللحية يجب أن يزيد على قبضة اليد ببوصتين. وكانوا يتحدثون إلى ما لا نهاية حول نظريات المؤامرة وحول الفساد الذي سببه اليهود. بما في ذلك افتراضهم الذي لا يتطرق إليه الشك أن مونيكا لوينسكي كانت من عملاء الموساد، وأنها أرسلت إلى البيت الأبيض للإطاحة بالرئيس بيل كلينتون. ولغايات التسلية، كانوا يشاهدون أفلام الفيديو

عن معارك الشيشان، وكانوا ينشدون الأناشيد حول الشهادة. وكان الشحي يحب المشي نحو الشقة هو وعمر وهما يرددان أناشيد الجهاد معاً. وعندما كان يأتي شهيد نيكلز يحييانه ويضحكان وهما ينشدان أنشودة "يا شهيد".

وخلال رمضان، كانت المجموعة تطوف حول الجالية المسلمة، فكانوا يفطرون مع الهنود والماليزيين، والأتراك، أو أي شخص يوجه لهم الدعوة. وحتى في هذه الأحوال، كان محمد الأمير يحاول فرض قواعده التي يرى أنها واجبة التطبيق. وذات مرة، وفي منزل أحد الأتراك، توجه محمد إلى المطبخ ليستعجل إحضار الطعام بحجة أن الوقت قد دخل وأنه لم يتم الالتزام بالجدول الزمني للإفطار. وكالعادة، تبعه عمر لكي يتدارك الموقف كصانع سلام، محاولاً تلطيف المشاعر والأجواء بشيء من المزاح والنكت⁽⁴²⁾.

كان عمر رومانسياً جداً حول الجهاد. وكان يصف الجهاد للناس بقوله: "إنه أفضل شيء يمكن أن يفعله المرء،... يموت المجاهدون بسلام وطمأنينة. يموتون والابتسامة تملو شفاههم، وتكون أجسامهم ناعمة، بينما تكون جثث موتى الكفار متيبسة"⁽⁴³⁾.

اتخذت الأمور في هامبورغ بعد ذلك منحى طارئاً. وأصبحت ترتيبات السكن أكثر مرونة. ويذكر نيكلز بأن أعضاء المجموعة ظهروا وكأنهم مستعدون للمغادرة في أية لحظة. فانتقلوا من وإلى الشقق السكنية، وبدؤوا بممارسة التمارين الرياضية، وذلك بالرغم من أن نواياهم كانت أكبر من أدائهم. وفي بعض الأحيان لم تتجاوز هذه التمرينات مجرد المشي حول الشارع. وانضم أحدهم وهو سعيد بهاجي إلى الجيش الألماني، ثم سعى إلى التسريح من الخدمة بعد أن أنهى تدريبات المعركة. وقد كان بإمكانه تجنب الخدمة أصلاً منذ البداية (بسبب معاناته من الربو)، إلا أنه غير رأيه فجأة لأنه كان يرغب في الحصول على التدريب فقط. وحاول الشحي هو الآخر تحسين لياقته

البدنية، فاشترى دراجة هوائية وكان يركبها حول هامبورغ، تحضيراً للجهاد، بحسب قوله⁽⁴⁴⁾. نظّم الرجال شؤونهم الشخصية، فحرروا وكالات تخول أصدقاءهم التصرف بحساباتهم المصرفية. وسارعوا بإنهاء متطلباتهم الدراسية، أو تخلوا عن كل ذرائعهم في المحاولة.

تزايدت سرعة الحركة في المجتمع الجهادي الأوسع أيضاً. ففي ربيع 1998، أصدر أسامة بن لادن فتواه الثانية الشهيرة ضد الولايات المتحدة. وهي إعلان لشن حرب مقدسة ضد الأميركيين وأعاونهم حول العالم. وبذلك أطلقت الرصاصة الأولى المؤذنة ببدء المعركة. وعلى الرغم من أن هذا الإعلان لم يسمع له صدى داخل الولايات المتحدة، إلا أنه كان أداة أساسية في تعزيز صورة ابن لادن بين صفوف الجهاديين. وكان بهاجي من أشد أنصار ومؤيدي ابن لادن ومسيرته الجهادية. وكان ينزل خطب وخطابات ابن لادن من الإنترنت إلى حاسوبه الخاص ثم يصنع عشرات النسخ منها لتوزيعها على أصدقائه المقربين⁽⁴⁵⁾. وكان ينظر إلى ابن لادن على أنه الرجل الذي سيقف في وجه الولايات المتحدة ليس فقط بالكلام بل بالفعال. وقد بدأت الحرب فعلاً. وفي صيف ذلك العام، نفذ هجوم على سفارتين أمريكيتين شرق إفريقيا بواسطة شاحنات مفخخة. وقتل المئات. ولم يكن لحقيقة أن غالبية الذين قتلوا في ذلك الهجوم هم من المسلمين الأفارقة اعتبار يذكر لدى المؤمنين الحقيقيين.

هاربورغ

لم تمكث المجموعة طويلاً في ويلهلمزبيرغ. وفي شتاء ذلك العام، انتقل محمد الأمير وعمر - والشحي - بعد عودته إلى المدينة، إلى شقة نظيفة مرتبة تم ترميمها وصيانتها مؤخراً. وتقع على شارع مارينستراس 54، وهي بناية سكنية تقع على شارع منحدر يخلو من الأشجار، ويبعد مسافة مسير خمس دقائق عن جامعة هامبورغ - هاربورغ التقنية، وهي الجامعة التي ما زال

الأمير والشحّي يدرسان فيها. وتعد هذه الشقة نقلة نوعية مقارنة بالشقة الواقعة في ويلهلمزبيرغ: فهي مكونة من ثلاث غرف نوم، ومطبخ كامل ومجهز، وطلاء جديد، ووحدة تدفئة جديدة. فكانت نقلة من العالم الثالث إلى العالم الأول. وأطلق بعض الأصدقاء على الشقة اسم دار الأنصار، وسجلوها بهذا الاسم في دفاتر هواتفهم⁽⁴⁶⁾.

يقول ثورستن ألبيرخت، مالك البناية، بأنهم كانوا مستأجرين جيدين. وكانوا يدفعون الأجرة في وقتها المحدد، ولم يتسببوا في أية مشكلات. وظن ألبيرخت، بحسب ما يوحيه مظهرهم وتصرفاتهم، أنهم من طلبة الفلسفة في الجامعة؛ وكانت تظهر عليهم دائماً علامات انشغال الذهن والتأمل العميق. وكانوا يرتدون الدشداش العربي، أو ملابس غربية ذهبت موضتها منذ زمن. ويتذكر ألبيرخت، وهو من سكان هامبورغ الأنيقين في العادة، بازدراء كيف أن أحدهم كان يلبس دائماً بنطلون جينز لونه بيج وعريض جداً من الأسفل⁽⁴⁷⁾.

يبدو أن المستأجرين على شارع مارينستراس 54 كانوا كالأشياء المثلية. فعلى مدى سنتين، أدرج أكثر من اثني عشر شخصاً ذلك العنوان كعنوان مسجل لهم. وكانوا يأتون ويخرجون بحسب ما تمليه عليهم احتياجاتهم أو رغباتهم. انتقل الشحّي من الشقة بعد شهر واحد، واستأجر شقة خاصة به وحده في منطقة قريبة. وقال بأنه يعتزم السفر إلى الإمارات للبحث عن زوجة هناك والعودة بها إلى هامبورغ. وحل بهّا جي الذي يحمل الجنسية الألمانية، وكان طرفاً في عقد الإيجار الأصلي، محل الشحّي.

كان بهّا جي طالباً في كلية الهندسة الكهربائية في جامعة هامبورغ - هاربورغ التقنية ومبرمجاً ماهراً للحاسوب بحسب إفادة رؤسائه في الشركة التي عمل فيها بدوام جزئي. وكان من المولعين بالحاسوب، فكان يبدو أكثر ارتياحاً أمام لوحة مفاتيح الحاسوب منه في أي وضع اجتماعي آخر⁽⁴⁸⁾.

وعندما قدم إلى هامبورغ بداية عام 1995، كان كمن عاد إلى وطنه الأم. تعرف أبوه المغربي على أمه الألمانية في ألمانيا وتزوجا هناك. وولد بهاجي في ألمانيا عام 1975. ثم انتقلت الأسرة إلى المغرب عندما كان في التاسعة من العمر، وعاد هو إلى ألمانيا ليدرس في الجامعة.

لم يختلف بهاجي عن أي طالب جامعي ألماني عادي. فقد كان مولعاً بألعاب الفيديو وسباق السيارات فورميولا ون⁽⁴⁹⁾. وفي سنته الجامعية الأولى، تعرف على فتاة ألمانية كاثوليكية عاشت في البرازيل، ووقع في غرامها. وكانت مثله تماماً من الناحية الثقافية: فلا هي ألمانية بحته بسبب نشأتها في البرازيل، ولا هي أجنبية بالكامل. وعندما اتخذت العلاقة بينهما منحى جدياً، أصر أهل البنت على وضع نهاية لتلك العلاقة وذلك بإرساله ابنتهم إلى الخارج للتأكد من انتهاء تلك العلاقة. وخلال تلك الفترة كان بهاجي يعيش في سكن الطلاب الجامعي، وكان يمضي عطلة نهاية الأسبوع مع خالته باربرا آرينز⁽⁵⁰⁾. وتقول آرينز بأن بهاجي كان مكسور القلب متألماً من نهاية علاقة الغرام تلك، كما أنه كان مستاءً من عدم وجود المال الكافي لديه كبقية أقرانه الطلاب. ولذلك لم يكن يخالطهم كثيراً. كما أنه كان موضع تهكم من أقرانه لأنه كان ألتغ اللسان أعرج المشية. ولكن لم يمض وقت طويل حتى وجد حلقة جديدة من الأصدقاء بين الطلبة المغاربة، ومن بينهم أشخاص كانوا يترددون على مسجد القدس. وتقول خالته بأنه بدأ يتغير بشكل ملحوظ وبسرعة. وبعد عدة شهور فقط، أصبح الطالب الذي كان "مؤيداً لأمريكا وألمانيا وأوروبا" يدعو كل شخص يعرفه إلى الإسلام، بمن فيهم خالته التي لم تكن ترغب بمعرفة أي شيء عن الإسلام. فتجافت العلاقة بينهما شيئاً فشيئاً إلى أن رفضت السماح له بدخول بيتها في النهاية.

تعرف منير المتصدق، وهو من أصل مغربي، على بهاجي في مسجد القدس، وعرفه بدوره على محمد الأمير وعمر. وعلى الرغم من أن بهاجي لم

يكن لديه أي خلفية أو تعليم إسلامي، وكان على المجموعة أن تعلمه كيفية أداء الصلاة، إلا أنه أصبح وبسرعة واحداً منهم⁽⁵¹⁾. وما إن انتقل إلى شقة عمر والأمير، حتى كتب إلى صديقه القديمة يقول لها بأنه لم يعد يغضب عندما ينظر إليه الألمان على أنه أجنبي لأنه "لم يعد يشعر أنه ألماني"⁽⁵²⁾.

ومع مرور الوقت، أصبح التركيز على الدين هوساً يستحوذ على المجموعة. وتزايدت حدة المناقشات برغم قول بعض الأصدقاء فيما بعد بأنها كانت عشوائية وعابرة. وفي أحد الأسابيع عزم أعضاء المجموعة على الذهاب للقتال في كوسوفو، وفي الأسبوع التالي غيروا رأيهم وقالوا الشيشان أو أفغانستان أو البوسنة. واتفقوا أخيراً على أنهم يريدون القتال، ولكنهم لا يعرفون في أي حرب.

وبينما اختار محمد وعمر إلقاء الدروس في المسجد، كان الشبان المغاربة من مسجد القدس، وفيهم قسم كبير يعمل في متجر غلوبيتروتر (المتخصص في بيع لوازم الحياة خارج المنزل)، كانوا أكثر اندفاعاً. فقد نصبوا أنفسهم مسؤولين عن مراقبة تطبيق أحكام الإسلام، أي شرطة دينية غير رسمية، وأخذوا على عاتقهم مسؤولية التأكد من التزام الشباب العرب بأحكام الإسلام⁽⁵³⁾. وفي إحدى المناسبات، تلقى أحد الشبان ضرباً مبرحاً منهم لأنه رفض إطلاق لحيته، وهددوا طلاباً آخرين بالسكاكين⁽⁵⁴⁾. وفي مناسبة ثانية، أعلن المتصدّق أن أي امرأة تلبس تنورة قصيرة تستحق أن تُفتصب⁽⁵⁵⁾.

وكان من الواضح أنهم لم يسمحوا للصدّاقة أن تخفف من حدة مطالبهم، كما ظهر من علاقة الصبّار بياسر بوغلال. فقد تعرّف الاثنان على بعضهما بعد فترة وجيزة من وصولهما إلى ألمانيا قادمين من المغرب، ودرسا معاً لمدة سنة في كويشين⁽⁵⁶⁾. وفي المغرب، التحق الصبّار بالأكاديمية العسكرية ووقع عليه الاختيار ليصبح طبيباً في الجيش، وهي فرصة مرموقة يطمح إليها كثير من الناس، إلا أنه تخلّى عنها فجأة قبل أن يأتي إلى ألمانيا. ويقول بوغلال بأن

ذلك الشيء الوحيد الذي كان الصَّبَّار يرفض التحدث عنه. وفي كويشين، أصبح الاثنان صديقين حميمين، وتعرف كل منهما على أسرة الآخر. وحضر الصَّبَّار حفلة زفاف بوغلال وكان عرَّاب الحفل. إلا أن بوغلال كان الأقل التزاماً بالدين دائماً؛ فقد كان يدخن، ويشرب الكحول، وكانت زوجته الجديدة غير مسلمة، ومع ذلك كان الاثنان يستمتعان برفقة بعضهما بعضاً وكان بينهما ثقة مشتركة. ثم انتقلا معاً إلى هامبورغ. وحدث شيء ما بعدها. التحق الاثنان بجامعة العلوم التطبيقية، وبدأ بالتباعد التدريجي عن بعضهما بعضاً بعد أن وجد كل واحد منهما أصدقاء جدد. وبدأ الصَّبَّار بحضور الصلاة في مسجد القدس، وخلال أشهر فقط تحوّل تحولاً دراماتيكياً. ويقول بوغلال: "فجأة أصبح متشدداً جداً، ومتصلباً في القضايا الدينية: توقف عن الضحك والفكاهة. ولم يوضِّح لي أبداً لماذا تغير" (57).

وفي أحد الأيام، وبعد أن غاب عنه الصَّبَّار لفترة طويلة، تلقى بوغلال مكالمة هاتفية في منزله من الصَّبَّار.

وسأل الصَّبَّار: "متى ستتحوّل زوجتك إلى الإسلام؟"

أجاب بوغلال: "لن تفعل ذلك أبداً".

وعاود الصَّبَّار الاتصال بعدها مراراً وتكراراً مكرراً السؤال نفسه. وإذا دخلت زوجة بوغلال على الخط بطريق الخطأ، كان الصَّبَّار يغلق السماعة. وكما بدأ مكالماته فجأة، توقف عنها فجأة؛ ولم يتحدث الاثنان بعدها لعدة شهور. ثم اتصل الصَّبَّار مرة أخرى. وسأل: "ماذا عن زوجتك؟ هل أسلمت؟".

"لا"، أجب بوغلال. وتحدث الاثنان لوقت قصير، ثم قال الصَّبَّار "وداعاً". فسأله بوغلال: "كيف يمكنني رؤيتك أو الاتصال بك؟". فأجابه الصَّبَّار قائلاً: "إنك لن تراني أو تسمع مني بعد اليوم".

وكان ذلك، إلى حد بعيد وبكل المعايير، صحيحاً. فرجال هامبورغ الذين نذروا أنفسهم للإسلام الأصولي، لم يختاروا فقط مسجداً جديداً أو مذهباً دينياً معيناً، بل دخلوا في طريقة حياة جديدة، وتبنوا مفهوماً جديداً ونظرة مختلفة إلى الحياة والعالم، وفي الواقع دخلوا في عالم جديد. وكما في حالة الصبار، لم يتطلب الأمر كثيراً من الوقت. فقد كان الصبار وبوغلال صديقين قريبين لأكثر من عام. وبعد أن "تحول" الصبار، ولم يتحول بوغلال، كانت تلك نهاية الصداقة بينهما. وطلب الصبار حتى من أبيه أن يطلق لحيته. وقام والد بوغلال بزيارة ابنه في ألمانيا وذهب معه إلى مسجد القدس ذات مرة لأداء الصلاة. ويقول بوغلال بأن اليوم الذي ذهب فيه إلى المسجد كان يوماً عادياً، إلا أن والده كان منزعجاً جداً مما رآه لدرجة أنه طلب من ابنه أن لا يطاء ذلك المكان ثانية خوفاً من أن يكون مصيره السجن إذا عاد إلى المغرب، وهي كبقية الدول العربية، تعتبر المسلمين المتطرفين خطراً على أمن واستقرار البلاد⁽⁵⁸⁾.

ويقع في جوهر الاعتقادات التي تكونت لدى المجموعة ذلك الشعور بوجوب أداء واجباتهم نحو الله. "وكان عمر ينظر إلى الجهاد على أنه التحدي الأكبر" كما يقول نيكلز⁽⁵⁹⁾. وكان يرى كذلك بحسب ما يذكر نيكلز أن "من واجب المجتمع المسلم أن يكون فيه مقاتلون مستعدون للجهاد. فالمجتمع المسلم هو كالجسد، إذا تألم منه عضو تألمت باقي أعضاؤه. وقال أكثر من مرة بأن أفضل أعمال المسلم هو الموت في الجهاد".

وفي إحدى المناسبات، سأل محمد الأمير مكلات عندما كانا معاً في أحد الأسواق: "هل أنت مستعد للقتال في سبيل دينك؟"⁽⁶⁰⁾.

فأجاب مكلات: "ليس بعد".

فرد عليه محمد: "إخواننا يموتون في البوسنة والهرسك وأنت تقول لا".

وفي مناسبة أخرى وجه محمد الأمير النقد إلى مكالات لشرائه مأكولات ثمينة؛ "إنك تعيش وكأنك في الجنة، بينما إخواننا يموتون حول العالم" (61).

ظهر عمر بوصفه القائد الوجداني لهذه المجموعة الصغيرة. وكان محمد يضع السياسات ويقرر ما يجب على المجموعة أن تدرسه وكيفية فعل ذلك. إلا أن عمر كان الشخص الذي يزودهم بالشعور بالهدف (62). وكان يقول لبقية المجموعة بأن عليهم واجب الذهاب إلى الأماكن التي يحارب فيها الإسلام للدفاع عنه كمقاتلين مقدسين. وكان يسمعهم أشرطة أناشيد الجهاد ويعرض عليهم بعض أشرطة فيديو الدعائية الجهادية في الشيشان والبوسنة وكوسوفو. وكان يعرض هذه الأشرطة حول المدينة: في سكن الطلاب والشقق الخاصة. ومن الأركان المهمة التي كان يدعو إليها محمد وعمر هي أنه وبغض النظر عن المكان الذي يقاتلون فيه، فإن عدوهم الحقيقي هم اليهود. وفي النهاية الأمريكيان. وكان عمر يقول: "يجب فعل شيء بشأن أمريكا".

وذات مرة، عندما اشتكى نيكلز من أن المعاناة الفلسطينية لا حل لها، وأن أمريكا وإسرائيل هما من القوة بمكان بحيث لا تجدي مواجهتهما بالقوة، ردَّ محمد الأمير قائلاً: "هذا غير صحيح، يمكن لفرد واحد أن يفعل شيئاً، هناك طرق ووسائل. الولايات المتحدة ليست قوتها مطلقة" (63).

وعلى الرغم من أن كلاً من الأمير وعمر كانا متفقيين على أشياء كثيرة، إلا أنهما كانا يركزان على أشياء مختلفة. كان عمر متحفزاً ومدفعياً بالعميقة، بينما كان محمد مدفوعاً بالسياسة. ويقول نيكلز في هذا الصدد: "بالنسبة للأمير، كان دائماً يكن الكراهية لليهود، وكان شديد العاطفة تجاه القضايا السياسية، بينما كان عمر عاطفياً في المسائل الدينية". وكان الأمير يرى مؤامرة عالمية تأخذ مجراها، ينفذها الأمريكيان ولكن يقودها دائماً اليهود. وكان يلوم اليهود ويحملهم المسؤولية عن كل شر يمكن تصوّره. وذات مرة،

عندما كان هو ونيكلز في الشقة، ذهب محمد إلى الحمام ليقضي حاجته. وأثناء ذلك، صدرت عنه أصوات سمعها نيكلز من غرفة الجلوس ولم يستطع أن يحبس نفسه عن الضحك. وعندما خرج محمد الأمير أنجى باللائمة على اليهود لصنعهم باب الحمام من الخشب الرقيق⁽⁶⁴⁾.

وفي حلقات التعليم والمناقشات، كان الأمير يتحدث دائماً عن الفرقة والاختلاف داخل الإسلام، وكيف أنه لا يوجد أمة مسلمة متحدة⁽⁶⁵⁾. وكان عمر من المعجبين بأسامة بن لادن، ويسميه الرجل العظيم، بينما لم يبد محمد الأمير رأيه فيه، وكان يقول ربما هو كذلك، وربما هو غير ذلك⁽⁶⁶⁾.



obeyikan.com

■ الفصل الخامس ■

تصاعد رائحة الجنة

هاريبورغ

أصبحت الشقة الواقعة على مارينستراس 54 محوراً لنشاطات مثيرة متزايدة. وأصبح المسكن منتدى للجهاديين من هامبورغ الذين كانوا يتجمعون فيه لتناول العشاء والمسامرة. وكان الأمير وبهاجي يصنعان طعاماً بسيطاً - دجاجاً وبطاطس أو الأرز والخبز. وفي بعض الأحيان، أحصى الجيران أكثر من دزينة أزواج من الأحذية المصطفة خارج باب الشقة. وفي الداخل، لم تكن الشقة مفروشة - وكانت أشبه ما يكون بخيمة صيفية، وتشبه إلى حد بعيد الشقة التي انتقلوا منها في ويلهلمزبيرغ. وكانت هناك بعض الملصقات الدينية على الجدران، وهذا كل ما هنالك بالنسبة للزينة. وكان في المطبخ طاولة حولها بعض الكراسي، ويوجد سريران في غرفتي النوم. أما الغرفة الثالثة وهي غرفة عمر، فكان فيها كالعادة، فرشاة على الأرض. وكان كل من الأمير وبهاجي يملكان جهازَي حاسوب في غرفتيهما وبعض الكتب الإسلامية والدراسية. أما عمر فكان يقتني بعض الكتب الدينية وأكواماً من أشرطة الكاسيت والفيديو، وكلها تتعلق بالإسلام والجهاد.

وكما تبين لاحقاً، لم يكن الجيران فقط هم الذين يحصون عدد الأحذية على مدخل الشقة. فبحلول عام 1998، وصل المشهد الإسلامي المتطرف في هامبورغ درجة من النشاط لم تستطع السلطات الألمانية تجاهلها. وخلال معظم التسعينيات، كانت احتمالات وجود خطر معارضة داخلية في ألمانيا

بعيدة جداً. وكان آخر قلق حقيقي أشغل بال السلطات هناك هو الخطر القادم من اليسار السياسي المتمثل بفصائل الجيش الأحمر الذي خلف عصابة بادرماينهوف التي ظهرت في السبعينيات. إلا أن هذا الخطر قضي عليه منذ زمن، وانطوى الصراع الطبقي في ثانيا التاريخ. والشيء الوحيد المشترك الذي يجمع بين جيل الغولف الألماني وعصابة بادرماينهوف مويستس هو شغفهما بارتداء البلوزة السوداء ذات العنق الطويل. ومن الإجراءات التي تدل على مدى الجدّة التي كانت توليها هامبورغ لاحتمالات الخطر القادم من المتطرفين في صفوف الأعداد المتزايدة من سكانها المسلمين هو حجم الموارد التي خصصتها لمكافحة الإرهاب وطريقة توزيعها لتلك الموارد. فقد كلّفت الشرطة المحليّة رجلاً واحداً فقط وبدوام جزئي بمراقبة الإسلام المتطرف. وهذا يعني نصف رجل لمراقبة الأعمال الخطيرة بين سكان يبلغ تعدادهم 80 ألف شخص.

ولم يكن الشبان في مارينستراس 54 محل انتباه أي أحد؛ فلم يصدر عنهم شيء يجلب أي اهتمام فيما عدا النظرات الفضولية وما تهامسه الجيران من إشاعاتهم عنهم. إلا أن المسالك التي شقّوها أسفل الجالية المسلمة في هامبورغ تقاطعت مع أشخاص كانوا تحت مراقبة حكومية مركّزة. وعندما تتقاطع المسالك، فإنها في الغالب تتشابك، وأصبح الشبان القاطنون في مارينستراس 54 هم أنفسهم محل اهتمام السلطات الأمنية.

لم يكن تركيز المراقبة على المجموعة منصباً على قادتها - محمد الأمير وعمر - بل على أشخاص آخرين ليسوا من بين عناصرها المهمين. وجاء الربط الأول عن طريق شخص سوري قدم إلى ألمانيا قبل ستة عشر عاماً، ومتزوج من ألمانية، ويحمل الجنسية الألمانية، اسمه مأمون داركازنلي⁽¹⁾. وكان من ضمن موجة الإسلاميين الأولى التي استقرت في ألمانيا بعد هروبها من سوريا عام 1982. وفي هامبورغ أسس داركازنلي شركة تجارية للاستيراد والتصدير؛

وعاش حياة هادئة، ولم تثر حوله أي شبهات حتى منتصف التسعينيات. وبدأ اهتمام السلطات الحكومية به بعد ظهور رقم هاتفه في حيازة شخص يعمل في تزوير جوازات السفر ألقى القبض عليه في إفريقية عام 1993⁽²⁾. وفشل التحقيق المقتضب في إظهار أي دليل على تورط داركازنلي في أي نشاط مخالف للقانون. وعقب تفجيرات السفارات الأمريكية في كينيا وتنزانيا في فبراير/ شباط عام 1998، ألقى القبض في كينيا على شخص لبناني يحمل الجنسية الأمريكية كان له دور في عملية التفجيرات. ووجد في حيازة هذا الرجل بطاقة عمل لشركة تجارية ادعى أنه يديرها. وكان الرجل يقيم في الولايات المتحدة، إلا أن عنوان الشركة التي يدعي أنه يديرها موجود في هامبورغ. وذلك العنوان هو عنوان منزل داركازنلي، وهو شقة سكنية في حي هادي. وجميل من أحياء الطبقة الألمانية الوسطى. وقد أدى ذلك إلى تجديد الاهتمام بداركازنلي؛ وكشف التحقيق المكثف أن الشركة التجارية لا تقوم بأي أعمال تجارية. كما لم يظهر لأي شخص من الوهلة الأولى كيف كان داركازنلي يسكب رزقه.

في ذلك الخريف، سافر ممدوح سالم، وهو جهادي عراقي متهم بضلوعه في تفجيرات السفارات الأمريكية في شرق إفريقية، متوجهاً إلى مقاطعة بافاريا في ألمانيا. وكان سالم من المقربين من أسامة بن لادن منذ أيام الحرب مع السوفييت. وعندما طرد ابن لادن من السعودية بعد الحرب وانتقل إلى السودان، جمع حوله عدداً كبيراً من أصدقائه وأعوانه "الأفغان العرب"، ومن بينهم سالم الذي تولى إدارة شركتين يملكهما ابن لادن، كما كان عضواً في مجلس الشورى التابع لمنظمة القاعدة. وكانت الاستخبارات الأمريكية تعتبر ممدوح سالم عنصراً مهماً في القاعدة. ومن بين المهمات التي أوكلت إليه تولى جهود حصول القاعدة على أسلحة نووية. وعندما اكتشف الأمريكان أن سالمًا يعتزم السفر من الإمارات إلى ألمانيا، طلبوا من الألمان اعتقاله.

قام سالم بسفريات عدة خلال التسعينيات نيابة عن ابن لادن، وجاء إلى ألمانيا أربع مرات على الأقل قبل ذلك. انصاع الألمان للطلب الأمريكي الذي كان مرفقاً بمذكرة للقبض عليه. وبالفعل تم احتجازه. وخلال الاستجواب، اعترف سالم بعلاقاته التجارية مع ابن لادن، إلا أنه ادعى بأنه لا يعلم شيئاً عن نشاطات ابن لادن الإرهابية. وقال بأنه قدم إلى بافاريا - بالرغم من مجيئه إليها بطريق ملتوية عبر تركيا وماجوركا - فقط من أجل شراء سيارة مرسيدس ستيشن واغن. ولم يقدم توضيحاً مقنعاً لاختياره المدينة الصغيرة المتوارية التي ألقى عليه القبض فيها لشراء السيارة المزعومة. إضافة إلى ذلك، لم يكن يحمل معه سوى 800 دولار أمريكي، وهو مبلغ لا يكفي أصلاً لشراء طقم عجلات للمرسيدس، ناهيك عن سيارة مرسيدس بكاملها. واكتشف المحققون أن سالمًا كان يحتفظ برقم هاتف داركازنلي مخزناً في ذاكرة هاتفه المحمول، وتبين فيما بعد أن داركازنلي يحمل وكالة من سالم تخوله التصرف بحساب مصرفي كان سالم فتحه قبل ذلك بمدة في هامبورغ⁽³⁾.

أدى التحقيق في النهاية إلى قيام الأجهزة الأمنية الألمانية بطلب توجيه إدانة جنائية بحق داركازنلي وتقديمه للمحاكمة، إلا أن مكتب المدعي العام رفض هذا الطلب بحجة عدم كفاية الأدلة. والأدلة المقدمة أظهرت وجود معرفة بينه وبين الأصوليين المسلمين، ومن ضمنهم أشخاص لهم علاقة بأسامة بن لادن في ألمانيا والخارج. وهذا الفعل بحد ذاته لا يعد عملاً مخالفاً للقانون كما لاحظ أحد المحققين الألمان⁽⁴⁾. إلا أنه كان كافياً لوضع داركازنلي تحت المراقبة المحدودة. ومن بين الأشخاص الذين كانوا على صلة بداركازنلي أحد اللاعبين الرئيسيين في مارينستراس 54 وهو سعيد بهاجي.

وعلى الرغم من أن بهاجي كان من أواخر الذين اندمجوا في مجموعة الأمير - عمر، وكان أيضاً منذ البداية أقربهم إلى الثقافة الغربية: صديقة

مسيحية، ولع بالموسيقى الصاخبة - إلا أنه أصبح وبسرعة أكثرهم أصولية وتشدداً، وأعنفهم في إصدار التصريحات القاسية ضد غير المؤمنين⁽⁵⁾. وما إن بدأ سيره على الدرب الجديد، حتى أظهر عزمًا على الإسراع فيه بخطى حثيثة. فكان يجوب الإنترنت بين المواقع الإسلامية⁽⁶⁾. وأصبح من المعجبين بأسامة بن لادن. هذا التحوّل الكامل من شخص مولع بسباق السيارات، ولا يجيد الصلاة باللغة العربية إلى جهادي عدواني هو أمر يثير الفزع والهول. ولاحظ المحققون أن بهاجي كان كثيراً ما يجتمع بداركازنلي في مسجد القدس وبشخص سوري آخر صديق لداركازنلي اسمه محمد حيدر زمار.

استقر زمار في هامبورغ منذ سنوات عدّة كما فعل داركازنلي. وهو شخص ضخّم سمين ذو لحية كثيفة، في منتصف عمره، ومهنته حرفي تجليس سيارات، ولكنه عاطل عن العمل. ويعيش هو وزوجه وأولاده الستة على معونة الكفالة الاجتماعية التي تقدمها له الدولة. ولا أحد يتذكر متى كانت آخر مرة عمل فيها بوظيفة منتظمة. فهو يمضي أوقات كثيرة في الدعوة إلى الإسلام يصعب معها تصوّر من أين سيأتي بالوقت للعمل. ويضاهي ضخامة جسمه طوله البالغ 6 أقدام و4 بوصات ووزنه البالغ 300 باوند. وفي أي نقاش، كان صوته هو الأعلى، وآراؤه هي الأكثر تطرفاً دائماً. وكان معروفاً على نطاق واسع في مساجد المدينة بأنه من المحرضين على الجهاد. التحق بمعسكرات التدريب العربية في أفغانستان بداية عام 1990، وذهب إلى البوسنة والهرسك خلال الحرب هناك، وكان يحث الشباب على اقتفاء خطاه في هذا المضمار.

لم يكن الجميع يرون أن يحمل زمار محمل الجد. ويصف إمام أحد المساجد التي كان يتردد عليها زمار بأنه "طفل صغير في جسم كبير" يجب الثرثرة كثيراً⁽⁷⁾. ويؤكد أخوه بأنه لا يشكل خطراً على أحد، وأن "مشكلته في لسانه"⁽⁸⁾. وقد يبلغ في بعض الأحيان حدّ السذاجة في تصرفاته، ففي إحدى

المرات، وبينما كان يتحدث عن معسكرات التدريب، تفاخر الأخ حيدر - هكذا يعرف بين رفاقه - بما تعلّمه من أساليب الدفاع عن النفس هناك. وقام باستعراض حركة تمثل ضربة جودو جانبية بالرجل، ولكنه سقط على وجهه محدثاً هزة قوية في البناية هُرع على إثرها الجيران أسفل الشقة إلى الطابق العلوي وطرقوا الباب للاستفسار عما حدث. وعلى الرغم من هذه السداجة الواضحة في زَمَار، إلا أنه كان على اتصال وثيق بشبكة الإسلاميين السرية. وبدأت الاستخبارات الألمانية بفتح تحقيق مستقل بشأنه. ويعود هذا التحقيق إلى عام 1997، عندما أخبر عملاء الاستخبارات التركية نظراءهم الألمان أن زَمَاراً كان يدير ما يمكن اعتباره وكالة سفر للجهاديين مرسلاً إياهم عبر اسطنبول وأنقرة إلى باكستان وأفغانستان⁽⁹⁾. ويقال بأن زَمَاراً نفسه قام بعشرات الرحلات عبر تركيا إلى باكستان ومنها، على سبيل الافتراض، إلى أفغانستان. وكان يعرف عنه تحمّسه وإعجابه الشديدين بابن لادن، وأنه على معرفة شخصية به. ابتداءً الألمان بمراقبته بما في ذلك التصنت على مكالماته الهاتفية ومراقبة تحركاته الشخصية، وأطلقوا على عملية التحقيق اسماً يحمل في طياته مفارقة مضحكة، إذ سمّوها "عملية زارثيت" وزارثيت التي تبدأ بنفس الحرف الأول من اسم زَمَار تعني بالألمانية "اللطافة والرقّة". قادت مراقبة داركازنلي وزَمَار السلطات الألمانية إلى بهّاجي ومنير المتصدق، ومنهما إلى الشقة السكنية في هاربورغ. ومتى تعرّفت على أحد رجال هاربورغ فإن من الصعب ألا تعرف البقية.

فكّر الألمان ملياً حول ما توصلوا إليه قبل تقديم بعض الأسماء والمواد إلى نظرائهم في الاستخبارات الأمريكية. وكان الأمريكيان قد أبدوا اهتماماً من قبل بزَمَار، وكانوا يعلمون أن له صلات بمجموعات عريضة من الإسلاميين⁽¹⁰⁾. وكان الألمان قد أخبروا نظراءهم الأمريكيان من بين أمور أخرى، أنهم يتصنتون على مكالمات زَمَار الهاتفية. وأثناء المراقبة قاموا بتسجيل عدة مكالمات دارت بينه

وبين الشحّي، ظهرت الأولى منها عندما كان الشحّي مقيماً في بون. وأخبر الألمان نظراءهم الأمريكيان بأن زماراً تحدث إلى شخص من بون اسمه مروان يعتقدون أن له صلة بالقاعدة. وأعطوا الأمريكيان رقم الهاتف المحمول للشحّي في الإمارات⁽¹¹⁾.

ومن خلال التحقيقات مع داركازنلي ومراقبة زمار، على الأقل قبل نهاية 1998، عرفت أجهزة الاستخبارات الألمانية أسماء جميع الأشخاص في مجموعة أمير - عمر، ولم تلاحظ أي شيء مثير للريبة أو على الأقل أي شيء مخالف للقانون.

"لقد عرفناهم بوصفهم إسلاميين متشددين. وهذا بحد ذاته ليس جريمة" بحسب ما يقوله أحد المحققين الألمان⁽¹²⁾، ويضيف: "ربما كانت لهم اتصالات مع أتباع ابن لادن، وهذا أيضاً لا يشكل جريمة".

لم يكن تجنيد الأشخاص للجهاد أمراً نادراً أو مبتدعاً أو مخالفاً للقانون. فعلى مدار أكثر من عقد من الزمان، توجه آلاف من الشبان من أوروبا إلى أفغانستان والبوسنة أو الشيشان للمشاركة في القتال أو على الأكثر، إلى معسكرات التدريب في أفغانستان كنوع من الطقوس لتدشينهم نحو الأهداف الكبرى للإسلام المتطرف. وأصبح هذا العمل في ذلك العالم، من الجهود التي ينال فاعلها التقدير والاحترام من الناس بوصفها عملاً غير عادي.

وكانت الأجهزة الأمنية في أوروبا والولايات المتحدة تنظر عادة إلى الأشخاص من أمثال زمار بوصفهم أفراداً لا جزءاً من شبكة منظمة. وكانت هناك، مع هذا كله، شبكات منظمة من الأصوليين ناشطة في تجنيد الشباب العرب. وفي كثير من الأحيان، كانت هذه الشبكات تتقاطع مع جماعة إسلامية تدعى جماعة التبليغ وتستغلها. والتبليغ هي النسخة الإسلامية من شهود يهوه، وتقوم بعمل الدعوة حول العالم. وتعلن هذه الجماعة وتؤكد أنها جماعة

مسألة، إلا أن أجهزة الاستخبارات في الشرق الأوسط تقول بأن أهداف الجماعة أحياناً يتم اختطافها من قبل منظمات مثل: القاعدة لتجنيد المجاهدين. وفي بعض الأحيان يدعي الأشخاص بأنهم يتحدثون باسم التبليغ ويقومون بتجنيد الأشخاص الذين تطوعوا لعمل الدعوة ويرسلونهم إلى معسكرات التدريب التابعة لمختلف الفصائل المتقاتلة⁽¹³⁾.

ينتمي زمّار إلى جماعة التبليغ⁽¹⁴⁾، وهو ما كان يجهله المحققون الألمان. وقبل عدة سنوات، سافر إلى باكستان بدعوة من الجماعة وانضم إليها. وتسيطر الجماعة على واحد من المساجد الثلاثة التابعة للجمالية العربية في هامبورغ هو مسجد النور. وكان زمّار يستخدم هذا المسجد منطلقاً لمقابلة مجندين محتملين. وكان يفعل الشيء ذاته في مسجد القدس. وعلى الرغم من أنه لا يقوم بأي دور في هذه المساجد، إلا أنه كان يحافظ على حضور متواصل فيها حاثاً الشباب للانضمام إلى جهوده.

كما كان ضيفاً معتاداً على الشقة السكنية في هاربورغ. وكان يقود سيارته عبر الشارع الخالي من الشجر ويتوقف أمام البناية السكنية، ويتوجه إلى الشقة أعلاه حاملاً معه صناديق كرتونية من الكتب والأشرطة وغيرها من المواد التي تستخدم في تجنيد الشباب للجهاد⁽¹⁵⁾. وكان يلبس دائماً دشداشة عربية وكوفية يلفها حول عنقه. وكان يحضر حلقات التعليم التي يعقدها محمد الأمير، وينظم نزاهات خارجية لمجموعات من الشباب.

يقوم السكان في هامبورغ، كما في باقي المدن الأخرى، باستئجار قطع صغيرة من الأرض خارج المدينة أو على جانب الطريق السريع وسكة الحديد لاستخدامها حديقة للنزهة وزراعة بعض الخضروات فيها. وفي العادة بينون كوخاً صغيراً فيها، ويستخدم أبناء الطبقة العاملة تلك القطعة الصغيرة من الأرض لتكون منتجعاً ريفياً للنزهة والخلو في عطلة نهاية الأسبوع والإجازات.

وتمتلك أسرة زمار كوخاً مشابهاً قرب ستادبارك، أكبر مساحة خضراء في المدينة، وأحياناً كان يدعو الشباب في حلقات التعليم إلى كوخه في نزهة لتناول اللحم المشوي⁽¹⁶⁾. وكان يتبع أسلوباً واحداً في الدعوة دون تغيير: يحث الشباب على الانضمام إلى جهوده، وأن يقتدوا بما فعله هو، وأن يذهبوا للقتال.

أثبتت جلجلة زمار أنها وسيلة فعّالة للتخفي. فقد أسقط الألمان من اعتبارهم الفكرة القائلة بأن أي شخص يجاهر بتعاطفه مع الإسلام المتطرف إلى هذا الحد، يمكنه أن يقوم فعلاً بما يظهر أنه يقوم به: تجنيد الأشخاص لصالح الإسلام المتطرف. ولكن ذلك هو ما كان يفعله في واقع الأمر - وكان رجال هامبورغ يولونه أذاناً صاغية.

وعندما علمت الأجهزة الأمنية الألمانية، من خلال مراقبتها زماراً وداركازنلي، بوجود مجموعة هامبورغ، قامت بإلقاء نظرة فاحصة على أعضاء تلك المجموعة، ولكنها سرعان ما استنتجت أنهم مجرد مسلمين أصوليين، وليس لهم أي ارتباطات سياسية. وأدرجوا أسماء منير المتصدق وسعيد بهاجي ضمن قائمة المتطرفين الذين ينبغي مراقبتهم ورصد تحركاتهم.

يحترم القانون الألماني وإلى حد بعيد حقوق الأفراد بالخصوصية والعزلة. وجاءت هذه الحماية القانونية كردة فعل على تعسف الاشتراكية الوطنية، وممارسات النازيين في طمس الحقوق والحريات، الأمر الذي أدى إلى وضع مجموعة من الضمانات القوية ضد سلطة الدولة. وهذه الضمانات تجعل من ضمانات الحقوق المدنية الأمريكية تبدو ضئيلة إذا ما قورنت بها. فمثلاً، يتمتع على المؤسسات الإعلامية أن تقوم بنشر أو بث الأسماء الكاملة للمتهمين بارتكاب جرائم، أو حتى الذين صدرت بحقهم أحكام جنائية. فالإدانة بارتكاب جريمة مهما كانت درجة فظاعتها، لا تعد ضمن نطاق المعلومات العامة. هذا التوجه نجده سائداً وعميقاً في قانون العقوبات. ولم يكن من الممكن توجيه تهم

ضد أشخاص لأنهم كانوا موضع شك في انتمائهم إلى منظمات إرهابية. وكانت النتيجة أنه وبغض النظر عن درجة الشك لدى المحققين الألمان، فإنهم كانوا مترددين أو غير قادرين على التحرك ضد الأشخاص المصنفين في قائمة السياسيين المتطرفين.

وعلى ذلك، بقي أشخاص مثل زمار وداركازنلي، وبالرغم من الأدلة التي تشير إلى ارتباطهم بإرهابيين أجنب، أحراراً طلقاء، واستمروا - على الأقل فيما يخص زماراً - في نشاطاتهم التي كانت سبباً في وضعهم في دائرة الشك ابتداءً. وقد أثار هذا الوضع جنون المتخصصين الأمريكيين. قاوم الألمان بداية إصدار مذكرة اعتقال بحق سالم المسؤول المالي لابن لادن، وحتى بعد أن ظهر تورط داركازنلي من المعلومات التي حصلوا عليها من سالم، رأى الألمان أنه لا يمكنهم فعل شيء ضده. وبحسب قولهم، لم يكن هناك دليل على نشاط إجرامي، على الأقل، بموجب القانون الألماني. من الناحية القانونية، لم يكن هناك الكثير مما يستطيع الألمان فعله.

كان هذا هو الوضع الذي واجهه توماس فولز عندما عيّن في القنصلية الأمريكية في هامبورغ عام 1998، وكلف ظاهرياً بمهام الملحق التجاري. وفي الحقيقة كان فولز ضابط عمليات متمرس في وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA، وكانت الوكالة على علم بداركازنلي منذ عام 1993، وكانت مقتنعة أنه عضو في منظمة القاعدة،⁽¹⁷⁾ ولكنها كانت عاجزة عن تقديم أدلة كافية ضده. وعززت الأدلة التي جمعت في أعقاب تفجيرات السفارات الأمريكية في إفريقية من القناعات الأمريكية، وقاموا مراراً بحث السلطات الألمانية على فعل شيء تجاهه. وقرر فولز بأنه إذا لم يكن بالإمكان اعتقال داركازنلي، فإن الحل الأفضل هو "تحويله" إلى مخبر لصالح وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. وأخبر فولز نظراءه الألمان أن بإمكانه شراء

ذمة داركازنلي⁽¹⁸⁾. ولكن الألمان سخروا من اقتراح فولز وردوا عليه بالقول بأن المال لا يعني شيئاً بالنسبة لمؤمن متمسك مثل داركازنلي، ورفضوا الاقتراح. لم يكن بإمكان فولز فعل أي شيء بنفسه دون تجاوز الاتفاق غير الرسمي بين الأجهزة الاستخباراتية بين الدولتين؛ لذلك فقد اكتفى بعرض اقتراحه على الأجهزة الألمانية الأخرى التي رأت جميعها أن الاقتراح ما هو إلا فكرة أمريكية ساذجة.

وبعد إلحاح فولز، وكطريقة لإسكاته، وافق الألمان على الاقتراح وتحدثوا إلى داركازنلي الذي رفض عرضهم، كما يقول الألمان⁽¹⁹⁾. واستمر فولز بإلحاحه لدرجة أنه هدد بالطرد من البلاد إذا لم يهدأ. وكانت النتيجة النهائية أن داركازنلي لم "يتحول" ولم يعتقل ولم تقيد حركته بأي شكل من الأشكال.

جامعة هامبورغ - هاربورغ التقنية

بعد انتقاله إلى الشقة الجديدة في مارينتنسراس، لم يكن محمد الأمير قد فعل أي شيء تجاه استكمال دراسته في الماجستير لمدة سنة تقريباً. وفجأة اتصل بمرشده في القسم ديتمار ماشول ليرتب معه إكمال رسالة الماجستير. وسأله ماشول: "أين كنت كل هذه المدة يا محمد؟... هل تواجه صعوبات ما؟ مشكلات أسرية؟"⁽²⁰⁾.

"نعم مشكلات عائلية في مصر"، أجابه الأمير. "أرجو أن تتفهم أنني لا أستطيع التحدث حول هذا الموضوع"⁽²¹⁾.

وكان هذا كل ما هنالك. فعاد محمد الأمير وكأنه لم يترك الجامعة يوماً واحداً. وبدأ العمل بجهد ومثابرة لإنهاء رسالته حول حلب. وعاد إلى الجامعة بطرق أخرى كذلك. فتقدم هو وبهاجي وطالب ثالث من ضباط سلاح الجو الباكستاني، بطلب إلى الجامعة لتخصيص غرفة لأداء الصلاة. وكتب الأمير

في الطلب بأن عدم وجود مكان للصلاة يسبب له مشقة مفرطة. وتمت الاستجابة لمطلبهم، وهو ما وفرّ للأمير مكاناً إضافياً ليقوم من خلاله بتدريس الطلاب الإسلام.

استأنف الأمير اجتماعاته المنتظمة مع ماشول لمناقشة أفكاره وتقديمه في البحث. وبعد ستة شهور، أي في ربيع عام 1999، قدّم مسوّد رسالة بحجم 152 صفحة. وعندما فتحها ماشول وجد أن محمداً قد نذر الرسالة إلى الله في الصفحة الأولى. أما بقية الرسالة، فكان فيها مفاجآت أقل. وكانت عبارة عن استعراض متين، ومعاينة شاملة لتاريخ حلب، وتطورها الحاضر، واقتراح بشأن دمج أفضل بين ماضي المدينة ومستقبلها. ورأى ماشول أن الرسالة ذات جودة عالية من الجانب الفكري، إلا أنها غير مناسبة من الناحية اللغوية. وطلب من أستاذ آخر هي تشريلا فينيديت العمل مع الأمير لمساعدته في إعادة صياغة الرسالة قبل تقديمها إلى اللجنة رسمياً. عملت فينيديت مع الأمير عن طريق لقاءات منتظمة جنباً إلى جنب حول الطاولة لمدة ستة أسابيع. وكانت فينيديت تعلم عن عدم ارتياح الأمير من وجود نساء حوله، إلا أنها ذكرت أن العمل كان يسير بسلاسة حتى النهاية عندما قال لها الأمير، فجأة، بأنه لا يمكنه تحمل العمل مع هذه الدرجة من القرب بينهما. وفي ذلك الوقت كانت الصياغة الجديدة قد شارفت على الانتهاء. وفي أغسطس/ آب، قدّم محمد الأمير رسالته رسمياً. وناقشها أمام لجنة من القسم في الشهر التالي، وحصل على تقدير عال وتهنئة. ثم وصلت الشهادة فيما بعد عن طريق البريد.

كانت الرسالة عملاً عادياً من التحليل المدني، بالرغم من كونها من منظور إسلامي. ومن القضايا التي أثارت اهتمام الأمير وتعرض لها في الرسالة، مسألة تخطيط المدن الحديثة مع الأخذ بالاعتبار بقاء النساء في بيوتهن وليس في العمل. وأكثر ما يثير الاهتمام في الرسالة بشكل عام كان قرار محمد

الأمير استكمالها. فلماذا، بعد أن ترك الحياة الأكاديمية، عاد إليها فجأة بهذا التفاني؟ لم يعرف أحد جواب ذلك. كما أن الأمير لم يتحدث إلى أي من أساتذته حول نواياه.

ويتذكر ماشول أن الأمير مر من أمام مكتبه للمرة الأخيرة بعد أن حصل على شهادة الماجستير. وكان ماشول مشغولاً مع طالب آخر في مكتبه. ولم يدخل محمد - كعادته - إلى المكتب، ولم يقرع الباب، بل وقف أمام الباب المفتوح منتظراً أن يلمحه ماشول. رآه ماشول وأشار إليه بالانتظار. وانتظر الأمير؛ واقفاً على الباب ينظر حوله صامتاً لمدة عشرة دقائق أخرى. ثم تحول وقفل راجعاً، ولم يسمع منه ماشول ثانية منذ تلك اللحظة.

وبغض النظر عما كان ينوي الأمير فعله بعد ذلك، فقد بات من الواضح أنه سيكون في مكان آخر. وأرسل محمد إلى زميله القديم في البحث والدراسة فولكر هوث ليعلمه بالأخبار. وقد أفصحت الرسالة القصيرة عن شخص مختلف، فقد بدا في تلك الرسالة مرحاً خفيف الدم، ظريفاً إلى حد ما. وربما كان ذلك بسبب الارتياح من السنين الطويلة في الدراسة.

مرحباً فولكر،

كيف حالك يا حبة الطماطم غير المخلصة. هل ما زلت تعرفني؟ أنا محمد الأمير. لقد انتهيت (أخيراً) من دراستي. وسوف أفادرك ألمانيا قريباً. هذه بعض الأشياء التي تعود لك، وفيرها، أحببت أن أرسلها إليك. أهني لك الأفضل في حياتك. وإنني على يقين أننا سنلتقي ثانية.

وحتى ذلك الحين، إلى اللقاء.

إضافة إلى إكمال عمله الأكاديمي، قام محمد الأمير بتسوية أشياء كثيرة كانت معلقة. وقام عدة أعضاء من مجموعة هامبورغ بتوكيل عدد من أصدقائهم في التصرف في حساباتهم المصرفية وشؤونهم المالية الأخرى في أثناء غيابهم. وخلال ستة شهور، تزوج أربعة من أعضاء المجموعة: في الربيع، تزوج زياد جرّاح من آيسل سينغن في احتفال جرى في مسجد النور في هامبورغ؛ وفي الصيف، عاد مروان الشحّي إلى الإمارات ليتزوج فتاة من بلده اختارتها له أسرته؛ وفي الخريف، تزوج منير المتصدق من فتاة روسية مهاجرة، وتزوج بهاجي فتاة تركية من هامبورغ⁽²³⁾.

ويمكن القول إن زواج زياد جرّاح كان أمراً اعتبارياً ويفتقر إلى التنظيم. فقد عقد القران بالرغم من اعتراض آيسل - ليس في مسجد القدس حيث كان زياد يصلي في العادة، بل في مسجد التبليغ. وبدا زياد وكأنه كان يحاول إخفاء الحدث. فلم تبلغ أسرة أي منهما لا قبل العقد ولا بعده. وكان من الواضح أن الزفاف لم يكن إلا لإرضاء زملاء جرّاح، أو ربما لإرضاء ضميره هو. وقد كسب جرّاح هذه المعركة الصغيرة، ولكن من الصعب التكهن بماهية الغنائم. فقد سكن الاثنان كلاً على حدة، تفصل بينهما أمور أكثر من جغرافية شمال ألمانيا. وتباعدت المدّة بين زيارة كل منهما للآخر شيئاً فشيئاً. وكان التواصل بين كل زيارة وأخرى متقطعاً. ولم يقيم الزوجان بتسجيل عقد الزواج في المحكمة، وتقول آيسل بأنها لا تعتبر وثيقة الزواج حقيقية. إلا أنها حقيقية من وجهة ثانياً لدرجة أصرت معها على أن يوقّع الاثنان على عقد منفصل قبل الزواج ينص تحديداً على حقها في متابعة دراستها في الطب. وقد حاول جرّاح بعد ذلك أن يتنصّل من هذا الالتزام طالباً منها ترك كلية الطب، إلا أنها توسّلت إلى الإمام الذي عقد بينهما القران وأيّد موقفها⁽²⁴⁾. وانصاع جرّاح على مضض؛ ولم يتوقف عن الشكوى من استقلاليتها.

والده. وعندما لم تفلح تلك الوسيلة، بحسب ما يقوله المحققون، تظاهر والده بالإصابة بنوبة قلبية أماً في استمالة زياد إلى العودة إلى لبنان. ولكنه لم يفعل.

لم يكن جراح في يوم من الأيام، عنصراً مهماً في مجموعة أمير - عمر. وكان يدرس في جامعة العلوم التطبيقية التي تقع في وسط مدينة هامبورغ، بعيداً عن هاربورغ، الضاحية الجنوبية التي توجد فيها جامعة هامبورغ - هاربورغ التقنية، والشقة السكنية في مارينتسراس. وكان جراح يزور هاربورغ أحياناً ولكن ليس بانتظام. وكان قريباً من عمر، ويبدو أنه لا يعرف محمد الأمير جيداً. أما البقية، فسكنوا إما مع بعضهم، أو قريباً من بعضهم، وعندما جاء إلى هامبورغ، سكن جراح لعدة شهور مع بشير مصلح، صديقه من غريفسوالد، ثم استأجر بعد ذلك غرفة وحده.

وبدأت رؤية جراح لأيسل تقل شيئاً فشيئاً. قامت هي بزيارة هامبورغ عدة مرات، ولكنها شعرت أنها غير مرحب بها هناك؛ وذات مرة، تركها زياد وحدها في غرفته المستأجرة وذهب ليقضي وقته مع أصدقائه الذين لم يسبق لها أن تعرفت عليهم. فغضبت من ذلك، وقال لها زياد بأن المكان الذي ذهب إليه لا يمكن للنساء أن يذهبن إليه.

تقول آيسل: "كان يتحدث عن الدين بشكل عام، وحاول أن يقنعني بالالتزام بتعاليم الدين خطوة خطوة"، وتضيف: "لقد نورني حول المشكلات التي يعاني منها المسلمون في الشرق الأوسط، وتحدث أيضاً عن الانتفاضة. لم أكن أعرف ما تعنيه تلك الكلمة قبل ذلك الوقت، لأنه لم يكن لدى أي خلفية سياسية. وعندما سألته، قال لي بأنها كفاح الفلسطينيين ضد إسرائيل من أجل حريتهم"⁽²⁶⁾.

وذكرت آيسل للمحققين بأنها سمعت زياداً يتحدث لأول مرة عن الجهاد فقط بعد أن انتقل إلى هامبورغ أواخر 1997. وقالت: "لم أعرف ما تعنيه تلك

الكلمة"، وأضافت، "سألت بعض الأصدقاء العرب حول معناها، فسرها بعضهم لي بمعان رقيقة لتعني تأليف الكتب ودعوة الناس إلى الإسلام. إلا أن الجهاد الخاص بزياد كان أكثر عدوانية، النوع القتالي، تضحية الشخص بنفسه في سبيل دينه،... وكان يعني بأن المصالح الشخصية ليست بأهم من مصلحة الدين، كان يرى الجهاد بأنه حرب مقدّسة، وكنت خائفة بسبب ذلك. وكان هذا هو سبب تحدّثي إلى أصدقائي حول هذا الموضوع، لكي أعرف المزيد عن الجهاد. وقد شعرت في ذلك الوقت أنني لم أعد في مركز حياة زياد بعد الآن. فقد حلّت العقيدة والدين محلّي. وبدأت زيارته لي تتناقص شيئاً فشيئاً. ولأنني كنت خائفة، لم أفاتحه بموضوع الجهاد بعد ذلك. لم أكن أرغب في فهم ذلك الجهاد ولم أكن أطيق سماع أي شيء عنه"⁽²⁷⁾.

استمر ديدن الزوجين بالاختصاص والمصالحة مرة بعد أخرى. وخلال إحدى فترات المصالحة، حملت آيسل، وأخبرت جراح بذلك الحمل، ثم أجهضت حملها بسبب الشكوك والغموض الذي يكتنف علاقتهما، بحسب ما ذكرته للمحققين. ثم اعتذرت من جراح بعد ذلك في رسالة إلكترونية قالت فيها "لقد فكرت حول ولدنا اليوم. إنني آسفة على كل شيء أسأت إليك فيه"⁽²⁸⁾.

بات من الواضح لآيسل، على الأقل، أن حياة جراح بدأت تأخذ منحني خطراً جداً. وأخبرت إحدى صديقاتها قائلة: "لم أكن أريد أن أترك وحيدة مع أولادي لأن زوجي ذهب للمشاركة في حرب متطرفة". وفكرت آيسل جدّياً ذات مرّة بالعودة للسكن مع والديها في ستغفارت، ولكنها بدلاً من ذلك، انتقلت إلى الجامعة في بوتشوم. وهي منطقة مشهورة بإنتاج الفحم قرب داسلدروف. ومن الناحية النظرية، كانت أقرب إلى هامبورغ - رحلة واحدة مباشرة عن طريق القطار - إلا أن زيارات جراح بقيت متقطعة. وكانت آيسل، وكما تدعي هي - امرأة اجتماعية لدرجة كبيرة. فالعزلة قاتلة بالنسبة لها. وكانت تشعر بالتوتر من الوحدة وعدم قدرتها على تعقب جراح. وكتبت له ذات مرة تقول:

هرة أخرى، لم أتمكن من الوصول إليك. تركت لك رسالة لتعيد الاتصال بي، ولأنك لم تقم بذلك حتى الآن، فإنني أفترض أنك لم تعد إلى البيت حتى الآن. لم أستطع النوم الليلة الماضية، وفكرت طويلاً وهلياً. ماذا يعني الحب بالنسبة لك؟ ... أريد أن أقول لك ماذا يعني الحب بالنسبة لي؛ إنه أن تقبل الطرف الآخر كما هو، أن تشاركه في كل شيء (فكرياً وجسدياً وهادياً في كل نواحي الحياة) أن تجعل شيئاً للطرف الآخر لا تفعله لنفسك، أن تكون قريباً من الطرف الآخر (خصوصاً في الأوقات الحرجة) ... أريد فقط أن أسألك سؤالاً واحداً: كن صريحاً معي، لا نقلها لي فقط، إذا كنت لا تعنيها بكل صدق، وإذا كنت لا تعتقد أنني سأفهم رأيي عن الجاهل... فكر جيداً بالموضوع، وإذا كنت لا تقدر أن تعطيني ذلك الوعد، فمن الأفضل أن ننسى زواجنا وبالرغم من أن ذلك سيؤلمني كثيراً.

حببتك آيسل (29)

وعندما تواجه آيسل صعوبة في الاتصال بزياد، كانت تحاول تحديد مكانه عن طريق الاتصال بكل أرقام الهواتف التي يمكن أن تسعفها في تحديد مكانه، أو أرقام أصدقائه الذين سمح لها بالتعرف عليهم في هامبورغ. وعندما يتبين عدم جدوى ذلك، كانت تتصل بأي شخص آخر يمكن أن يعرفه. وفي إحدى المرات، وبعد أن استيئست من العثور عليه، ومن شدة تلهفها للتحدث إليه، استخرجت فواتير هاتفها لتحديد الأرقام التي اتصل بها زياد أثناء وجوده عندها، فاتصلت بكل رقم يخص زياداً ظهر في الفاتورة مستفسرة عن مكان وجوده. إلا أن ذلك كان دون جدوى. وخلال أول سنتين في هامبورغ، احتفظ جراح، ولو اسمياً، بولائه لآيسل. كما حافظ على دراسته في هندسة الطيران. إلا أنه أخذ بالتراجع التدريجي عنها ليفocus أكثر في عمله الجديد، العالم الذي لا يسمح لها بأن تلحق به.

أخبرها ذات مرة بأنه يشعر بالخزي منها، ومن أساليبها الغربية في الحياة: التدخين، شرب الكحول، والتصرف بطريقة تشبه كل شيء ما عدا الزوجة المسلمة المطيعة. وتذكر رفيقات آيسل في السكن الجامعي بأن انتقاد زياد لها وصل حد العنف أحياناً. وذات مرة، أخبرتهن آيسل بأنه ضربها. كما هدد بفعل ما هو أسوأ من ذلك لإحدى رفيقاتها في السكن التي أصبحت فيما بعد صديقة له، قائلاً: "اليوم أنا أجلس هنا معك، ... وغداً سوف أقتلك"⁽³⁰⁾.

كفر الشيخ

لم يواجه سعيد بهاجي أيّاً من المشكلات التي واجهها زياد مع آيسل. فقد كانت زوجته ابنة ملتزمة لأحد أئمة المساجد التركية في المدينة. وكانت مرتاحة لأصولية سعيد بدرجة لا تقل عن ارتياحه هو لها. تزوج الاثنان في أكتوبر/ تشرين أول في مسجد القدس. وكان الأخ حيدر زمار موجوداً في الحفل؛ وألقى عمر محاضرة سياسية معتذراً في بدايتها عن إقحام السياسة في حفل الزواج، ليسترسل بعدها في خطابه السياسي؛ وقاد مروان الشحي مجموعة إنشاد القصائد الجهادية، ومن المظاهر البارزة في حفلات الزفاف الإسلامية التقليدية عدم إمكانية مشاهدة العروس في هذه الحفلات. ويعكس زفاف بهاجي، من ذلك الجانب، الحياة التي يعيشها هؤلاء الأشخاص. فقد كانوا وحدهم معاً في المسجد دون أي تدخل من العالم الخارجي.

وقال عمر: "إننا الآن نعيش في مدرسة، تماماً كما نكون في الدروس العربية، وفي النهاية سنأخذ الامتحان، وفي هذا الامتحان، سينجح بعضنا ويرسب آخرون"⁽³¹⁾.

وهذا الكلام يشبه التحذير والإنذار، ولكن عمر كعادته، ألقاه ببشاشة واضحة وخالياً من أية نبرة غاضبة. حتى إنه توقف في أثناء خطبته عدة لحظات ليبتسم في وجوه الحضور، وتابع حديثه ليدين الاحتلال اليهودي

للقدس، ويذكر الحضور بمسؤوليتهم عن إنهاء ذلك الاحتلال. "إن مشكلة القدس هي مشكلة الأمة [الإسلامية]. وهذا يعني أنها مشكلة كل مسلم أينما وجد على وجه الأرض. وعلى المسلم أن يذكر رفاقه في أثناء كل جهاد وفي كل وقت. عليه أن يذكرهم بمشكلات الأمة، الأمة المحبوبة، والحديث عن هذا الموضوع لا يضر بهذا الاحتفال، بل بالعكس. إن من واجب كل مسلم أن يكون هدفه تحرير الأرض الإسلامية من كل الطغاة والظالمين".

واستشهد عمر بقصيدة مفادها أن القدس سيأتيها يوم تجتاحها "موجة من النار والدم" ثم أفسح المجال للشحّي وأصدقائه الذين أنشدوا قصائد الجهاد. وإحدى هذه القصائد تتحدث عن متاع الدنيا الزائل والمعركة، وعن الشوق إلى نعيم الجنة وحورياتها والشهادة التي هي طريق الوصول إليها.

ويبدو أن إلقاء الخطب عن الحرب المقدسة والشهادة لم يزعج أحداً من الحضور. وفي الواقع، أن الحضور في لحظة ما خلال الحفل، قاموا تلقائياً بترديد هتافات الجهاد. ثم أكل الحضور التمر ووضعوا النوى في طبق صغير أدير حول الغرفة وهتفوا للحرب. ثم عانقوا بعضهم بعضاً وقبلوا بعضهم ثلاث قبلات على الوجنتين. ولعب الأولاد في آخر الغرفة. وبعيداً في الجهة الثانية من الغرفة كانت تتدلى ستارة بيضاء، احتجبت خلفها النساء اللاتي لم يظهرن في الشريط.

فات محمد الأمير حضور زفاف بهاجي. بسبب سفره إلى مصر لرؤية أبويه. واستقبله أبوه كالبطل الفاتح في القاهرة، وباشر بمهمة البحث عن عروس مناسبة له⁽³²⁾.

وقال والد محمد: "لقد قلت له يجب أن تبحث لك عن زوجة"، وكان الوالد محامياً متمرساً. وكان دائماً مستعداً لقضيته. وفي هذه المرة، كان في باله عروس محتملة، "ذهبتنا لزيارة الأسرة، وتعرف محمد على البنت، وأحب كل منهما الآخر.

كما أحب والدا الفتاة محمداً، ولكن كان شرطهما الوحيد أن لا تغادر ابنتهما القاهرة. فخطبها محمد، وعاد ليكمل الحصول على شهادة الدكتوراه".

كان ذلك، على الأقل، ما قاله محمد لأبيه، أنه ذاهب من ألمانيا إلى الولايات المتحدة لمتابعة الدكتوراه. وأخبر أصدقاءه بالشيء نفسه. وكان أبواه في تلك اللحظة على خلاف بينهما حول الترتيبات المتعلقة بزواج ابنتهما البكر، وبحسب ما تذكره حميدة فاتح، خالة محمد، فإن والد محمد لم يوافق على العريس، وكان يعمل طبيباً في جراحة القلب، ووقع الاختيار عليه من قبل أهل الأم. وكانت صحة بثرية في حالة متردية، وتعاني من مرض السكري. وكانت زيارة محمد مناسبة جلبت إليها كثيراً من البهجة والمواساة. ذهبت به شمالاً إلى الدلتا، إلى كفر الشيخ، لتتباهى به أمام أقاربها. "لقد كانت سعيدة جداً جداً بقدم محمد"، كما تقول فاتح.

بدا محمد وسيماً وبصحة جيدة، كما تذكر فاتح، وجاهزاً لأي شيء. إلا أنه قال لأمه بأنه غير متأكد من مسألة متابعة الدراسة. وأن ما يريده بالفعل هو البقاء في مصر؛ وقال لها بأنه تعب من الدراسة، وأنه يرغب في البقاء في القاهرة كي يعتني بها. وسألها أن تطلب من أبيه وتحثه على الموافقة على ذلك. إلا أن بثرية رفضت، وأصرّت هي الأخرى أن أباه محق في موقفه، ويجب عليه أن يتابع دراسته⁽³³⁾. وقالت له أنت بحاجة للحصول على الدكتوراه، اذهب إلى أمريكا.

هامبورغ

الجالية العربية في هامبورغ صغيرة جداً لدرجة أن كل شخص يعرف الآخر وبخاصة بين الأصوليين. إلا أن العلاقات بينهم في تطور مستمر. ولم يسبق أن شكّل الإسلاميون في هامبورغ جماعة كبيرة ثابتة. بل كانوا سلسلة من المجموعات الصغيرة التي تتقاطع مع بعضها. ويتقلّ الأشخاص من واحدة لأخرى. ويصدق هذا الوصف على أفكارهم ومعتقداتهم.

ويتسابق الشباب على الكتب الدينية، وأشرطة الفيديو التي تحتوي على الخطب والدروس. ومن بين هذه الأشرطة، شريط فيه خطبة لإمام فلسطيني يتخذ من لندن مقراً له يدعى أبو قتادة⁽³⁴⁾، ويعد من أبرز منظري الإسلام المتطرف. ويتمتع بشبكة قوية داخل الحركات المحلية في عدة دول؛ كما أن مسجده في لندن كان مغناطيساً يجذب إليه الناشطين من مختلف أنحاء البلاد. ويظهر في إحدى أشرطة هامبورغ، حيث ناشد هذا الإمام المؤمنين التحرر من نير الكفار الذين يحكمون العالم، وقتل أبنائهم وسبي نساءهم وتدمير مزارعهم ومنازلهم. وأن حكم الرب هذا قد صدر فيهم من قبل، وأنهم، بحسب قوله، يستحقون الموت.

كانت هذه الأفكار وما شابها هي التي يتناقش حولها رجال هامبورغ على مدى السنوات. فقد كان هناك توجه شائع بين الأصوليين، نشأ بداية عند المنظرين المصريين، يقول بأن المسلمين يجب عليهم أداء "الفريضة الغائبة" في إصلاح العالم، وعمل كل ما يلزم عمله لتحقيقها⁽³⁵⁾. وذُهل عدد من مجموعة هامبورغ من رؤية عالم مسلم يروج للأفعال التي ينادي بها أبو قتادة. لعلم كثير منهم أن الاعتقاد بمثل هذه الأفكار سيؤدي بهم إلى السجن أو ربما الأسوأ من ذلك، ترحيلهم إلى أوطانهم. والواقع أن التعبير عن مثل تلك الأفكار كان أكثر شيوعاً وأكثر علانية خارج العالم الإسلامي. فقد فرض الحكام العرب مراقبة دائمة على مظاهر شغب الإسلاميين؛ وكانوا يرقصون حولها علناً، فتارة يتسامحون تجاهها، وتارة يقمعون أدنى درجات التلميح بها. أما الحكومات الغربية، فمن الواضح أنها كانت تفكر أنه ليس لديها ما تخشاه من هذه المشاعر سوى القليل، وأحياناً يتم تجاهلها كلياً. وإذا لاحظوها أصلاً، فإنهم ينزعون إلى عدم قمعها. وهذا ما حدث في هامبورغ. فقد كان المشهد المتنامي للإسلاميين المتطرفين معروفاً لدى السلطات التي لم تفعل شيئاً للتدخل فيه. وبمرور الوقت توارى الأشخاص الذين كانوا يحدّرون من الأفكار التي يدعو

إليها أبو قتادة ومن مائله، من هامبورغ. بعضهم أنهى دراسته وغادر المدينة، وبعضهم ذهب إلى جامعات أخرى في ألمانيا. وبعضهم الآخر غادر المدينة خوفاً مما ستجلبه عليهم أفكار زملائهم المتطرفة. وكانت النتيجة غريبة الأفكار والأشخاص. فكانت غالبية الذين بقوا من الأكثر تطرفاً. وكانوا يميلون إلى تأييد وتدعيم الأفكار الأكثر تطرفاً بين بعضهم بعضاً ذاهبين بها إلى أبعد مرامي الإسلام.

وكانت الفكرة المركزية التي سيطرت على المناقشات هي الجهاد. وذكّر عمر ومحمد الأمير أصدقاءهما بأن "الجنة تحت ظلال السيوف"⁽³⁶⁾.

يوجد في الإسلام من الناحية التقليدية مفهومان متميزان للجهاد. الأول، وهو الغالب من الناحية التاريخية، هو جهاد الفرد اليومي ضد نفسه. وهذا المفهوم للجهاد لا يختلف عن جوهر الإيمان في كثير من الأديان الأخرى؛ فهو السبب الذي جعل الدين قوة طبيعية في معظم المجتمعات، ودفع غير المؤمنين إلى الاعتراف بفضل الأثر الاجتماعي للدين. ويقول النبي محمد: "أفضل الجهاد هو جهاد المرء ضد نفسه في سبيل الله جل جلاله"^(*).

أما النوع الآخر من الجهاد، فهو القتال الحقيقي ضد أعداء الإسلام. ويقول القرآن في هذا ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة: 190). والتفسير التقليدي لهذه الآية يقضي بأن على المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم وأرضهم، ولكن يجب أن لا يعتدوا. وفي القرن العشرين دعا المفكرون المتطرفون إلى مفهوم موسّع لما يعد دفاعاً عن النفس. وقالوا بأن جميع غير المسلمين هم أعداء ألداء للمسلمين ولا يدخرون وسعاً في تدمير الإسلام متى سنحت لهم الفرصة. كما أن المسلمين غير الملتزمين

(*) هكذا ورد في الكتاب على ذمة المؤلف، ولا يوجد له تخريج.

بالإسلام بمن فيهم حكام الوطن العربي هم أيضاً أعداء للإسلام. هؤلاء المفكرون ومن تبعهم، أعادوا اكتشاف الجهاد كسلاح هجومي. وكانت هذه الفكرة الجديدة عن الجهاد هي القوة الدافعة وراء الإسلام المتطرف. فكل فرد مسلم عليه واجب للقتال نيابة عن عقيدته ضد الكفار ومفسدي العقيدة.

وقد شكل هذه التوجه الجديد صحوة إسلامية عظيمة بالنسبة لمسلمي العصر. وقرن أسامة بن لادن الذي هو محارب قديم في هذه المعركة، هذا الالتزام بعد الحرب الأفغانية: ما برح المسلمون يدافعون عن أنفسهم ضد تحالف العدوان الصهيوني الصليبي؛ والجهاد واجب على كل مسلم. وقتل الأمريكان وحلفائهم، من مدينين وعسكريين، هو واجب فردي يقع على كل مسلم قادر في أي دولة يمكنه فيها أداء هذا الواجب، إلى أن يتم تحرير المسجد الأقصى في القدس والمسجد الحرام في مكة من قبضتهم وإلى أن يتم تحطيم جيوشهم، وكسر أجنحتهم، وطردهم من بلاد الإسلام، حتى يزول خطرهم عن أي مسلم⁽³⁷⁾.

كما أن زماراً، وهو الآخر محارب قديم في الحرب الأفغانية، كان يتحدث دائماً عن الجهاد؛ وبدأ أعضاء مجموعة عمر - الأمير، وبخاصة بعد انضمام مروان الشحّي إليها، بتبني الفكرة أيضاً. وعلى الرغم من أن عمر كان يتحدث دائماً عن الجهاد من الناحية النظرية، إلا أن مظاهر التردد كانت تظهر عليه عندما كان زمار يحث الرجال على القيام بأكثر من مجرد المساهمة المالية أو الدعم المعنوي لإخوانه في البوسنة أو الشيشان. ومع مرور الزمن تلاشت تلك الشكوك، وبدأ يفكر بطريقة رومانسية حول القتال ويتخيل نفسه في خندق المعركة⁽³⁸⁾. كان الأتباع الأوائل للنبي محمد من اليمنيين؛ ويسود شعور بين سكان اليمن هذه الأيام بأنهم هم المؤمنون الحقيقيون، الشعب المختار الذي ينتظر النداء للدفاع عن العرش. ويشخص عمر هذا الإيمان الحدسي غير

الواعي. وتتطابق معتقدات الشحي مع قناعات عمر من حيث كونها حرفية ونقليّة ولا تستند إلى المنطق. فكان يتحدث بتشوق عن الجنة وعن الجلوس في ظل شجرة على ضفة نهر عريض من العسل. أما محمد الأمير، فكانت علاقته بدينه أكثر حداثة. وعلى الرغم من مزاجه النكد، إلا أنه كان يتسم بالحدّاءة والمنطقية، وكان مهندساً حتى العظم. ويعتقد بإمكانية تحليل أي شيء من أجل التوصل إلى الجواب الصحيح. ومتى ما توصل إلى الجواب بتلك الطريقة فإنه يبقى راسخاً في قناعاته لا يتزحزح عنها، شريطة أن يصل إلى تلك القناعة بنفسه. وأثناء مناقشاته وحلقات التعليم التي يعقدها حول المدينة، وفي شقته الصغيرة في هامبورغ، كان محمد الأمير يحرص على عدم الضغط على الآخرين لتبني الأفكار المتطرفة. ومن بين المبادئ التي يسير عليها "لا إكراه في الدين"⁽³⁹⁾. وفي النهاية، هناك القرآن والتفسيرات الفردية لأحكامه. والفرد، وليس الجماعة، هو المسؤول عن أعماله أمام الرب. وحرص محمد ذات مرة على التحدث بحديث خاص مع أحد الشباب الأصغر سناً من المشاركين في دروسه العلمية لكي ينصحه بالابتعاد عن المتطرفين الذين يحاولون التأثير على طريقة تفكيره⁽⁴⁰⁾. وقال له، اتبع ما جاء في القرآن، وكن حذراً في حياتك.

من الطبيعي أن يضيفي هذا الاعتقاد بحرية الفرد في الاختيار نوعاً من الانضباط والتأدب والورع على مناقشات المجموعة. إلا أنه ومع توارى الأصوات المعتدلة، أو طردها خارج الحلبة، بدأت مظاهر الانفعال والهيجان تتزايد لدى الأمير وعمر والشحي في كل مرة يتحول فيها النقاش إلى الجهاد واليهود وأمريكا. وكانت تلك هي المناسبة الوحيدة التي يظهر فيها انفعالهم الحقيقي. وفي بعض الأحيان، ودون مناسبة أو مقدمات، يبدأ أحد الرجال بالهتاف قائلاً: "طريقنا!" فتجيب البقية بصوت واحد: "الجهاد!"، ثم يبدأ الجميع بترديد الهتاف بصوت واحد: "الجهاد طريقنا! الجهاد طريقنا!". ونظراً

لأنهم كانوا يسهرون حتى ساعات الصباح الباكر في جلساتهم تلك، كان الجيران يشكون من الإزعاج في كل مكان سكنوا فيه. وبدأ الرجال يجتمعون بشكل دوري بمحمد فزازي، الإمام المغربي الشرس الذي ما انفك يدعو إلى الجهاد المتواصل في أعنف صوره. ألقى فزازي الدروس في مسجد القدس لعدة شهور وكان يولي اهتماماً خاصاً بالمجموعة التي بدأ أعضاؤها أكثر جدية، وأكثر تركيزاً من غيرهم من الشباب الأصولي⁽⁴¹⁾.

تبنت المجموعة حديث النبي الذي شبه فيه الأمة الإسلامية بالجسد، إذا أصيب مسلم أو أودى في أي مكان في العالم، فكأن الجسد أصيب بالحمى. وعدم مقاومة هذه الحمى يعد إثماً.

وكانوا يعتقدون أن الجهاد، سيطهر الأرض في النهاية، وسيضع حداً للفتنة والاضطراب وانتهاك الحرمات المنتشر بشكل واضح في كل مكان. كما أن التشويش والفضوى يحيطان بالمسلمين من كل الجوانب، وتقع المسؤولية في تحرير المسلمين من الأفكار المشوشة على عاتق المستنيرين من بينهم. وكان محمد الأمير، على وجه خاص، يبغض الفضوى التي شاهدها في الغرب. ومنذ السنة الأولى التي التحق فيها بالجامعة أبدى امتعاضه من الصخب والضوضاء المعهودة في تجمعات الطلاب في صالة عرض الفيلم الذي اصطحبه إليه رفيقه في السكن الجامعي، فغاص في كرسيه وأخذ يردد كلمة "فضوى، فضوى". وكان محمد يقول لتلاميذه بأن الحلول التي جاء بها القرآن واضحة وبسيطة وأن بإمكانها - إذا قرئت وطبقت - أن تحل المشكلة. ومن هذا المنطلق كان يرى ضرورة الجهاد - من أجل التخلص من اليهود والأمريكان الذين يتعمدون إحداث التشويش والخلط. وقال بأن طرق الغرب هي الطرق التي يستخدمها الشيطان لنشر الفضوى والتشويش بين المؤمنين⁽⁴²⁾. ويقع على كل مسلم واجب مجابهة ذلك.

وأصبح الطريق واضحاً أمامهم: يجب عليهم، كما قال الرسول، أن يشرعوا سيوفهم.

أفغانستان

في مطلع أكتوبر/ تشرين أول، وفي ملاحظة كتبها لنفسه، خط زياد جراح هذه العبارات: "سيبزع الفجر، وسيأتي النصر، سيأتي النصر، أقسمنا أن نهزمكم. وسنززل الأرض من تحت أقدامكم"⁽⁴³⁾. وبعد أسبوع، وقبل أيام قليلة من موعد وصول آيسل من بوتشوم عبر القطار لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معه، كتب أيضاً: "جئت إليك برجال يحبون الموت كما تحب الحياة...بيدل المجاهدون أموالهم لشراء السلاح، والطعام، والسفر، لتحقيق النصر، أو الموت في سبيل الله، إلا أن التعساء سيقتلون. ورائحة الجنة تتصاعد".

وعقب ذلك بوقت قصير، زارته آيسل في هامبورغ. إلا أن تلك الزيارة لم تتم كما كانت تتوقع، وهو وصف ينطبق على معظم زياراتها له، إلا أن هذه الزيارة كانت مختلفة. فعقد القران والزفاف لم يحل أي مشكلة. وبقيت اختلافاتهما على حدتها المعهودة. وكان جراح في السابق بعيداً من حيث المسافة، أما الآن فهو غير موجود. وتقول آيسل: "لقد أزعجني ذلك". وبدأ يكثر من الحديث عن الشيشان، ويظهر وكأن عبأً كبيراً يثقل كاهله. وخامر آيسل شك في أن أمراً جلاً يوشك أن يحدث، ولكنها لم تستطع تحديده. توقف زياد عن الذهاب إلى دروسه في الجامعة. وأخبر آيسل أنه ينوي الذهاب إلى لبنان لكي يحدد أين وصل في حياته وإلى أين سيتوجه.

وقام الاثنان بتطهير غرفته الصغيرة، وحزم أمتعته، وفرز الأشياء التي سيأخذها معه إلى لبنان وتلك التي سيبقيها مع آيسل. وأودع زياد أوراقه وكتبه الخاصة بالجامعة لدى بشير مصلح في سكنه الجامعي. ولما قام زياد بمرافقة آيسل إلى محطة القطار للعودة إلى بيتشوم، انتابها شعور عارم بالخوف من

أنها لن تشاهده ثانية. وعرفت آيسل في نفسها أن الوجهة التي سيقصدها زياد ليست منزل أبيه وأمه.

وكانت محقة في شعورها. وفي الشهر الذي بدأ فيه جراح والأمير وعمر والشحي بالتحضير للسفر من هامبورغ إلى باكستان عبر تركيا - طريق محمد زمار - قام الشحي بسحب 7 آلاف دولار من حسابه لدفع ثمن تذاكر السفر⁽⁴⁴⁾. وقام الشحي بتوكيل منير المتصدق وكالة عامة، وطلب منه إنهاء عقد إيجار شقته. وأخبره بأنه عائد إلى الإمارات العربية المتحدة ليبقى مع زوجته، وأنه لا يعتزم العودة إلى ألمانيا.

سافرت المجموعة فرادى تجنباً لإثارة الانتباه من قبل السلطات الأمنية، سواء من خلال غيابهم عن الدراسة، أو في سفرهم. كان الشحي أول المغادرين، وتبعه محمد الأمير فجراح. وبعد أن غادر محمد الأمير سأل شاهد نيكلز عمر عن محمد، وعن سبب توقفه عن إلقاء الدروس⁽⁴⁵⁾. وقال عمر بأن الأمير توجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية للحصول على شهادة الدكتوراه. وبعد أسبوع كرر نيكلز السؤال نفسه عن محمد، وهذه المرة ابتسم عمر وقال، لا، لم تفلح محاولة السفر إلى الولايات المتحدة. إنه الآن في ماليزيا. وبعد ذلك، غادر عمر المدينة.



وكتاب الصافي

المهندس

obeeh.com

obeyikan.com

■ الفصل الأول ■

إعادة إحياء الجهاد

بيشاور

في يوليو/ تموز من عام 1973، وفي العاصمة الأفغانية كابول، قاد داوود خان انقلاباً أبيض للإطاحة بحكم ابن عمه ملك أفغانستان الذي كان يقضي إجازة الصيف في أوروبا. ونصب داوود حكومة جديدة يسيطر عليها الحزب الشيوعي. وعلى الرغم من أن الحدث لم يسجل أي اهتمام يذكر خارج حدود أفغانستان في ذلك الوقت، إلا أنه عجل بثلاثة عقود من الحرب المستمرة التي جذبت أقطار العالم إلى فلكها. أطيح بحكم داوود وقتل في انقلاب عسكري بعد خمس سنوات. ثم أعقب الانقلاب الثاني انقلاب ثالث في السنة التالية. وكان الانقلاب الأخير مصحوباً بموجات من العنف وحمامات الدم، وبدت أفغانستان على إثرها وكأنها تدور خارج نطاق السيطرة. وأصبح الوضع يهدد بالانفلات من قبضة الجار القريب من الشمال وهو اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. فهبطت قوات الصاعقة من المظليين في كابول في ديسمبر/ كانون أول من عام 1979 متقدمة أرتال القوات التي زاد تعدادها عن المئة ألف جندي. وتمت الإطاحة بالحكومة القديمة وتنصيب حكومة جديدة. وأمضى السوفييت العقد اللاحق في الدفاع عما شكّل من الناحية الفعلية آخر معاقل الإمبراطورية.

لقي هذا الاحتلال السافر إدانة واسعة من المجتمع الدولي. وجاءت أقوى صور الإدانة من العالم الإسلامي الذي اعتبر هذا الاحتلال هجوماً مباشراً

على الإسلام يتطلب رداً مباشراً. وتصدر طلائع الرد على هذا الهجوم أكاديمي فلسطيني اسمه عبدالله عزام.

ولد عزام عام 1941 في مدينة جنين في الضفة الغربية، وهو من نتاج الشتات الفلسطيني. وكان مهتماً بالدراسات الإسلامية والسياسية. شارك في حرب الأيام الستة عام 1967، والتحق بعدها بالمقاومة الفلسطينية، ثم تركها لأنها كانت - كما يقول - حركة سياسية دون جذور إسلامية، فانضم إلى حركة الإخوان المسلمين وساعد فيما بعد في تأسيس حركة حماس كبديل عن منظمة التحرير الفلسطينية، وتابع مسيرته التعليمية في الأردن ودمشق وأخيراً حصل على شهادة الدكتوراه في جامعة الأزهر أكبر صرح تعليمي إسلامي.

وعندما احتل الروس أفغانستان عام 1979، كان عبدالله عزام من بين أوائل المسلمين المتعاطفين مع القضية الأفغانية من غير الأفغان الذين انضموا إلى مقاومة السوفييت. وقدم على الفور إلى إسلام آباد عاصمة باكستان. ولما تبين له بعد العاصمة الباكستانية عن ساحة الحرب، انتقل إلى بيشاور عاصمة الإقليم الباكستاني الشمالي الغربي المحاذي للحدود الأفغانية، وهو الإقليم الذي يحكمه بالدرجة الأولى الخوف والذخيرة. وهناك، وجد عزام ضالته: أفغانستان ستكون الحاضنة لإسلام قوي جديد، دين يضم المقاتلين والمجاهدين كالمقاتلين الذين كانوا في وقت النبي. وقد سبق لكل من سيد قطب وحسن البنا وضع أسس منهج الحركة الإسلامية المعاصرة، والأول هو مؤسس حركة الإخوان المسلمين والثاني هو الذي قام بنشر الفكرة. وفي إعادة لصياغة التعاليم القديمة لتناسب العالم المعاصر، سعى الاثنان إلى إقامة الحكم الإسلامي في مصر موطنهما الأصلي، وفي أي دولة تدعي أنها مسلمة. ولتحقيق ذلك الهدف، روج الاثنان إلى الثورة العارمة باسم الرب ضد الخونة، وضد الحكومات المرتدة في الدول الإسلامية. وقد قوبل هذا العصيان

بسياسات قمعية دموية شرسة، وإلى حد بعيد، فعالة في مصر. وبسبب هذا الرد، بقيت تلك الأفكار في إطارها النظري ومحصورة في أذهان النخبة الإسلامية إلى أن جاءت أفغانستان. وهناك رأى عزام الفرصة في تحقيق الوعود المجردة لسيد قطب وحسن البنا على أرض الواقع، وخوض معركة حاسمة من أجل الإسلام، لاستعادة العزة والكرامة، يقول عزام: "ومن أهم الفرائض الغائبة والواجبات المنسية فريضة الجهاد التي غابت عن واقع المسلمين فأصبحوا كغناء السيل"⁽¹⁾.

لقد كان الجهاد - كما يكتب عزام - هو سبيل عزة الأمة، ولا يمكن تحقيق عزة الأمة إلا خلف فوهة البندقية. وكان يقول: "الجهاد والبندقية وحدهما: لا للمفاوضات، لا للمؤتمرات، لا للحوار"⁽²⁾. لقد أشاع عزام، أكثر من أي رجل آخر، التصور الحديث للواجب الإسلامي بشن حرب مقدسة. وكان الهدف ليس بأقل من إعادة حكم الإسلام على الكرة الأرضية، وهو واجب عالمي. ويرى عزام أنه واجب يفرض على المسلمين كافة الانضواء تحت لوائه. واستشهد بالقرآن(*):

.. فيجب على كافة الخلق الجهاد والخروج فإن قصرُوا عصوا. فإذا كان النفيير عاماً لغلبة العدو على الحوزة أو استيلائه على الأسارى كان النفيير عاماً، ووجب الخروج خفافاً وثقالاً ركبانياً ورجالاً عبيداً وأحراراً، من كان له أب من غير إذنه، ومن لا أب له حتى يظهر دين الله وتحمى البيضة وتحفظ الحوزة ويخزي العدو ويستتقذ الاسرى ولا خلاف في هذا. فكيف يصنع الواحد إذا قعد الجميع؟ يعمد إلى أسير واحد فيفديه، ويغزو بنفسه إن قدر وإلا جهز غازياً⁽³⁾.

(*) هذا الاستشهاد ليس من القرآن كما ذكر المؤلف، بل هو استشهاد بكلام ابن العربي في أحكام القرآن كما هو مذكور في المصدر المحال إليه.

تقع بيشاور موطن عزام الجديد على رأس هضبة مطوقة بسلسلة من الجبال التي تمتد شمالاً وغرباً حتى ممر خيبر ومن خلفه أفغانستان. وتعتبر المدينة مدينة بشتونية - المجموعة العرقية الأكبر في أفغانستان - أكثر منها مدينة باكستانية، وقد سبق أن كانت المدينة عاصمة لأفغانستان في وقت من الأوقات. ومنطقة البشتون منطقة ذات طبيعة جغرافية قاسية وحياة أقسى، ولا يتوفر فيها أراض زراعية كافية، ولا حتى احتمالات العيش. ويطغى على المنطقة طابع شبيه بحياة الصحراء الأمريكية الغربية التي تتميز بالخشونة والوحشية. ويُعتبر البشتون في نظر الغرباء قوماً يتميزون بالمكر والدهاء، تماماً كطبيعة أرضهم، وأنه لا يمكن الثقة بهم. والثقة، كما يقول البشتون، ليست هي القضية. فهم يعيشون بمقتضى قاعدة بسيطة تقول: إذا حسدت الرجل على امرأته أو ذهبه أو أرضه، فإنك ستضطر، لا محالة، إلى التعامل مع هذا الرجل نفسه. ولا يظن أحد أنه سينجو بنفسه بعد هذه المواجهة.

تطورت بيشاور، على مدار العصور، إلى مكان معقد أكثر من غيرها من مناطق الإقليم، وذلك بفضل وقوعها على طريق تجارة الحرير القديمة بين أوروبا وآسيا؛ وأصبحت نقطة تقاطع عالمية بالنسبة للتجار والمحاربين ورجال الدولة. وكغيرها من المناطق الحرة، فإن تاريخها حافل بقصص المنازعات والتسويات والحروب. وأصبحت بيشاور في الثمانينيات عاصمة المقاومة الأفغانية. ومع التدخل السوفييتي، وبدونه، كانت السياسة الداخلية الأفغانية معقدة بفعل طبقات من الأحقاد الشخصية، والأيديولوجية، والقبلية، والإثنية، التي لم تحل طوال الألف عام التي مضت⁽⁴⁾. وكان التأثير المباشر لهذا التاريخ فيما يخص السوفييت هو مقاومة داخلية لهذا الاحتلال انعكست فيها طبقات الأحقاد والتعقيدات، وغالباً ما كانت عداوتها لبعضها لا تقل عن عداوتها للسوفييت.

وحتى قبل الاحتلال السوفييتي، كانت الحرب الأهلية على وشك الاندلاع. وكان هدف السوفييت هو تغيير حكومة عميلة بحكومة عميلة أخرى يؤمل منها أن تكون أكثر قبولاً لدى الشعب الأفغاني، وأكثر مطاوعة لموسكو. وكانت المعارضة المحلية للحكومة - وخصوصاً تلك التي تعتقد أن الحكومة تفتقر إلى الشرعية الإسلامية - قد بدأت بالفعل بتنظيم صفوفها المتمركزة في بيشاور⁽⁵⁾. وبعد الاجتياح السوفييتي تضاعف عدد جماعات المعارضة في الداخل ناهيك عن تلك التي في المنفى. وفي البداية كانت تلك الجماعات تعاني من شح الدعم المالي وانعدامه، واستطاعت البقاء عن طريق ما يمكنها تجنيده من الأفراد أو ما يمكنها سرقة من المال. إلا أن الدعم المالي - وعلى عكس ما كان يحلم به الأفغان - بدأ بالتدفق بغزارة. ومع حلول منتصف الثمانينيات كان يصل المقاومة أكثر من مليار دولار سنوياً. وكان تصنيف مجموعات المقاومة الأفغانية مهمة شبه مستحيلة، إلا أن تصنيف من يأخذ المساعدات كان أمراً ضرورياً. وتم تشكيل هيكل هرمي لفصائل المقاومة نزولاً عند رغبة وإلحاح الممولين وهم: الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية وباكستان. واعتمد الباكستانيون الذين كانوا يعتبرون أنفسهم بحكم القائم بجهود الحرب⁽⁶⁾ ستة من الأحزاب السياسية الأفغانية لتلقي الأموال وأضافوا حزباً سابعاً فيما بعد. وكانت هذه الأحزاب جميعها من الأحزاب الأصولية الإسلامية، وجميعها لها جيوش مستقلة عن بعضها بعضاً.

تحولت بيشاور بحكم كونها مركز المقاومة الأفغانية إلى قبلة للذين يرغبون بالالتحاق بالمقاومة من خارج أفغانستان. ونتيجة لجهود عبدالله عزام بالدرجة الأكبر، جاء آلاف المسلمين للانضمام إلى صفوف الأفغان في حرب مقدسة ضد الملحدين الشيوعيين. وقام عزام بتدويل الجهاد. وعمل دون كل أو تعب، وعلى مستوى العالم كمجدد للمتطوعين. وسافر إلى أوروبا ودول الشرق الأوسط وقام بعدة جولات في الولايات المتحدة لجمع الأموال للجيش الذي

يقوم بالجهاد ولو نظرياً. ويتمويل من التبرعات التي جمعت بشكل رئيس من المملكة العربية السعودية وغيرها من دول الخليج، وبمساهمات من دول باقي أرجاء العالم، فتح عزام مكاتب تجنيد في ثلاثين دولة بما فيها الولايات المتحدة. لم تكن كتاباته أطروحات فكرية، بل دعاية إيدلوجية، أشبه بكتابات توم بين وليس جون لوك. وحظيت نشاطاته في الولايات المتحدة بتأييد الحكومة الأمريكية التي اختارت أن تتجاهل محتواها وترحب وتعزز نتائجها.

كانت الولايات المتحدة واحدة من أبرز حلفاء المقاومة الأفغانية. فقد واجه الرئيس جيمي كارتر الاتحاد السوفييتي في حملته لحقوق الإنسان، وكان مستشاره للأمن القومي زبيغنيو بريجنسكي متحمساً لمواجهة السوفييت في ساحة الحرب عن طريق دعم طرف ثالث⁽⁷⁾. وتمشياً مع توصيات بريجنسكي، أقر كارتر المساعدات العسكرية والمالية للمقاومة الأفغانية حتى قبل الاجتياح السوفييتي. وقال بريجنسكي بأن الهدف الواضح من المساعدات السرية كان تشجيع التدخل السوفييتي، وهو ما حدث بالفعل. وانضمت السعودية في تقديم المال والمتطوعين إلى هذا التحالف غير الطبيعي المؤلف من المقاومة الأفغانية وباكستان وعزام والأمريكيين.

ويقول وحيد حمزة هاشم، الخبير بشؤون السياسة السعودية: "جعلت الحكومات المسلمة من قضية الجهاد الأفغاني قضية دينية، وسيلة لإحياء الإسلام، ومقاومة الغزو الثقافي الغربي، ومواجهة إيران والخطر الشيعي على السنة"، ويضيف هاشم، "وها قد جاء الغزو السوفييتي في وسط هذا كله. ورأى العالم العربي نفسه محاصراً. فالحكومات تستمد شرعيتها بشكل أساسي من السلطة الدينية. ورأى [الحكام] في ذلك فرصة لتعزيز رصيدهم الديني ومن ثم تعزيز سلطتهم السياسية. وللدفاع ضد إيران، عليك بالتعبئة الدينية. وللدفاع ضد السوفيت عليك بالتعبئة الدينية. وكأنهم يقولون - نحن

ذاهبون إلى الجهاد. فهل ترغب بالذهاب معنا؟ - وعندما بدأت التعبئة، لم تكن مؤسسية بل كانت محلية. فكل شخص كان مسؤولاً، وكل شخص شارك في العملية.

"قلو أراد رجل أعمال أن يؤدي زكاة ماله إلى أفغانستان، فإنه يتوجه بنفسه إلى هناك، فيستقل الطائرة ويذهب إلى أفغانستان. كان الفرد يملك السلطة والمسؤولية. وكان كل شيء محمومًا. لم يكن بالإمكان تنظيم العملية. ولم يكن بالإمكان السيطرة على الأمور. فقد نما الوحش وكبر"⁽⁸⁾.

وكان لكل واحد من الحلفاء - المجاهدين الأفغان والولايات المتحدة، وباكستان، والمملكة العربية السعودية - أسبابه الخاصة لمعارضة السوفييت: فالأفغان، من الواضح أنهم يريدون استعادة استقلال بلادهم؛ والأمريكان، وكما كان ديدنهم على مدى ثلاثين عاماً، كانوا يركزون على من يقاتلون - السوفييت - وليس أين يقاتلون؛ ولم يكن همهم أفغانستان، بل كان السياسية الواقعية؛ وكان السعوديون يحاولون حماية مراكز قواهم المحلية التي تركز على تحالف الحكومة مع السلطة الدينية؛ أما باكستان فكانت تريد السيطرة على أفغانستان بجعلها منطقة عازلة بينها وبين الخطر السوفييتي القادم من الشمال وحصناً ظهيراً لمهاجمة الهند من الجنوب. وقامت الحكومة السعودية بإرسال مئات الوعاظ وبلالين الدولارات. وأغدقت الولايات المتحدة الأسلحة عن طريق باكستان وقابلت كل مليون دفعته السعودية بمليون من عندها، وكلها تدخل أفغانستان عن طريق بيشاور.

كان عنف البنادق هو طريق الحياة والموت في المنطقة قبل حرب السوفييت بوقت طويل. وهناك مثل بشتوني يقول: حلي الرجل بندقيته. إلا أن ماضي المنطقة لم يشهد شيئاً بهذا الحجم. وتم تكليف جهاز الاستخبارات الداخلية الباكستانية بتنفيذ المصالح الأمريكية والسعودية. وكان هذا الجهاز

في ذلك الوقت، وما زال، أقوى جهاز حكومي في باكستان. وكان هذا الجهاز وبدرجة كبيرة مسؤولاً عن وضع الحكومات المتعاقبة وإسقاطها في باكستان منذ انفصالها عن الهند. ويوجد لدى قادة هذه الجهاز دوافعهم الدينية والسياسية في أفغانستان. وبالمقارنة مع بقية الأجهزة الحكومية، كان جهاز الاستخبارات الباكستانية أقواها نزعة إسلامية، وكان قادة هذا الجهاز يرغبون في تأسيس دولة إسلامية تابعة لهم في أفغانستان. وكان سعيهم نحو أهدافهم - من وقت لآخر - يتعارض مع أهداف الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية، الأمر الذي تسبب في خلق التشويش والصعوبات في إدارة الحرب منذ البداية. وقد أدرك المسؤولون الأمريكيون بأن تكليف هذا الجهاز بتسيق دفعة الحرب يعد قراراً خطيراً، ولكنهم كانوا يدركون أيضاً أنه ليس لديهم متسع من الخيارات. فقد أنشأ جهاز الاستخبارات الباكستاني عمليات إسناد ونقل جديدة أشبه ما تكون بخدمة يو بي أس (*) في مستوى العالم الثالث، وذلك لتوزيع فيضان الأسلحة المتدفقة. ولم تكن هذه الأسلحة من أسلحة العالم الثالث. فقد كانت أرتال الناقلات من فئة العشرة أطنان تنقل البنادق الأوتوماتيكية، والرشاشات وقاذفات القنابل، ومع اقتراب نهاية الحرب، تم إرسال صواريخ ستينغر المضادة للطائرات يومياً بعد تفريغها في ميناء كراتشي على بحر العرب إلى بيشاور ومنها إلى عمق الأراضي الأفغانية. وعلى الأقل، كانت تلك النية. والقسم الأكبر من هذه الأسلحة تعرض للسرقة أو خضع للضرائب قبل أن تصل الحدود (9).

كانت غالبية الذين لبوا نداء عزام إلى اللحاق بالقافلة - بحسب تعبيره - من العرب. يقول الجنرال حامد غول رئيس الاستخبارات الباكستانية في ذلك الوقت: لقد كانوا "أول كتيبة دولية في العصر الحديث. كان للشيوخيين كتائبهم

(*) شركة أمريكية لتوصيل الطرود البريدية.

الدولية، والغرب لديه حلف الناتو، فلماذا لا نتحد نحن المسلمين على جبهة واحدة؟" (10).

ومنحت باكستان تأشيرات الدخول لكل من هب ودب، وقدمت التسهيلات والإرشادات لكل شخص، ومن أي مكان، ويرغب في الالتحاق بالقتال. وقدمت شركة الطيران السعودية أسعاراً خاصة بنصف القيمة للجهاد من الرياض وجدة إلى بيشاور. وأرسلت الحكومات العربية البعثات وفتحت مكاتب لعشرات الجمعيات الخيرية المدعومة من الحكومات لتقديم المساعدات الإنسانية وتقديم العون للمقاتلين. وعلى مدى عشرة أعوام، تحولت أجزاء من بيشاور إلى ما يشبه مكة صغيرة.

يقول رحيم الله يوسفزاي، وهو صحافي من بيشاور ومن أبرز مؤرخي الحرب الأفغانية: "كانت بيشاور مدينة عربية مزدحمة - المطاعم العربية، البازارات، المخابز، ويضيف "خلال أيام الجهاد، كانت هناك صحف ومجلات عربية تصدر هنا. ورجال يلبسون الكوفية، ونساء منقبات".

جدة

ومن بين أوائل الذين لبوا نداء عزام أحد تلاميذه السابقين من جدة، واسمه أسامة بن لادن، أحد الأثرياء السعوديين العاملين في قطاع الإنشاءات. وحتى تلك اللحظة، كان ابن لادن يعيش حياة غير مركزة كغيره من أبناء الأسر الغنية في المملكة. وكان الابن الوحيد من زوجته الرابعة من بين زوجاته الثمانية، ولد عام 1957، وهو واحد من بين أولاده الخمسين. وكانت أعمال أبيه في ذلك الوقت في طور التوسع والنمو بعد أن أصبح المقاول المفضل لدى الأسرة الحاكمة السعودية. وكان محمد بن لادن، والد أسامة، بدأ حياة متواضعة كمهاجر يماني من مقاطعة حضرموت وسط اليمن، ليصبح فيما بعد أكبر متعهد لتعبيد الطرق في المملكة في الستينيات، وهي الفترة التي شهدت

فيها البلاد تدفق المليارات من عائدات النفط. وتضم المملكة أكبر بئر للنفط تم اكتشافه حتى الآن، إضافة إلى العشرات الأخرى. وبدأ تدفق النفط في مطلع الأربعينيات من القرن الماضي، ونتج عنه تحول كبير في البلاد. ومن بين الآثار العجيبة للثروة النفطية أن ظهر في البلاد فجأة آلاف الأثرياء من أبناء العائلة المالكة. وكان لديهم كافة الوسائل للحصول على رموز الثراء ولكن دون السياق الذي يمكنهم من إظهار تلك الرموز؛ فكان لديهم السيارات الفارهة ولكن دون الطرق المعبدة. وكان نجاح محمد بن لادن في بناء الطرق السريعة لأساطيل سيارات الفيراري والكاديلاك ممهداً لحصوله على أجلٍّ وأعظم صفقة يمكن أن يحلم بها أحد في المملكة وهو مشروع توسيع وإعادة ترميم الحرمين في مكة والمدينة. وقد أمنت تلك الصفقة ثروة الأسرة لأجيال لاحقة⁽¹¹⁾. إلا أنه وقبل أن يتم ذلك، توفي محمد بن لادن الذي كان قد طلق أم أسامة، في حادث تحطم طائرة. وحصل أسامة الذي كان طفلاً في ذلك الوقت على قسم من ثروة أبيه. ولا أحد يعرف بالضبط تقدير تلك الثروة، وهي تتراوح بين العشرات إلى مئات الملايين من الدولارات.

درس أسامة الاقتصاد والهندسة في الجامعة، ولكنه لم يحصل على أي دور فيما أصبح يعرف بمجموعة ابن لادن. ولا يوجد اتفاق في الرأي لماذا كان ذلك. ومن أقوى التفسيرات التي ذكرت تلك التي تقول بأن أسامة كان يطمح بدور قيادي في المجموعة بعد أن أكمل دراسته الجامعية إلا أنه همش وحيد من قبل أخوته الآخرين، إما لأنه كان يفتقد مهارات العمل، كما تذكر بعض المصادر، أو لأنه حاول السيطرة على المجموعة على حساب أخوته الأكبر سناً ولكن دون نجاح⁽¹²⁾.

ومهما كان السبب، فإنه عندما اجتاحت القوات السوفييتية أفغانستان، لم يكن لأسامة بن لادن أي نشاط في السعودية. فقد كانت الحكومة السعودية

والمؤسسة الدينية تجند المتطوعين للمساعدة في جهود الحرب. ويقول منتقدو الأسرة الحاكمة في السعودية بأنهم قاموا بذلك بالدرجة الأولى لإرضاء الأصوليين في المملكة، ولإظهار التزام الأسرة الحاكمة بالإسلام. وتبرعت الحكومة السعودية عن طيب خاطر بالأموال من الخزينة العامة، ومن تبرعات الأفراد العاديين، وشجعت المتطوعين. وقام ابن لادن الذي كان دائماً مسلماً ملتزماً بالتبرع من ماله وطلب منه تنظيم تبرعات أخرى.

إن القول بأن ابن لادن حتى ذلك الوقت كان مسلماً ملتزماً قد لا ينقل للقارئ الغربي ما يمكن أن تعنيه تلك العبارة. فقد كانت المملكة العربية السعودية من أكثر الدول المحافظة على وجه الأرض اجتماعياً وسياسياً ودينياً. ويقوم أساس الدولة، في جزء مهم منه، على التزام الحكومة بتلك النزعة الدينية المحافظة التي هي نتاج الاتفاق بين أسرة ابن سعود وعلماء مذهب أصولي متشدد يعرف بالوهابية. (ومع أن الآخرين يصفونهم بالوهابيين؛ إلا أنهم يصفون أنفسهم بالمسلمين) وقد نشأت الحركة الوهابية في وسط الجزيرة العربية في القرن السابع عشر، ويسمى أتباع هذا المذهب أنفسهم بالموحدين. ولدى الوهابيين رسالة إصلاحية قوية استطاعوا من خلالها جذب قبائل وسط الجزيرة إلى حركة عسكرية قوية كما يرى الباحث برينارد هيكل المتخصص بالإسلام السياسي في جامعة نيويورك. وقد تم القضاء على الدولة الوهابية الأولى على يد الحكام العثمانيين الذين كانوا قلقين من تلك الحركة. إلا أن الحركة عادت إلى الظهور وبشكل معدل نسبياً عندما قام الملك عبدالعزيز بن سعود والمشهور بابن سعود مؤسس المملكة العربية السعودية بإقامة أسس دولته وفتوحاته على المذهب المعروف بمذهب السلفية.

نشأت السلفية بين المفكرين المصريين، ثم امتدت خارج حدود مصر، وكان ذلك مصير كثير من المعارضين المصريين. وأصبحوا من المفكرين الإسلاميين

ذوي التأثير في الكويت والمملكة العربية السعودية، حيث تبنى الوهابيون الذين يحكمون البلاد معظم أفكارهم وآرائهم التي هي من نتاج القاهرة وليست من نتاج الصحراء، وكان لها بريق من المهابة الفكرية التي يفترق إليها أهل الصحراء⁽¹³⁾.

واستخدم ابن سعود حنكته العسكرية وقوته لهزيمة وإخضاع القبائل الأخرى في شبه الجزيرة العربية. كما استخدم معتقداته الدينية لإضفاء الشرعية على حكمه. وبقيت المعتقدات السلفية المذهب السائد والشامل في المملكة حتى يومنا الحاضر. وبحسب رأي بيرنارد هيكل فإن "السمة المميزة للسلفية تقوم على دعوة المسلمين المعاصرين إلى العودة إلى الإسلام النقي الذي كان سائداً في عهد النبي محمد وعهد صحابته وتابعيهم والذين يطلق عليهم السلف الصالح، ومن هنا جاءت تسمية كلمة سلفي. والرسالة السلفية رسالة طوبائية، يهدف أتباعها إلى تحويل الأمة الإسلامية وتحقيق هيمنة الإسلام كنظام دولة وطريقة حياة، على كافة أرجاء الأرض. والسلفيون ليسوا ضد التقدم التقني ولا ضد ثماره؛ ولكنهم يمقتون الابتداع في العقيدة وفي الممارسات التي لم يثبت لها أصل في العهد الإسلامي النقي"⁽¹⁴⁾.

ويرى السلفيون المعاصرون أن المساعدة في إقامة الحكم الإسلامي في أفغانستان هو واجب والتزام ديني، وليس مجرد رغبة أو خيار. وهذه هي الرسالة التي دعا إليها عبدالله عزام، وفي كثير من الأحيان وجدت هذه الرسالة آذاناً صاغية وجاهزة. قدم أيمن الظواهري، وهو طبيب شاب وناشط سياسي من أسرة مرموقة في القاهرة، إلى بيشاور في إجازة مؤقتة لتقديم المساعدة الطبية عام 1980⁽¹⁵⁾. وكان الظواهري ناشطاً في حركة الإخوان المسلمين في مصر. تلك الحركة التي كانت تخوض حرباً سرية مع الحكومة المصرية منذ عقود دون نجاح يذكر. ويعتبر عدم قدرة الحركة على صياغة

أسباب مقنعة لمواقفها المعارضة من بين الأسباب البارزة للصعوبات التي تواجهها الحركة. وامتد نقد الحركة للحكومة من أقصى اليمين الإيديولوجي - الإصرار على التطبيق الأصولي للشريعة - إلى أقصى اليسار - الإصرار على إشراك الشعب في الحكم. وفي أفغانستان، ظهر تفسير جديد أبرز نفسه بقوة. حيث كتب الظواهري لاحقاً يقول (*):

لقد أعلن الشباب المسلم الحرب في أفغانستان تحت رايات إسلامية خالصة، وهذه مسألة جوهرية؛ لأن كثيراً من حروب التحرير في عالمنا الإسلامي تمت تحت شعارات مختلطة مزجت بين الوطنية والإسلام، وفي أحيان أخرى جعلت الإسلام يختلط بالشعارات اليسارية والشيوعية. وقد أوجد ذلك انقساماً في تفكير الشباب المسلم بين العقيدة الجهادية الإسلامية التي يجب أن تقوم على الولاء الخالص لدين الله، وبين تطبيقاتها العملية... وفي أفغانستان، فإن الصورة في غاية الوضوح: الأمة الإسلامية تقوم بالجهاد تحت راية الإسلام، ضد عدو أجنبي معتد كافر، تدعمه حكومة عميلة مرتدة في الداخل. وفي هذه الحرب، فإن تطبيق النظرية على الحقائق واضح لا لبس فيه. وهذا الوضوح مفيد في دحض الغموض الذي أثاره كثير من الناس الذين يدعون القيام بالعمل الإسلامي، ولكنهم تخلفوا عن الجهاد تحت ذريعة عدم وجود ساحة يتضح فيها التمييز بين المسلمين وأعدائهم⁽¹⁶⁾.

أدرك أسامة بن لادن هو الآخر أهمية القتال في أفغانستان، والتحق في صفوف عبدالله عزام في بيشاور. وكان عبدالله عزام قد قام بتأسيس ما كان يطلق عليه مكاتب الخدمات التي مولها ابن لادن. وكان هدف هذه المكاتب هو

(*) ترجمة عن النص الإنجليزي.

أن تكون مركز جمع وتوزيع المتطوعين للجهاد من العرب الذين بدؤوا بالتوافد بأعداد كبيرة بحيث أصبح من اللازم أن يتولى أحد مهمة تنظيمهم، وليس بأقل من أن يقدم لهم الإرشادات حول كيفية الوصول إلى الحدود الأفغانية.

سياف أباد

قيل بأن بيشاور في وقت الجهاد كانت تحتوي على أكبر نسبة من الجواسيس والعملاء السريين والمتآمرين المرتزقة بالنسبة لعدد السكان في أي مدينة في العالم. كانت الأحاديث تفوح بالدسائس والغايات؛ ثمة شيء ما مهم في خطر. وكانت المدينة تجسد المكر والدهاء والخديعة ولكن في عالم بسيط. وبغض النظر عن البغية التي يسعى إليها كل طرف، فقد كان الهدف الوحيد الأوسع الذي يشترك فيه الجميع هو: إخراج السوفييت. كان كل شخص يعرف الآخر، يصلون ويتواصلون مع بعضهم بعضاً، بل ذهبوا إلى معسكرات تدريب الجهاد معاً. وقد أقامت الفصائل السياسية المختلفة عشرات من هذه المعسكرات حول بيشاور قبالة الحدود الأفغانية. وكانت المعسكرات مقسمة بحسب المذاهب الدينية والخلفية العرقية والأحزاب السياسية التي كانت سائدة قبل الغزو السوفييتي في المنفى. وبعضها كان مقسماً بحسب الهدف: فكانت هناك معسكرات لتقديم التدريب العسكري، وبعضها لصنع القنابل، وبعضها للتدريب على الأسلحة المتقدمة. كم تحددت المعسكرات بحسب الجهة التي كانت تقدم الدعم لها والهدف الذي أقيمت من أجله. وكانت غالبية المعسكرات تدار من قبل الأفغان لتدريب المجاهدين من بني جلدتهم الذين كانوا في غالبيتهم من المزارعين ويفتقرون إلى الخبرة العسكرية⁽¹⁷⁾.

طلبت الانقسامات العميقة والمتعددة بين المجاهدين أن يسعى طرف ما إلى توحيدهم، وإذا تعذر ذلك، فعلى الأقل تحديدهم لكي يسهل على الأمريكيين والباكستانيين والسعوديين معرفة كيف يوجهون أموالهم وخبراتهم.

وفي البداية، حاول الأفغان تنظيم مظلة من التحالف تجمع جماعات وأحزاب المعارضة كافة، إلا أن باكستان رفضت التعاون مع الجماعات غير الإسلامية. وتم تضيق التحالف فيما بعد ليستثني أحزاب المعارضة اللادينية والجماعات الشيعية. ووقع الاختيار على رجل حديث العهد ببيشاوور هو عبد[رب] الرسول سيف، الذي ينحدر من أصول بشتونية وعمل في السابق محاضراً في جامعة كابول ويعرف بلقب "البرفسور". كان سيف قد تلقى تعليمه في جامعة الأزهر في القاهرة، وأمضى عدة سنوات في السعودية ويتحدث العربية بطلاقة. وهو من الناشطين في حركة الإخوان المسلمين كعبدالله عزام والظواهري، وتشبع من مزيجها الغريب الذي يجمع بين الأصولية الإسلامية والمثل الديمقراطية الحديثة؛ وبالاختيار كان النصف الأصولي في المعادلة هو الأكثر إقناعاً. وذكر سيف أمام أصدقائه في وقت يعود إلى منتصف الستينيات بأنه يعارض الإصلاح الديمقراطي⁽¹⁸⁾.

كان سيف من بين قادة المعارضة الإسلامية للحكومة الشيوعية في أثناء عمله في جامعة كابول، وأدخل عام 1975 سجن بوليتشارخي الذي يشبه القلعة المحصنة ويقع في ضواحي كابول، وهو السجن الذي اشتهر بقصص التعذيب الوحشي التي وقعت بين جدرانها. وكان سيفاً من بين الأصوليين القلائل في السجن؛ فالبقية كانوا قد دفنوا في المقبرة الكبيرة التابعة للسجن، بحسب ما يذكر أمين فارهانغ أحد رفاقه في الاعتقال. لم تمنع احتمالات الموت سيف من إظهار معتقداته، فأبقى على لحيته الطويلة التي تعد رمزاً للتدين. وكانت لحية سيف طويلة جداً بحيث كان يلف جزءاً منها ويضعها في جيب معطفه عندما يأكل⁽¹⁹⁾. وقد أفرج عن سيف ورفيقه فارهانغ من السجن بموجب عفو عشوائي صاحب الاجتياح السوفييتي للبلاد. فتوجه سيف مباشرة إلى بيشاوور. وكان على معرفة بمعظم زعماء المعارضة، فبعضهم كان يعمل معه في

جامعة كابول. ونظراً لكونه من آخر الذين قدموا إلى المدينة، فقد كان من بين ذوي الاحترام والشأن في المدينة ممن ليس لهم أعداء بقدر ما لهم من الأصدقاء.

ويقول الصحافي الباكستاني يوسفزاي،: "كان [سياف] جديداً، وآخر من وصل إلى المدينة، وهو بذلك لم يكن قد اشترك في الصراعات والمنازعات الداخلية.... ولم تكن سمعته ملوثة بالفساد بعد".

وكانت جماعات المقاومة الستة الرئيسية تحاول تنظيم نفسها بما يشبه القوة الموحدة، تحت الوصاية الباكستانية. ووقع الاختيار على سياف كحل وسط بين قادة هذه الجماعات ليقود التحالف الجديد للفصائل كافة.

سافر سياف الذي يمثل الفصائل الأفغانية إلى السعودية حيث تحدث أمام مؤتمر يضم المتبرعين الحاليين والمحتملين. وكانت غالبية الأموال التي تأتي من السعودية هي أموال حكومية من خزانة الدولة يتم توصيلها عن طريق الحكومة الباكستانية. وكانت التبرعات غير الحكومية قليلة. إلا أن سيافاً استطاع فتح الباب أمام سيل من التبرعات الشعبية التي بقيت تتدفق لعشرين سنة لاحقة. ويقول روبرت إيستهام القنصل الأمريكي في بيشاور في ذلك الوقت: "لقد عاد سياف إلى بيشاور ومعه "حلة مليئة بالأموال"، ويضيف، "كان سياف عالماً، ولهذا لقي الاحترام. لقد استطاع توطين الرسالة الإسلامية السعودية المحافظة، كما أنه خطيب بارع من الطراز الأول"⁽²⁰⁾.

وبعد وقت قصير من عودة سياف إلى بيشاور، انفرط عقد تحالف فصائل المقاومة. فأسس سياف الاتحاد الإسلامي، أو حزب الوحدة الإسلامية، الذي أصبح سابع الأحزاب التي تعترف بها باكستان رسمياً وتتلقى منها الدعم. ووافق الأمريكيان والسعوديون على الخطة الباكستانية.

وقبل أن يصل سياف إلى بيشاور، كان قلب الدين حكمتيار وهو الآخر عضو في جماعة الإخوان المسلمين في أفغانستان، هو القائد المفضل لدى

السعوديين. أو على الأقل كان ذلك ما يعتقدُه الناس. ولم يكن ذلك شيئاً يمكن إثباته. ويقول إيستام: "كانت الأموال السعودية قوة جاذبة في بيشاور. إنك تشعر بها ولكنك لا تستطيع أن تراها"⁽²¹⁾. وبدأ سياف بمنافسة حكمتيار على المساعدات. وأصبح كلاهما المتلقي المفضل للأموال السعودية المغدقة، إضافة إلى الأموال الأمريكية التي كانت تصل عبر باكستان بمجموع كان يفوق مئات الملايين سنوياً. وقد أثبت سياف أنه جامع متميز للتبرعات. فقد كان ذكياً، ومتى أراد، يمكنه أن يكون مرحاً جذاباً. ومن القصص التي شاعت عنه في بيشاور أنه كان يستخدم الأموال السعودية ليعيش حياة بذخ وترف، ولكن عندما كان يحين زيارة مموليه السعوديين كان يرسل أثاثه الفاخر إلى المخزن ويستبدله بفراش متواضع. وعندما يسأله زواره لماذا يعيش حياة بسيطة، كان يرد قائلاً: "كيف أريح رأسي على وسادة ناعمة والمجاهدون يتوسدون الحجارة؟".

يقول ميلتون بيردن الذي كان يتولى عمليات وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA في ذلك الوقت: "عمل سياف مع حكمتيار، ثم انفصل عنه. إذ لم تكن هناك غرفة يمكنها أن تتسع لهذين الشخصين العملاقين في وقت واحد"⁽²²⁾. "كان السؤال الوحيد هو: هل تملك قادة حقيقيين يقفون خلفك؟ والجواب نعم. ومن بين الأحزاب الأصولية، تميز سياف عن الآخرين بسبب إجادته اللغة العربية وبسبب روابطه بجماعة الإخوان المسلمين. وبالنسبة للبيشتون كان هو خيارهم الأوحده".

شكّل انفصال سياف عن حكمتيار بداية حلقة الخيانة والغدر التي وصمت بها الأحزاب السبعة لعقود لاحقة، والتي عانى منها كل شخص في أفغانستان. ومع ذلك، فقد جعلت الأموال من سياف شخصية مهمة. واستطاعت تمويل حزبه حزب الوحدة الإسلامية، والجيش والضباط الذين يقودونه، إضافة إلى صحيفة، ومخيم ضخمة للاجئين، وحتى كلية تسمى جامعة الدعوة والجهاد.

وأصبحت الجامعة تعرف بأنها المكان الذي يمكنك أن تتعلم فيه مهارات شريرة غير الحساب والرياضيات - كصنع القنابل مثلاً. وقد وصفها أحد الطلاب للصحفية الأمريكية ماري آن ويفر بأنها ساندهرست إسلامية، مشبهاً إياها بالأكاديمية العسكرية البريطانية المشهورة، ولكنها مع ذلك، كانت كلية أصيلة تضم أكثر من ألفي طالب يدرسون الهندسة، والتقنية الطبية، والآداب. وتقع الكلية المبنية من الحجارة والطين التي تضم مساكن للطلاب، والملاعب الرياضية، وسط مخيم جالوزي للاجئين الذي يأوي أكثر من مئتي ألف لاجئ أفغاني، والمحاط بحقول التبغ والسكر، قرب مدينة بابي، على بعد حوالي 30 ميلاً من بيشاور. وهذه المدينة كانت مخيماً أكثر منها مدينة، واعترافاً بالحقيقة على أرض الواقع، أطلق عليها الباكستانيون اسم سيف أباد. وقد أعجب السكان المحليون ببراعة اللاجئين الأفغان الذين بنوا اقتصاداً محلياً زاهراً من لا شيء، يضم أفران الخزف، نساجات الأقمشة، وطواحين الخشب التي تمخض العرائش والأثاث؛ وكان هناك أسواق مليئة بالفجل الياباني، والبطاطس، والملفوف، والفلفل، والزهرة، والتين، والتمر، والبرتقال والشمام، الأبيض، والمندلينا. وكان هناك حتى محطة لغسيل السيارات.



■ الفصل الثاني ■

البدون

فحاحيل

ليس من المبالغة في شيء قول الناس لولا النفط لما كان هناك شيء في ممالك الصحراء في الخليج الفارسي. فقبل النفط لم يكن هناك ما يستحق الذكر، إلا أن المنطقة لم تكن خالية تماماً. فقبل النفط، كان هناك، بالطبع، الصحراء، والرمال، وبعض واحات النخيل، إضافة إلى عدد قليل، وقليل جداً من الناس. فبعد سنوات قليلة من اكتشاف النفط، تضاعف تعداد سكان المنطقة إلى ضعفين أو ثلاثة أضعاف في العام. ولم يقتصر النفط على إثراء المنطقة بل عمل على تغييرها تغييراً جذرياً.

وينطبق الحكم السالف على مدينة فحاحيل مدينة المغتربين المزدهرة في الكويت شمال شواطئ الخليج، فلولا النفط لما كانت هناك مدينة، فقط رقعة أرض زراعية خاملة على حافة واحة تقع على الطريق المؤدي إلى المملكة العربية السعودية. ويتذكر المسنون من سكان الكويت تلك الطريق جنوبي مدينة الكويت العاصمة، كممر عبر الصحراء لا تقصده سوى بعض الحافلات والجمال بين الحين والآخر، إضافة إلى خيمة بدوية كانت علامة على الطريق. إلا أن ذلك تغير مع النمو الذي شهدته البلاد بعد اكتشاف البترول في الأربعينيات. وخلال عقد من الزمان، تحولت فحاحيل ونمت فوراً إلى مدينة ذات خليط عالمي من سكان جاؤوا دفعة واحدة وعلى عجل، من كافة أقطار العالم. ويشبه هذا الخليط من المغتربين في تكوينه خليط المغتربين في بقية

مدن الخليج: فلسطينيون، لبنانيون، سوريون، مصريون، أردنيون، باكستانيون، وهنود، وحتى الأمريكان والإنجليز جاؤوا من أجل النفط، أو بالأحرى، جاؤوا من أجل الوظائف التبعية التي أوجدها اقتصاد النفط.

انضم إلى هذه الطفرة شخص يدعى محمد علي دوستن بلوشي في منتصف الخمسينيات، وأحضر معه زوجته الجديدة حليلة، تاركاً خلفه حياة صعبة، واحتمالات اقتصادية أصعب في موطنه بلوشستان⁽¹⁾. ويحمل كل من محمد وحليمة جوازات سفر باكستانية، وكبقية سكان بلوشستان، فإن ذلك من مقتضيات الضرورة أكثر منه لاعتبارات الولاء. فبلوشستان هي منطقة صحراوية قاحلة تقع بين الحدود الاسمية بين إيران وأفغانستان وباكستان، ولا يعتبر سكانها أنفسهم مواطنين لأي دولة سوى دولتهم [بلوشستان]. وبلوشستان هي واحدة من أقدم المناطق التي سكنت على وجه الأرض. ولها ساحل يبلغ طوله ألف ميل على البحر العربي، وقطع سكانها البحر منذ قرون عدة، واشتهروا بكونهم تجاراً ومحاربين محترفين. كما اشتهر عنهم عبر العصور بأنهم مقاومون شرسون بغض النظر عن من كان سيحكمهم في تلك اللحظة. ونسوق بعض الأمثلة: لم يستطع جيرانهم الفرس تجاوز منطقتهم لأكثر من ألف عام؛ وذاق الإسكندر المقدوني أسوأ هزيمة له هناك؛ أما الحكام العرب الذين اجتاحوا المنطقة بعد وفاة النبي محمد، فقد نصحهم مستشاروهم بعدم التعرض لبلوشستان لأنك "إن أرسلت جيشاً صغيراً فسوف يهزم، وإن أرسلت جيشاً كبيراً فسوف يموت جوعاً وعطشاً"⁽²⁾.

ولا يزال التنقل بين مناطق بلوشستان يتم دون الاعتراف بالحدود الوطنية التي تقطعها. ولد محمد علي دوستن في الجزء الإيراني من بلوشستان، وولدت حليلة في الجزء الباكستاني من الإقليم. وبصرف النظر عن الوعد الاقتصادي الذي جلبهما عبر الخليج الفارسي، فقد وجد محمد نفسه إماماً

لمسجد باكستاني في أحد أحياء مدينة فحاحيل على جانب طريق ساحلي يسمى مخيم البدو⁽³⁾. وهناك في ذلك المكان، أضيف اللقب التشريفي "شيخ" إلى اسمه اعترافاً بعلمه بالقرآن وقدرته على تدريسه. وفي ذلك المكان أيضاً نمت أسرته لتضيف إليها أربعة أبناء وثلاث بنات. وولد ابنه الثالث عام 1965 وسمي خالد شيخ محمد.

تحوّلت قطعة الأرض التي كانت تضم مسجد مخيم البدو، والذي لا يبعد كثيراً عن ساحل البحر أقصى جنوب فحاحيل، إلى موقف سيارات تابع لمطاعم بيرغر كينغ على بعد بضعة مئات من الأمتار عن أبراج مصفاة البترول الكويتية على ساحل شويبع. وربما ذهب المسجد؛ إلا أن نواياه ومقاصده لم تذهب: فما زالت لافتة الشارع المتاخمة لموقف السيارات تقول وبدون قيد أو شرط "السعادة في الإسلام".

عبر ميناء شويبع استطاعت الكويت الدولة الصغيرة - التي تحتوي على مخزون نفطي هائل لا يضاهيه سوى مخزون السعودية - أن تحوّل هذا المخزون إلى ثروة جعلت من الكويتيين من بين أغنى شعوب العالم وأكثرهم ترفاً. فبعد أن كانت حقوق الكويتي عند ولادته لا تتعدى نصيبه من إبل أبيه؛ يتمتع الكويتي اليوم بجملة من العطايا والهبات الحكومية تتمثل بالقروض السكنية، ومنح الزواج، والرعاية الصحية، والتعليم من الطفولة وحتى التعليم الجامعي، والدخل المضمون وقت التقاعد.

ويظهر الخلل الرئيس للحياة المزدهرة والغنية في الكويت في أن هذه الضمانات متوفرة حصراً لأقل من نصف سكان الكويت البالغ تعدادهم مليوني نسمة. فغالبية سكان الكويت هم من غير المواطنين، ولن يمكنهم في يوم من الأيام أن يكونوا كويتيين. وعلى الرغم من أن الحكومة خففت من قيود الحصول على الجنسية بعض الشيء في الأعوام السابقة، إلا أن معظم العمال

المهاجرين وأسرههم يبقون غير مؤهلين للحصول على الجنسية. وقد أدى هذا الوضع إلى إيجاد نظام طبقي يفصل بين من يحمل الجنسية وهم السكان الكويتيون الأصليون، ومن لا يحمل الجنسية من العمال المغتربين والذين يطلق عليهم في اللغة المحلية لفظ البدون.

والبلوش، وبغض النظر عن طول المدة التي يقضونها في الكويت، سيبقون دائماً من البدون. وتلك حقيقة سياسية عاشتها أسرة محمد علي دوستن وغيرهم من آلاف العمال المغتربين. وفي تلك السنين، كانت الكويت مركزاً للنشاط السياسي الفلسطيني، حتى إن منطقة من مناطق مدينة الكويت كان يطلق عليها اسم الضفة الغربية؛ وكان لمنظمة التحرير الفلسطينية مكتب في تلك المنطقة. وعمل ياسر عرفات هناك كمهندس مدني بعد حصوله على شهادة الهندسة من مصر. والواقع أن الفلسطينيين كانوا يشكلون غالبية طبقة المهنيين الوسطى في صفوف المعلمين والمهندسين. وهذا يشمل غالبية المعلمين في المدارس الكويتية ومنها تلك التي درس فيها أولاد الشيخ محمد.

كان الأولاد كلهم من الطلاب المتميزين وكانت لديهم ميول تقنية. والتحق أخواه الأكبر منه وهما زاهد وعارف بجامعة الكويت، حيث تزعم زاهد الحركة الطلابية التابعة لجماعة الإخوان المسلمين، وهي منظمة عربية جامعية متطرفة تتزعم المعارضة السرية في الشرق الأوسط. وكان حرم الجامعة أيضاً مركزاً لمجموعة تسمى التجمع الإسلامي للطلبة الفلسطينيين، وكانت تضم أعضاء أصبحوا فيما بعد قادة في الجماعة الفلسطينية حماس. عمل زاهد مع الفلسطينيين وأصبحت أهداف هذه المجموعة محل اهتمامه المتواصل⁽⁴⁾.

شهد معظم الشرق الأوسط خلال فترة السبعينيات، في أعقاب هزيمة العرب عام 1967 ورحيل الرئيس المصري جمال عبدالناصر - الزعيم السابق للوحدة العربية اللادينية - تحولاً متعنتاً نحو الدين. فقد فشلت القومية

العربية اللادينية، وظهر الدين بوصفه البديل الأساسي لمصدر الهوية والهيبة الإقليمية. وبحسب تعبير شفيق غبرا، المحلل السياسي في جامعة الكويت: "كان ذلك أشبه ما يكون بفراغ هائل، ولم يكن بمقدور أحد أن يملأه أفضل من الإسلاميين المتنامين"⁽⁵⁾، وانتشر في المنطقة شعور بالخسارة الفادحة؛ وكأن العرب فقدوا فرصتهم الحقيقية باستعادة موقعهم، وللحاق بالعالم المتحضر.

ثم ما لبث أن وقعت حادثتان مزلزلتان هزتا العالم الإسلامي عام 1979: قيام جيش شعبي إسلامي بالإطاحة بنظام الشاة في إيران وإقامة جمهورية إسلامية مكانه؛ واجتياح الجيش السوفييتي أفغانستان المسلمة وإقامة حكومة شيوعية فيها. ألهب هذان الحدثان التخيلات والتصورات في الإسلام. وانتشرت الآراء السياسية والاحتمالات في كل مكان. وحتى مع عدم وجود وسائل الإعلام النافذة في كل مكان كما هي الحال في الغرب، تنتقل الأفكار بسرعة في العالم العربي عن طريق المشافهة. ففي الكويت، تنتشر المناقشات والآراء بفضل التصميم التقليدي للبيت الكويتي الذي يضم ما يسمى الديوانية، والموجودة في كل منزل كويتي، وفي الغالب في الطابق الأرضي وبمدخل منفصل عن مدخل المنزل، وتصمم هذه الديوانيات خصيصاً لتسهيل المحادثة والمناقشات. وتقابل ما كان يعرف قديماً في الولايات المتحدة بغرفة الجلوس. وتؤدي الديوانية وظيفة النادي للحي. إذ يتجمع الرجال، والرجال فقط، فيها كل مساء فيجلسون على الأرض ويتكئون على الوسائد، ويتناولون الشاي ويأكلون التمر، ويتحدثون، ويشاهدون مباريات كرة القدم، ويناقشون أحداث اليوم. وتمثل الديوانية بذلك محطات البث الإعلامي في الكويت.

ومن بين أبرز الموضوعات التي تجري مناقشتها في فحاحيل بين المغتربين الباكستانيين موضوع الحلم القديم المنسي باستقلال بلوشستان. والبلوش، كباقي المغتربين، يخططون. تزوجت ابنة الشيخ محمد واسمها حميدة من

محمد عبدالكريم، وهو من بلوشستان ويعمل في صناعة النفط في الكويت ولكنه أبى أن يترك سياسات بلوشستان خلفه⁽⁶⁾. وكان من الوطنيين المتحمسين، ونظراً لأنه مضى وقت طويل على الحلم الوطني البلوشي دون أن يتحقق، فإن المشاعر الوطنية البلوشية تتصف بنزعة عنيفة شرسة. ويتردد صدى المحاربين فيما وراء هضبة ماكران، وهي سلسلة الجبال التي تحمي عمق بلوشستان من البحر ومن الأعداء القادمين منه. وفي كثير من الأحيان، كانت جيوش مشيخات الخليج الفارسي مكونة في معظمها من البلوش. وحتى التهويدة التي تغنى للأطفال وقت نومهم تذكر الأولاد الصغار بأنهم في صراع دائم لتحقيق استقلال بلوشستان ومجدها، وأنهم في أي لحظة سيلبون نداء المعركة. وفي إحدى القصائد الشعبية البلوشية تقول:

عندما ينبت الشعر على شجر النخيل

ويصبح ابن آوى حارساً على الدجاج والطيور

وعندما ترعى الأسود مع الإبل في الحقول

ويصبح القطن مقاوماً للحريق

وتصبح الفيلة في حجم حبة الدخن

وعندما يصبح السمك قادراً على العيش دون الماء

عندئذ يمكن للمصالحة أن تتم

وإذا أمكن للحجارة أن تذوب في الماء، فيمكن إخضاع روح الانتقام

إلا أن الحجارة لا تذوب، وروح الانتقام لا تنطفئ في قلب البلوشي

فهي مشتعلة منذ قرنين من الزمان، وستبقى ذكية كسبع صغير في مقبل العمر.

وفي فحاحيل، مزج عبدالكريم وطنيته البلوشية بالمذهب السلفي، وهو مزيج منشط⁽⁷⁾. وهو المذهب ذاته الذي كان يدعو إليه صهره وابن جلدته محمد علي دوستن.

كان خالد شيخ محمد أصغر بكثير من بقية أشقائه في الأسرة، وكان لأخته حميدة أبناء من عمره تقريباً. ودرسوا جميعاً في مدرسة واحدة، وكانوا يذهبون معاً إلى المدرسة المكونة من ثلاثة طوابق والمبنية من الحجر. وهي مدرسة للذكور فقط وتستوعب 1200 من الطلبة. وكانت المدرسة، وما زالت، تتسم بالحزم والانضباط: فالطلاب يلبسون زياً موحداً هو قميص أبيض وسروال رمادي، ويسير مدير المدرسة بين الصفوف حاملاً بيده عصاً من الخيزران يستخدمها في تأديب الطلبة المشاغبين. ويذكر الشيخ أحمد دبوس وهو صديق للعائلة ومدرس مادة التربية الإسلامية في المدرسة بأن "خالد شيخ محمد كان متميزاً في الدراسة وبخاصة في مباحث العلوم".

توفي الأب قبل أن ينهي خالد المرحلة الثانوية؛ وتولى زاهد وعارف مسؤولية متابعة دراسة أخيه الأصغر، وساعداً كذلك في تثقيفه السياسي. وشارك خالد أيام شبابه في مخيمات الشباب الصيفية في الصحراء، وفي هذه المعسكرات يجري الحديث عن الجهاد بشكل دائم. وقد افتتن خالد بتلك الفكرة⁽⁸⁾. وتبع خطوات أخيه زاهد، وانضم في السادسة عشرة من عمره إلى جماعة الإخوان المسلمين⁽⁹⁾. وكان زاهد وقتها يعمل مدرساً في مدرسة تقنية. ويفكر بالذهاب إلى الولايات المتحدة لمتابعة دراساته العليا، إلا أن الأسرة قررت أنها لا تستطيع تحمل مصاريف أكثر من ابن واحد للسفر خارج البلاد للتعلم، ونظراً لكونهم من البدون، فإنهم غير مؤهلين للاستفادة من المنح الحكومية السخية للدراسة. وفي خطوة تعكس الإيثار والكرم بالنظر إلى ما يعنيه ذلك بالنسبة لمستقبلهما الشخصي، قرر الأخوان الأكبران إرسال خالد إلى الولايات المتحدة لمتابعة دراسته. وبقياً في الكويت يعملان لتأمين مصاريف دراسته. يقول دبوس: "لقد كان خالد عبقرياً وذكياً في كل شيء"، ويضيف، "منذ بداية دراسته العلوم، كان يطمح إلى الذهاب إلى أمريكا من أجل متابعة دراسته والحصول على شهادة الدكتوراه من هناك".

نورث كارولينا

التحق خالد بكلية تشوان، وهي كلية صغيرة تابعة للكنيسة المعمدانية في ولاية نورث كارولينا، وبدأت مؤخراً بقبول أعداد لا بأس بها من الطلبة الأجانب. وتقع تشوان بين حقول القطن ومزارع التبغ والغابات الكثيفة غربي ولاية نورث كارولينا وعلى مقربة من الحدود الجنوبية لولاية فيرجينيا. تأسست الكلية عام 1848 لتكون مدرسة لتعليم بنات المنطقة تحديداً، ثم تحولت فيما بعد إلى كلية متوسطة تؤهل طلبتها لشهادة الدبلوم. وكانت أسس القبول فيها متساهلة، وقيمها متدنية، ويضمن محيطها الريفي الأخضر في منطقة مورفريزبورو المعزولة، حيث لا يوجد بار واحد أو حتى مطعم للبيتزا، أن من يأتي إلى هذه الكلية سيبقى مستقيماً وملتزماً في سلوكه. وقد مرت أجيال من القساوسة والمعلمين، وغيرهم من وجهاء المدينة من خلال أروقة كلية تشوان.

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية، بدأ خريجو الكلية من البعثات التبشيرية في الخارج بتوجيه الطلبة الأجانب إلى كليتهم. وفي الثمانينيات كانت غالبية الطلبة الأجانب فيها من الشرق الأوسط. فقد انتشر في الخارج أن كلية تشوان لا تتطلب اجتياز أي امتحان للغة الإنجليزية كشرط لقبول فيها، وهو ما تتطلبه غالبية الكليات من الطلبة الأجانب. وكان الطلبة الأجانب يدرسون فصلاً دراسياً أو اثنين لتحسين لغتهم الإنجليزية، ثم يتم تحويلهم إلى الجامعة. تقدم محمد بطلب التحاق إلى الكلية بوصفه باكستاني الجنسية عقب حصوله على شهادة الثانوية العامة من مدرسة فحاحيل الثانوية عام 1983. وذكر للمسؤولين في الكلية بأنه سمع عن كلية تشوان من أصدقائه في الكويت. ودفع كامل رسوم دراسته في فصل الربيع والبالغة \$ 2.245 في اليوم الذي حصل فيه على القبول، والذي وافق العاشر من يناير/ كانون ثاني عام 1984.

يقول معارف خالد شيخ بأنه اندمج ثقافياً في المجتمع العربي والكويتي، وكان يصعب تفريقه عن باقي الكويتيين. ويذكر بدوي هندية، وهو فلسطيني

من فحاحل وكان يدرس في تشوان مع خالد شيخ في ذات الوقت: "كان خالد شيخ يتحدث العربية بطلاقة باللهجة الكويتية، ولكنه كان يقدم نفسه على أنه باكستاني"، ويضيف هندية، "وكنا نعلم أنه بلوشي"⁽¹⁰⁾.

وفي عام 1984 كان من بين الطلاب الذكور في تشوان والبالغ عددهم 650 طالباً حوالي 50 من الشرق الأوسط، ومن بينهم عدد لا بأس به من فحاحل والكويت. وكان الطلاب المحليون يستهزئون بهم، وينادونهم بلفظة "آبي دابي" وهي عبارة عن تحريف استهزائي لاسم إمارة أبو ظبي في الإمارات العربية المتحدة. وكان الطلاب العرب موضع النكت والتهمك والمضايقة، وبخاصة في الفترة التي شهدت تصاعد المشاعر العدائية ضد المسلمين التي تلت حادثة احتجاز الرهائن الأمريكيين في السفارة الأمريكية في طهران عام 1979⁽¹¹⁾.

يقول السكان المحليون بأن الطلبة الأجانب كانوا يشكلون عصابة منعزلة. ويذكر جون فرانكلين تيمبرليك وهو ضابط شرطة في مورفريزبورو ومن خريجي كلية تشوان عام 1984: "ظهروا وكأنهم يقضون معظم أوقاتهم في الصلاة. وكنا نسمعهم يرددون ما يشبه الترانيم. ولم نكن نفهم شيئاً مما يقولون. وفي بعض الأحيان كنا نعود إلى البيت متأخرين في عطلة نهاية الأسبوع، بعد تناول بعض البيرة. فكنا نجدهم يصلون"⁽¹²⁾. وكان يتوجب على الطلبة العرب حضور قداس مسيحي مرة في الأسبوع عدا عن صلاتهم الخاصة.

سكنت مجموعة كبيرة من الطلبة الشرق أوسطيين في باركر هول، وهي بناية سكنية مرتفعة للطلاب مبنية من الطوب وتشرف على بحيرة فان المجاورة للحرم الجامعي، وهي منتجع مائي هادئ على شكل هلال ترتاده الطيور المهاجرة والأفراد الراغبون بالاستمتاع بالمنظر الخلاب. وكانت مجموعات من الطلاب العرب تتجمع في غرفة السكن في الطابق الخامس من البناية ويتبعون ما يشبه المراسيم: يطبخون دجاجة مع الأرز ويوزعونها على جميع

الحضور ثم يصلون، ويتحدثون قبل أن يصلوا ثانية. وبحسب التقاليد الشرق أوسطية، كانوا يتركون أحذيتهم خارج الغرفة في الممر. وكان يصعب على بعض الطلبة الأمريكيان مقاومة فكرة اختلاس هذه الأحذية التي كانت توجد فيما بعد عائمة في البحيرة المجاورة. ومن المكائد الأخرى التي استخدمت ضد الطلبة العرب ملء برميل القمامة من سعة 55 غالون بالماء وإسناده بشكل مائل على بوابة "الآبي دابيز" وطرق الجرس ثم الفرار. وعندما يفتح أحد الباب، ينكفئ البرميل وتغمر المياه الغرفة.

أتم خالد شيخ المواد التحضيرية للهندسة التي كانت شائعة بين الطلاب الأجانب؛ وحصل على علامات جيدة، ولكنها لم تكن استثنائية، وترك الكلية بعد فصل واحد⁽¹³⁾. وفي صيف عام 1984 التحق بكلية الهندسة في جامعة نورث كارولاينا التقنية والزراعية والواقعة في غرينزبورو، وهي جامعة تعتبر من الناحية التاريخية جامعة للسود تقع في سفح هضبة بيدمانت في وسط الولاية. وعلى العكس من كلية تشوان المرممة، كانت جامعة نورث كارولاينا للتقنية والزراعة ذات ماضٍ حافل بالنشاط السياسي. فقد تخرج فيها زعيم الحقوق المدنية القس جيسي جاكسون، وفي الأول من فبراير/ شباط من عام 1960، أقام طلاب الجامعة أول اعتصام في محلات وولورث وسط مدينة غرينزبورو احتجاجاً على سياسات الفصل العنصري. وفي الوقت الذي التحق فيه خالد شيخ بالجامعة كان تشكيل الطلبة قد شهد تنوعاً ملحوظاً، إذ كانت فيها مجموعات لا بأس بها من البيض، ومن ذوي الأصول الشرق أوسطية.

يعد التعليم الجامعي في الخارج مرحلة انتقالية بالنسبة للغالبية العظمى من الطلاب الشباب في الشرق الأوسط. وفي العادة تشكل هذه التجربة بداية تعرض طويل الأمد للحياة الغربية. بعضهم يخرج من هذه التجربة مشمئزاً مما شاهده. وبعضهم الآخر يفتن وينبهر بما وجد إلى أبعد الحدود.

يقول خليل عبدالله أحد خريجي جامعة نورث كارولينا للتقنية والزراعة عام 1987: "كنا جميعاً متحمسين للذهاب إلى الولايات المتحدة. فقد شاهدنا الأفلام، وسمعنا الأغاني، وكنا في أشد الشوق إلى الذهاب"⁽¹⁴⁾.

انضم إلى خالد الشيخ في غرينزبورو ابن أخته عبدالكريم عبدالكريم الذي غادر الكويت في ذات الوقت الذي سافر فيه خالد شيخ، ولكن عبدالكريم توجه إلى أوكلاهوما ليمضي فيها فصلاً دراسياً قبل الالتحاق بجامعة التقنية والزراعة ليتخصص في الهندسة الصناعية. وكان الاثنان ضمن المجموعة الشرق أوسطية في قسم الهندسة. وهو تخصص طبيعي للطلبة القادمين من دول مصدرة للنفط.

ويميل الطلبة القادمون من الشرق الأوسط عادة إلى العيش خارج الحرم الجامعي في تجمعات منزوية مثل يوركتاون و كولونيا. ولما يأكلون في الكافتيريا، وغالباً ما يتغيبون عن المناسبات المنظمة. وبينما تنتهي مجموعات طلبة "الزراعة" للذهاب إلى مباريات كرة القدم الأمريكية يوم السبت، يقوم الطلاب الأجانب بتنظيم مباريات كرة القدم في الحديقة العامة.

ويقول كوينتين كلاي: "كانوا يمضون أوقاتهم معاً"⁽¹⁵⁾، ويضيف، "وبالنسبة لغالبيتهم، كانت لغتهم الإنجليزية تعيسة مطلقاً. اشتركت مع أحدهم [خالد شيخ] في مادة تصميم متقدم. وفي الواجبات الدراسية المشتركة كان قدرتي أن أشترك مع واحد منهم فيها دائماً. وكان ذلك يسبب لي الكثير من الإحباط. وبالنسبة للموهبة، كنت أتساءل كيف استطاع هؤلاء أن يصلوا إلى هذه المرحلة من التعليم الجامعي".

ويستذكر سامي زيتاوي وهو أحد الكويتيين، تجمع الطلاب العرب يوم الجمعة، وهو اليوم المقدس لدى المسلمين، قائلاً: "كنا نعيش حياة جامعية: كنا نجتمع معاً ثلاثة أو أربعة مرات في الأسبوع، نشاهد المباريات، نتحدث، نشرب

الخمير،..كنا نذهب إلى المزارع المجاورة نشترى خروفاً أو ماعزاً، نذبحه بالسكين... وكل جمعة يقوم أحدنا بتجهيز طعام العشاء: خمسة عشر، أو عشرين، أو خمسة وعشرين طالباً⁽¹⁶⁾.

وكانت المناقشات السياسية واقعاً لا مفر منه. وفي العام الذي سبق قدوم خالد الشيخ، تظاهر الطلبة في غرينزبورو للاحتجاج على المجزرة التي تعرض لها الفلسطينيين في مخيمات اللاجئين في لبنان عام 1982 - على الرغم من أن الزائرين العرب تعودوا على كتم انتقاداتهم - وكان الطلبة القادمون من الشرق الأوسط أبعد ما يكونوا عن التوحد. فالفروق السياسية والثقافية وتطبيقهم للإسلام، كل ذلك أضعف تماسكهم.

ويذكر محمود زبيد، وهو مهندس معماري كويتي: "بشكل عام، ما تشاهده هناك كان انعكاساً لمجتمعاتنا الصغيرة في الوطن الأم"، ويتابع، "ووجد كل شخص نفسه في المحيط الأكثر راحة بالنسبة له... والمشكلة هي أنه لم تكن هناك جالية عربية. كان هناك كويتيون، فلسطينيون، أردنيون. مجموعهم حوالي 200 إلى 300 شخص، إلا أنهم كانوا يخالطون أبناء جنسيتهم فقط. هذه مسألة واحدة. لقد كنا نخالط الكويتيين فقط. فكان مجتمعنا الذي نعيش فيه، من بين المئتين أو الثلاثمائة، مكوناً فقط من حوالي عشرين شخصاً فقط"⁽¹⁷⁾.

وكان هناك حاجز إضافي يفصل بين الطلبة الكويتيين المبعوثين على حساب الدولة من أمثال زبيد وبين الطلبة من أمثال محمد شيخ: فالبلوش والفلسطينيون كانوا يعتمدون على دعم أسرهم لهم أو على بعض المنح القليلة لتغطية الرسوم وكلفة الإقامة. إلا أن الدين كان هو الخط الفاصل الحقيقي. ففي كل تجمع كبير للطلبة الشرق أوسطيين في الجامعات الغربية، لا بد أن تنشأ فيها مجموعات دينية محافظة. ويحاول أفرادها الذين ينصبون أنفسهم

مراقبين على الأخلاق أن يفرضوا الالتزام بالقيم الإسلامية والابتعاد عن شرب الخمر والنساء والمخدرات وغيرها من المعاصي. ويطلقون لحاهم تعبيراً عن التزامهم الديني ويصلون خمس مرات في اليوم في المصليات التي يقيمونها في السكن، أو في المراكز المخصصة لذلك في الجامعة. ويقومون بالدعوة بين زملائهم الطلبة.

ويتذكر وليد غملاس، وهو خريج جامعة التقنية والزراعة في الثمانينيات، قائلاً: "كنا نسميهم الملالي، وبطبيعة الحال كان الطلاب في غرينزبورو منقسمين إلى فئتين: الملالي وغير الملالي" (18).

وكان محمد شيخ بكل تأكيد ضمن فئة الملالي. ويذكر أحد الطلبة عندما كان في تشوان، أن محمد شيخ وبخه ذات مرة على أكله الخنزير. وفي جامعة التقنية والزراعة وجد محمد شيخ ورفاقه من المؤمنين الحقيقيين الكثير مما يضايقهم. فبعض الطلبة العرب كانوا يشربون الخمر، ويرتادون البارات، ويغازلون الفتيات وأكثر من ذلك، وينغمسون في الملذات التي لم تكن متوفرة لهم في بلدهم الأصلي. وبعضهم كان يتنقل في حرم الجامعة بسيارات البورشا والمرسيدس. وكانت مجموعات المرح واللهو تحاول عدم المجاهرة برعونتها خوفاً من وصول الأخبار إلى أسرهم في الوطن الأم. إلا أن الملالي كانوا يرون ذلك ويمارسون ضغوطاً مباشرة وغير مباشرة. فكان الإسلاميون في غرينزبورو وغيرها من الجامعات الأمريكية يحرصون على استقبال الطلاب الجدد في المطار. ويتذكر غيملاس كيف أن "ثلاثة أشخاص ملتحين" تعرضوا له ولأحد أصدقائه الكويتيين عندما كانوا في انتظار حقائبهم في مطار تولسا في أوكلاهوما، حيث درس غيملاس قبل أن يلتحق بجامعة التقنية والزراعة. واصطحب هؤلاء الثلاثة غيملاس ورفيقه إلى شقة تم تحويلها إلى مسجد، وعندما أشعل غيملاس الذي كان منهنكاً من السفر سيجارته لم يتأخر ثلاثتهم

في توبيخه على ذلك. وإذا فاتهم استقبال الطلبة الجدد في المطار فإن الملالي المتحين يبحثون عنهم في الحرم الجامعي. وفي بعض الأحيان قد تلقى خطواتهم هذه الرفض؛ إلا أنها وفي كثير من الأحيان تجد الترحيب والامتنان من الطلبة الجدد الضعاف الذين يشعرون بالضياع في عالمهم الجديد ويشدهم الحنين إلى الوطن.

ويقول زبيد: "في يومك الأول في غرينزبورو، لا تعرف أحداً من الناس، وربما لا تجيد اللغة الإنجليزية بعد، فيلاقونك في المطار، ويساعدونك في بدء حياتك" (19).

وعبر أحد الطلاب الكويتيين عن عدم تجاوبه معهم بأسلوبه الخاص: فكان يضع زجاجة الويسكي على الطاولة عندما يأتي الملالي، تماماً كما كان يوضع الصليب لطرد دراكولا مصاص الدماء. وقد أقلق هذا التأثير المتنامي للطلبة المتدينين العواصم العربية. فحكّام الدول العربية المستبدون ليسوا حريصين على تقديم البعثات الدراسية والتدريب لأشخاص يمكنهم أن يصبحوا آيات الله كي يعودوا إلى بلادهم لقيادة ثورة إسلامية. كما أن احتمالات التدين في الخارج لا تروق للأباء غير المتدينين الذين يرسلون أبناءهم إلى الخارج لتوسيع أفقهم الفكري.

وقد تلجأ الحكومات العربية إلى إلغاء بعثاتها الدراسية إلى الولايات المتحدة إذا برزت لديها مخاوف من تنامي أي نوع من التآمر الديني السياسي لدى المبعوثين. وعبر أحد المسؤولين الحكوميين عن بالغ دهشته ليس من عدد الطلاب الذين تغيروا، بل من نوعية الطلاب الذين تغيروا، قائلاً: "تعود إلينا أعداد كبيرة من طلابنا الذين درسوا في الولايات المتحدة وقد تحولوا إلى متطرفين. وأنا لا أتحدث عن الطلبة الذين كانوا متدينين ثم تحولوا إلى أصوليين بعد أن عادوا من هناك. لا، إنني أتحدث عن الأشخاص الذين كانوا متحررين" (20).

"لماذا ينقلب هؤلاء إلى التدين؟ يحدث ذلك هناك"، بحسب رأي أحد الطلاب الكويتيين⁽²¹⁾. "عندما نتغرب، فإننا نكون ضعافاً، وعرضة للخطر. ولهذا السبب فإننا نتجمع في مجموعات - لكي يحمي بعضنا بعضاً. وينشط المتدينون في دعوة الطلبة الجدد. لماذا يكون ذلك سهلاً؟ إن السر في اعتقادي يكمن في المواقف السياسية أكثر منه في الدينية".

ويصف الطلاب الذين يتذكرون محمد شيخ باطراد بأنه شخص مجتهد، وقليل الخلطة، وأنه نذر نفسه للمكتبة ولله، ومع ذلك فهو ودود بشكل عابر، ويمكن أن يشارك الآخرين في ضحكة. ويذكر فيصل منيفي، الذي درس الهندسة الميكانيكية،: "كل ما عرف عنه هو أنه كان في المسجد دائماً"⁽²²⁾.

أما زيتاوي فيقول: "كان خالد شيخ منعزلاً، ... كنا نلتقي في مطعم بيرغر كينغ لتناول الغداء أو القهوة. وهذا هو كل ما فعله عندما نذهب إلى الخارج... كان دائماً مؤدباً. لم يكن شخصاً هزلياً، ولكنه عندما يتحدث إليك فإنك تشعر وكأنه يتبسم. لم يكن فظاً أو أي شيء من هذا القبيل"⁽²³⁾.

كما لم يصدر عن محمد شيخ أي كلام مناهض للغرب أو معاد للولايات المتحدة. ويقول هندية الذي كان يعرف محمد شيخ في تشوان و غرينزبورو: "لا بد أن شيئاً ما حدث فيما بعد ليسبب تلك المشاعر"، وأضاف: "إنني لا أذكر أنني سمعته يقول شيئاً كهذا"⁽²⁴⁾.

وسواء أقال شيئاً أم لم يقل. فإن شيئاً ما قد حدث. إذ انتقل أخوة خالد شيخ الثلاثة وهم عارف وزاهد وعابد إلى بيشاور في باكستان لدعم الجهاد في أفغانستان. وفي إحدى إجازات الصيف، انضم خالد إليهم مرة واحدة على الأقل. ويقول أحد ضباط الأمن الكويتيين: "لقد أثرت هذه الزيارات فيه"⁽²⁵⁾. كما أثرت فيه أيضاً إقامته في الولايات المتحدة.

يقول دبوس، وهو أحد الأساتذة الذين درسوه في الثانوية: "عندما يذهب إلى هناك [الولايات المتحدة] فإنه يرى أن الأمريكيين لا يحبون العرب ولا الإسلام"، ويضيف:

"سألته: - لماذا -

فرد قائلاً " - بسبب إسرائيل -، - إن غالبية الأمريكيان يكرهون العرب بسبب ذلك - كان طالباً عادياً جداً قبل ذلك. مؤدباً، سمحاً، مبتسماً دائماً. وعندما عاد من أمريكا، أصبح شخصاً آخر. أصبح حزيناً. لا يتكلم. كان يجلس في مكانه فقط.

فسألته، - ما الذي حدث؟ - .

"فرد قائلاً: - بسبب ما قلته عن كره الأمريكيين للإسلام - .

"فتحدثت إليه، محاولاً إقناعه بتغيير رأيه، وقلت له بأن من تتحدث عنهم هم فئة قليلة من الأمريكيان. ولكنه رفض التحدث معي حول ذلك ثانية. كان راسخاً في قناعاته. حدث هذا عندما قدم في إجازة الصيف في أثناء الدراسة. وعندما سمعت ذلك قلت له يجب أن نلتقي ثانية.

"فقال: - لا، إنني مقتنع بقوة بأفكاري. ولا تتحدث إلي ثانية حول هذا الموضوع - (26)".

وفي نهاية عام 1986، وبعد سنتين ونصف، أتم خالد شيخ محمد مقرراته الدراسية. وتخرج هو وابن أخته عبدالكريم في 18 ديسمبر/ كانون الأول. وكان خالد شيخ واحداً من بين ثمانية وعشرين خريجاً في قسم الهندسة الميكانيكية، كان ثلثهم تقريباً من الشرق الأوسط. ولم يكن لخالد شيخ صورة في الكتاب السنوي.

جلال أباد

"بدأ المجاهدون الأصليون عملهم في بيشاور القديمة بقليل من المال في الأيام التي سبقت الدعم السعودي ودعم وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية"، كما يقول الصحفي الباكستاني يوسفزاي. "إلا أنهم قاموا فيما بعد باستئجار المنازل في بلدة الجامعة أرقى الأحياء في بيشاور وأكثرها رفاهاً".

والغريب في الأمر أن أحياء بلدة الجامعة مبنية على النمط الغربي. أما بيشاور القديمة فقد كانت عبارة عن ممرات ملتوية ومتشابكة، تنتشر فيها البازارات المليئة بالروائح، والأصوات، والأشخاص، من وسط آسيا. وتعلوها طبقة كثيفة من الغبار والدخان العادم وأفران الخزف. ويتخلل المكان شعور بأن التاريخ لم يصنع هنا وحسب، بل ما يزال حاضراً. وفي المقابل، كانت بلدة الجامعة نظيفة ومستطيلة، حيث تمتد على شبكة مليئة بالتجمعات السكنية المسورة والمكونة من شقق ذات ثلاثة طوابق مبنية من الجص الذي يشبه الجص المستخدم في الشقق السكنية في ضواحي كاليفورنيا. كانت الفلل الجديدة مملوءة بالمقاتلين العرب وبعدهم أكبر من أفراد الميليشيا المساندة.

اعتادت الجيوش أن يتبعها تجار الجنس والطعام وغيرها من وسائل الترفيه والتسلية؛ والجيوش الحديثة - وحتى تلك المؤلفة من تجمعات العوام كالمجاهدين، لا بد من أن يتبعها عمال الخدمات الاجتماعية كالمومسات. وتشكل الحرب الأفغانية المثال الأبرز على ذلك نظراً للصفة الدولية لجنودها وتمويلها. فبعد تجار السلاح، كانت الأعمال الخيرية هي ثاني أكبر صناعة في بيشاور خلال الحرب. حيث كان في البلدة أكثر من 150 منظمة وجمعية خيرية تعنى بخدمات اللاجئين والتطوير تحتفظ بمكاتب وفروع لها في البلدة. وكانت هذه الجمعيات مقسومة بالمنافسة بين الممولين العرب والغربيين. وتطلب هذا العدد الكبير من الجمعيات وجود ثلاثة مكاتب لتنسيق وتنظيم أعمالها. وكان

هناك الشيء الكثير ليتم إنجازه. فقد كانت أفغانستان وقت الاجتياح السوفييتي تضم خمسة عشر مليون نسمة. وعلى مدار عقد من الزمان تقلص ذلك العدد إلى النصف. وكان على النصف الآخر أن يذهب إلى مكان ما، فلجأت غالبيتهم إلى باكستان عبر الحدود الجبلية. ويوجد على طول الحدود الباكستانية الأفغانية من الناحية النظرية ثلاثة معابر رسمية بين الدولتين. إلا أنه كان هناك المئات في واقع الأمر، لدرجة أن الحدود بين الدولتين لم تكن أكثر من خط وهمي على الخريطة.

وكان من بين أكبر وكالات الإغاثة جمعية خيرية كويتية تسمى لجنة الدعوة الإسلامية. وفي وقت من الأوقات، كان يعمل في هذه الوكالة أكثر من 1200 موظف في باكستان وحدها. وكانت تتفق قرابة الأربعة ملايين دولار في المنطقة سنوياً⁽²⁷⁾. وكان من بين نشاطاتها إدارة مستشفى بسعة 200 سرير في بيشاور، وآخر داخل أفغانستان، إلى جانب أعداد كبيرة من المراكز الصحية. كما أنها مولت وجهزت عشرين مركزاً لتحفيظ القرآن. وكان المدير الإقليمي لهذه اللجنة في بداية عام 1985 شخص يدعى زاهد شيخ محمد، الأخ الأكبر لخالد شيخ محمد. وكان زاهد شيخ ترك وظيفة التدريس ليعمل في اللجنة عام 1983 في الكويت، ثم أرسل إلى بيشاور بعد عامين من عمله في اللجنة. وأصبح زاهد شخصية ذات أهمية بوصفه رئيساً لواحدة من كبريات المنظمات الخيرية في المدينة. وتعرف بحكم موقعه هذا على الدبلوماسيين المحليين، وزعماء الفصائل الأفغانية؛ وعندما جاء الساسة الباكستانيون إلى المدينة كان زاهد يرافقهم ويشاركهم⁽²⁸⁾. عمل زاهد من مكتب يقع على شارع أرباط في بلدة الجامعة. ومع أن غالبية هيئات الإغاثة والجمعيات الخيرية العربية كانت تحوم حولها الشكوك بأنها واجهات صورية لتوزيع أموال الجهاد، إلا أن مكتب اللجنة الذي يرأسه زاهد لم يكن من بين تلك المشتبه بها. فكل ما قدمته

للمقاومة هي أنها أنفقت الملايين على المدارس، والمراكز الصحية، ونشر الصيغة الكويتية من الإسلام السلفي. وكانت هيئات الإغاثة العربية تقوم بأعمال مشابهة، وانتشرت المدارس الدينية ليس فقط في بيشاور، بل في المناطق التي تخضع لسيطرة المقاومة داخل أفغانستان.

وبعد أن أنهى دراسته الجامعية في نورث كارولينا، لم يرجع خالد شيخ إلى الكويت للإقامة فيها بحسب ما تقوله السلطات الكويتية، ولكنه التحق بدلاً من ذلك بإخوته في بيشاور، حاملاً في قلبه مشاعر جديدة من الكراهية للولايات المتحدة. كما أن أخاه الآخر عابد الذي كان يعمل مدرساً للعلوم الشرعية في قطر، التحق هو الآخر ببيشاور. وقال رجل كان يعرفهم ثلاثتهم بأن زاهد الأخ الأكبر كان أرجح الثلاثة عقلاً؛ وكان عابد أكثرهم تطرفاً، وخالد كان أكثر شبهاً بعابد⁽²⁹⁾. وكان الأخوة الثلاثة ملتحون ويلبسون الكوفية المبلطة. وكان زاهد وخالد قصيري القامة شيئاً ما ممتلئي الجسم. وكان الاثنان متشابهان في الشكل لدرجة يسهل معها الخلط بينهما برغم الفارق في السن.

عمل عابد في الصحيفة التابعة لعبد[رب] الرسول سياف في بيشاور، ودرس خالد في جامعة الدعوة والجهاد التابعة لسياف، على حد قول أحد الأصدقاء⁽³⁰⁾. كما عمل خالد أيضاً في مخيم جلوزي للاجئين. فقد جذب سياف رجالاً من كل أنحاء العالم الإسلامي، وليس فقط من العرب. وكان المسلمون القادمون من جنوب شرق آسيا يتدربون حصرياً معه. وتعرف خالد شيخ على عدد من مجاهدي جنوب شرق آسيا بمن فيهم شخص من إندونيسا اسمه حنبلي، وبقي صديقاً لخالد لخمس عشرة عاماً لاحقة.

استقر الأخوة الثلاثة في بيشاور. تزوج خالد من امرأة تعرف عليها في مخيم جالوزي. وأصبحوا جزءاً من جالية عربية صغيرة شبه دائمة، تضم عزام، ومؤسس الجهاد الإسلامي أيمن الظواهري، وابن لادن، الذي يأتي

ويفادر مع زوجاته وأبنائه بطائرته الخاصة. ويقول شخص ينتمي إلى الحركة⁽³¹⁾: "كان من السهل رؤية الشيخ أسامة الذي كان يعيش في حياة أباد في بيشاور". وكان يزور بيشاور في فترات متقطعة في منتصف الثمانينيات عندما كان يمضي الكثير من الوقت خلف الحدود للقتال في أفغانستان. وقدم الظواهري [لكي يبقي فيما بعد] عام 1985. ونقل ابن الادن زوجاته وأبنائه وأتباعه إلى بيشاور عام 1986، وسكن هناك حتى أكتوبر/ تشرين أول من عام 1989. وخلال تلك الفترة زار السعودية عدة مرات في السنة".

عمل عابد وخالد مع عزام عن قرب؛ وكان خالد يشرف على توزيع المساعدات والإمدادات العسكرية⁽³²⁾. وكان محل إعجاب كل من حوله بذكائه وفطنته وسعة معرفته بالسياسات العريضة وتداعيات الحرب⁽³³⁾. وكان الإخوة يحضرون اجتماعات قادة الأحزاب الأفغانية: برهان الدين رباني، قلب الدين حكمتيار، وسياف. كان معظم العرب، باستثناء ابن لادن الذي كان يعد نفسه مستقلاً عنهم، يؤديون الصلاة في مسجد صغير يسمى مسجد سبع الليل وسط حي مزدحم في نهاية ممر متصل بشارع أرباط، ولا يبعد كثيراً عن مكاتب سياف وزاهد. وتوجد في هذا الحي المخابز، ومحلات بيع اللحوم الحلال، ومحلات الحياكة، وبالطبع وكلاء السفر لتأمين تذاكر الرحلات الجوية إلى الوطن الأم. والسبب في ظهور التأثير العربي على بيشاور هو أن العرب الذين قدموا إليها لم يتجاوزوا حدود المدينة؛ فغالبيتهم لم تشهد ساحة المعركة. وعندما شاركوا في القتال كانت مشاركتهم ضئيلة. وكانوا في نظر الأفغان ليسوا بأكثر من شر لا بد من تحمله في سبيل الحصول على الأموال التي تلحقهم. وقد قال برهان الدين رباني أحد قادة المقاومة: "كنت ضد قدوم المتطوعين العرب للقتال معنا. وعندما جاؤوا إليّ قلت لهم كان عليكم أن لا تأتوا. وكان الأولى بهم أن يبقوا في أوطانهم ويتبرعوا بثمن تذكرة السفر لدعم كفاحنا. فالعرب ليس لديهم خبرة في القتال. لقد جاؤوا من الصحراء، لم يعرفوا الجبال، ولم يكن لديهم دراية بتقاليدنا وثقافتنا"⁽³⁴⁾.

ويتفق أحمد والي مسعود، شقيق قائد تحالف الشمال أحمد شاه مسعود، مع هذا الرأي قائلاً: "إنني لا أعرف إن كان المقاتلون العرب مقاتلين جيدين أم سيئين، لم يشاهدتهم أحد، لقد كانوا شرذمة قليلة"⁽³⁵⁾.

كما وجد بعض الأفغان في الإسلام الذي يمارسه عرب الصحراء شيئاً غريباً، ولم يرق لهم أن يحاضر فيهم أحد حول الطريقة الصحيحة لأداء العبادة. وكانوا ينظرون إلى العرب على أنهم متعجرفين.

يقول إيستهام القنصل الأمريكي في بيشاور: "كانت بعض الأسر السعودية والخليجية ترسل أبناءها الصغار إلى أفغانستان في الصيف في رحلات مدرسية"، ويضيف: "كانوا يرسلونهم إلى معسكرات التدريب، ويقدم لهم السلاح ويتم إرسالهم إلى أفغانستان. وكان الآباء قلقون على أبنائهم حتى الموت، فهم لا يريدون لهم الموت هناك، وكان هؤلاء أبناء المتبرعين. ولم يكن أمام المجاهدين خيار سوى قبولهم. وهو ما كان يسبب حنق الأفغان؛ لأن العرب لديهم شعور بالاستعلاء والفوقية"⁽³⁶⁾.

كان نقص الفرص أمام العرب للمشاركة في ساحة المعركة نقطة نقاش وجدال مستمر بين المجاهدين العرب. كما أدى الأسلوب الذي اتبعه القادة الأفغان في توظيف المتطوعين العرب - أو بالأحرى الأسلوب الذي حيدوا فيه مشاركتهم - إلى استياء العرب من تلك السياسات. كما تأذى كثير من العرب، ومنهم ابن لادن من إنشاء وحدات قتال مستقلة للمجاهدين العرب. وكان عبدالله عزام الذي كان يتمتع بتأثير كبير على المجاهدين العرب، يصر على أن من واجب العرب أن يفعلوا ما يطلبه منهم الأفغان، فالحرب هي حربهم قبل كل شيء وليست حرب العرب. وكان عزام يرى أنه وإلى أن تنتهي المهمة في أفغانستان بإخراج الملحد من هنا، فإن مكتب خدماته سيبقى كما هو للخدمة. إلا أن مشاعر الاستياء تزايدت وبدأ ابن لادن بالاستقلال بمجموعته. وفي

سنته الأولى في بيشاور، كان عمله مقتصرًا على تقديم العون المالي وجمع التبرعات. ومع بداية عام 1985، قام ابن لادن بجلب المعدات الإنشائية الثقيلة من المملكة العربية السعودية وبدأ ببناء مخيمات التدريب وشق الطرق والمطارات خلف الحدود في أفغانستان⁽³⁷⁾. وفي عام 1987، اشترك هو ومجموعة صغيرة من المقاتلين العرب بمن فيهم عزام، وخالد شيخ محمد ورفيقهم الأفغاني سيّاف في معركة مع القوات الروسية لاستعادة السيطرة على قرية جاجي⁽³⁸⁾. وصمد العرب لعدة أسابيع، وتخلّى السوفييت في النهاية عن القتال. وكان هذا النصر هو الأساس الذي بنيت عليه أسطورة ابن لادن كمقاتل شرس وفارس مغوار في ميدان المعركة⁽³⁹⁾. وبالتأكيد كان ابن لادن يرى نفسه كذلك. فكان يروي القصص حول معركة عرين الأسد، كما كان يسميها أحياناً، طوال عقد من الزمان⁽⁴⁰⁾. وأسرف الصحفيون العرب في نقل تفاصيل المعركة مبرزين دور ابن لادن. وتقلد عدد كبير من الرجال الذين شاركوا في معركة جاجي أدواراً كبيرة فيما بعد في منظمة القاعدة. وأصبح ابن لادن يعتقد بعدها أن هناك هدفاً يتجاوز أفغانستان، جهاداً عالمياً، وأنه يتحتم عليه قيادة هذا الجهاد. وبدأ يعد نفسه لتلك المهمة⁽⁴¹⁾.

وفي النهاية، وعلى الأقل فيما يخص أفغانستان، فإن مشاركة العرب في الحرب لم يكن لها أي شأن. فالمقاومة الأفغانية كانت شديدة التسليح والتمويل من مؤيديها - الذين توسعوا ليشملوا الصين واليابان وبريطانيا العظمى، وإسرائيل بالإضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية والسعودية وباكستان - وقد أثبتت قدرتها على دحر الجيوش السوفييتية بمفردها. وغاص السوفييت، كما كان يأمل بريجنسكي، في الرمال المتحركة الأفغانية أعمق وأعمق، فيما أصبح يشكل النموذج السوفييتي من كابوس فيتنام. وبدلاً من أن يكون التدخل سريعاً وحاسماً، استمرت الحرب عاماً بعد عام، وتضاعفت أعداد القتلى والجرحى

وتزايدت الانتقادات من الداخل. وكانت تكاليف الحرب باهظة جداً، وكان الاتحاد السوفياتي، ومن غير دراية أعدائه في الغرب، على وشك انهيار اقتصادي مرعب.

وعندما جاء غورباتشوف إلى السلطة عام 1985، قرر فوراً أن الحرب في أفغانستان لا يمكن فيها النصر. وحتى قبل مجيء غورباتشوف إلى الحكم، حاول السوفييت التفاوض بشأن ترتيبات لإنهاء الحرب ولكن دون جدوى، ويعود السبب في جزء كبير منه إلى إصرار السوفييت على وضع حكومة موالية لهم في أفغانستان. وأصر الباكستانيون طوال الحرب أن أي حكومة أفغانية مستقبلية يجب أن تضم الأحزاب الأصولية التي كانوا يرون فيها أدوات لتحقيق أهدافهم. ومن الناحية الفعلية كانت باكستان تسعى للسيطرة على مستقبل أفغانستان. وبدلاً من المشاركة في المفاوضات مع السوفييت، صعد مؤيدو المقاومة من دعمهم العسكري والمالي للمقاومة. فمثلاً، قامت الولايات المتحدة الأمريكية عام 1985 بتزويد المجاهدين بصواريخ ستينجر المضادة للطائرات والتي تطلق عن الكتف. وهي المرة الأولى التي يتم فيها تزويد طرف خارج نطاق حلفاء أمريكا بمثل هذا السلاح⁽⁴²⁾. ومع نهاية عام 1986، ودون علم المقاومة الأفغانية، قرر غورباتشوف الانسحاب من أفغانستان بنصر أو دونه. وفي عام 1988 بدأت القوات السوفييتية بالانسحاب الفعلي⁽⁴³⁾. وفي فبراير/ شباط من عام 1989، غادر آخر جندي سوفييتي الأراضي الأفغانية، وانتهت المغامرة السوفييتية في أفغانستان، وبانتهائها قارب فصل من تاريخ العالم على الانتهاء.

بعد فشل السوفييت في التفاوض على الانسحاب⁽⁴⁴⁾، تركوا خلفهم حكومة موالية لهم بزعامة مدير المخابرات محمد نجيب الله؛ ولذلك لم تتوقف الحرب، ولم تخف وطأتها. وتحولت إلى حرب للأفغان ضد الأفغان، دون

مساعدة من الخارج. وكانت حكومة نجيب الله هشة لدرجة أن بعض العناصر داخل المقاومة كانت تعتقد بإمكانية الإطاحة بها بضربة واحدة. وكانت الخطة التي اقترحها سياف وأيدتها بشدة الاستخبارات الباكستانية تقضي بشن هجوم مباشر على مدينة جلال آباد جنوب شرق أفغانستان. وهي المدينة الأفغانية الرئيسة الأقرب إلى بيشاور، وهي بهذا الوصف كانت هدفاً طبيعياً للهجوم. وكان للمقاومة أن تستخدم كل باكستان كمنطلق للقوات المهاجمة.

ويقول روبرت أوكلي، السفير الأمريكي في باكستان في ذلك الوقت: "كانت الفكرة وراء جلال آباد هي تحقيق نصر معنوي كبير". وكان الهجوم يحظى بدعم رئيسة وزراء باكستان الجديدة بناظير بوتو. وفي واقع الأمر، كانت بناظير تحضر الاجتماعات الرئيسة التي عقدت في إسلام آباد حيث وضعت الخطة موضع التنفيذ. ويضيف قائلاً: "لقد أبدت بناظير موافقتها على كل ما اقترحه جهاز الاستخبارات الباكستاني. لم يكن أمامها أي خيار. وأرادت أن تظهر نفسها بمظهر القوة وعدم المهادنة. وكان سياف في واقع الأمر هو الشخص الذي يدفع باتجاه الهجوم. فقد كانت المنطقة منطقتة، والصفة صفقتة. لم نحاول أن نوقف الفكرة، لقد ظننا أنها ستنجح"⁽⁴⁵⁾.

وكانت تقديرات ميليت بيردن، رئيس عمليات وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA في باكستان أقل تفاؤلاً حول احتمالات نجاح الخطة. وكان يرى أن بوتو كانت هي المروج الرئيس للفكرة، لأنها كانت ترغب بتحقيق نصر يكون ورقة رابحة في يدها عندما تتوجه إلى طاولة المفاوضات الدولية. وقال بيردن: "لقد ضغطت بوتو على الاستخبارات الباكستانية". ويضيف، "لم نكن بحاجة إلى تلك الخطة. وأنا شخصياً لم أكن بحاجة إليها. وكان هناك دائماً أطراف ذات مصالح. لقد كانت فكرة سيئة للغاية. واتصل بنا اللواء يوسف [من الاستخبارات الباكستانية] متسائلاً لماذا كنا نعمل ذلك، وقال - إنها فكرة سيئة -

وبصراحة، فإن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA لم تكن لتتصرف على ذلك الوجه. كنا سنفضل التفاوض حول شيء ما في تلك اللحظة. وبعد 15 فبراير/ شباط [والانسحاب السوفيتي] فإنني أميل إلى عقد الصفقات" (46).

لم يكن هناك أحد آخر يميل أو يرغب بعقد أي صفقة. فقد كان شعور الجنرالات الأمريكيين والباكستانيين الذين يراقبون الأوضاع أن حكومة نجيب الله ستتهار على قدميها في وقت قصير. وبخاصة بعد توجيه ضربة إليها.

ابتدأت معركة جلال آباد في الربيع. وكان الهدف منها السيطرة على المدينة والمناطق المحيطة بها وإعلانها عاصمة مؤقتة وتشكيل حكومة مؤقتة تتكون من زعماء فصائل المقاومة" (47). لا تبعد جلال آباد كثيراً عن بيشاور. وكان الباكستانيون يظنون أن بمقدورهم السير بالحكومة الجديدة وتوصيلها إلى جلال آباد بكل بساطة، وأن الحكومة في كابول ستسقط فوراً نتيجة لذلك. وتهيأ عدة آلاف من المجاهدين للهجوم. وفي لفته نادرة من الشمولية، رافقتهم عدة مئات من العرب. وكانت المعركة من أكبر المواجهات الثابتة في الحرب. وكانت بالنسبة للمقاومة واحدة من أكبر المصائب التي منيت بها. أوصل الاندفاع الأولي من الهجوم المجاهدين إلى مشارف المطار وتوقف هناك. وضربوا حول المدينة حصاراً ظناً منهم أنها لن تتمكن من الصمود لأكثر من أسبوع. إلا أن الحصار استمر لمدة شهرين. وأمطرت قوات الحكومة الأفغانية مواقع المقاومة بوابل من الصواريخ وحصدت منهم الآلاف (48). وكما كان يحدث في معظم تلك الحرب، كان هناك قليل من الاعتبار للمدنيين الذين وجدوا أنفسهم في تقاطع خطوط إطلاق النيران. فماتوا بالمئات. وفر آلاف من اللاجئين من المدينة تجاه باكستان. وكتب أحد الجنرالات الباكستانيين فيما بعد واصفاً الهجوم بأنه خطأ في التخطيط وخطأ في التنفيذ: "كانت الشحنات الأمريكية وبشكل كبير أقل من اللازم، ولم يتم إعادة بناء احتياطات

الذخيرة بعد الفاجعة في مخيم أوجهري قبيل بدء الهجوم، ولم يكن هناك تأمين كاف للإمدادات قبل بدء الهجوم، وقليل من التخطيط المبكر. ولم تكن الحكمة الاستراتيجية من مهاجمة جلال آباد محل شك وحسب، بل سرعان ما تبين عدم كفاية التخطيط وتنفيذ وإدارة الخطة برمتها... لقد ارتكبت الاستخبارات الباكستانية وقادة المقاومة الأفغانية خطأً إستراتيجياً حين تحولت من حرب العصابات إلى الحرب النظامية الشاملة بهذه السرعة... ومن الناحية التكتيكية، كان ذلك مثلاً واضحاً في كيفية عدم خوض المعارك" (49).

مني المقاتلون العرب بخسائر فادحة أيضاً. وكان عابد شيخ محمد الأخ الأصغر للأخوة البلوش من الكويت من بين قتلى المعركة. ورثاه عبدالله عزام بمقالة منمققة قال فيها (*):

"صعدت أرواح أفضل الدعاة إلى بارئها، ورحل إليه أفضل الناس في هذا الشهر، وتركت جلال آباد وهي تبكي، - هل بقي مزيد من الوقود لمعركة الإيمان؟ ويا نانغرها [اسم المقاطعة التي جرت فيها المعركة]، هل رويت عطشك من دماء الأبرار؟ ألم يكفك ما ابتلعتيه من قبور الأتقياء؟ حسبك! حسبك! لقد ذهب بفلذات أكبادنا وأورواحننا - رفضت روح [عابد] أن تعيش حياة الترف تحت مبردات الهواء في وقت يقتل فيه أخوته في الدين وسط لهيب صيف بيشاور بمعدل 100 شخص في اليوم. فكيف يرضى الأسد أن يبقى مقيداً في حديقة الحيوان، ليعرض على الناس من أجل التسلية؟ وجب عليه أن يكسر أغلاله ويعود إلى عرينه، وتلحق به بقية الأسود" (50).

بعد جلال آباد، بدأت مختلف فصائل المقاومة التي فقدت الآن عدوها المشترك [السوفييت] بمقاتلة بعضها إلى جانب قتالهم حكومة كابول. واتهم

(* ترجمة عن النص الإنجليزي في الكتاب.

حكمتيار الذي كان لا يزال يتلقى الدعم من الولايات المتحدة وباكستان بتدبير عمليات اغتيال وتصفية لمنافسيه والقادة الانفصاليين في حزيه. واندلعت حرب بينه وبين مسعود. وكانت تلك الحرب بداية نقطة الانحدار في صراعات داخلية التهمت البلاد والعباد على مدى عقد من الزمان. وبتوجيه الأفغان أسلحتهم ضد بعضهم بعضاً، انشغل الأفغان العرب في بيشاور في جدل حول مستقبل حربهم المقدسة. فالسوفييت قد ذهبوا. وإذا كان هدفهم الأسمى هو تخليص البلاد من الشيوعيين، فهل يجب إعلان انتهاء الحملة بانتهاء المهمة؟ قسم كبير من العرب، ومن ضمنهم أسامة بن لادن، كانوا يرون أن واجبهم الآن هو نقل الجهاد إلى أوطانهم، آخذين معهم العبر والدروس التي تعلموها في أفغانستان، وأن يصروا على أن يحكم القانون الإسلامي بلادهم. أما عزام فكان يرى الحاجة إلى متابعة المسيرة، وتركيز مواردهم وطاقاتهم نحو تحقيق حكومة إسلامية في أفغانستان. وإلى أن يتم ذلك، فلن يكون هناك أي نصر. وحاول عزام أن يتفاوض على هدنة بين مسعود وحكمتيار لتحقيق سلام بينهما. ولكن ككل شخص حاول التفاوض لإنهاء النزاع في أفغانستان، باءت جهوده بالفشل.

ودار جدال مشابه بين أجهزة الاستخبارات الأمريكية والدبلوماسيين الأمريكيين حول الدور الأمريكي المستمر في أفغانستان: في ظل رحيل السوفييت، من هي الجهة التي يجب على الولايات المتحدة أن تقدم لها الدعم؟⁽⁵¹⁾ على المدى القصير، تبنت مختلف الوكالات الأمريكية عدة إستراتيجيات في أفغانستان، كانت محصلتها دعم كل الأطراف⁽⁵²⁾. وعلى المدى البعيد، قررت الولايات المتحدة أن من الأفضل لها أن لا تدعم أحداً، وتركت الأفغان ليواجهوا مصيرهم ومكائد الباكستانيين بأنفسهم. وشعر عدد كبير من قادة المقاومة أن الولايات المتحدة وبعد الانسحاب السوفييتي كانت تعارض بفعالية إقامة حكومة إسلامية في كابول. وكان هذا الموقف في نظر

بعضهم يشكل أقسى أنواع المعاملة. فعندما خرج الأمريكيان، لم يقولوا حتى وداعاً. كما يقول أحمد شاه أحمد زادي أحد نواب سياف.

ولاحقاً في ذلك العام، اغتيل عبدالله عزام - المؤسس الحقيقي - للمقاومة الجهادية العربية، مع اثنين من أبنائه عن طريق سيارة مفخخة في شارع أرباط في بيشاور خارج مسجد سبع الليل أثناء توجههم لأداء صلاة الجمعة. ولم يتم الكشف حتى الآن عن لغز تلك الجريمة. وبدأ المناخ السياسي والديني بالتغير في بيشاور، وتنامت مشاعر الاستياء من التخلي الأمريكي. وسيطر ابن لادن على مكاتب الخدمات. وحل محل عزام كقائد للمجاهدين العرب، على الأقل في التصور العام وفي خياله هو شخصياً. وحتى قبل وفاة عزام، كان ابن لادن بدأ بتجنيد الرجال في مجموعة جديدة لحمل الجهاد إلى ما بعد أفغانستان⁽⁵³⁾. وأطلق على تلك المنظمة القاعدة⁽⁵⁴⁾. ثم جاء الاجتياح العراقي للكويت عام 1990، وما أعقبه من الحملة المضادة بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية والتي عمقت من الفرقة والانقسام داخل العالم العربي. وكان ابن لادن حانقاً على الأسرة الحاكمة السعودية التي سمحت للولايات المتحدة بتركيز قوتها في المملكة واتخاذها قواعد عسكرية فيها مخالفة بذلك حكماً شرعياً يقضي بعدم السماح للكفار بدخول الأرض المقدسة⁽⁵⁵⁾. وقام بمواجهة الأسرة الحاكمة مقترحاً عليهم تكوين جيش مقدس لحماية المملكة. وطبعاً رفضت الأسرة الحاكمة السعودية التي كانت مندهشة من سذاجة ابن لادن عرضه هذا⁽⁵⁶⁾. ثم بدأ بمهاجمة الحكومة الأمريكية والحكومة السعودية في خطاباته، قائلاً بأنه لا يوجد فرق بين السوفييت والأمريكان - لأنهم جميعاً كفره وسيلحقهم مصير واحد هو الاندحار تحت موجة الإسلام القادمة.



■ الفصل الثالث ■

حرب عالمية

نيويورك

كانت المرحلة الثانية من الحرب الأفغانية أكثر دموية، وأكثر وحشية من المرحلة الأولى ضد السوفييت. وقد أخذ كون الأفغان يقتتلون الآن فيما بينهم مشاعر التحمس للحرب في العواصم الإمبريالية. إلا أنها لم تخفف من جاذبيتها في العالم الإسلامي الذي ازداد فيه الحماس للجهاد بهزيمة السوفييت. وإن لم يكن من شيء، فقد قويت وتنامت قوة جاذبية الحرب المقدسة. وأصبح عدد كبير من الرجال الذين قدموا لقتال السوفييت دعاة في سبيل الجهاد. وعادوا إلى أوطانهم مغمورين بنشوة النصر، وذلك بالرغم من أن مساهمة المتطوعين العرب في تحقيق النصر في الحرب كانت قليلة. فقد شاهدوا بأعينهم قوة الله في ساحة المعركة. قوة النبي انبعثت من جديد. في هذا المكان وفي هذا الزمان. وسعى المجاهدون إلى حث إخوانهم في الدين إلى إعادة أمجاد الفتوحات الإسلامية. وفي أقصى درجات التصور الخيالي، دعوا إلى حرب مقدسة جديدة وشاملة لإعادة تأسيس الخلافة الإسلامية - إمبراطورية إسلامية - بغض النظر عما سيتطلبه ذلك. ومن الناحية العملية، التقى الرجال الذي جاؤوا إلى بيشاور، سواء تدريبوا أو قاتلوا في الحرب أم لا، بالأشخاص الذين يؤمنون بذات الأفكار من حول العالم، وليس فقط من العرب. وكانت هناك مئات من المجاهدين من شرق ووسط آسيا، ومن أمريكا الشمالية، ومن أوروبا، ومن كل مكان يوجد فيه مسلمون.

وهذا يشمل كل مكان في العالم. ولا أحد يعرف الرقم الحقيقي لعدد المتطوعين في الحرب الأفغانية. وتتراوح التقديرات ما بين 25 ألفاً إلى ثلاثة أضعاف ذلك العدد في أثناء الحرب مع السوفييت. كما أن القافلة لم تتباطأ عقب اندحار السوفييت. وأصبحت الحرب، بدلاً من ذلك، كما وصفها أحد خبراء الإرهاب، أشبه ما يكون بالحزام الدوّار على خط الإنتاج، فكانت تنتج الرجال الجاهزين للمشاركة في حروب لم تبدأ بعد⁽¹⁾ أو، وكما تبين فيما بعد، حروب قاموا هم بإشعالها. أنشأ قدامى المجاهدين شبكة غير رسمية عملت على تجنيد، وتشجيع ودعم آخرين في جهودهم المشابهة. وثم نسج شبكة عنكبوتية حول العالم وكانت جاهزة وفي الانتظار.

ازدهرت معسكرات التدريب القائمة، وتم افتتاح المزيد منها نتيجة لقناعة زعماء الحرب والجيش وغيرها من أجهزة الدولة بالحاجة إلى الشباب المحفزين الذين يجيدون استخدام الأسلحة الخفيفة والمتفجرات. وفي ظل الحرب غير المتهاوية، كانت معسكرات التدريب والمدارس الدينية وغيرها من الاحتياجات والإمدادات مزدحمة ومحمومة كسابق عهدها. ومن بين الرجال الذين قدموا بعد انتهاء الحرب ابن أخت خالد شيخ محمد، واسمه عبدالباسط عبدالكريم. وعبدالباسط هو شقيق عبدالكريم الذي كان رفيق خالد شيخ في الدراسة. ونشأ هو الآخر في ضواحي الكويت مثل خالد، وكان يصغره بثلاثة أعوام. وكان قد سافر خارج الكويت لمتابعة دراسته في كلية تقنية صغيرة في مقاطعة ويلز في بريطانيا. وبينما كان في الخارج، عادت أسرته إلى بلوشستان من الكويت⁽²⁾. وكانت أعمال الحرب - التهريب، مقايضة مبادلات العتاد العسكري - تشكل عصب الحياة في المنطقة. ولعب والد عبدالباسط وأخوته دوراً فاعلاً في دعم المقاومة الأفغانية⁽³⁾. وكغيرهم من الآلاف الذين سبقوهم، قدم عبدالباسط وأخوته إلى بيشاور أولاً أثناء إجازة

الصيف عام 1988. وبعد أن حصل على شهادة تقنية في الهندسة الإلكترونية عام 1989، عاد عبدالباسط إلى الكويت وعمل في الحكومة الكويتية لفترة محدودة⁽⁴⁾. إلا أن عمله ذلك وباقى أوجه الحياة الطبيعية في الكويت أتت إلى توقف مفاجئ نتيجة للاحتلال العراقي في أغسطس/ آب عام 1990. ولا يعرف على وجه الضبط ماذا حدث لعبدالباسط في أثناء الاجتياح العراقي، إلا أنه كان في باكستان بحلول ربيع عام 1991. وفي شهر مارس/ آذار تزوج من لطيفة عبدالعزيز⁽⁵⁾. في تشاكيوارا، وهو حي بلوشي مكتظ في كراتشي. ودفع عبدالباسط مهراً مقداره عشرة آلاف روبية (أي ما يعادل 400 دولار أمريكي). وبعد الزفاف، عاد إلى بيشاور، حيث أمضى قرابة ستة أشهر في معسكرات التدريب وذلك بحسب ما جاء في إفادته أمام المحققين⁽⁶⁾. وقال أحد الرجال الذين شاركوا في معسكرات التدريب تلك بأن عبدالباسط عمل مدرساً فيها⁽⁷⁾. فقد كان متخصصاً بالهندسة الإلكترونية والحاسوب في الجامعة، واستخدم معلوماته لتطوير خبرته في صنع القنابل، وأصبح مشهوراً وسط المتدربين بلقب الكيماوي⁽⁸⁾.

وإلى جانب رؤيته لأخواله هناك، جدد عبدالباسط علاقاته مع المجاهدين من جنوب شرق آسيا الذين تعرف عليهم عندما جاء لأول مرة إلى المعسكر قبل ثلاثة أعوام. وكان الهدف من معسكرات التدريب المختلفة هو تطوير خطوط إمداد غير رسمية للمجندين الجدد؛ وكما يحدث في الجامعات في الولايات المتحدة، فالطلبة الجدد يميلون دائماً إلى الالتحاق بالجامعات التي التحق بها أبناء وطنهم من قبلهم. وكانت معسكرات عبد[رب] الرسول سيّاف منذ البداية الوجهة الأساسية للمسلمين المجندين من منطقة جنوب شرق آسيا - إندونيسيا، ماليزيا، جنوب الفلبين -⁽⁹⁾ وكون هؤلاء الرجال صداقات في المعسكرات فيما بينهم وبين المجاهدين الأفغان العرب استمرت لعدة عقود.

وعادت مجموعة من الفلبينيين إلى جنوب الفلبين، وأسسوا جماعة مقاومة إسلامية هناك وسموها "جماعة أبو سيّاف" على اسم الزعيم الأفغاني، وقائد جماعة أبو سيّاف هو عبدالراجاك جنجلاني، وتعرف على عبدالباسط في المعسكر، ووجه إليه الدعوة للحضور إلى جزيرة بيسلان في الفلبين للتدريب والتدريس في المعسكر التابع لجماعته⁽¹⁰⁾. قام عبدالباسط برحلته الأولى إلى الفلبين عام 1991، إلا أنه لم يكن مبهوراً بما شاهد. فقد كانت مجموعة أبو سيّاف منظمة همجية مؤلفة من الأوباش، وكان هدفها المعلن هو إقامة دولة إسلامية في جنوب الفلبين، إلا أن نشاطاتها كانت موجهة نحو أعمال إجرامية بحتة أكثر منها إسلامية. وتطورت خبرتها بشكل أساسي حول عمليات اختطاف الأجانب وتحصيل فدية من ذويهم. وكان ذلك هو الهدف النهائي من تلك العمليات. وقد ذكر عبدالباسط فيما بعد لأحد أصدقائه بأنه سيكون من الصعب عليه مساعدة تلك الجماعة؛ لأن "مصلحتهم الأساسية هي استخدام الأسلحة النارية"، وليس خبرته هو⁽¹¹⁾.

ومع نهاية العام، غادر معظم الأفغان العرب بيشاور بمن فيهم ابن لادن الذي عاد إلى المملكة العربية السعودية. وقبل أن يغادر، كان قد أسس منظمة القاعدة للتنسيق بين النشاطات الجهادية لما بعد أفغانستان. وكان قد أرسل رجاله إلى السودان لتأسيس قاعدة لمنظّمته هناك⁽¹²⁾. ومن منزله في جدة، حاول أن ينظم جيشاً من المسلحين لمقاتلة الحكومة الماركسية جنوب اليمن⁽¹³⁾. أما الذين بقوا في باكستان، فقد تغيروا تغيراً ملحوظاً.. فالدائرة التي كانت تضم أخوال عبدالباسط، خالد شيخ وزاهد شيخ محمد، تحولت مع تحول الزمن. السوفييت ذهبوا، وعزام وعابدين الأموات. وذكر أحد أصدقاء الأخوة البلوش: "في الأعوام 1991 و1992 أصبحت أماكن إقامتهم، اجتماعاتهم، أفكارهم، سرية. وترسخ الحقد على أمريكا بين كل العرب الذين قدموا من

أفغانستان.... فكلهم كانوا يعتقدون أن أمريكا فرضت حكمها عن طريق عدم السماح بالحكم الإسلامي في أفغانستان بواسطة عملائها في باكستان؛⁽¹⁴⁾ واعتقد الكثير منهم بأنهم خدعوا لخدمة المصالح الأمريكية ضد الاتحاد السوفييتي، فاستخدمتهم ثم طرحتهم جانباً.

وبينما عاد كثير من المجاهدين الذين تجمعوا في باكستان إلى أوطانهم، محاربين دون حرب. نشط آخرون في البحث عن حرب جديدة. فبعضهم - ومن بينهم عبدالباسط - وجد تلك الحرب - ولو مؤقتاً - في البوسنة⁽¹⁵⁾. ذهب خالد شيخ إلى البلقان عام 1992، ولكنه لم يمكث طويلاً. فقد عاد إلى باكستان، ثم، وبدعم من أحد أعضاء الأسرة الحاكمة في قطر، انتقل هو وأسرته إلى الدوحة عاصمة قطر، حيث حصل على وظيفة مهندس في وزارة الأشغال العامة للمشيخة.

عاد عبدالباسط لمدة وجيزة إلى بيشاور. ولكنه في ذلك الوقت كان قد رسم لنفسه طريقاً خاصة به، وبدأ فعلاً بالسير فيها. ولم يكن من الواضح أبداً القضية التي كان يخدمها. ونظراً إلى العشوائية في نشاطاته، ونقص الدعم الكافي منذ البداية، فيببدو، على الأرجح، أنه كان يعمل في حقل العمل الإرهابي الحر، وهو نوع جديد مستقل من الإرهاب العالمي يختلف عن الإرهاب المدعوم من الدولة. وعلى مدى السنة التالية، بدأ بوضع خطط لمهاجمة الولايات المتحدة. واتصل بعبدالحكيم مراد صديقه القديم منذ أيام الصبا، والذي كان في الولايات المتحدة يدرس الطيران. قال عبدالباسط بأنه يريد مهاجمة إسرائيل ولكنه كان يعتقد أنها هدف صعب؛ لذلك قرر مهاجمة الولايات المتحدة بدلاً منها. وطلب من مراد أن يقترح عليه بعض الأهداف اليهودية المحتملة في الولايات المتحدة. وافق مراد على التفكير في الموضوع. فيما بعد، وبعد أن أكمل مراد تدريباته، عاد إلى الخليج عام 1992، واتصل به عبدالباسط ثانية:

"سألني عما إذا كنت اخترت المكان... قلت له برج التجارة العالمي. سألني لماذا، فأعطيته الأسباب. وسألته ماذا سيفعل، فأجابني بأنه تلقى تدريبات في أفغانستان. فسألته ما نوع تلك التدريبات. فأخبرني قائلاً "الشوكلاته". فسألته ماذا يعني بالشوكلاته؟ فقال: ،بوووم، ففهمت وقتها أنه تلقى تدريبات على كيفية صنع المتفجرات، وقال لي بأنه قد حان الأوان للذهاب إلى الولايات المتحدة"⁽¹⁶⁾.

لماذا اليهود؟ لماذا الولايات المتحدة؟ تساءل مراد:

"إنني أعمل لخدمة ديني، لأنني أشعر أن أخوتي المسلمين الفلسطينيين يعانون، والمسلمون في البوسنة يعانون، وفي كل مكان يعانون. وإذا نظرت إلى سبب تلك المعاناة، فإنك ستجد الولايات المتحدة هي السبب في ذلك. وإذا سألت أي شخص، وحتى إذا سألت الأطفال فسيقولون لك بأن الولايات المتحدة تدعم إسرائيل وإن إسرائيل تقتل إخوتي المسلمين في فلسطين. الولايات المتحدة تتصرف كالإرهابي، ولكن لا أحد يرى ذلك. أعني دعم إسرائيل بالمال والسلاح. وهذا يعتبر عملاً من أعمال الإرهاب"⁽¹⁷⁾.

وبتحضيرات تزيد على ما اقترحه مراد من أن أعداداً كبيرة من اليهود تعمل في البرجين التوأمين لمركز التجارة العالمي في نيويورك، توجهه عبدالباسط إلى أحد وكلاء السفر في بيشاور لشراء تذكريتي سفر درجة أولى ذهاباً من بيشاور إلى مطار كيندي في نيويورك مروراً بكراتشي، بكلفة 2500 دولار، تذكرة له شخصياً والأخرى لشخص فلسطيني سيئ الحظ اسمه أحمد محمد عجاج⁽¹⁸⁾. وكان عجاج هاجر إلى الولايات المتحدة وأقام في مدينة هيوستن في ولاية تكساس، وتقدم بطلب لجوء سياسي مدعياً أنه كان يخضع لاضطهاد الجيش الإسرائيلي في الضفة الغربية. وبينما كان ينتظر البت في طلبه، عمل كبائع للساعات، وفي خدمة توصيل طلبات لدى شركة دومينو

للبيتزا. وعندما سنحت له الفرصة، كما يقول، - إذ عرض عليه أحد معارفه تذكرة سفر بسعر مفر - سافر إلى باكستان لكي يشاهد الجهاد بأم عينه⁽¹⁹⁾. وتجاهل عجاج الحصول على الوثائق اللازمة التي تضمن له العودة إلى الولايات المتحدة. وقد عرض عليه عبدالباسط تذكرة للعودة فقبلها. ولدى وصولهما إلى مطار كينيدي مساء الأول من سبتمبر/ أيلول، تم توقيفهما في مكتب الهجرة. كان عجاج يستخدم جواز سفر سويدي مزورّ أعطاه إياه عبدالباسط، ومنع من دخول البلاد. وعندما اعترف بأن الجواز ليس له، تم توقيفه. وكشف التفتيش في حقائبه الثلاث عن وجود بعض الملابس وعدداً كبيراً من الأدلة العسكرية والمجلات الجهادية، وطرق تحضير المتفجرات الكيميائية، ومزيداً من الوثائق المزورة لإثبات الشخصية. وعلى إثر ذلك تم إيداعه في الحبس، وبقي رهن الاعتقال لستهة شهور لاحقة.

أما عبدالباسط، من الناحية الأخرى، فقد كان يسافر خفياً. ومعظم ما كان في حقائب عجاج كان له. وقد وصل إلى المطار وليس معه سوى حقيبة يدوية. وكان يرتدي ملابس ظهر فيها كالتاوس، كما وصفه أحد الأشخاص، ثوباً مكوناً من ثلاث قطع ألوانها: برتقالي فاقع، وبني، وأخضر غامق، وأكمامه فضفاضة، وسروال نسائي منتفخ يشبه السروايل التي تلبسها حريم السلطان في الأفلام. وكان يحمل ما يبدو أنه جواز سفر عراقي أصلي باسم "رمزي أحمد يوسف"، إلا أن جواز السفر لم يحمل أي تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة⁽²⁰⁾. وعندما سئل عن سبب عدم وجود تأشيرة دخول، أخبر موظفي الجوازات بأنه هارب من الاضطهاد السياسي في العراق، الذي كان يخوض حرباً مستمرة مع الولايات المتحدة منذ احتلال الكويت قبل عامين. وخير عبدالباسط بين التسفير والعودة من حيث أتى أو الاعتقال، فاختر الاعتقال، ولكنه أخلي سبيله فوراً وخرج من المطار مستقلاً سيارة أجرة إلى بروكلين ليبدأ مهنته الجديدة: رمزي أحمد يوسف الإرهابي المحترف.

ذهب يوسف فوراً إلى مسجد بروكلين الذي يوجد فيه فرع لمكتب الخدمات التابع لعبدالله عزّام. وهناك التقى الزعيم الروحي للمسلمين المتطرفين في نيويورك وهو الشيخ عمر عبدالرحمن، وهو شيخ مصري يعرف بالشيخ الضرير. وكان عمر عبدالرحمن من حلفاء عبدالله عزّام، وهو من أبرز منظري الحركات الإسلامية حول العالم. ومن خلال عمر عبدالرحمن وغيره، تعرّف يوسف على عدد من الشباب الناشط، وسرعان ما جمع فريقاً من الرجال لمساعدته في تنفيذ حملته ضد الولايات المتحدة. وكان يوسف كإرهابي محتمل - يتمتع بميزتين كبيرتين: خبرته التقنية في المتفجرات، وجاذبيته. فقد كان طويل القامة ضامر البطن، ولم يحل بينه وبين حسن المظهر سوى أذنيه الكبيرتين. وفيه نزعة من الخلاعة والمجون. وكان يبدو أنه قادر على إقناع الناس وتسخيرهم للقيام بأعمال له لم يخطر في بالهم أن يقوموا بها في يوم من الأيام، أو لم تكن لديهم الإرادة للقيام بها بأنفسهم. وكان يجيد هذا الفن دون جهد أو عناء. وكان بارعاً في اختيار مساعديه من البسطاء السدّج، أو من ضعيفي القدرات والإنجازات. فكان يوجه إليهم الأوامر كما يشاء. وكما وضّح صديقه القديم مراد، لم يكن يوسف متديناً - بل ربما لم يكن متديناً على الإطلاق - ولكنه كان قادراً على التحدث بلغة الأشخاص المتدينين وجعلهم يشعرون بأن أهدافه هي أهدافهم.

وفي خريف ذلك العالم، 1992، قام يوسف بتجنيد فريق من الأشخاص العاديين السدّج لمساعدته في بناء القبلة. وانتقل إلى شقة سكنية في مدينة جيرسي في ولاية نيوجيرسي. وبينما كان يعدّ فريقه ويبني القبلة، ذهب لمعاينة أهدافه. فتنقل حول بروكلين؛ لأنه سمع أن اليهود يعيشون في تلك المنطقة. ووضع في حسابانه عدة أصناف من القنابل - كان يحلم ببناء قبلة تتبعث منها لدى انفجارها سحابة من الغازات السامة لتدخل في نظام التهوية في برج التجارة العالمي فيتسمم من بداخل البناية. وقام بشراء عينة من هذه

الغازات، إلا أنه لم يملك المال الكافي لصنع تلك القنبلة. وأخيراً استقر رأيه على أرخص النماذج التي خطرت على باله، وهي قنبلة بسيطة مصنوعة من السماد الكيماوي⁽²¹⁾. وقام يوسف بفحص نماذج من القنبلة التي جمعها وفجّرها في المناطق النائية بعيداً عن المدينة. وفي فبراير/ شباط، وبعد بداية متعثرة أودت به إلى المستشفى عقب حادث سير، انفجرت القنبلة التي بناها يوسف بكلفة بلغت 3 آلاف دولار، في الطابق السفلي من البرج الشمالي لمركز التجارة العالمي في نيويورك، مودياً بحياة 6 أشخاص وجرح ألف آخرين، والتسبب بخسارة بلغت 300 مليون دولار. وتوقف يوسف مع رفاقه أمام مركز للبريد لوضع رسالة أرسلها إلى خمس وكالات إعلامية لإعلان مسؤوليتهم عن التفجير. وفي نقطة ما في حياته، وصف يوسف نفسه بأنه باكستاني بالمولد، فلسطيني بالاختيار، وعكست الرسالة التي تلقتها صحيفة النيويورك تايمز هذا الشعور:

نحن الكتيبة الخامسة من جيش التحرير، نعلن مسؤوليتنا عن التفجير الذي وقع في البناية المذكورة. لقد تم القيام بهذا العمل ردّاً على الدعم السياسي والاقتصادي والعسكري لإسرائيل دولة الإرهاب ولبقية الدول الدكتاتورية في المنطقة.

ومطالبنا هي:

وقف كافة أشكال الدعم العسكري والاقتصادي والسياسي لإسرائيل.

وقف جميع العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل.

عدم التدخل في الشؤون الداخلية لدول الشرق الأوسط.

وإذا لم يتم التجاوب مع مطالبنا فإن كافة وحداتنا العاملة في الجيش ستستمر في تنفيذ مهماتنا ضد الأهداف العسكرية والمدنية داخل وخارج الولايات المتحدة. ونحيطكم علماً بأن جيشنا

يضم أكثر من مائة وخمسين جندياً انتحارياً رهن الإشارة. إن الإرهاب الذي تمارسه إسرائيل (والمدعوم من أمريكا) يجب أن يجابه بإرهاب مثله، وإن الدكتاتورية والإرهاب (المدعومين أيضاً من أمريكا) والذي تمارسه بعض الدول ضد شعوبنا يجب أن يواجه بالإرهاب.

إن الشعب الأمريكي مسؤول عن الأعمال التي تقوم بها حكومته ويجب عليهم أن يسألوا حكومتهم عن كافة الجرائم التي ارتكبتها بحق الشعوب الأخرى. وإلا فإنهم - أي الشعب الأمريكي - سيكونون هدفاً لعملياتنا التي ستقضي عليهم. إننا ندعو كافة الشعوب من كافة الدول، وكل الثوريين في العالم إلى مشاركتنا في هذا العمل لتحقيق أهدافنا العادلة.

جيش التحرير - الكتيبة الخامسة.

الفريق الركن، أبو بكر المكي.

لم يكن هناك فريق ركن، ولا أبو بكر، ولا حتى أي جيش. فقط يوسف وتخيلاته الملهبة التي كانت كافية بحد ذاتها. فيما جلس يوسف ذلك المساء في مدينة جيرسي ينظر إلى ناطحات سحاب مانهاتن وهو منكسر الخاطر. فقد نقلت محطات الأخبار تقديرات الدمار وأعداد القتلى. وكانت الأضرار التي أحدثتها القنبلة أقل مما كان يتوقع. فقد أراد يوسف من القنبلة أن تسقط البرج الشمالي من مركز التجارة العالمي وتدمر المجمع بكامله. وقدّر أن تصل الخسائر البشرية إلى 250 ألف قتيل. ولا يعرف بالضبط من أين أتى بهذه التقديرات؛ لأن هذا الرقم هو أضعاف أعداد الذين يعملون في تلك البنايات⁽²²⁾. كتب يوسف نسخة أخرى من الرسالة التي تدعي المسؤولية، معترفاً أن القنبلة كانت أقل تدميراً مما كان يأمل، وتضمنت تلك الرسالة التي

تليت للتجربة ولكنها لم ترسل قط، التهديد التالي: "لسوء الحظ، لم تكن تقديراتنا صائبة هذه المرة، إلا أننا نعدكم أن تكون الضربة القادمة في منتهى الدقة، وسيبقى برج التجارة العالمي واحداً من أهدافنا ما لم يتم تحقيق مطالبنا⁽²³⁾."

بدا كل شيء تقريباً حول الهجوم على برج التجارة العالمي عادياً جداً، لدرجة أن موظفي وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA صنفوا يوسف بأنه إرهابي منفرد يعمل وحده. وبدا يوسف وكأنه رجل أهوج متهور، وعلى درجة ما من الذكاء والإبداع، ولكنه يفتقر إلى الاهتمام بالتفاصيل الدقيقة. فهو على سبيل المثال، جند الشخص الذي قاد الشاحنة التي تحمل القنبلة إلى البرج في الليلة التي سبقت عملية التفجير. وكان يهدف أصلاً من رحلته إلى الولايات المتحدة القيام بجولة استكشافية أكثر منها للقيام بهجوم. ومن نتائج ذلك أنه كان يفتقد بشدة إلى التمويل اللازم. فقد أنفق على رحلاته الجوية من وإلى أمريكا أكثر مما أنفقه على صنع القنبلة. وقال بأنه حدد تاريخ القيام بالهجمة بناءً على وزن محفظته. وعندما نفذت جيوبه من النقود قام بتفجير القنبلة. وقال بأن الأموال جاءت من الأسرة والأصدقاء، دون تقديم تفاصيل إضافية. والمصدر الوحيد الذي يمكن التثبت منه هو حوالة مالية بقيمة 660 دولار من خاله خالد شيخ أرسلت إليه في نيوجيرسي. ولو كان معه نقود أكثر لقام بصنع قنبلة أكبر.

إلا أن المحصلة النهائية لهجوم يوسف - ستة قتلى، ومئات الملايين من الأضرار المادية - لم تكن تافهة. فقد برهن يوسف - عدا عن الأضرار المادية التي استطاع إحداثها - أنه وبرغم سذاجة مجموعته، كان قادراً على توجيه ضربة في صميم عدوه بنجاح. فبرج التجارة العالمي، لم يكن هدفاً غير ذي بال. وربما كان اختياره عشوائياً، وأساليبه المتبعة هي أساليب الهواة، إلا أن

دوافعه كانت حقيقية، وبرهن، دون شك، أن النتائج الوخيمة كانت محتملة. والسؤال الذي كان يجب طرحه بعد التفجير الأول لبرج التجارة العالمي، ليس: كيف استطاع أن يقوم بذلك؟ بل كم كنا محظوظين بتجنب مصيبة أكبر؟ وبعرض التعديلات البسيطة، كان يمكن ليوسف أن يودي بحياة الآلاف.

وإلى حد بعيد عجزت الولايات المتحدة عن أن تتعرف وتقدر أبعاد وملامح العصر الجديد الذي أطلّ عليها، ولكن سواء عرفه أحد غيرها أم لا، فإن حقبة من الإرهاب الديني قد وصلت وأطلّت برأسها. إن خطط الأهداف السياسية بالأهداف الدينية كان أمراً طبيعياً في تاريخ البشرية. والإسلام نفسه جاء إلى العالم بغايات وأهداف دنيوية وأخرى مقدسة. والذي تغيّر في هذا التقمص الأخير للإسلام يرتبط بالعالم الذي يعيش فيه أكثر من اتصاله بالإسلام نفسه. ومع حلول منتصف القرن العشرين، حقق التحرك نحو الحكم اللاديني نجاحاً بارزاً في كل مكان باستثناء العالم الإسلامي. وانحرف مناصرو الإسلام السياسي ببساطة عن طريق مواصلة بقائهم واستمرارهم بما يتجاوز الطموحات السياسية وإمبراطوريات الأديان الأخرى. وقد كان بالإمكان أن يبقوا مجرد مفارقة تاريخية ملفتة للنظر لولا ما قدمه العالم المعاصر لهم من وسائل تمكنوا بواسطتها من دمج معتقداتهم القديمة بالتقنيات الحديثة المتاحة لهم بسهولة. وكانت نتيجة هذا التزاوج إرهاب على درجة لم تكن معروفة من قبل.

كراتشي

غادر يوسف الولايات المتحدة ليلة وقوع الهجوم مستخدماً اسمه الحقيقي عبدالباسط. أما الآخرون فكانوا أقل حظاً منه. ولم يفعل يوسف شيئاً لحماية فريقه. فتركهم جميعاً يواجهون مصيرهم المشؤوم. وفي النهاية كان ذلك خطأً منه. فقد حملت القنبلة إلى موقف السيارات أسفل البرج في حافلة مستأجرة من شركة رايدر. ولم يكن مع الشخص الذي استأجر الحافلة واسمه محمد

سلامة أي نقود تمكنه من الهرب بعد العملية. وحتى يتمكن من شراء تذكرة للهرب حاول مراراً وتكراراً الحصول على المال من المصدر الوحيد الذي يعلم أن أمامه فرصة جيدة في الحصول على المال منه: وهو المطالبة باسترجاع مبلغ 400 دولار التي أودعت تأميناً على الحافلة لدى الشركة التي أجّرت الحافلة التي ادعى أنها سرقت. ودون أن يعلم سلامة أن أجزاء من الحافلة بقيت سالمة بعد الانفجار، وأن المحققين استطاعوا تحديد رقم شاصي الحافلة وتتبعها إلى المكتب الذي يمتلكها. ومن تلك اللحظة لم يكن من الصعب البحث عن سلامة، الذي أوصل نفسه إلى الشرطة عن طريق محاولاته البائسة للحصول على نقوده.

أدى اعتقال سلامة وأربعة آخرين، وما تبعه من تحقيقات إلى امتداد الخيوط مباشرة إلى يوسف، الذي هرب - كعادته - مسافراً في الدرجة الأولى - إلى باكستان. فتعقبته عمليات بحث دولية وصاحبها إعلان عن جائزة مقدارها مليوني دولار لمن يعثر عليه. وطبعت الحكومة الأمريكية صورة يوسف على 32 ألف علبة كبريت وألقته عن طريق الجو في أنحاء باكستان. واختفى يوسف لبعض الوقت في بلوشستان، حيث كانت تسكن زوجته. وقد أمضى هناك وقتاً كافياً حتى إن زوجته لطيفة أنجبت مولوداً أنثى سمته سناء في السنة اللاحقة، إلا أنه عاد وظهر في بيشاور وكراتشي كبطل شعبي مرموق لدى الأشخاص الذين يحبون أن يفجروا أنفسهم.

عاش عبدالكريم شقيق يوسف في كراتشي، وكان خاله خالد شيخ محمد، يزور باكستان في عدة مناسبات قادماً من الدوحة التي لا تبعد سوى ساعة طيران عبر بحر العرب. وكراتشي مدينة شاسعة متخلفة قاسية، وفيها نسبة كبيرة من البلوش (حوالي مليونين من سكانها الاثني عشر مليوناً). وفيها أيضاً جالية عربية كبيرة. وعلى العكس من بيشاور المدينة القديمة والمتصلة بقرون من التجارة والتقاليد المنتشرة في وسط آسيا، فإن كراتشي مدينة حديثة

أنشئت في القرن التاسع عشر ومتصلة بعالم أوسع. ويوجد فيها ميناء عميق المياه، ومطار دولي يتصل بمعظم عواصم الخليج وأوروبا وجنوب شرق آسيا وإفريقية والأمريكيتين.

وتعتبر كراتشي مدينة عصرية نسبياً، وتبدو في كثير من الأحيان مكاناً طبيعياً، وأكثر المدن الباكستانية انفتاحاً على العالم الخارجي، وأيضاً أكثرها عنفاً. يستقل الأطفال فيها دراجاتهم الهوائية إلى المدرسة كل يوم. ويمازح الأولاد البنات في نقاط توقف حافلات نقل الركاب. ويستمتع الأبناء الكبار إلى الموسيقى التي تؤذي أسماع آبائهم. ويرتدي الرجال قمصاناً قطنية تتدلى إلى منتصف الساق وسراويل فضفاضة من اللون نفسه، معظمها رمادية أو بيضاء مطرزة أحياناً باللون البنفسجي أو الذهبي. ويرتدي عدد كبير منهم القبعة المشدودة على الرأس والسائدة في ولاية السند التي عاصمتها كراتشي؛ ومن عادة الرجال أيضاً إطلاق لحاهم ولبس الصندل. وترتدي النساء ملابس مشابهة من الدشداشة والسروال، إلا أن الفارق هو أن الملابس النسائية مصممة باللون الأخضر الغامق والأزرق الغامق ومصنوعة من الحرير الأملس البراق. وتكون الألوان في الأحياء البلوشية أكثر بريقاً، وأكثر تناقضاً، وتعدداً. يوجد في كراتشي بعض الغرور والخيلاء الشائعين في المدن التي تعتاد الهيمنة على المناطق المحيطة بها. وقد كانت بالفعل، من هذا الجانب، تعشق الخرافة الشائعة عنها بأنها مكان الخطر والخديعة.

يسهل على أي شخص الانغماس في ذلك المكان. والأحياء البلوشية بالتحديد، يمكن لأي شخص أن يضيع وسطها إن رغب في ذلك. وهي إلى حد بعيد، الأحياء الأكثر اكتظاظاً بالسكان داخل المدينة المكتظة أصلاً. ويوجد أرصفة حول الشوارع، إلا أنها مغطاة بطبقة سميكة من الغبار والقمامة. وتبطن الخيول والحمير والماعز والعربات التي تجرها الخيول من حركة

الباصات الكبيرة المتكدسة بالركاب والمتجهة نحو كويتًا أو نحو قرى ماكران على الطريق نحو إيران. وتمتلئ الأرصفة بالعربات المحملة بصناديق البرتقال، والبصل الأحمر، وتتسخ الممرات بمخلفات الذبائح التي يطرحها القصابون الذين يبيعون اللحوم في الهواء الطلق.

والمدينة، بحسب أي مقياس، تعيش حالة من الفوضى والقدارة. ولم تشهد أي خطة شاملة للتطوير منذ العشرينيات من القرن الماضي. هواؤها ملوث، بالرغم من قلة عدد السيارات بحيث إن حركة السير فيها ميسّرة. وتسوق الشخصيات البارزة والموسرة سيارات تويوتا كورولا إلى العمل، وبعضهم برفقة سائق خاص وحارس شخصي. وعندما وصل خالد شيخ إلى كراتشي، كانت المدينة تتهيأ للحصول على وصف أعنف مدينة في العالم. وانتشرت عمليات الخطف من أجل الفدية لدرجة أن السلطات المحليّة استطاعت أن تخفف من حدة هذه الظاهرة عن طريق اتباع الإستراتيجية البائسة باختطاف أقارب الخاطفين المشتبه بهم من أجل مقايضتهم بالرهائن. وتنتشر الملصقات في الأماكن العامة، وهذه الملصقات تحتوي على إرشادات حول "ماذا تفعل إذا تعرضت للخطف"، كما لو كان الأمر ظاهرة طبيعية كالهزة الأرضية. وتنتشر كذلك جرائم القتل. وتشير الإحصاءات إلى وقوع أكثر من ألف جريمة قتل في العام. وبلغت في شهر واحد عام 1995 276 جريمة قتل. وكلها نتيجة للخلافات الطائفية التي جعلت أجزاء المدينة مناطق حصرية لهذا الحزب الديني الطائفي أو ذاك. ومعظم عمليات القتل بين مسلمين سنة يقتلون مسلمين شيعة أو بالعكس. وتعتبر المناطق التي تسيطر عليها طائفة دون أخرى "مناطق محرمة" ليس فقط أمام المنافسين السياسيين، بل أمام الشرطة التي تخلت عن التفكير في السيطرة على ما يجري داخل تلك المناطق. وقد أصبح العنف ظاهرة طبيعية لدرجة أن المناطق المحرمة يشار إليها في الصحف اليومية

بالأحرف الأولى من العبارة اختصاراً وكأن كل شخص يعرف ما تعني. وأصبحت هذه المناطق جزءاً من نسيج المدينة، وجزءاً من تاريخها الذي جعل منها مكاناً مثالياً لشن حرب.

تعتبر كراتشي أسوأ مدينة باكستانية منقعة بالدماء، ومع الأسف، ليست المدينة الوحيدة. فهذا البلد الذي تأسس أصلاً كموطن ديني منفصل للمسلمين، ليتحرروا فيه من حكم الغالبية الهندوسية في الهند عام 1949، قد عانى منذ نشأته صنوفاً من أشكال العنف الديني، أو حرباً دينية وعلى عدة مستويات. فقد كانت هناك درجة من العنف لا يمكن تصوّره في الغرب. ويتوارى القتل الطائفي خلف حجاب مجتمع عنيف أصلاً. مجتمع يحدد فيه الشرف والعار أفعالاً تعتبر هنا في الغرب طبيعية، بينما تعتبر في أماكن أخرى جرائم فظيعة.

وفيما يلي جريمة تقليدية كما جاءت في صحيفة يومية عادية: قُتلَ شخص يبلغ من العمر 55 عاماً في سامناباد رميةً بالرصاص. وذكرت الشرطة أن غولاب خان، وهو سائق عربة يجرها حمار - اعترضه رجل قرب النور مور جاء إلى المكان على ريكاشة. وقال سكان المنطقة في إفادتهم أمام الشرطة بأن الرجل غير محدد الهوية نزل عن الريكاشة وجرت مشادة كلامية بينه وبين خان فأطلق الرجل النار وولّى هارباً. وأخبرت أسرة غولاب خان الشرطة بأن غولاب وقبل ثلاثين عاماً أقدم على قتل رجل من عشيرة منافسة. وتشك الشرطة أن الضغينة التي مرّ عليها ثلاثون عاماً كانت الدافع وراء جريمة القتل.

وهذا مثال آخر: أقدم ذو الفقار أحمد على قتل أخته وعشيقها في قرية مانديالا. وكانت فارزانا، الأخت، قد قدمت لتسكن مع أسرتها عقب مقتل زوجها. وفي تلك الأثناء أقامت علاقة مع حامد من لاهور. وفي يوم الاثنين كانا يجلسان معاً عندما جاء ذو الفقار وقتلها. فمات الاثنين على الفور.

ومثال ثالث: أقدم رجل على قتل أخته وعشيقها بالفأس، في قرية بوداني يوم الأحد. وقال القاتل وهو محمد رمضان الذي سلّم نفسه للشرطة، بأنه رأى أخته وعشيقها جليل، في وضع مخل بالشرف عندما عاد إلى المنزل.

وغير ذلك الكثير من هذه الأمثلة التي أصبحت تشكل الحياة اليومية الاعتيادية في باكستان. احتفظ خالد شيخ بشقة سكنية في منطقة شرف آباد السكنية التي لا تبعد كثيراً عن مسجد ومدرسة بينوري التي كانت تعرف في المدينة بصداميتها. (كان الملا عمر، الذي أصبح فيما بعد قائد الطالبان في أفغانستان تلميذاً في تلك المدرسة). والحي نفسه يشبه باقي الأحياء التي سكنها خالد في أوقات مختلفة - منطقة تجارية، منخفضة القيمة، مليئة بالفنادق الرخيصة، وعابري السبيل، وكلاء السفر، محلات الصرافة. فهي من ذلك النوع من الأماكن التي يمكنك أن تأتي وتذهب دون أن يلحظك أحد وسط الزحام. كان خالد يقول للناس بأن اسمه عبدالمجيد. وأنه رجل أعمال سعودي ويشغل باستيراد وتصدير عدة أنواع من البضائع من بينها الإلكترونيات اليابانية، والمياه المقدسة⁽²⁴⁾.

سافر خالد شيخ عدة مرات إلى الصين والبوسنة والبرازيل والسودان وماليزيا⁽²⁵⁾. ولا علاقة لهذه الرحلات بعمله كمهندس في القطاع العام. ويبدو أن معظم هذه الرحلات، إن لم نقل كلها، كانت على علاقة بعزمه واهتمامه بشن عمليات إرهابية.

احتفظ خالد بعلاقة قريبة مع يوسف في نيويورك، وكان يتحدث إليه عن طريق الهاتف على نحو دائم. وكان معجباً بالشهرة التي حققها يوسف عقب الهجوم على برج التجارة، ورأى فيه نموذجاً يحتذى في عمليات مستقبلية⁽²⁶⁾.

أما يوسف، وعلى الرغم من كونه هدفاً لعمليات بحث دولية، فقد كان حريصاً على العودة إلى العمل بشغف حاملاً معه الكثير من الأفكار. وقدم

زميله القديم عبدالحكيم مراد إلى كراتشي قادماً من فحاحيل ليحاول الحصول على وظيفة مع الخطوط الجوية الباكستانية. وفي الواقع أنه كان بإمكانه العمل كطيار في أي شركة طيران تقبل بتوظيفه. ولكنه بعد أن أمضى ثلاثة أعوام متنقلاً بين خمسة معاهد للطيران، وحصوله أخيراً على رخصة طيار، لم يتمكن من العثور على وظيفة في مجال الطيران. وبدلاً من ذلك وبعد أن انقطعت به السبل، قام بالتحدث إلى صديقه القديم يوسف.

سكن مراد - كعادته عندما كان يذهب إلى كراتشي - مع عبدالكريم أحد إخوة يوسف. وعندما يأتي يوسف إلى المدينة، كان يسكن في فندق إمبيسي. ويبدو أنه كان على غير وفاق مع أخيه.

وكان يوسف ومراد يلتقيان في الفندق، وربما ذهباً أحياناً لتناول الطعام في المطاعم. وكانا يتحدثان عن ضرورة أن يضحى المسلمون بحياتهم، إذا لزم الأمر، في هذا الصراع،⁽²⁷⁾ وهي فكرة رفضها مراد ابتداءً، إلا أنه عاد واقتنع بها. كما تحدثا حول بعض الأهداف المحتملة: بناظير بوتو التي كانت مرشحة لمنصب رئيس الوزراء في باكستان؛ محطات توليد الطاقة النووية؛ بعض المسؤولين الحكوميين في إيران؛ القنصلية الأمريكية في كراتشي؛ وعدداً آخر من الأهداف الحكومية الأمريكية. وكانت هناك خطة لاغتيال بيل كلينتون. واقترح مراد تحميل طائرة صغيرة بالمتفجرات وصدمها بمبنى وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون) أو المقر الرئيس لوكالة الاستخبارات المركزي الأمريكية. أعجب يوسف بالفكرة وقال بأنها جديرة بالدراسة. وأخذ مراد ليلتقي خالد شيخ، وقدم له خالد على أنه عبدالمجيد، رجل الأعمال السعودي، كان خالد وقتها 29 عاماً، ولكنه كان يبدو أكبر سناً، ويمكنه أن يلعب دور رجل مسن. وواصلوا اجتماعاتهم في الشقة الموجودة في شرف آباد وتحدثوا بإسهاب حول تدريبات مراد في الطيران. وأراد خالد أن يعرف تفاصيل أكثر حول المدة التي

تتطلبها عملية التدريب، وكم تبلغ التكلفة، ومن هم الأشخاص المؤهلون لذلك. واجتمعوا مرة أخرى في مطعم يقع على شارع طارق، الذي لا يبعد كثيراً، ومرة أخرى استقى خالد من مراد مزيداً من المعلومات حول الطيران. وأخبر مراد أنه يحمل تصريح دخول إلى الولايات المتحدة وأنه يفكر في الالتحاق بمعهد لتعليم الطيران هناك. واقترح مراد كلية للطيران في مدينة ألبني في نيويورك، وهي واحدة من المعاهد التي تعلّم فيها. وعندما التقيا للمرة الثالثة، شاركهم رجل أفغاني يدعى والي خان أمين شاه. وكان شاه وخالد شيخ يعرفان بعضهما منذ أيام بيشاور، حيث كان أسامة بن لادن واحداً من الأصدقاء المقربين من شاه⁽²⁸⁾.

ولاحقاً في تلك السنة، وبعد أن انتقل مراد إلى شقة سكنية في كراتشي يملكها عم لأحد أصدقائه، قدم يوسف ليقيم معه. وكانت لديه خطة لاغتيال بوتو بواسطة قنبلة تفجر عن بعد⁽²⁹⁾. واستطاع خالد شيخ أن يحصل على التمويل اللازم والأجهزة الضرورية من معسكر سيّاف في ضواحي بيشاور - وتم نقل المعدات إلى شقة مراد حيث بدأ يوسف بصنع القنبلة، أو "الشوكلاته" بحسب ما يصفها هو. وأثناء تحضيراته، وعندما كان يحاول تنظيف نيترات الرصاص، وهي مادة شديدة التبخر تستخدم في المفجّر، انفجرت تلك المادة في وجهه خارج وعاء القنبلة، فسارع مراد وصديق آخر مشترك في المؤامرة بأخذ يوسف إلى أقرب مستشفى في المنطقة. إلا أنهما أخرجاه بسرعة عندما بدأ موظفو المستشفى بالسؤال عن أسباب إصابته، وقاما بنقله إلى مستشفى آخر. وهناك أخبر يوسف موظفي المستشفى أن اسطوانة غاز انفجرت في وجهه. واستطاع الجراحون إسعاف جزء من عينه المصابة. وعندما تعافى يوسف، جاء خالد شيخ ليدفع فاتورة المستشفى.

عاد يوسف إلى بيته في بلوشستان ليقضى فترة نقاهة هناك بعد خروجه من المستشفى. ولكنه رفض القعود كاسفاً لمدة طويلة، فسافر صانع القنابل

المقعد إلى بانكوك في تايلاند، وبدأ بتجنيد فريق لتفجير السفارة الإسرائيلية هناك⁽³⁰⁾. وكانت تلك العملية، مرة أخرى، عملية متسرّعة وغير ناجحة، اشترك فيها أشخاص غير مدربين وعانت من حوادث سير. وتم اكتشاف قنبلة لم تنفجر تركت في حافلة مسروقة بعد أسابيع. ولم ينتج عن تلك العملية أي شيء. فعاد يوسف إلى كراتشي. واجتمع مرة أخرى مع مراد. وفي هذه المرة استطاع يوسف إقناع صديقه بالانضمام إلى الحملة. وانتقل الاثنان إلى مستودع مكشوف في لاهور حيث أمضى يوسف قرابة الثلاثة أسابيع في تعليم مراد كيفية صنع القنابل. وفي هذه المرة، كان التعليم لهدف؛ فقد قام كل من يوسف وخالد شيخ بوضع خطة جديدة.

REWARD

\$2,000,000

KHALED SHAIKH MOHAMMAD
ALIASES: KHALED SHAIKH, SALEM ALI, ABU-KHUALA, ASHRAF REFAT NABIAH HENIM



1963-1984



October 1993

DESCRIPTION:
DATE OF BIRTH: April 11, 1963 or March 1, 1964
PLACE OF BIRTH: Kuwait or Pakistan
HEIGHT: 165 cm
WEIGHT: 60 kg
HAIR: Dark Brown/Walnut

EYES: Brown
BUILD: Slender; straight to medium
COMPLEXION: Olive or Light skinned
CHARACTERISTICS: Long shaped face, wavy a full beard, a mustache, beard and clean shaven.
 Has been known to wear glasses.

On January 6, 1995, a fire broke out in an apartment in Manila occupied by KHALED SHAIKH MOHAMMAD. The information developed from the investigation into this small fire, ultimately saved the lives of thousands of people.

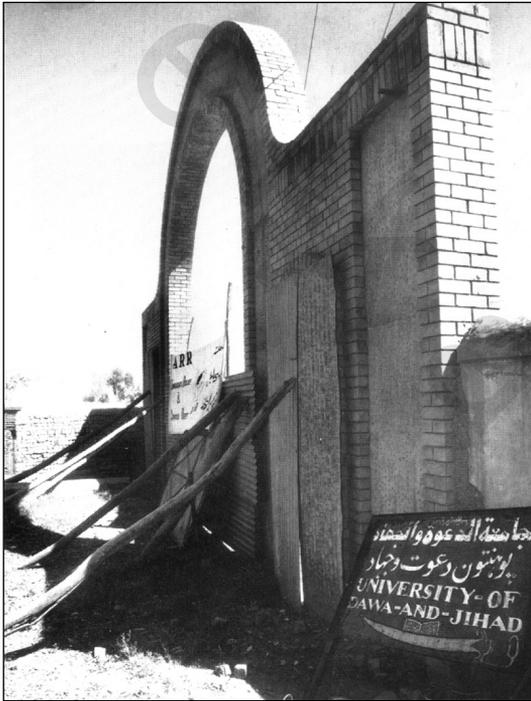
The investigation revealed that in August 1994 through January 1995 in this apartment and elsewhere, KHALED SHAIKH MOHAMMAD unlawfully and willfully conspired to bomb U.S. civilian airliners by placing explosive devices on twelve airliners flying over the Pacific Ocean during a two-day period in January 1995.

Had any of these devices exploded, innocent lives would have been lost. People should not have to live under the fear of terrorism. KHALED SHAIKH MOHAMMAD has been indicted for his involvement in this deadly conspiracy and must stand trial for his crimes.

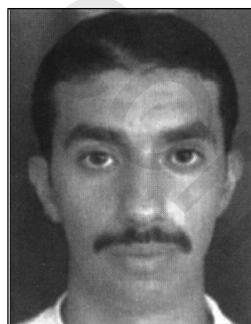
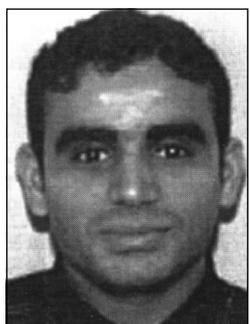
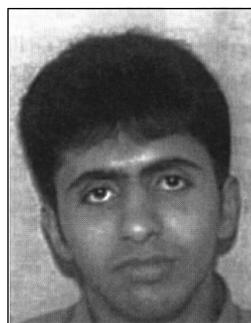
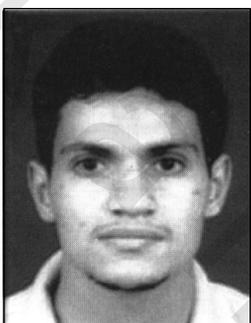
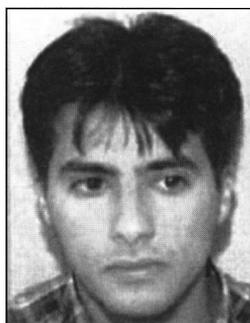
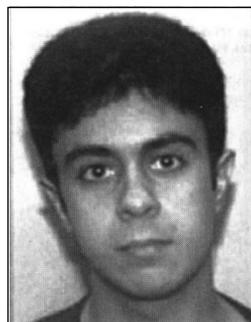
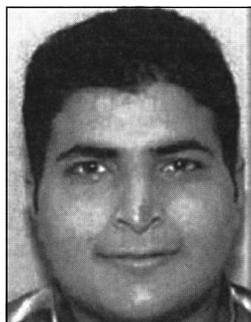
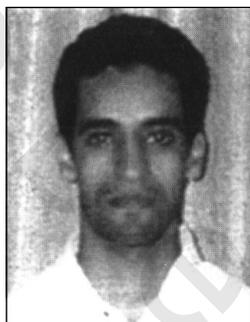
The United States is offering a reward of up to \$2,000,000 for information leading to the arrest or prosecution of KHALED SHAIKH MOHAMMAD. If you have any information about KHALED, contact the nearest U.S. embassy or consulate. In the United States, you may call your local Federal Bureau of Investigation or contact the Department of State Directorate, Security Service at 1-800-HEROES-1, or write to:

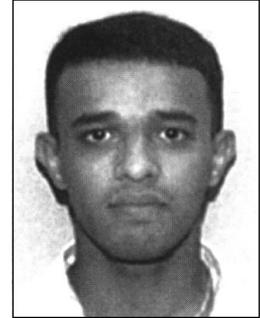
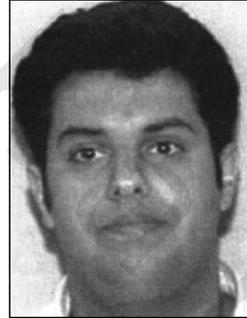
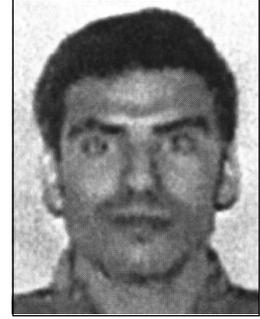
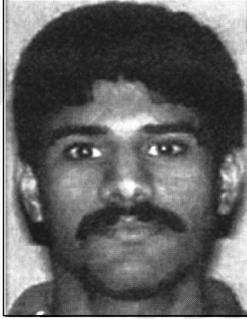
HEROES • Post Office Box 96781 • Washington, D.C. • 20090-6781 U.S.A.
 www.heroes.net • e-mail: bom1@heroes.net

خالد شيخ محمد، باكستاني الأصل من مواليد الكويت، درس في الولايات المتحدة الأمريكية، كانت الولايات المتحدة الأمريكية ناشطة في طلبه منذ عام 1996 للدور الذي لعبه في خطة فاشلة لاختطاف طائرات تجارية في الفلبين. وأوشكت مساعي القبض عليه أن تنجح ذات مرة إلا أن قادة المحققين لم يكونوا على علم بأنه انضم إلى جنود أسامة بن لادن وخطط لهجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول.



عمل خالد شيخ محمد مدرساً في جامعة الدعوة والجهاد الواقعة خارج حدود بيشاور في باكستان أواخر الثمانينيات من القرن الماضي. أسس هذه الجامعة عبد[رب] الرسول سيف زعيم الحرب الأفغاني، وتم تمويلها من الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة العربية السعودية. (الصورة من عبدالمجيد غورايا)





كان الخاطفون في 11 سبتمبر/ أيلول من الشبان الذين تم تجنيدهم في قضايا الإسلام المتطرف على يد شيوخ محليين في مدنهم وقراهم؛ وكان أربعة عشر من بين التسعة عشر سعوديون. غادر عدد منهم السعودية لقتال الروس في الشيشان، إلا أنهم اختيروا للانضمام إلى هجمات 11 سبتمبر/ أيلول في معسكرات التدريب في أفغانستان: من أعلى اليسار: أحمد الغامدي، حمزة الغامدي، سعيد الغامدي، نواف الحازمي، سالم الحازمي، خالد المحضار، أحمد النعمي، عبدالعزيز العمري، مهند الشهري، وائل الشهري، وليد الشهري، سطاتم السقيمي، فايز بني حماد، هاني حنجور، أحمد الحزناوي، ماجد موقد.

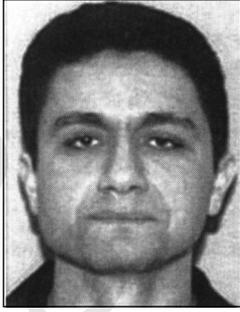


محمد حيدر زَمَار، من قدامى المحاربين في الحرب المقدسة في أفغانستان ضد الاتحاد السوفييتي، كان عالماً بارزاً في المشهد الإسلامي في ألمانيا. كون علاقات صداقة مع مجموعة الطلاب الذين كان يقودهم محمد الأمير عطا وعمر (رمزي بن الشيبه) ويُعتقد أنه ساعد في تجنيد المجموعة للذهاب إلى معسكرات التدريب التابعة للقاعدة في أفغانستان. (الصورة من نت ميولر)

أخذت هذه الصورة الجماعية من شريط فيديو لحفل زفاف سعيد بهاجي عام 1999 في مسجد القدس في هامبورغ. ويظهر في الصورة عمر الذي يلبس السترة الداكنة فوق القميص الأبيض وهو يجلس في المقدمة. أقيم هذا الحفل قبل شهرين من سفر المجموعة إلى أفغانستان.

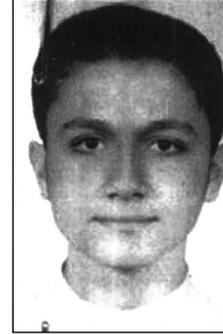


يقع مسجد القدس في شارع وضيع في منطقة فقيرة وقاسية من مدينة هامبورغ. وكان المسجد مركزاً للإسلام المتطرف في ألمانيا. وهو واحد من المساجد العربية القليلة في المدينة التي يشكل الأتراك فيها غالبية الجالية المسلمة. كان ثلاثة من الخاطفين يترددون على هذا المسجد للصلاة. وكان ثلاثتهم من المسلمين المعتدلين عندما قدموا إلى هذا المسجد، واستشهاديين محمومين عندما غادروه. (الصورة بعدسة نت ميولر)



كان محمد الأمير عطا أكبر الخاطفين سنّاً وقائداً لفريق عملية الاختطاف في الولايات المتحدة. وهو ابن لمحام من الطبقة الوسطى في القاهرة.

قدم محمد الأمير عطا إلى ألمانيا عام 1992 لمواصلة دراساته العليا، وحصل على شهادة الماجستير في التخطيط الحضري من جامعة هامبورغ - هاربورغ للتقنية. ظهرت هذه الصورة في طلبه الأول للحصول على الإقامة في ألمانيا. نشأ محمد في أسرة عادية التدين، إلا أنه تحول إلى متطرف مستعر في ألمانيا.



حصل محمد على شهادة الهندسة المعمارية عام 1991 في جامعة القاهرة العريقة في مصر. وفي ربيع السنة التي تخرج فيها، ذهب محمد بصحبة رفاقه في الجامعة إلى مدينة الأقصر جنوبي مصر في مشروع دراسي. وغادر مصر في السنة التالية متوجهاً إلى ألمانيا. (الصورة مقدمة من محمد مختار الرفاعي)



تعرف زياد جراح على آيسل سينغن في جامعة صغيرة تقع شرقي ألمانيا عام 1996، ونشأت بينهما علاقة غرامية. انتقل جراح فيما بعد إلى هامبورغ حيث انضم إلى مجموعة من الشباب الأصوليين المسلمين وذهب في النهاية إلى معسكرات القاعدة في أفغانستان. التقطت هذه الصورة في باريس خريف عام 2000.

انتقل كل من زياد جراح ومحمد الأمير ومروان الشحي إلى فلوريدا أواسط عام 2000 لالتحاق بمعاهد تدريب الطيران. وحصل ثلاثتهم على رخص قيادة طائرات خاصة. وحصل كل من الأمير والشحي على رخص قيادة طيران تجاري، ولم يكمل جراح تدريباته للحصول على رخصة طيار تجاري.



نشأ مروان الشحي (في الوسط) في أسرة محافظة ومتدينة في الإمارات العربية المتحدة. وجاء إلى ألمانيا على حساب بعثة دراسية مقدمة من الجيش الإماراتي لدراسة الهندسة. وعندما انتقل إلى هامبورغ عام 1999، انضم بسرعة إلى المجموعة التي تدور في فلك محمد الأمير وعمر. ويظهر الشحي في هذه الصورة وهو ينشد في حفل زفاف سعيد بهاجي.

في صبيحة يوم 11 سبتمبر/ أيلول الباكر، عبر محمد الأمير عطا وعبدالعزیز العمري (يسار) خلال بوابات الأمن والحماية في مطار بورتلاند الدولي في ولاية ماين من أجل اللحاق بالطائرة التي ستقلهم إلى بوسطن والتي وصلا إليها قبل موعد إقلاع طائرة الأميركيان إيرلاينز رحلة 11 وهي الطائرة الأولى التي ضربت مركز التجارة العالمي.



| RA | 11 | SEP | BOS | B32 | 745R | 767 | ON | LIST | F9C19Y63 | |
|----|------------|-------|------|-----|-------|-------|----|------|----------|-----|
| 1 | ALSHARI | WAIL | P | LAX | 2A-F | 1 | SC | LF | CLUB | ET |
| 2 | ALSHARI | WALEE | P | LAX | 2B-F | NB | SC | LF | CLUB | ET |
| 3 | MORRITO | LAWA | P | LAX | 2B-F | 0 | SC | LF | TRT | RS |
| 4 | REITK | DAVID | X | LAX | 2A-F | NB | SC | LF | CLUB | RS |
| | | | | | | | | | ET | PPR |
| 5 | ROSS | RICHA | P | LAX | 2J-F | | | | | |
| 6 | NEWELL | RENEE | P | LAX | 3A-P | | | | | |
| 7 | BOUCHARD | CAROL | P | LAX | 3B-E | | | | | |
| 8 | FLYZIK | CAROL | X | LAX | 3H-F | | | | | |
| 9 | PUGPOLO | SONIA | P | LAX | 3J-F | | | | | |
| 10 | HACKEL | FAR | PAGE | U | LAX | 7A-F | | | | |
| 11 | ANGELL | DAVID | AG2 | U | LAX | 8A-F | | | | |
| 12 | ANGELL | LYNN | AG2 | U | LAX | 8B-F | | | | |
| 13 | ATTA | MOHAM | AG2 | J | LAX | 8D-F | | | | |
| 14 | ALOMARI | ABDUL | AG2 | J | LAX | 8G-F | | | | |
| 15 | GLAZER | EDMUN | R | LAX | 9A-F | | | | | |
| 16 | LEWIN | DANTE | R | LAX | 9D-F | | | | | |
| 17 | RAY | PETER | R | LAX | 9H-F | | | | | |
| 18 | HAYES | ROBER | R | LAX | 9J-F | | | | | |
| 19 | HENNESSY | EDWAR | R | LAX | 10A-F | | | | | |
| 20 | AL SUORNI | SATAM | J | LAX | 10B-F | | | | | |
| 21 | WAHLSTROM | MARY | AD2 | C | LAX | 10H-F | | | | |
| 22 | CURRYVAN | PATRI | J | LAX | 10J-F | | | | | |
| 23 | CURRYGREEN | ANDRE | H | LAX | 11A-F | | | | | |
| 24 | MELLO | CHRIS | R | LAX | 11B-F | | | | | |
| 25 | BEUG | CAROL | AD2 | C | LAX | 11D-F | | | | |
| 26 | ROSENZWEIG | PHILT | R | LAX | 11G-F | | | | | |

| SUNTRUST | | | SUNTRUST BANK, GULF COAST P O BOX 620347 ORLANDO, FL 32862-0547 | |
|----------|----------|----------------------------|-----------------------------------------------------------------------|--------------------|
| DATE | AMOUNT | DESCRIPTION | WITHDRAWALS/DEBITS | |
| 06/26 | 1,164.00 | CHECK CARD PURCHASE | UNITED AIR | 0162 WOODDALE |
| 06/29 | 104.07 | CHECK CARD PURCHASE | TARGET | 80 DELRAY BEA |
| 07/02 | 82.99 | CHECK CARD PURCHASE | SUNLASS RUT #34 | BOSTON |
| 07/02 | 111.76 | CHECK CARD PURCHASE | ALAMO RENT-A-CAR | LAS VEGAS |
| 07/02 | 600.00 | CHECK CARD PURCHASE | SELECT PHOTO | DELRAY BEA |
| 07/03 | 21.28 | CHECK CARD PURCHASE | CRANYS #1118 | MIAMI |
| 07/03 | 21.78 | CHECK CARD PURCHASE | PAYLESS#8880000 | HOLLYWOOD |
| 07/03 | 55.88 | CIRBUS ATM CASH WITHDRAWAL | CS | TR DA EN FLUORAFEN |
| 07/03 | 55.88 | CIRBUS ATM CASH WITHDRAWAL | CS | TR DA EN FLUORAFEN |
| 07/03 | 279.41 | CIRBUS ATM CASH WITHDRAWAL | CS | TR DA EN FLUORAFEN |
| 07/03 | 558.81 | CIRBUS ATM CASH WITHDRAWAL | CS | TR DA EN FLUORAFEN |

كان برفقة محمد الأمير عطا والعمري في رحلة الأميركيان إيرلاينز رحلة 11 كل من وائل و وليد الشهري، الأخوين من السعودية، وسطام السقيمي، وهو الآخر سعودي. وقاموا بالسفر في رحلات استطلاعية لتحديد أفضل الأماكن لجلوسهم في الطائرة. وكان على متن كل طائرة مختطفة اثنان من الخاطفين في الدرجة الأولى على مقربة من قمرة القيادة. سارع هؤلاء باقتحام قمرة القيادة بعيد إقلاع الطائرة، ثم أتى الطيار الخاطف الذي كان في الخلف إلى الأمام ليتولى قيادة الطائرة بينما يحرسه بقية الخاطفين.

عاش الخاطفون حياة بسيطة في الولايات المتحدة، حيث سكنوا في سلسلة من الشقق والفنادق ذات الأسعار المنخفضة، وكانوا يتسوقون بحسب ما يظهر في سجلات بطاقات الائتمان في أسواق وول مارت وغيرها من الأسواق التي تباع بأسعار مخفضة

كوالالامبور

تشكل الأصولية الإسلامية في نظر الكثيرين خطراً أكبر على العالم الإسلامي منها على الغرب الذي يميل إلى الإحجام عن توجيه النقد لمعتقدات أي شخص حتى وإن كانت تلك المعتقدات معادية للمجتمع الذي يستضيف ذلك الشخص. عاد عدد كبير من المجاهدين إلى أوطانهم ليوادجها أنظمة غير راغبة فيهم. وتاه بعضهم هائماً على وجهه دون هدف سوى الاستمرار في الجهاد. وأحد هؤلاء، وصل هو وزوجه إلى تجمع للمهاجرين في كامبونج سونغاي مانغيس جنوب كوالالامبور في ماليزيا مطلع إبريل/ نيسان من عام 1992. كان قصير القامة، ممتلئ الجسم، كثيف اللحية، وعلى رأسه طاقة بيضاء؛ أما زوجته فكانت أقصر منه قامة، ومغطاة بالكامل بالبرقة والنقاب الأسودين. وكان الزوجان غربيين عن مايور محمد يوحنا، وهو الذي يملك أكواخ اللاجئين، ولكنهما قدما برفقة رجل يرأس جمعية إندونيسية محلية كبيرة، وتوسم مايور فيهما السماحة.

كان الزائر إندونيسياً، وقال بأنه جاء إلى ماليزيا هارباً من بطش الرئيس الإندونيسي سوهارتو. وأن اسمه حنبلي، وأن كل ما يريده هو ممارسة الإسلام بحرية. فرد عليه مايور قائلاً بأنه لا يكثر بالمعتقدات الدينية أو المواقف السياسية لمن يسكن في التجمع. والواقع أن مستأجرين اثنين من إندونيسيا ذكرا أنهما جاءا للسبب ذاته. وأضاف مايور، ابتعد عن المشكلات، وادفع الأجرة، وسيكون كل شيء على ما يرام⁽³¹⁾. ورافق الزوجين إلى كوخ خشبي بحجم موقف السيارة، متهرئ الجدران، وله أرضية إسمنتية عارية، وفيه مصباح كهربائي واحد يتدلى من وسط الغرفة. فانتقلا إليه.

ولد حنبلي باسم إنسيب نورجمان في المناطق المرتفعة غربي جزيرة جافا، الجزيرة المركزية التي تتوسط الأرخبيل الإندونيسي. وإندونيسيا هي رابع أكثر

الدول المأهولة بالسكان في العالم، وأكبر دولة مسلمة من حيث عدد السكان. ويتقاطع الدين في هذا البلد مع أشكال من المعتقدات الوثنية والبوذية والهندوسية والمسيحية، إلا أن الغالبية، وبخاصة في جزيرة جافا، تدين بالإسلام. التحق حنبلي الذي تغلب عليه صفة الهدوء والمثابرة، بمدرسة إسلامية (يطلق عليها هناك بيسانترينس، ولكنها شبيهة بما يسمى المدرسة [الدينية] في باكستان) وجامعة. لبي نداء الجهاد أواخر الثمانينيات، وأمضى ثلاثة أعوام في أفغانستان، حيث تدرّب في معسكرات عبدرب الرسول سياف والتقى من بين من التقاهم هناك خالد شيخ محمد. وهناك غير اسمه. وعاد إلى إندونيسيا باسم حنبلي. وبعد أن وجد أن تطرفه غير مرحب به في إندونيسيا، لجأ إلى ماليزيا مع زوجته، وهي مسلمة صينية تعرف عليها في مدرسة دينية كان يعمل فيها مدرساً⁽³²⁾. وصل الزوجان إلى سونغاي مانغيس ومعهما كل مقتنياتها الدنيوية - الملابس التي كانا يلبسانها وحقيرة صغيرة واحدة لكل منهما.

يقول مايور: "لم يكن معهما شيء آخر عندما رحلا إلى المنزل الفارغ. لا أريكة، لا كراسي، لا طاوولات، لا شيء. كانا يطبخان ويأكلان وينامان على الأرض".

لا تبعد سونغاي مانغيس سوى بضع دقائق عن الساحل الماليزي الغربي، ومن هناك تستغرق الرحلة ساعة واحدة عبر مضيق مالاکا إلى جزيرة سومطرة في قوارب المهربين السريعة. وترقط تجاوبف الخلجان ومصبات الأنهار الصغيرة الساحل البحري الذي كان ممراً مزدحماً للفقراء الإندونيسيين الذين يأتون للعمل هنا. ويمتد فرع نهر كولالانغات الذي يصب في المضيق مباشرة خلف الكامبونج. وهذا المكان، وإن كان ريفياً، إلا أنه ليس زراعياً. وتنتشر المصانع الصغيرة في كل مكان. وبعض هذه المصانع صغيرة جداً لا تتعدى مساحتها مساحة حديقة المنزل، ويعمل فيها بضعة عمال. إلا أن

سونغاي مانغيس لم تكن مكاناً يقصد بهدف جمع الثروة والأموال. فالمنطقة مغطاة بمزارع المطاط، السلعة الاقتصادية المهمة التي جلبت الإمبراطورية البريطانية إلى المنطقة. وقد هجرت معظم هذه المزارع عندما تحول السوق إلى بدائل المطاط الاصطناعي. ونمت هذه المزارع حتى أصبحت جزءاً من الغابات المحيطة. الأفق مخضرّ ومتشابك، والتربة ذات لون برتقالي غامق، تلتصق بكل شيء على شكل غبار في الصباح، وطين بعد أمطار منتصف النهار. ولا تسعف هذه الأمطار في تلطيف حدة الحرارة إلا بالشيء اليسير. فما إن تسقط على الأرض الحامية حتى ترتفع طبقة من البخار لتلف كل شيء تلامسه بمعانقة رطبة خانقة. وما زالت التلال حتى هذا الوقت فارغة من الأحياء ذات النمط الغربي المنتشرة في كوالالامبور، إلا أن الجرافات قادمة. وبدأت المنطقة بالانجذاب نحو محيط كوالالامبور الآخذ بالتوسع. وتحتوي الأكشاك المنتشرة على جانبي الطريق والمكدسة عالياً بالمانغو، والدوريان، والأناناس، على مؤشر زحف الضواحي المتقدم وهو أكياس كرات مستعملة للعبة الغولف.

عمل حنبلي في وظائف متغايرة وأظهر ميولاً نحو المشاريع الصغيرة المستقلة. وبدأ بالظهور خارج مسجد القبة الذهبية الذي يقع في الطرف الجنوبي من بلدة بانتينغ التجارية. حيث كان يبيع الكباب على عربة مجرورة. أما زوجته نور الوزة لي والمعروفة حول البلدة باسم آوي، فقد لحقت بها أمها التي جاءت من بورنيو موطنهما الأصلي. وقلما خرجت المرأتان خارج حدود الكوخ المستأجر. وتحوّل حنبلي من بيع الكباب إلى بيع الأدوية، خليط العسل والأملاح المعدنية الذي استورده ويدعي أنه مفيد في معالجة عسر الهضم. وحقق نجاحاً في عمله الجديد. وسرعان ما أصبح يملك سيارة بروتون زرقاء اللون ويتابع اتصالاته على هاتفين خلويين. بعض هذه المكالمات كانت مع رجل عربي كان قد وصل للتو إلى مانيلا، هو محمد جمال خليفة صهر أسامة بن

لادن⁽³³⁾. جاء خليفة إلى مانيلا عام 1988 وبدأ بتأسيس شبكة من الأعمال الصغيرة - مصنع أثاث راتان، وكالة سياحة وسفر، وغيرها - إضافة إلى شبكة إسلامية من المتمردين في المقاطعة الجنوبية مينداناو⁽³⁴⁾. وقد أفاد المخبرون الذين اخترقوا جماعة أبو سياف للسلطات أن خليفة كان واحداً من أهم ممولي المجموعة. وكشفت سجلات التصنت على مكالمات خليفة عن إجراءات عدة مكالمات مع قيادين في جماعة أبو سياف إضافة إلى حنبلي الذي كان يشارك هدف سياف بإقامة دولة إسلامية شاملة.

تقدم حنبلي بطلب ترخيص لأعمال مقاول، وحصل عليه، وقام بتشغيل فريق عمل لإنجاز بعض أعمال الإنشاءات الصغيرة في المنطقة. وبدأ بالسفر لغايات العمل. بحسب ما كان يقوله لمالك السكن الذي استأجره. وكان يختفي لعدة أسابيع أحياناً. وكان يستقبل في مسكنه أعداداً منتظمة من الزوار، وكانوا يرطنون بالإنجليزية والعربية، وفي بعض الحالات كانوا يحملون أكياس تسوق من المنطقة الحرة في المطار. كانت أعمار هؤلاء الأشخاص "تتراوح بين أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات. وكانت تظهر عليهم علامات الشدة والبأس. وأتذكر أنني عندما رأيتهم في ذلك الوقت قلت في نفسي إن هؤلاء الأشخاص يصلحون للعب في فريق كرة القدم" بحسب ما يذكر مايور. وهؤلاء الأشخاص - كما تبين فيما بعد - كانوا من الجهاديين الذين يأتون ويذهبون من وإلى معسكرات التدريب في أفغانستان، وكانوا يذهبون إلى هناك عن طريق منظمة متطرفة أسسها حنبلي بالاشتراك مع رجلين آخرين يقطنان في المكان نفسه هما: أبو بكر بشير، ومحمد إقبال، وكان يطلق على هذه المنظمة الجماعة الإسلامية. وقد أرسلت هذه الجماعة عدة مئات من الشباب إلى المعسكرات⁽³⁵⁾. ولدى عودتهم إلى أوطانهم، كانوا يندمجون في منظمة كانت تهدف إلى جمع كافة مسلمي جنوب شرق آسيا تحت لواء دولة إسلامية واحدة.

ويصف مايور حنبلي بالقول: "كان متواضعاً جداً. وذا وجه صبوح بشوش. ولن يراودك شك في الثقة به. لم يكن من الإسلاميين القتاليين"، ويضيف، "وفي بعض الأحيان، يأتي بشير وإقبال للصلاة في مصلى [القرية] وكان إقبال يؤم الصلاة في العادة. وأحياناً بشير. ولم يسبق أن أمّ حنبلي بالصلاة. واستخدم إقبال وبشير المناوشات بين المسلمين والمسيحيين في مالوكو وأمبون في محاضراتهما التي كانا يلقيانها في المصلى كدليل على الاضطهاد الذي يعاني منه المسلمون. وكانا يتحدثان عن الجهاد ولكنهما لم يطلبتا من أحد حمل السلاح".

كان مايور مخطئاً طبعاً. ومهما بدا الأمر بعيد الاحتمال، فقد أصبحت سونغاي مانغيس - القرية الصغيرة وسط الطين الأحمر المبلل في الغابات المجهولة - مركز الجماعات الإسلامية المسلحة في جنوب شرق آسيا.

مانايلا

بقي حنبلي على اتصال مع أشخاص كان يعرفهم منذ أيام الجهاد. ومن بينهم خالد شيخ محمد. وفي ربيع 1994، أرسل خالد شيخ محمد شخصاً يدعى والي شاه للاجتماع بحنبلي في كوالالامبور. أسس شاه وحنبلي شركة استيراد وتصدير تدعى كوسوجايا، مدعيان بأنهما ينويان العمل في تجارة زيت النخيل وتصديره إلى الشرق الأوسط. وكان الهدف الحقيقي من هذه الشركة هو نقل الأموال التي كان سيجمعها خالد شيخ محمد في الشرق الأوسط ويرسلها إلى شرق آسيا. وسافر رمزي يوسف وشاه عدة مرات إلى منطقة حنبلي، ومن خلال العمل مع جماعة أبو سياف في جنوب الفلبين وكثرة زيارتهما لمانايلا وترددتهما عليها، استطاعا تكوين علاقات غرامية مع فتيات فلبينيات. وفيما يخص يوسف، كان من بين الفتيات اللاتي صاحبهن، فتاة جميلة وصغيرة في السن تعمل راقصة في ناد ليلي، وأخرى تعمل محاسبة في مطعم كينتاكي فرايد تشيكن⁽³⁶⁾. أما شاه، فقد طوّر علاقة طويلة الأمد مع

فتاة اسمها كارول سانتيفغو كانت ترتاد الخمارة التي يذهب إليها. وكان خالد شيخ محمد يأتي إلى المنطقة بين الحين والآخر عدة مرات، ولكن لم يكن له خليفة ثابتة كصاحبيه، ولكنه طلب من فتيات تعرف عليهن أن يقدمن له بعض الخدمات، منها فتح حساب مصرفي، وحسابات هواتف نقالة. وكافأهن مالياً مقابل تلك الخدمات⁽³⁷⁾.

عاد خالد شيخ ويوسف وشاه إلى الفلبين أوائل عام 1994. وبعد وصولهم البلاد تفرقوا في عدة اتجاهات. سكن شاه مع صاحبه سانتيفغو في شقة تقع على شارع سينغالونغ. أما يوسف الذي كان يستخدم اسم آدم بلوش، فاستأجر غرفة في فندق من الدرجة الثالثة يدعى مانور هوتيل. واستأجر محمد، مستخدماً اسم سالم علي، شقة سكنية في مجمع تيفاني مانشينز، وهي عمارة سكنية جديدة مكونة من خمسة وثلاثين طابقاً في ضاحية غرينهل من المدينة. ولهذه البناية مدخل رخامي واسع، وقاعة للتمارين الرياضية وبناء الأجسام، وبركة للسباحة والجاكوزي. وكان من بين جيران محمد في البناية، نجم السينما الفلبيني جوزيف إسترادا الذي أصبح فيما بعد رئيساً للجمهورية. واشترى محمد سيارة تويوتا كورونا، وكان يغادر كل يوم لابساً بلوزة بولو وسروالاً عادياً، كما لو كان يذهب للعمل في مكتب.

كانوا يخرجون من المدينة ويعودون إليها. ويجتمعون في أماكن عامة، في الأسواق والفنادق ونوادي الرقص والغناء والخمّارات حيث لا يمكن ملاحظتهم. وكانت الشرطة تراقب عشرات من الإرهابيين الإسلاميين المشتبه بهم في المدينة، إلا أنهم لم يعثروا على أي دليل على الأشخاص الثلاثة، إلا فيما بعد، وعقب البحث في قمامة شاه خارج شقته السكنية، حيث عثر على عقد إيجار ممزق موقع من طرف محمد خليفة صهر أسامة بن لادن⁽³⁸⁾.

وفي إحدى الزيارات الأولى لمينديناو على أقصى الطرف الجنوبي في الجزيرة، دبر يوسف ومعه قائد مجموعة أبو سيف عبدالرجاك الجنجلاني

خطة تبدو خيالية لاغتيال البابا يوحنا بولص الثاني الذي كان يعتزم زيارة الفلبين أوائل 1995⁽³⁹⁾. وأسّر يوسف لمراد بأنه كان يعتقد أن رجال أبو سيّاف لم يكونوا على درجة من الذكاء لعمل أي شيء ولا حتى الاقتراب من محاولة قتل البابا، إلا أنه رأى أن الفكرة كانت ممتازة وأن بإمكانه استخدام موارد جماعة أبو سيّاف للقيام بالمهمة بنفسه ثم نسبة العملية للجماعة⁽⁴⁰⁾. كانت فكرة اغتيال البابا نصف الخطة، إذ جرى التفكير أيضاً باغتيال الرئيس الأمريكي بيل كلينتون الذي كان هو الآخر يعتزم القيام بزيارة قصيرة إلى مانيلا قبل زيارة البابا لها. إلا أن يوسف تخلّى عن محاولة اغتيال كلينتون بعد أن تبين له خلال البحث أن تحضيرات الزيارة والإجراءات الأمنية المتبعة أثناء زيارة الرئيس الأمريكي ستكون مشددة جداً، واحتمالات نجاح المحاولة ستكون ضئيلة. ومن جانب آخر، بدت زيارة البابا أكثر عرضة، وهدفاً أسهل. فمن ناحية، كان البابا يعتزم المكث في الفلبين لمدة أسبوع تقريباً، يعقد خلالها أكثر من قدّاس ديني في الهواء الطلق في عدة مدن فلبينية. وفي العادة يجذب القدّاس البابوي مئات الآلاف من الناس، وتكون مصحوبة بالضوضاء التي تكفي لتغطية أي نشاط يمكن أن يقوم به يوسف ومحمد. ووضعاً في حسابهما عدة خيارات: إطلاق الرصاص. الهجوم من الجو، تفجير انتحاري. وفي وقت ما، استأجر يوسف ومحمد طائرة هيلوكبتر وطافا بها حول مانيلا. وقال يوسف لمراد بأن استئجار الهيلوكبتر كان محاولة من محمد لكي يبهر فتاة كان يحاول إغواءها. إلا أنه يبدو على الأرجح أنها كانت محاولة لاستكشاف المنطقة. طرحت فكرة الهجوم الجوي جانباً بعد أن اكتشف يوسف أن الحكومة الفلبينية تنوي حظر الطيران في المناطق التي يزورها البابا طيلة فترة زيارته. وقام الاثنان بشراء ملابس قساوسة وأناجيل بهدف التمويه إذا حاولا الاقتراب كثيراً لتفجير القنبلة على مقربة من البابا. إلا أن هذه الفكرة هي الأخرى طرحت جانباً. وعالين الاثنان الطريق التي يحتمل أن يسلكها البابا في أثناء

زيارته، وأخيراً استقروا على الهجوم باستخدام قنبلة أسطوانية تفجر عن بعد. وفي نوفمبر/ تشرين ثاني، انتقل شاه وخليته إلى غرفة في سكن جوزيفا الذي يقع على الطريق من وإلى منزل السفير البابوي الذي سيقم فيه البابا في أثناء إقامته في مانيلا.

تبدو جوزيفا وكأنها تقع بين عالمين - الأحياء السكنية التي تتخللها الأشجار الخضراء والبيوت القديمة الواسعة والهادئة، ويوجد فيها أيضاً مقر البعثة البابوية، والمدينة القديمة والمراكز الحكومية. وبينهما توجد مقاطعة جوزيفا إرميتا، وهي منطقة شديدة الإضاءة، ومليئة بالأماكن الترفيهية التي تعمل على مدار الساعة، ونوادي البلياردو والضخمة، والخمّارات، ومحلات الصرافة، ومراكز الاتصالات الدولية، وصالونات الحلاقة، وصالونات التجميل، ومحلات بيع اللحوم الحلال، ووكالات السياحة والسفر. وتشبه إلى حد بعيد المنطقة التي سكن فيها خالد شيخ محمد في كراتشي، وأيضاً تلك التي نشأ فيها في فحاحيل في الكويت. والجامع المشترك بين هذه الأماكن هو انسيابية هذه المناطق، وسهولة الاختفاء والتحرك وسط زحام خليط من الناس من ثقافات ولغات مختلفة يأتون ويذهبون، وهم في طريقهم دائماً إلى مكان آخر. وكان الرئيس كلينتون يحب أن يقول بأن الإرهاب الدولي هو الوجه المظلم للعولمة. وفي هذه الأحياء، يعبرّ الدليل الذي يدعم هذه المقولة عن نفسه كل يوم في النهار. وفي الليل أيضاً؛ لأن أرميتا هي أكثر من أي شيء آخر، حي ليلي⁽⁴¹⁾.

تبلغ الأجرة الشهرية للشقة الصغيرة التي استأجرها شاه وخليته في الطابق الرابع في جوزيفا أقل من 300 دولار شهرياً. وبهذه الأجرة، حصل على غرفة طولها 30 قدماً وعرضها 12 قدماً بأرضية خشبية ومطبخ صغير مجهز وسرير. وللبنية مدخل مزين بالفسيفساء والجدران المخصصة وفيه أصغر قاعة رئيسة في العالم. وتغشى المكان نسيمات نادرة من الهواء بفعل مرور

الشاحنات وسيارات الأجرة التي تسير في الطريق السريع ذي الستة مسارب أمام البناية. وهذه الطريق هي المساهمة الرئيسية التي قدمتها تلك البناية للمخططين لأنها تقع وسط مسير موكب البابا.

كان يوسف يجري عدة اختبارات وتجارب على عدد من أجهزة التفجير المختلفة. وقام ببناء أكثر القنابل الاسطوانية بدائية والتي لا تتجاوز في تكوينها مجرد إسطوانة معدنية معبأة بالمواد المتفجرة. ويمكن لطلبة الصف الثامن أن يصنعوا قنابل مشابهة لها بكل سهولة. ومن الناحية الأخرى، كان يوسف على وشك الفراغ من صنع قنبلة صغيرة يعتقد أن بإمكانه تفكيك مكوناتها إلى أجزاء صغيرة جداً بحيث يصعب أن يخطر على بال أحد أن تكون أجزاء قنبلة، ويمكن بذلك خداع أقصى درجات التدابير الأمنية. وتتكون هذه القنبلة من كمية صغيرة من النايتروجلوسرين يمكن تخزينها في زجاجات محلول عدسات العين الطبية أو في أسطوانة معجون الأسنان. أما الصاعق الذي سيفجّر النيترات فيكون موصلاً بسلك موصول بساعة مؤقتة معدلة من نوع كاسيو داتابانك. وميزة هذه الساعة بالنسبة لصانع القنبلة، هو سهولة توفرها في الأسواق، والقدرة على ضبط المنبه إلى وقت يمكن أن يصل إلى سنة. قام يوسف بتعديل الساعة بإضافة وصلة إلكترونية دقيقة لا يمكن لأي شخص ملاحظتها إلا إذا كان على علم دقيق بأجزاء الساعة. وستبدو الساعة وكأنها ساعة عادية جداً. ويمكن توصيل فتيل كهربائي مفرق مصنوع من بطاريتين بقوة 9 فولت بالساعة ومنها إلى القنبلة خلال دقائق. ويمكن لأجزاء القنبلة المفككة أن تعبر خلال أجهزة أمن المطار دون إثارة الشكوك أو أجهزة الإنذار. كما يمكن تجميعها خلال دقائق في مرحاض الطائرة. وإذا تم توقيتها لتنفجر خلال ساعات أو أيام، فإن حاملها سيكون في دولة أخرى أو حتى قارة أخرى في الوقت الذي تنفجر فيه القنبلة.

مع حلول الأول من ديسمبر/ كانون أول، كان يوسف قد أتم نموذجاً من قبلته هذه وكان جاهزاً لفحصه. فأعطى القنبلة المجمعّة مسبقاً والتي يسهل حملها في حقيبة تسوّق أو في حقيبة ظهر، لوالي شاه مع تعليمات لأخذها إلى إحدى دور السينما قرب مسكن محمد ووضعها أسفل أحد المقاعد في صالة العرض، ومغادرة المكان فوراً. نفذ شاه التعليمات التي أعطيت له. وبعد وقت قصير انفجرت القنبلة الصغيرة. كان الانفجار صغيراً جداً لدرجة أن أحداً لم يصب بجراح. إلا أن التجربة كانت ناجحة. وعمل كل شيء كما كان متوقّعاً بالضبط. والآن أصبحوا جاهزين للعمل.

قدم يوسف ومحمد إلى الفلبين بسبب الدعم الذي تقدمه شبكات الإسلاميين المبتدئة حديثاً في البلاد، وبسبب رخص المعيشة والتكاليف في ذلك البلد، فالفلبين كانت في نظرهم قاعدة محتملة لتطوير جيش التحرير الخيالي الذي تصوره يوسف. إلا أنه لم يكن لديهم النية لمهاجمة مواطنين فلبينيين. بل ربما كانوا متعاطفين مع السكان المحليين. فمنذ الطفرة النفطية، كانت دول الخليج مثل الكويت التي نشأ فيها يوسف ومحمد، تعج بالعمال الأجانب القادمين من جنوب آسيا - باكستانيين وهنود ومن جنوب شرق آسيا وبخاصة الفلبين. وكان رعايا الفلبين أكثر عدداً من العرب في الكويت والإمارات والسعودية. وكانوا يشكلون الطبقة العاملة في المحلات التجارية والخدم والباعة. وكانوا يحتلون المرتبة الدنيا في السلم الطبقي في تلك المجتمعات، وكانوا أدنى من الطبقة التي تضم الباكستانيين المولودين في الكويت مثل يوسف ومحمد.

وكل ما يسعى محمد ويوسف إلى فعله هو مهاجمة الأمريكان، إلا أنه وبعد الإعلان عن تأجيل زيارة كلينتون، أخذوا يبحثان عن أهداف جديدة. ويعتبر الهدف المثالي للقنبلة الصغيرة التي اخترعها يوسف هو الهدف الذي يمكن أن

يحدث أبلغ الأثر للمتفجرات الصغيرة. وفيما عدا النتيجة المباشرة المقصودة - الموت - فإن ذلك يكون عكس وضع قنبلة ضخمة مصنوعة من السماد الكيماوي في شاحنة، ووضع الشاحنة في مصف السيارات أسفل بناية كبيرة، كما فعل يوسف في نيويورك.

وقد وجدا الهدف المثالي - وهو طائرات نقل الركاب التجارية. في العادة، تسعى شركات الطيران التي تسيّر رحلاتها عبر المحيط الهادئ إلى استخدام أكبر الطائرات المتوفرة؛ وذلك لتحقيق أكبر قدر من الأرباح بأقل قدر من التكاليف. وفي تلك الأيام، كان أمام شركات الطيران خيار وحيد هو طائرة البوينغ 747 العملاقة. وخلال التسعينيات، كانت مطارات جنوب شرق آسيا كلها تبدو وكأنها صالة عرض لبيع طائرات البوينغ. وكانت مصافّ الطائرات، ومدرجات الطيران، والأجواء، مليئة بالطائرات الكبيرة. وكانت تلك الطائرات تنتقل من دولة إلى أخرى لتحميل الركاب ثم تقطع بهم المحيط الهادئ. وكانت بعض الدول تستخدم تلك الطائرات في الرحلات القصيرة. وتشكل هذه الطائرات الضخمة بما تحمله من الأعداد الكبيرة من المسافرين، أهدافاً مكشوفة. ولا يوجد مكان آخر يمكن لقنبلة صغيرة أن تحدث فيه أكبر الأثر من تلك الطائرات.

تولدت الفكرة لدى محمد ويوسف في الصيف الماضي، وعملاً بجِدٍّ وتأنٍّ في وضع الفريق اللازم لتنفيذها⁽⁴²⁾. وباستخدام شيء لا يزيد تعقيداً عن جداول الرحلات الجوية، وضعا خطة يستطيع بمقتضاها خمسة رجال يستقلون اثني عشرة رحلة جوية في يوم واحد. رحلتان لكل شخص للمجموعة الأولى المكونة من ثلاثة أشخاص، وثلاث رحلات لكل واحد من الشخصين المتبقين. وعلى كل شخص أن يجمع القنبلة ويتركها على متن الطائرة بعد أن يؤقت ساعة القنبلة لتنفجر بعد يومين، الأمر الذي يعطي الفرصة لهم بأن

يكونوا في أماكن بعيدة عن الانفجار. كان الحساب بسيطاً: اثنتا عشرة رحلة، وفي كل رحلة قرابة الأربعمئة شخص، فينتج عن ذلك قرابة الخمسة آلاف قتيل. وسيكون ذلك يوماً عظيماً بالنسبة لهم. ومصيبة على الأمريكيان الذين يملؤون تلك الطائرات.

وبعد الاختبار الناجح في دار السينما مباشرة، اتصل يوسف بصديقه مراد، الذي كان في دبي، ليخبره بأنه وجد له عملاً⁽⁴³⁾. وأراد منه أن يأتي إلى مانيلا على جناح السرعة، وأنه - أي يوسف - على استعداد لتحويل المبلغ اللازم له لشراء تذكرة السفر، ووافق مراد على الحضور. لم يكلف مراد نفسه عناء السؤال عن نوع تلك الوظيفة. فقد كان يعرف. إذ ما كان يوسف ليمضي معه ثلاثة أسابيع لتعليمه كيفية صنع القنابل دون سبب.

أراد يوسف ومحمد أن يجريا مزيداً من الاختبارات للتأكد من إمكانية وضع القنبلة على متن الطائرة. وقام يوسف بإجراء التجربة بنفسه. فاستقل في الثامن من ديسمبر/ كانون أول، الرحلة رقم 434. على متن الخطوط الفلبينية، والمقرر أن تغادر من مانيلا إلى طوكيو بعد توقف قصير في سيبو. وعندما كان في الطائرة ذهب يوسف إلى مرحاض الرجال، وجمع قنبلته الصغيرة، ثم عاد ليجلس في مقعده. ووضع القنبلة أسفل المقعد، وخرج من الطائرة عند توقفها في سيبو. وبعد ساعة، انفجرت الطائرة في منتصف الرحلة مودية بحياة الراكب هاريكو إيكاجامي. وقد استطاع قائد الطائرة، وبفضل مهارته العالية أن يمنع الطائرة من الغوص في مياه المحيط. كان يوسف يعلم أن بإمكانه اصطحاب قنبلة أكبر، وإذا وضعت في المكان المناسب، سيكون من المستحيل نجاة الطائرة منها. والآن بات متأكداً أن بإمكانه وضع تلك القنبلة في مكانها.

ساهمت التجارب التي أجراها يوسف على القنابل في زيادة حدة حالة التوتر والقلق التي كانت تعاني منها البلاد أصلاً. وكانت الدولة - التي لم تكن

بعيدة عن الانفجار من الداخل - تبدو وكأنها على وشك خسارة المعركة الطويلة في الولايات الجنوبية في ظل تنامي قوة الجماعات الانفصالية الإسلامية المسلحة. فالقاومة من هذا الشكل أو ذاك كانت مستمرة في الجنوب على مدار العقود الماضية. إلا أن هذا الشكل الأخير منها هو الأكثر قتلاً وإصراراً. وقد فرغت قوات الشرطة الوطنية لتوها من إكمال دليل يحتوي على 128 صفحة، أدرج فيه جدول بالعمليات الإرهابية التي وقعت خلال الاثني عشر شهراً الماضية. وقد كانت تلك السنة سنة فظيعة بكل المعايير. أكثر من خمسين هجوماً نتج عنها 101 قتيل، ومن أبرز أهداف هذه العمليات قساوسة الكنيسة الكاثوليكية⁽⁴⁴⁾.

كانت هناك مخاوف في أوساط أجهزة الاستخبارات من أن الانفصاليين قد يستخدمون زيارة البابا كمسرح لجلب الاهتمام الدولي لقضيتهم⁽⁴⁵⁾. وخشي بعض المحللين أن يكون في حساباتهم أكثر من مجرد التظاهر، وربما تصل إلى درجة الهجوم على شخص البابا؛ لذلك بادرت الأجهزة الأمنية بالقيام بعملية سانتو بابا للتحقيق⁽⁴⁶⁾. إلا أن أهمية هذه المسألة تراجعت إلى الوراء بعد أن ضرب الإعصار الاستوائي البلاد منتصف ديسمبر/ كانون أول، مقتلعاً أشجار النخيل، والمنازل، وأسلاك الكهرباء.

لم يكن هناك أي إشارة تدل على أن البلاد كانت على دراية بما يجري على أراضيها. فقد كان الكل منشغلاً باحتفالات عيد الميلاد. وتولي الفلبين، التي كانت مستعمرة إسبانية لمدة تزيد على الثلاثمائة عام وبقيت أكبر دولة كاثوليكية في آسيا، عناية خاصة بالاحتفال بالأعياد الكاثوليكية. وفي السنوات العادية، يعامل عيد الميلاد على أنه فترة مطولة للاحتفالات التي لا مناص منها، ومتفناً للحياة اليومية الشاقة. ويبدأ الناس بشراء الهدايا في الصيف؛ ويشرعون في تعليق أضواء ومصابيح عيد الميلاد في سبتمبر/ أيلول، وهو

الوقت الذي تبدأ فيه محطات الإذاعة بث الأغاني الخاصة بعيد الميلاد. أما قدّاس منتصف الليل الذي يقام عشية عيد الميلاد في مختلف أنحاء العالم. فإنه يقام في الفلبين لعدة أسابيع حتى حلول العيد. وفي هذه الدولة المحددة بفقرها، يعتبر موسم الأعياد مناسبة للبذخ والإنفاق، ويعامل على هذا الأساس.

كان الوقت مناسباً بالنسبة لمفجري القنابل. رحل شاه وسانتياغو من شقتهما في جوزيفا وحل محلهما يوسف الذي استأجر غرفة مشابهة في الطابق الرابع تطل مباشرة على شارع برزدنت كويرينو. وبدأ بجمع المواد اللازمة لبناء أسلحته. وكان بحوزته إثباتات هوية مزورة تفيد بأنه كيميائي إنجليزي، وكان يستخدمها لدى ذهابه لشراء المواد من موردي المواد الكيماوية. وبعد مرور عدة أسابيع، تحوّل يوسف إلى السريّة التامة في تحركاته لدرجة أنه توقف عن السماح لعامل البناء بالدخول إلى حجرته لتغيير الملاءات. ونقل هو وشاه عدداً كبيراً من الصناديق والقوارير عبر مدخل البناية، الأمر دفع موظفي البناية إلى التساؤل عما في نية هذين الشخصين. وتعتبر مانिला، في أفضل أيامها، حماماً ساخناً، مكاناً يبلك بالرطوبة خلال خمس دقائق، وتغرقك في الخمس التالية. وفي هذه الحرارة القاتلة ووفرة اليد العاملة الرخيصة، فإن الزوار لا يرغبون في بذل أي جهد إذا كان في مقدورهم تجنب ذلك؛ لذلك، وعندما يقوم مستأجرو الغرفة رقم 603 الذين يعتقد موظفو البناية أنهم من العرب - وهم من فئة الزوّار الأقل ميلاً لبذل الجهد الجسدي من غيرهم - بحمل الصناديق والقوارير بأنفسهم دون الاستعانة بأحد، ويمرون بها أمام مدخل البناية، فإن فعلهم هذا أثار حفيظة الموظفين التي لا تثار في العادة في الأوقات العادية. فجوزيفا لم تكن بالمكان الذي يعاين فيه الناس القادم والخارج من الزوار الغرباء. والمدينة كانت على مر العقود محطة معتادة في دائرة السياحة الجنسية لأثرياء شرق آسيا والأمريكان وأغنياء النفط من عرب الشرق الأوسط، كما كانت جوزيفا في أقصى جنوب إرميتا، إحدى

مقاطعات الترفيه الليلية في المدينة. وفي الأوقات العادية تمتلئ غرفها بالرجال ذوي القدرات والرغبات المتواضعة.

لم يكن هؤلاء العرب يقومون بمجهود جسدي، على ندرته، بل إنك إذا دقت النظر، فإن من الصعب أن لا تلاحظ عليهم علامات الشدة والصدمات. كان خان يفقد ثلاثة من أصابع يده نتيجة حروب أفغانستان؛ وكانت أيدي يوسف ووجهه مشوهة بالحروق، إضافة إلى الإصابة في عينه. (لم يعلم الموظفون سوى القليل: كان جسم شاه كله مصاباً، وكانت آثار الحروق على قدمه وظهره).

ومع كل التوتر حول القدوم المرتقب للبابا، لم يمض وقت طويل قبل قيام شخص بتحذير المسؤول الأمني في البناية أبولينارو ميدنيلا بأن شيئاً ما يحدث في جوزيفا. وقام ميدنيلا بدوره بإخطار الشرطة المحلية عن الأشخاص المشتبه بهم. إلا أنه كان هناك القليل الذي يمكن للشرطة فعله. ويقول عمدة مانيلا خوسيه أتينزا الأصغر في هذا الخصوص: " كان هناك شيء كاف لإثارة الشك، ولكنه لم يكن كافياً للتحرك واتخاذ أي إجراء ضدهم"⁽⁴⁷⁾.

تابع المتآمرون تحضيراتهم دون أن يكون لديهم أدنى فكرة أن شخصاً ما لاحظهم. وفي الحادي والعشرين من ديسمبر/ كانون أول، جمعوا أصدقاءهم للاحتفال بذكرى تفجير طائرة بان آم 103 التي فجرها عملاء لیبیون فوق لوكربي في اسكتلندا وراح ضحيتها 256 شخصاً قبل ستة أعوام. وبالتأكيد كان ذلك الاحتفال الوحيد بهذه الحادثة في مانيلا تلك الليلة⁽⁴⁸⁾.

حضر مراد في اليوم التالي لعيد الميلاد، بحسب تعليمات يوسف، وحجز غرفة في الفندق المجاور لوس بالموس. واستخدم اسماً مختلفاً أعطاه إياه يوسف، متظاهراً بأنه لا يعرف يوسف الذي كان ينتظر في صالة الاستقبال. وذهب إلى غرفته ثم تبعه يوسف بعد دقائق. وأحضر مراد معه، كما طلب منه،

عدة أصباغ للشعر ماركة لورييل بدرجات مختلفة من الألوان. فقد أراد يوسف من المجموعة أن تغير مظهرها. ولاحظ مراد أن يوسف قد بدأ بالفعل بتغيير مظهره. ولأول مرة منذ عدة سنوات، ظهر يوسف وهو حالق اللحية والشارب. وخلال دقائق تغير مظهر مراد كذلك. وأقام الاثنان في لوس بالموس لمدة يومين ثم ذهب مراد ليقيم مع يوسف في جوزيفا. لم يفاجأ مراد بما شاهده من المواد المستخدمة في صنع المتفجرات بقدر مفاجأته عندما رأى الرجل الذي عرفه باسم عبدالمجيد منذ سنوات سابقة في كراتشي، خالد شيخ محمد. ذهب يوسف ومراد لشراء آخر ما يحتاجانه وبدء بصنع القنابل. وكانا في الوقت نفسه يتابعان الخطة ضد البابا، وقاما بشراء ملابس قساوسة وأنجيل وصلبان لاستخدامها في التخفي. وكان خالد شيخ محمد يستخدم القفازات في كل مرة يأتي فيها إلى الشقة بحجة أنه يخشى المواد الكيماوية. ويبدو أيضاً أنه كان حريصاً على عدم ترك أي بصمة له في المكان. وهو ما نجح فيه فعلاً؛ لا أحد يعرف اسمه الحقيقي باستثناء يوسف، ويبدو أنه يستخدم اسماً مختلفاً لكل شخص يلاقيه. لم يكن يجازف بأي مغامرة.

ومع اقتراب نهاية العام، غادر يوسف وخالد شيخ محمد، وتركوا مراداً في جوزيفا وأعطياه تعليمات لمتابعة بناء القنابل - وذهبا - بحسب ما قالوا له - لأخذ دروس في كيفية الغوص في أعماق البحر في منتجع سياحي قرب المكان. عاد يوسف وحده في الأول من يناير/ كانون ثاني. ولم يشاهد مراد خالد شيخ محمد مرة أخرى بعدها. وأمضى مع يوسف عدة أيام في صنع القنابل والمتفجرات. وقال يوسف لمراد بأن يجهز نفسه للسفر إلى سنغافورة لكي يبدأ من هناك مهمته التفجيرية في الرابع والعشرين من يناير/ كانون ثاني. لم يذكر يوسف شيئاً عن وجود خطط لأربعة أشخاص آخرين لوضع المتفجرات على متن عشر طائرات أخرى⁽⁴⁹⁾.

وضع الاثنان نسقاً معيناً: كانا يتأخران في النوم حتى الظهيرة، فيتناولان الغداء؛ ثم يتوقفان في مركز التسوق؛ وربما تمشيا بمحاذاة الماء. وفي المساء، كانا يشاهدان محطة السي إن إن ويتحدثان عن الظروف التعيسة للأمة الإسلامية. ويستأنفان صنع القنابل. وكان السادس من يناير/ كانون الثاني يوماً عادياً بالنسبة لهما حتى حلول المساء. وبينما كان يوسف يحاول التخلص من بعض المواد الكيماوية الزائدة عن حاجته عن طريق حرقها في مقلاة فوق طباخ الغاز، حدث خطأ ما وظهرت سحابة كثيفة من الدخان تخللت كامل الغرفة. سارع الاثنان بفتح الشبابيك، ولكن ذلك لم يكن كافياً، فخرجوا من الغرفة إلى الممر. وفي هذا الوقت لاحظ الجيران الدخان المنبعث من الغرفة فاستفسروا عن الأمر. وحاول يوسف أن يوضح لهم بأنه كان يحاول صنع بعض الألعاب النارية للاحتفال برأس السنة. وجاء رجال الإطفاء، وعابنوا المكان ثم انصرفوا. وجاء شرطي، فراوغه يوسف وتملص من المكان، وبقي مراد الذي أجاب عن الأسئلة التي وجهها إليه، ثم انصرف هو الآخر.

كانت الأمور تبدو هادئة إلى أن انطلقت صفارة إنذار الحريق مرة أخرى⁽⁵⁰⁾. وفي هذه المرة، سارعت الشرطة ورجال الإطفاء إلى المكان. ودخلوا الغرفة رقم 603 ليجدوا حلة محروقة على طباخ الغاز. كما وجدوا المكان مليئاً بالأقماع والقوارير والدوارق، ولصافات القطن، وعلب البنزين، ووجدوا في الثلاجة، قارورتين كبيرتين لعصير العنب ماركة ويلتشر ولكنهما معبأتان بمادة - ظهر فيما بعد - أنها نايتروغليسرين⁽⁵¹⁾. أغلقت الشرطة المكان وذهبت لإحضار مذكرة تفتيش. وجدت الشرطة التي كانت لا ترغب في الكشف عن دخولها غير المشروع إلى الغرفة، صعوبة في الحصول على مذكرة بتفتيش المكان. رفض أحد عشر قاضياً طلب الشرطة، إلا أن القاضي الثاني عشر وقع على المذكرة، وتوجهت الشرطة إلى جوزيفا.

أمضت الشرطة بقية المساء ومعظم اليوم التالي في التفتيش بين الأدلة التي ملأت ثلاث حافلات. وقبل الانتهاء من عملية البحث، انضم إلى فريق الشرطة ضابطان برتبة فريق، وآخر برتبة لواء، ورائد، ونقيب، وملازم، إضافة إلى عشرات الأفراد من الشرطة والجيش. وكان من بين المواد التي صودرت من الشقة: ملابس قساوسة، وأناجيل، وصلبان، وعلبتان من الواقيات المستخدمة في الاتصال الجنسي، وخريطة تبين مسار زيارة البابا، وكتب كيمياء، ومواد كيماوية، وغالونات من الأحماض والنترات، وقنبلة اسطوانية جاهزة، وأخرى تنتظر التعبئة؛ أصابع لحام حديدية، كبسات، ومبدلات، وأسلاك كهربائية؛ دزينة جوازات سفر، ودزينة أخرى من ساعات كاسيو داتابانك⁽⁵²⁾.

بعد أن أنهى مراد الإجابة عن أسئلة الشرطة في الحادثة الأولى، اتصل بهاتف يوسف الجوال، وطلب منه يوسف أن يحضر إلى محل سفن إليفين الواقع على شارع ماييني. وعندما وصل مراد، كان يقف إلى جانبه رجل من كراتشي هو والي شاه، وكان مراد يعرفه باسم أسامة آسموراي، ولم يشاهده منذ صيف 1993. وذهب الثلاثة إلى إحدى الخمارات لتقرير ما ينبغي فعله. وكان أكثر ما أشغل بال يوسف هو مصير حاسوبه المحمول. وافق مراد على الذهاب إلى الغرفة لإحضاره. وعندما عاد إلى البناية، شاهد الشرطة تنتظر في صالة استقبال جوزيفا. فتوقف قليلاً، ورآه أحد حراس البناية فناده. حاول مراد الهرب جرياً على قدميه إلا أنه تعثر ووقع وتم الإمساك به. وكانت هذه هي النهاية. وألقي القبض على شاه في اليوم التالي عندما كان خارجاً من شقة خليلته. بينما تمشى يوسف بقية الليل وسافر إلى تايلاند بالطائرة، ومن هناك توجه إلى باكستان. ولم تعد مساهماته سرّاً بعد اليوم. ففي محاولة مراد اليائسة للنجاة بنفسه، توّسل إلى المحققين لسماع ما كان يعرف عن

تفجير برج التجارة العالمي الأول. يقول رودلفو "بوغى" ميندوزا كبير المحققين: "كان القبض على مراد بحكم اكتشاف منجم للذهب... وهددناه بأننا سنقوم بتسليمه إلى جهاز الاستخبارات الإسرائيلي الموساد. قلت له ليس لديك شيء لتقوله لي، ولكن ربما كانت الموساد مهتمة بما ستقول".

وقال له ميندوزا: "إنك شخص تافه وحقير في نظري"، ويتابع ميندوزا "أصر مراد بأنه شخص مهم، وقال - أرجوك استمع إلي، لقد كنت متورطاً في تفجيرات برج التجارة العالمي وأنا أعرف رمزي يوسف (53)".

هذه الاعترافات، والتي أوضحت التسجيلات الصوتية لها فيما بعد أنها تمت تحت تأثير درجة من الإكراه أكبر مما ذكره ميندوزا - فقد كان يضع خرطوم الماء في فم مراد ويكرهه على ابتلاع الماء في جوفه. وكان هذا العمل من الناحية الفعلية كإغراقه بالماء وهو جالس على الكرسي في غرفة التحقيق. ولكن هذه الاعترافات لم تتخذ مراداً من ورطته. وبعد عدة أسابيع، وبعد أن استنفد ميندوزا كل ما يمكن أن يحصل عليه من المعلومات من مراد، بما في ذلك اعترافه بأنه اقترح اختطاف طائرات لصددها بمقر قيادة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA، قام ميندوزا بتسليم مراد والمعلومات التي حصل عليها منه إلى الأمريكان. وتلت ذلك عمليات تعقب وبحث حول العالم عن يوسف. وخلال أشهر، تمت معرفة مكان إقامة يوسف بعد أن وشى به أحد الأشخاص الذين كان يحاول تجنيدهم لمؤامرة جديدة - فقد كان الرجل عنيداً في إصراره. وتم القبض عليه في عملية مدهامة قامت بها قوات الأمن الباكستانية، بينما كان أفراد الاستخبارات الأمريكية يتابعون الوضع من فندق صغير في إسلام آباد العاصمة الباكستانية. أما شاه الذي استطاع الإفلات من السجون الفلبينية عن طريق الرشوة بعد ثلاثة أيام من القبض عليه، فتم القبض عليه مرة أخرى بعد سبعة أشهر في جزيرة سياحية في

ماليزيا حيث وُقِر له حنبلي مكاناً للاختباء فيه. وبهذا بقي شخص واحد من مخططي عمليات مانيلا طليقاً: هو خالد شيخ محمد. تتبع المحققون الإشارات والدلائل التي وصلت إليهم عن مكان وجوده حول العالم، إلا أنهم عجزوا عن تحديد مكانه أو حتى شخصيته. وحتى تلك اللحظة، لم يكن لديهم سوى القليل من المعلومات عن الرجل. كما لم يعرفوا أنه هو عندما كانوا قاب قوسين أو أدنى من الإمساك به. فكم كانوا يجهلون عن هذا الشخص؟

وعندما اقتحمت عناصر الأمن الباكستانية ورجال الاستخبارات الأمريكية أحد الفنادق في إسلام آباد في فبراير/ شباط من عام 1995، واقتادوا يوسف الذي كان يصرخ ويرفس، كان المنظر مخيفاً بحسب ما ذكره أحد نزلاء الفندق.

"كان الموقف أشبه ما يكون بالإعصار، والهلع الكبير"، كما يذكر ذلك النزيل للصحفيين. "كان يوسف يصرخ: لماذا تأخذونني؟ إنني بريء! أروني أوراقاً رسمية إذا أردتم اعتقالني: من أنتم؟ ولم يصغ إليه أحد. لقد ساقوه وهو حافي القدمين، معصوب العينين، مغطى الرأس، وكان مقيد اليدين والرجلين"⁽⁵⁴⁾.

هذا الرجل الذي أعطى هذه الإفادة، كان مسجلاً في الفندق بصفته رجل أعمال من كراتشي اسمه خالد شيخ. وكما تبين للسلطات الأمريكية فيما بعد، أن هذا الرجل هو خالد شيخ محمد، مختبئاً أمام أعين الجميع.



■ الفصل الرابع ■

حرب بعد حرب

الخرطوم

خلال أسابيع من مغادرة آخر رتل للجنود السوفييت وعبورهم جسر أم دارية للصدّاقة، وتواريهم خارج أفغانستان، كان أسامة بن لادن يفكر هو الآخر إلى أين يتوجه؟⁽¹⁾ فمستقبل أفغانستان مازال مجهولاً، إلا أن ابن لادن كان ينظر إلى ما وراء جبال هندوكيش. فالحرب التي خلفها السوفييت وراءهم لم تنته بعد. ولم تخف حدتها بعد مغادرتهم. ولدرجة ما، قلّد ابن لادن السوفييت؛ إذ استمر في تقديم الدعم والعون للمجاهدين فيما كان السوفييت يواصلون الدعم والمساعدة لحكومة كابول لعدة سنوات بعد الانسحاب. إلا أنه ومع حلول منتصف عام 1989، كان ابن لادن ومعه مجموعة صغيرة من العرب في بيشاور يخططون لكيفية تطوير معركتهم للمرحلة التالية. ويدوؤوا بتشكيل منظمة تقدم حلاً واقعياً للجدل الذي كان يدور مع عبدالله عزام - حول ما إذا كان ينبغي الاستمرار في الجهاد خارج أفغانستان أم البقاء فيها إلى أن يتم تحقيق النصر الكامل وتأسيس الجمهورية الإسلامية. وانتهوا إلى قرار يقضي بأخذ الجهاد إلى العالم الخارجي. وشرعوا في البحث عن قاعدة لبدء حملتهم الجهادية.

غادر ابن لادن بيشاور عائداً إلى وطنه عام 1989. وبعد أن اغتيل عزام في خريف ذلك العام، سيطر ابن لادن على مكتب الخدمات. وعلى مدار السنتين التاليتين، قام بعدة زيارات قصيرة إلى باكستان. إلا أن اهتمامه توجه إلى مكان آخر. فقد قام هو ومجموعة من قدامى المحاربين الذين شاركوا في

الحرب السوفيتية - الأفغانية ومعظمهم من مصر والعراق بتأسيس مجموعة صغيرة أطلق عليها اسم القاعدة، وكانوا منهمكين في تجنيد الآخرين للانضمام إلى المجموعة⁽²⁾. ووجد المصريون، الذين كانت أعدادهم تفوق أعداد المجموعات الأخرى، أنفسهم في حلف غريب وغير طبيعي مع ابن لادن التقي. فعلى العكس من معظم الذين شاركوا في الجهاد الأفغاني، جاء المصريون إلى الحرب ولديهم إيديولوجية ناضجة، ولم تكن تلك الإيديولوجية هي نفسها التي غادروا بها، إلا أنه كان لديهم برنامج تم الاتفاق عليه على مدى عشرة أعوام ينادي بضرورة عودة كافة الدول الإسلامية إلى تحكيم الشريعة الإسلامية. مع العلم أن جوهر نصوص مذهب وفكر الحركة الإسلامية المعاصرة هو من وضع شخصين مصريين هما حسن البنا وسيد قطب، والأول هو مؤسس حركة الإخوان المسلمين والثاني هو الذي أشاع الفكرة وبنى قاعدتها الشعبية. واستمد الاثنان أفكارهما من التراث الإسلامي القديم وعملا على إعادة صياغته بقالب جديد يناسب العالم المعاصر. والنظرية الأساسية التي وضعها هي الإصرار على الثورة العنيفة ضد الأنظمة التي لا تحكم بالإسلام في الشرق الأوسط وكانت العناصر المصرية في بيشاور من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين الذين اشتركوا في عمليات ضد الحكومة المصرية والتي استخدم فيها الطرفان العنف بدرجات كبيرة. وكان مصريو بيشاور، ومن بينهم أيمن الظواهري، يرون أن أفغانستان ليست هدفاً بحد ذاتها، وإنما هي مشروع لنموذج تجريبي لإثبات ما إذا كان باستطاعة جيش إسلامي مؤلف من عوام الناس أن يدمّر عدوه الأكثر تفوقاً في السلاح والعتاد. وعندما خرج السوفييت، كانوا جاهزين للإعلان أن التجربة قد نجحت، وأخذ تلك العبر والدروس إلى الأمام.

ومع إعلان ابن لادن أميراً، أو قائداً، للمجموعة الجديدة، تم إرسال الرجال إلى مختلف الدول لمعاينة ما يصلح منها أن تكون قاعدة لانطلاق

العمليات. فأفغانستان بعد كل شيء دولة بدائية، قاحلة، ومحاطة جغرافياً بدول مجاورة، وليست مضيافة. كانوا بحاجة إلى مكان يمكنهم العمل فيه بأمان، وفيه بنية تحتية أفضل من تلك الموجودة في أفغانستان. وبعد عودته إلى السعودية عام 1989، جمع ابن لادن مباشرة قوة من الرجال وحاول زرعهم في اليمن الجنوبي في محاولة فاشلة لقلب الحكومة الموالية للسوفييت هناك⁽³⁾. اكتشف اليمنيون المؤامرة وأحبطوها، ووجهوا احتجاجاً شديداً للهجرة إلى الحكومة السعودية التي كانت هي الأخرى غير راضية عن ابن لادن الذي ما انفك ينتقدها.

كانت السودان من بين المناطق التي أرسلت إليها القاعدة أشخاصاً لمعاينتها. وهي أكبر الدول الإفريقية مساحة. وتقع على ساحل البحر الأحمر قبالة المملكة العربية السعودية. ويمكنك رؤية تخومها من منزل ابن لادن في جدة. ومن الجوانب الجذابة في السودان أن الحزب الحاكم فيها هو من الأحزاب القليلة في العالم التي تدعم قضايا الإسلاميين. وتعاني حكومتها من الفقر المدقع، وتستجدي المساعدات التي يمكن لمستثمر مثل ابن لادن أن يقدمها. ومع نهاية عام 1990، بدأ ابن لادن بشراء العقارات والأراضي في الخرطوم عاصمة السودان. وعلى مدى العامين التاليين، اشترى المزارع والمنازل وبنيات المكاتب، أي كل أنواع العقارات التي يمكن لذلك البلد أن يقدمه. وعندما طرد من المملكة العربية السعودية في العام الذي تلاه، كان لدى ابن لادن مكان يمكن أن يذهب إليه - الخرطوم. وأصبحت عمليات القاعدة التي أمر بتأسيسها هناك من الناحية الفعلية كما يوحي اسمها، أصبحت قاعدة لعملياته.

كانت السودان من الفقر بمكان بحيث استطاع ابن لادن، ودون بذل كثير عناء، أن يحقق احتكاراً على تجارة الدولة الأساسية. فقد أصبح يسيطر على تجارة اللبان، والذرة، وعباد الشمس، والسمسم، واستثمر مبلغ 50 مليون دولار

في إنشاء مصرف، وأسس أكبر شركة إنشاءات في البلد. وقام بتعبيد الطرق والمطارات والمواني والمزارع⁽⁴⁾. كما أسس الأعمال التي تتعامل بالقمح، وسكر النخيل، والملح، والصابون، والأثاث، وزيت النخيل، وال فول السوداني، والفول، وأعمال الصرافة. وقام باستيراد معدات الإنشاءات الثقيلة، وشيّد معسكرات تدريب في المناطق الجبلية شمال الخرطوم. ثم أحضر قدامى المجاهدين من أفغانستان لإدارة تلك المعسكرات، وبحث عن الجهاديين الذين يواجهون صعوبات في بلادهم التي عادوا إليها. ومع حلول عام 1993، أحضر قرابة 480 من الأفغان العرب الذين طردتهم باكستان⁽⁵⁾.

في واشنطن العاصمة، وأثناء المناقشات الدائرة في ذلك الوقت حول الإرهاب، ورد اسم ابن لادن عرضاً أثناء الحديث. فقد كانت أخطار الإرهاب الرئيسية آتية من الجماعات المدعومة من الدول، مثل حزب الله، المجموعة التي تدعمها إيران والتي قتلت 273 من جنود المارينز الأمريكيين في بيروت عام 1983، أو الإرهاب القادم من الدول مباشرة كما فعلت ليبيا بتفجيرها طائرة بان آم 103. وعندما جرى الحديث عن ابن لادن، كان ذلك في سياق الحديث عن الدعم المالي الذي يقدمه لأشخاص يمكن أن يشكلوا خطراً محتملاً. وكانت السلطات الأمريكية تعتقد أن ابن لادن ممول هجوماً على تجمع سكني للأمريكان في اليمن عام 1992. وأنه في واقع الأمر، ممول محاولة اغتيال الرئيس حسني مبارك⁽⁶⁾. ولم يكن معروفاً للاستخبارات الأمريكية أنه دخل مع المصريين في اتفاق نتج عنه تشكيل منظمة القاعدة.

وفي هذا الصدد يقول أحد الدبلوماسيين الأمريكيين العاملين في المنطقة: "في أعوام 1995، 96، 97، لم تظهر القاعدة على شاشات المراقبة بهذا الاسم "القاعدة". لقد كانت واحدة من عدة منظمات كنا نعيدها اهتمامنا. وكان يُنظر إلى أسامة بن لادن على أنه مستثمر ممول للإرهاب. أحضر له فكرة، وسوف

يعطيك بعض المال، وربما المساعدة التقنية لتنفيذها. لم نكن ننظر إليه على أنه مخطط. ومع بداية عام 1994، تكرر اسمه في الظهور ولكن في إطار التمويل⁽⁷⁾.

كان ابن لادن محل اهتمام متزايد بالنسبة للولايات المتحدة. وفي عام 1993، وعلى الرغم من عدم علم الأمريكيان بذلك وقتها، أعلن ابن لادن الحرب ضد القوات الأمريكية التي كانت في الصومال في مهمة إنسانية. "إن الجيش الأمريكي قد وصل الآن إلى القرن الإفريقي. ويجب علينا أن نوقف رأس الأفعى .. يجب علينا أن نوقف ما يفعلوه في القرن الإفريقي"⁽⁸⁾.

ومع حلول منتصف التسعينيات، بلغت التصريحات التي صدرت عن ابن لادن حداً جعل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA تبدأ بتعقب تحركاته وحساباته الشخصية⁽⁹⁾. كما مارست الحكومة الأمريكية ضغطاً على الحكومة السودانية لتجسيم وتقييد تحركاته، وعندما ثبت أن ذلك لم يجد معه نفعاً، فبطرده إلى دولة توفر له قليلاً من حرية الحركة. وكانت المشكلة تكمن في العثور على مثل هذه الدولة. تم أخذ رأي السعوديين، إلا أنهم أبدوا عدم رغبتهم في التعامل مع ابن لادن لا من قريب ولا من بعيد⁽¹⁰⁾. وفي الحقيقة أبدت كل دولة تحدثت إليها السودان رفضها واعتذارها عن استقباله. وقال السودانيون بأن هذه الدول شملت أيضاً الولايات المتحدة نفسها. وقالوا بأنهم عرضوا على الأمريكيان تسليم ابن لادن لهم شريطة عدم الكشف عن دورهم في ذلك. ونفت الولايات المتحدة تلقي مثل ذلك العرض⁽¹¹⁾. ولم يكن هناك، وتحت أي ظرف، أي أساس قانوني لتسليمه لأنه حتى ذلك الوقت لم تكن هناك أي تهمة موجهة إلى ابن لادن بارتكاب أي جريمة ضد مواطنين أمريكيين.

وفي أواخر عام 1995، وقعت عملية تفجير في مكتب للحرس الوطني في الرياض العاصمة السعودية، وأسفر الحادث عن مقتل خمسة أمريكيين واثنتين

من الهنود. وكان ابن لادن مشتبهاً به في تمويل ذلك الهجوم. إلا أن السعوديين أعلنوا أنهم ألقوا القبض على الفاعلين وقاموا بقطع رؤوسهم على الفور قبل أن يصل المحققون الأمريكيون إلى البلاد للتحقيق معهم.

وفي فبراير/ شباط 1996، كانت حكومة كلينتون مستاءة من الحكومة السودانية بسبب دعمها لابن لادن تحديداً، فأغلقت السفارة الأمريكية في الخرطوم وتم استدعاء الموظفين إلى الولايات المتحدة. ويعد هذا الإجراء كارثة مالية على الدولة المضيفة لأنه يعكس عدم وجود ثقة بالسلطات المحلية في حماية الأجانب. وفي العادة تلحق الاستثمارات المالية الدبلوماسية خارج الدولة. ثم قامت الأمم المتحدة بفرض عقوباتها الاقتصادية مستشهدة بدور الحكومة السودانية في محاولة اغتيال حسني مبارك. وفي الوقت ذاته كان السعوديون يحثون الحكومة السودانية بعمل شيء تجاه ابن لادن. وكان السعوديون أكثر تأثراً في المنطقة - وأكثر استعداداً من الأمريكيين لمكافأة شركائهم. وأدركت السودان أخيراً أن عليها أن تتخلص من ابن لادن وأخبرته بذلك. ولم يكن أمام ابن لادن سوى الخروج. ومع أنه الآن قد أوجد منظمة لا تنتمي إلى دولة، إلا أن هذه المنظمة وهو شخصياً، يجب أن يتوطنوا في مكان ما. وبينما كان في السودان، بقي ابن لادن على اتصال مع أصدقائه القدامى في باكستان وداخل أفغانستان، ويأخذ منهم المشورة. وكان يقدم المال الكافي للإبقاء على نشاط مكتب الخدمات في بيشاور، وبقي على اتصال ببعض المجموعات التي تدير معسكرات التدريب خلف الحدود. وبعد أن أجرى بعض الاستيضاحات أخبروه بأنهم على استعداد للترحيب به إذا رغب في العودة.

جلال أباد

في الثامن عشر من مايو/ أيار، هبطت طائرة تابعة للخطوط الجوية الأفغانية إيرباص والمستأجرة من الحكومة السودانية، في مطار جلال أباد وهي

تقل ابن لادن وزوجاته الثلاث وأبنائه، إضافة إلى عدد من معاونيه ومساعديه. عاد ابن لادن إلى أفغانستان في الوقت الذي كانت فيه مجموعة جديدة تكمل إحكام سيطرتها على معظم البلاد. هذه المجموعة تعرف بحركة طالبان. وكانت طالبان جيشاً غامضاً ومجهولاً وقتها، ويتكون من طلبة المدارس الدينية، الذين يؤمنون بتفسير متشدد للقرآن الكريم. وبدؤوا بالظهور كقوة إيديولوجية مقاتلة في الحرب الأهلية طويلة الأمد. ووعد قائد المجموعة بتطهير البلاد، ليس فقط من ذنوبها، بل وحتى من ماضيها، مؤكداً أن الحاكمية لله. ولم يكن نجاح هذه الحركة في السيطرة على معظم البلاد يرجع إلى إيديولوجيتهم ولا بسبب قدراتهم ومهاراتهم القتالية بقدر ما كان بسبب قلة أعدائهم وتمتعهم باحترام بين الناس يفوق احترامهم لزعماء الفصائل الأخرى الذين استمروا في قتال بعضهم بعضاً، وفي خيانة بعضهم بعضاً، ومقاتلة الناس على مدار السنين. وباختصار وفرت طالبان أبسط الوعود المحتملة - أن يكونوا قوة شرطة فعالة، وقف القتال، والمحافظة على أمن الناس من بعضهم بعضاً. وعندما رجعت طالبان إلى كابول في الربيع التالي، تمكنوا من السيطرة على العاصمة دون قتال. ولقب زعيم الحركة الملا عمر، وهو شيخ أعور العين، لقب نفسه أمير المؤمنين. وأعيد تسمية أفغانستان إلى إمارة أفغانستان الإسلامية⁽¹²⁾.

كانت المنطقة التي قدم إليها ابن لادن غير خاضعة بعد لسيطرة طالبان. وكان قادة قوات المجاهدين الذين كان يعرفهم منذ أيام الحرب مع السوفييت، ما زالوا يسيطرون على جلال أباد والمناطق المحيطة بها. إلا أن طالبان سرعان ما استولوا عليها بعد أن توسط ابن لادن في عقد هدنة بينهم. وبموجب الاتفاق تحصل طالبان مقابل عفوها عنهم بالحصول على المقاتلين المتمرسين وعلى الدعم المالي. واستأنفت معسكرات التدريب نشاطها بعودة ابن لادن وبانتصارات طالبان. لم يكن للعرب أي أثر كبير في المعارك التي جرت ضد السوفييت. إلا أنه في حرب الفصائل الجديدة أصبح رجال ابن لادن قوة مؤثر، ومصنعاً لإنتاج المحاربين في مغامرات عالمية.

وبينما كانت طالبان تعزز قبضتها على البلاد، أمضى ابن لادن الصيف في كتابة أول فتاواه الدينية. والفتوى في العادة تصدر عن علماء الدين في محاولة للتوفيق بين المبادئ القرآنية وبين المشاكل المعاصرة. لم يكن ابن لادن من علماء الدين بهذا المعنى - فقد كان تعليمه وخبرته في الهندسة المدنية - ولكن يبدو أنه كان مقتنعاً أنه يملك التعليم الديني، إن لم يكن التدريب الضروري، ليصبح مرجعاً وسلطة في التعبير عن رغبات الله.

هذه الفتوى التي (تجاوزت 11 ألف كلمة)، وكغيرها من الفتاوى التي تبعتها، كانت طنانة ومتعالية في فكرتها ولغتها. وكان عنوانها "إعلان الحرب على الأمريكان الذين يحتلون أرض الحرمين الشريفين". وحاولت إثبات أن استخدام القوات الأمريكية قواعد لها في شبه الجزيرة العربية يشكل عدواناً وانتهاكاً فظيماً، وأنه يجب إخراجها بالقوة، وجاء في جزء منها [ترجمة عن الإنجليزية]:

فإنه لا يخفى عليكم أن أمة الإسلام عانت من العدوان والظلم والإجحاف على يد التحالف الصهيوني الصليبي وأعاونهم حتى أصبحت دماء المسلمين رخيصة، وثوراتهم نهباً في يد أعدائهم... وإن من أعظم وآخر هذه الاعتداءات التي شهدتها المسلمون منذ وفاة النبي ﷺ هي احتلال جيوش الصليبيين الأمريكان وحلفائهم أرض الحرمين الشريفين - مهد الإسلام، ومهبط الوحي ومصدر الرسالة ومكان الكعبة المشرفة قبله المسلمين⁽¹³⁾.

استدل ابن لادن بعدد من حالات الظلم التي تعرض لها المسلمون على يد الأمريكان وغيرهم من بني ملتهم. وجعل من الواضح أن المسلمين يملكون الحق وبالأحرى - مأمورون - باستخدام كل الوسائل المتاحة لهم لطرد الصليبيين. وهو ما يطلق عليه الظواهري - أقرب حلفائه - "الفريضة الغائبة" وقامت

الصحافة العربية التي ساعدت في بناء أسطورة ابن لادن كأمرير مقاتل في الحرب السوفيتية، بنشر توجهاته الجديدة بكل شغف. وبدأت أشرطة الفيديو والصوت لخطابات ابن لادن تنتشر في العالم الإسلامي. كما هو شأن عدد آخر من العلماء. وساهمت هذه الوسائط الجديدة للإعلام في نشر سمعة ابن لادن دون أن تجلب كثير اهتمام في العالم الخارجي.

وفي يونيو/ حزيران اللاحق، انفجر صهرج وقود أمام معسكر لقوات مشاة البحرية الأمريكية (المارينز) في الظهران في المملكة العربية السعودية مودياً بحياة تسعة عشر شخصاً. وكما في الحالات السابقة، لم توفر السعودية أية فرصة للمشاركة في التحقيقات؛ ووجهوا اللائمة على فرع حزب الله في السعودية. وألقوا القبض على عدد من المشتبه بهم وأعدموهم فوراً، دون إعطاء أي فرصة للولايات المتحدة للتحقيق معهم واستجوابهم. لم يعلن ابن لادن مسؤوليته عن الهجوم - إلا أنه وبكل وضوح امتدح الذين قاموا به. وأصبح من الواضح للجميع أخيراً أن نقل ابن لادن من مكان لآخر لم يجد نفعاً في حل المشاكل التي يحدثها.

الدوحة

بعد إلقاء القبض عليه، لم يقدم رمزي يوسف أية معلومات ذات أهمية للمحققين. وفي الحقيقة أنه لم يتم التحقيق معه بالصورة التي نعرفها الآن. بل تم عقد مقابلة معه. فقد كان سعيداً بالاعتراف بأغلب العمليات التي قام بها. بل وحتى تفاخر ببعضها. ومن جانب آخر شكاً من الصعوبات التي كان يواجهها في عمله. وصعوبة وضع هذه الخطط، وتأمين المال اللازم لتنفيذها، والعمل مع الحمقى. (فمثلاً، عندما سئل لماذا ارتكب محمد سلامة الخطأ القاتل بمحاولة الحصول على المبلغ الذي وضع تأميناً على حافلة رايدر التي استؤجرت لحمل القنبلة، فكان جوابه كلمة واحدة: "غبي". وما لم يفعله يوسف

هو أنه لم يطلب من أي شخص أن يفعل ما لم يستطع أن يفعله أو يفكر به بنفسه . لم يسمّ أشخاصاً بأعينهم، ولكنه ترك دلائل، وحاسوبه المحمول، وقوائم أرقام الهواتف التي استخدمها .

من الأسماء التي ظهرت في هاتفه: زاهد شيخ محمد، شقيق خالد في بيشاور. وبعد اكتشاف الأمريكان هذا الاسم بقليل، قامت قوات الأمن الباكستانية باقتحام مكاتب زاهد وغيرها من الجمعيات الخيرية العربية في المدينة، إلا أن زاهداً كان قد غادر المكان قبل وصولهم. وتمت المداهمة وسط أجواء ملاحقة العرب في باكستان على يد حكومة بوتو، وأضافت إلى الاضطراب في صفوف الأفغان العرب المقيمين في البلد. ولحق كثير من العرب زاهد شيخ في مغادرة باكستان.

بقي خالد شيخ محمد حذراً جداً في أول عملية إرهابية فعلية له والتي نفذها في مانيلا. فقد استخدم ثلاثة أسماء مزورة، وكان دائماً يلبس القفازات داخل مكان صنع القبيلة في الغرفة 603، وسكن وحده بعيداً. ولم يكن حتى مراد، وهو أحد المتآمرين في العملية، يعرف شخصيته الحقيقية. وكان هناك سبب وجيه جعل من يوسف يخاطر بإرسال مراد لإحضار حاسوبه المحمول: يوسف سمّى بعض الأسماء، أو على الأقل تركها خلفه. ومن بين الملفات التي وجدت في حاسوبه، رسالة موجهة إلى أحد الأشخاص يوبخه فيها على التقصير في تقديم الدعم المطلوب:

إلى الأخ محمد الصديقي:

إننا نواجه كماً كبيراً من الصعوبات - بسببك. اتق الله يا سيد صديقي، لذلك يوم للحساب. وسوف تسأل عما إذا كنت مشغولاً بشيءٍ أهم. لا تعط وعوداً للآخرين. إلى اللقاء يوم القيامة. هازلت في الانتظار.

خالد شيخ، وبوجينكا (14)

ويقول نيل هيرمان، الذي قاد فريق مكتب التحقيقات الفيدرالي في مؤامرة مانيلا: "كنا نعلم أن هناك شخصاً آخر متورط في العملية... إلا أن هذا الشخص كان غامضاً جداً ولم نكن نعرف من هو"، ويضيف قائلاً: "لقد نجح بالفعل في مراوغتنا"⁽¹⁵⁾.

استطاع المحققون أخيراً الربط بين خالد شيخ هذا وزاهد شيخ الذي يعمل في الجمعية الخيرية. وبدؤوا بجمع الأدلة ضده. وكان ما يزال يشكل لغزاً، إلا أن المحققين استطاعوا الحصول على بعض الخيوط التي تقود إلى أثره. فقد استمر في الإقامة في الدوحة، عاصمة قطر، الدولة الصغيرة الواقعة على نتوء اليابسة في الخليج الفارسي شرقي الرياض. لم تكن قطر معروفة في الغرب. ولكن - وعقب الانقلاب الذي قام به ابن الأمير الذي درس وتعلم في الغرب، على أبيه - أصبحت قطر أكثر مشيخات الخليج تحرراً. ولهذا السبب أصبحت تشكل مصدر إزعاج لجيرانها الذين لا يوجد لديهم رغبة في التحرر. وكانت تلك الفترة هي التي انتقل فيها خالد شيخ إلى قطر. وكان الأمير الجديد على وشك افتتاح قناة الجزيرة الفضائية. وهي المحطة الفضائية الرائدة في تقديم طراز جديد من الصحافة المفتوحة على النمط الغربي في المنطقة. وكانت الدوحة مكاناً غريباً، مليئاً بنايات المكاتب وغيرها. وفيها مركز قديم متصدع للمدينة فيه محلات تجارية مملوءة بالبضائع الكهربائية الصينية واليابانية. وكما هي الحال في بقية أرجاء الخليج، فإن أعداداً كبيرة من العاملين في هذه المتاجر هم باكستانيون من بني جلدة خالد شيخ محمد. وكان خالد يستفيد من وجود شبكة واسعة من معارف وأصدقاء أخيه عابد شيخ محمد الذي توفي في أفغانستان. وكان عابد قد التحق بالجامعة في الدوحة عام 1980 وأصبح معلماً يحظى بالاحترام في المدينة. واستطاع أن يحوّل الأندية الاجتماعية ذات السمعة السيئة لتصبح من معالم حياة الدوحة الاجتماعية والدينية⁽¹⁶⁾. ولكثير من الناس ذكريات عزيزة مع

عابد الذي يعتبر أيضاً شهيداً في الحرب الأفغانية. وكانت ذكراه ما تزال قوية في النفوس عندما جاء خالد شيخ محمد إلى الدوحة عام 1993. ويبدو أن خالد شيخ لم يكن متعباً بوظيفته اليومية في وزارة الطاقة والمياه. إذ كان يمضي كثيراً من الوقت في السفر حول الخليج في أثناء إقامته في الدوحة لبناء وتطوير شبكة لجمع التبرعات.

ويصف أحد المسؤولين الأمريكيين الذين عملوا في الخليج في التسعينيات أساليب وطرق جمع التبرعات في المنطقة قائلاً: "تنتشر في المنطقة طريقة تقليدية لجمع التبرعات، يجلس الشخص في المسجد ليعاين المشهد، ثم يقوم بالتحدث إلى الهدف، وهذا الهدف يكون في العادة رجلاً متقدماً في السن، ولديه مال كثير، ويكون متديناً في العادة. يأتي جامع التبرعات إلى جانبه، وبأسلوب من الإقناع والإلحاح، يقوم الهدف بكتابة شيك له"⁽¹⁷⁾. وكان خالد شيخ محمد جامعاً بارعاً للتبرعات. وهو من النوع الذي يقدر على جمع الأموال من جامعي الأموال. وكان كثير التنقل من وإلى قطر، والإمارات العربية المتحدة والبحرين. وكانت شبكة الأموال غير رسمية. فمثلاً قد يتصل شخص من الفلبين بشخص من دبي، وهذا الأخير يتصل بخالد شيخ محمد. وبعد هذه الاتصالات المتتابة عبر الهاتف، يقوم خالد أخيراً بتحويل الأموال... وكانت هناك كميات كبيرة من المال في عدد قليل من التحويلات الخاصة بعدة مئات من الناس. وتوسط خالد شيخ محمد هذه الشبكة. لقد كان محركاً للأموال - ولم يكن من الواضح ما إذا كان متصلاً بأشخاص أعلى منه مرتبة، هذا إذا كانت هناك طبقة أعلى منه... كان يظهر فجأة في دبي وباكستان وأحياناً في الكويت. وأصبح يشكل قضية بالنسبة لي لأنه كان في منطقتي. وجل ما نعرفه حتى الآن أنهم كانوا مجموعة من الأفراد يعملون معاً".

ويتذكر خالد محمود، وهو من سكان الدوحة أنه التقى خالد شيخ محمد ذات مرة في مسجد المدينة. وتحادث الاثنان قرابة نصف الساعة، وخلالها

تمت مقاطعتهما عدة مرات من قبل الأشخاص الذين جاؤوا ليلقوا السلام على محمد الشاب، قصير القامة، ممتلئ الجسم، والذي بدأت تظهر عليه علامات الصلع. وينطبق عليه وصف الشخص الشبكي الفعال المتفاني، بحسب دليل إرشادات العمل الاجتماعي الأمريكي في ذلك الوقت. ويقال بأن لديه إحساساً قوياً بالفكاهة والمرح، وصاحب ذاكرة حادة. "بإمكانه أن يتذكر اسمك بعد المرة الأولى التي يلقاك فيها. ويتذكر عنك أشياء حدثت في المرة التي قابلتك فيها". كما يقول محمود⁽¹⁸⁾.

بقي الفهم الأمريكي للإرهاب الإسلامي الجديد قاصراً وغير مكتمل. وكان الانتباه والموارد مرصودة لجهود مكافحة الإرهاب المحتمل المدعوم من الدول. وخصوصاً إيران التي أصبحت الداعم الرئيس للإسلام الأصولي. واستطاع عملاء الاستخبارات الأمريكية أن يتعقبوا آثار خالد شيخ محمد حول المنطقة، وبالفعل حول العالم: إيطاليا، مصر، سنغافورة، البرازيل، الأردن، تايلاند، الفلبين. وفي الواقع أنه كان يعيش في الخليج أمام الملأ. ويقول أحد المسؤولين الأمريكيين الذين عملوا في المنطقة وقتها: "لم يكن يستخدم اسماً مستعاراً"⁽¹⁹⁾. وكان في العادة يحل ضيفاً في مزرعة عبدالله بن خالد آل ثاني، الذي كان وقتها وزيراً للشؤون الإسلامية في الدولة، والذي ألح على خالد شيخ للانتقال إلى الدوحة.

"يملك عبدالله بن خالد مزرعة خارج الدوحة" كما يذكر المسؤول الأمريكي⁽²⁰⁾. وكثير من هؤلاء الرجال يملكون مزارع. لقد كانت هواية بالنسبة لهم. يزرعون الملفوف ويربون البط. إذن كان له هذه المزرعة، وكان محاطاً دائماً بعدد كبير من الأشخاص. وكان في المنزل أعداد زائدة من العاملين وكثير من العرب والأفغان العاطلين عن العمل. وكان خالد يصلح دائماً لتقديم العون. ويمكث هؤلاء الأشخاص لفترة طويلة نسبياً. بعضهم جاء إلى هنا وقد اعتراه

النحول ولكن وبعد قضاء بعض الوقت تبدأ علامات الامتلاء بالظهور عليهم. يمكن أن تذهب إلى المنزل، فتجد دائماً هؤلاء الأشخاص هناك وقد تجد بعض بنادق الكلاشينكوف في الزاوية. ولا يبدو هذا الأمر غير طبيعي. لقد عملت في بيروت قبلها. لذلك، فإن مشاهدة السلاح معروضاً في غرفة الجلوس ليس بالأمر المستغرب. وكثير من هؤلاء الأشخاص ربما كانوا من المجاهدين المخلصين يمضون فترة نقاهة. وهي نقلة ليست سيئة بالنسبة لهم".

استطاعت الاستخبارات الأمريكية أخيراً أن تكشف أن أحد الأشخاص في المزرعة هو خالد شيخ نفسه الذي كانوا يلاحقونه منذ أحداث مانيلا. ولكنهم لم يكونوا على علم بمدى أهمية الدور الذي لعبه. فقد كانوا يعتقدون أن يوسف هو العقل المدبر لخطة مانيلا، وأن خاله الأكبر لم يكن أكثر من تأثير سيئ عليه⁽²¹⁾. ومع ذلك، أصدرت هيئة محلفين كبرى مذكرة إدانة سرية ضد خالد شيخ محمد عقب يوم رأس السنة الميلادية 1996. وثار الجدل بعدها حول ما يمكن عمله بشأنها. تحدث مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي لويس فريه إلى المسؤولين القطريين طالباً مساعدتهم في القبض على خالد شيخ وتسليمه إلى الولايات المتحدة. وكان إجراء الجلب القسري أداة جديدة آنذاك. فالإجراء كان يعتبر تسليماً مخالفاً للقانون، ويعتبر من الناحية الفعلية كتسليم الشخص المطلوب إلى الدولة التي طلبته دون استكمال الإجراءات القانونية في الدولة المضيفة. وقال مسؤول مكتب التحقيقات الفيدرالي أن أشهراً مرت دون أن توافق السلطات القطرية على اعتقاله وتسليمه، أو أن تسمح للولايات المتحدة أن تأتي وتعتقل خالد شيخ بنفسها، على الرغم من اعتراف قطر بوجوده في أراضيها. وأخبرت قطر الولايات المتحدة بأن هناك أدلة تشير أن خالد شيخ محمد كان بيني قبيلة⁽²²⁾. وقالوا أيضاً بأن في حوزته أكثر من عشرين جواز سفر مختلف، ومع ذلك قاموا بتأخير الموافقة على التسفير. وتمت الدعوة إلى اجتماع مطلع 1996، وترأس

الاجتماع نائب مستشار الأمن القومي ساندي بيرغر ممثلاً عن البيت الأبيض والذي كان يحاول تأمين اتفاق في الرأي على تعقب خالد شيخ وإحضاره إلى الولايات المتحدة⁽²³⁾.

كانت تصورات الفريق الذي أيد الجلب القسري تقضي باستخدام فريق مكون من خمس وعشرين شخصاً في مهمة سرية. وكان هذا العدد خارج نطاق تقديرات البنتاغون. ويقول جمبي غورليك ممثل وزارة العدل في الاجتماع: "لقد كنا بعيدين في تقديراتنا لدرجة بعيدة"⁽²⁴⁾ وأصر البنتاغون الذي كان يخشى نكسة أخرى كتلك التي أسقطت فيها طائرة هيلوكبتر من نوع بلاك هوك في الصومال عام 1993، على أن الحملة سوف تتطلب مئات وربما الآلاف من الجنود. وهذا الخوف أدى إلى اتخاذ البنتاغون مواقف مترددة في أوضاع مشابهة. وكان الجنرالات في العادة يقولون إذا توجب عليهم القيام بهذه العملية فإنهم يفضلون القيام بها بقوة كاسحة. وفي الواقع، فقد اقترحوا احتلالاً لقطر على مستوى صغير وهم يعلمون أن فرص الموافقة على هذا الاقتراح تكاد أن تكون معدومة، وكان ذلك أسلوباً آخر لقول: "لا" دون الحاجة للتفوه بالكلمة. كانت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA هي الأخرى مترددة. وربما لأسباب أخرى غير ظاهرة. ففي منتصف التسعينيات، كانت الوكالة تعاني من نقص في الإمكانيات ونقص في الإرادة للقيام بعملية من هذا القبيل دون دعم الجيش. ويذكر أحد الأشخاص الذين حضروا الاجتماع قائلاً: "رفض كل واحد حول الطاولة، ولأسباب خاصة بكل واحد منهم، ملاحقة شخص كان يهدد المصالح الأمريكية"⁽²⁵⁾ ويتابع المسؤول قوله: "ولا يستطيع مكتب التحقيقات الفيدرالي أن يذهب إلى مكان خارج الولايات المتحدة دون أن يحصل على المعلومات الاستخبارية اللازمة من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA، والإمدادات من ووزارة الدفاع، والعضلات من الجيش فيما لو

اضطررنا إلى استخدام القوة للذهاب إلى الهدف. ولم يحدث أي من ذلك".

وفي ظل انعدام الدعم من البنتاغون ودولة قطر، كان هناك القليل الذي يمكن أن يقنع بيرغر بتعقب خالد شيخ محمد. لم يكن الأمر مجرد مسألة رغبة، بل كانت مسألة واقعية حول ما يمكن فعله. ودون الدعم العسكري فإن الجواب لا شيء.

وفي النهاية، وبدلاً من إرسال مجموعة لاختطاف خالد شيخ، أرسل مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي فريه رسالة إلى وزير الخارجية القطري جاء في جزء منها: "إننا نعتقد يا معالي الوزير. أن المسألة اضطرارية. لقد وصلتني للتو معلومات مقلقة تفيد بأن خالد شيخ محمد قد أفلت مرة أخرى من رقابة أجهزتك الأمنية، وأنه على دراية باهتمام مكتب التحقيقات الفيدرالي بمتابعته. هذه المعلومات إلى جانب حيازته جوازات سفر مزورة تثير قلقنا باحتمال هروبه من البلاد، أو أنه في طريقه إلى الهروب من قطر إلى مكان آمن. إن الفشل في اعتقال خالد شيخ محمد سوف يمكنه ويمكن رفاقه من الاستمرار بشن عمليات إرهابية"⁽²⁶⁾.

لم تحدث الرسالة أي مفعول يذكر. وفي النهاية، وعندما قرر الأمريكان إرسال فريق صغير من عملاء الاستخبارات لمحاولة اعتقال خالد شيخ محمد، كانت تلك الخطوة صغيرة جداً ومتأخرة جداً. فقد اختفى خالد شيخ محمد. وكما يقول بعض الأشخاص: "ربما كان هناك بعض العملاء الحمقى التابعين لمكتب التحقيقات الفيدرالي في الدوحة، يتجولون ومعهم "الكلبشات" وبعض البطاقات المجلتة لإعلان حقوق الميراندا"⁽²⁷⁾.

ترددت قصص مختلفة حول الجهة التي ساعدت خالد شيخ محمد في الهروب من قطر - وغالبيتها تشير إلى آل ثاني، مضيفه. إحدى القصص تقول بأنه هرب إلى براغ في جمهورية التشيك، التي كانت مركزاً مزدهراً لتجارة

السلاح والمعلومات من الجمهوريات السوفييتية السابقة⁽²⁸⁾. وفي جميع الأحوال، فإن قضية أين ذهب خالد شيخ مباشرة هي أقل أهمية من قضية أين ذهب بعدها - أفغانستان. فهناك جدد معرفته بشخص آخر عائد إلى هناك: أسامة بن لادن. وفي وقت ما عام 1996، قال خالد شيخ لأسامة بأن لديه فكرة. وأنها تتعلق ببنائات ضخمة وطائرات. وكانت الفكرة خليطاً من خطط إرهابية سابقة: محاولة يوسف تفجير برج التجارة العالمي؛ خطة مانيفلا في تفجير عدة طائرات تجارية في وقت واحد؛ وفكرة مراد في اختطاف طائرة واستخدام الطائرة نفسها كسلاح عن طريق الارتطام بها في مركز قيادة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA في فيرجينيا.

كان مراد رجلاً بسيطاً. فالتقرير الفلبيني حول اقتراحه اختطاف الطائرات يعكس بساطة الفكرة: "الموضوع الذي كان في ذهنه هو أن يستقل طائرة تجارية متظاهراً بأنه مسافر عادي، ثم يقوم باختطاف الطائرة وسيسيطر على قمرة القيادة والغوص بها في مبنى مركز قيادة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA ولا توجد حاجة لاستخدام أي قنابل أو متفجرات في العملية. فهي ببساطة مهمة انتحارية كان لديه استعداد شخصي للقيام بتنفيذها. وكل ما يلزم لتنفيذ المهمة هو ركوب الطائرة كمسافر عادي، ومسدس يستخدمه لتنفيذ الاختطاف"⁽²⁹⁾.

خالد شيخ، في المقابل، كان أكثر تعقيداً، أو على الأقل كان رجلاً يستمتع بفكرة التعقيد. ذكر أولاً فكرة مراد لابن لادن، وقال ابن لادن بأن الفكرة بسيطة جداً، وتساءل: "لماذا تستخدم فأساً إذا كان بإمكانك استخدام الجرافة؟". ثم اقترح خالد شيخ خطة غريبة لاختطاف عشر طائرات مرة واحدة، خمس في شرق الولايات المتحدة وخمس في غربها. فقد كان هو ويوسف يحملان بشيء من هذا القبيل. وتصفح كلاهما دليلاً لناطحات

السحاب الأمريكية بحثاً عن أهداف، ووضعاً في حساباتها من بين الأهداف برج سيرز في شيكاغو وبرج الحرية في لوس إنجيلوس⁽³⁰⁾. وعدا عن القيمة الرمزية لضرب البنايات الكبيرة التي تشكل أعمدة القوة الاقتصادية الأمريكية، تتمتع ناطحات السحاب بميزة أخرى بسيطة، ولكنها مفيدة كأهداف، وهي سهولة تحديدها، فقد شيدت هذه الناطحات أصلاً لتجذب انتباه الناس إليها.

كان ابن لادن ورفاقه قد انتهوا من وضع المنطق الديني لمهاجمة الأمريكيان قبل ذلك بسنوات عدة. وكان ممدوح سالم، وهو عراقي الجنسية، من أوائل أعضاء مجلس شورى ابن لادن، أو مجلس الحكم، وتقلد عدة وظائف داخل المنظمة قبل إلقاء القبض عليه عام 1998، وعمل مديراً تنفيذياً مؤتمناً للأعمال، ومسؤولاً، على سبيل المثال، عن جهود القاعدة في التسعينيات لشراء المواد اللازمة لصنع قنبلة نووية. كما عمل أيضاً مستشاراً دينياً لابن لادن. وكان ابن لادن في السابق يعتمد على الآخرين لتقرير ما هو مناسب إسلامياً وما هو غير مناسب. وكان سالم يصدر الفتاوى تبعاً داخل المنظمة. وإحدى هذه الفتاوى تتعلق بجواز ضرب الأهداف المدنية: "وعلى سالم ذلك بقوله إذا كان ضرب بناية أمريكية وقتل الأمريكيين فيها، وكان في ذلك العمل منفعة، فإذا قتل مسلمون يعملون مع الأمريكيان نتيجة لذلك، فإن هذا عقاب للمسلمين الذين يساعدون الأمريكيان الكفار. وإذا قتل مسلمون من غير العاملين، فإنهم شهداء وسيذهبون إلى الجنة، وسيكونون ممتين للذين قاموا بالتفجير"⁽³¹⁾.

هناك عدد كبير من أعضاء خلايا القاعدة المنتشرة حول العالم ممن انخرطوا في السنوات الماضية في نشاطات إجرامية استخدموها في تمويل خططهم الإرهابية. وكانت بعض خطط خالد شيخ تعاني من نقص التمويل. أما هذه العملية فهي في وضع مختلف: فقد كانت أكبر حجماً، وأكثر طموحاً،

وأعلى تكلفة، وأشدّ إحكاماً وسيطرة. وتتطلب نوعية مختلفة من الرجال أيضاً. ممن هم أكثر تحضراً وأقدر تقيناً. ومع وجود يوسف في السجن، كان محمد يفتقر إلى صانع القنابل. إلا أن صدم الطائرات في البنائات سيغني عن الحاجة إلى القنابل: فالطائرات نفسها ستتحول إلى قنابل. وكل ما يحتاجه بدلاً من ذلك، هو الطيارين. وطلب من ابن لادن شيئين: المال والاستشهاديين. ابن لادن لديه المال، ومعسكرات التدريب في أفغانستان التي يسيطر عليها ستكون أفضل مكان للبحث عن العنصر الآخر⁽³²⁾.



obeyikan.com

الكتاب الخامس

الخطبة

obeyikan.com

■ الفصل الأول ■

المجندون الجدد

أفغانستان

غادر مروان الشحي هامبورغ أولاً. وكانت مغادرته شيئاً مفاجئاً لأصدقائه. إذ كان الشحي في فصله الدراسي الأول بعد أن تم قبوله أخيراً في الجامعة التقنية في هامبورغ، وبعد أن لقي صعوبات كبيرة فيما كان يُفترض أن تكون سنة عادية من الدراسة التحضيرية، والتي استغرقت منه ثلاث سنوات، بدلاً من سنة واحدة، كما هي في العادة. وحصل الشحي أخيراً على درجات النجاح. يقول منير المتصدق: "لقد اشترى أثاثاً جديداً، وكتباً، وطلب مني أن أساعده في مادة الرياضيات"⁽¹⁾. ويضيف: "وقال لي بأنه سي جلب زوجته من الإمارات، ثم غادر".

وبعد عدة أيام، تبعه زياد جراح، ثم محمد الأمير، وأخيراً عمر (رمزي بن الشيبه). سافر جراح والأمير على متن الخطوط التركية، كلاً على حدة، من اسطنبول إلى كراتشي. ودفعاً ثمن تذكرتيهما من أموال بعثة الشحي. ولا أحد يعرف الطريق التي سلكها الشحي وعمر. وبعد وصولهما كراتشي، فإن على الأرجح أن الرجال الأربعة استقلوا رحلات داخلية، أو حافلات ركاب، في التوجه إلى كويتاً العاصمة الصحراوية المغبرة لبلوشستان⁽²⁾. ويذكر أن القاعدة بدأت تتجنب طريق بيشاور قدر الإمكان؛ نظراً لأن المدينة أصبحت مراقبة بشكل كبير⁽³⁾. ومع أواخر التسعينيات، كان هناك خوف متنام من الجواسيس الذين اخترقوا المعسكرات، وبدأ قادة القاعدة بارتداء الأقنعة على وجوههم حتى

داخل المعسكرات⁽⁴⁾. ونجح أسامة بن لادن في جلب اهتمام العالم إليه بشكل كبير. وقد ثبت أن شهرته كانت سلاحاً ذا حدين - في جلب الأخطار والمجندين - استدعت معاينة أدق للقادمين الجدد. بعض الأشخاص اضطروا للانتظار في غرف الضيافة على الحدود الباكستانية لعدة أسابيع قبل أن يتم جلبهم إلى أفغانستان. إلا أن الرجال الذين قدموا من هامبورغ لم تواجههم تلك المشكلة. فقد كان معهم تعليمات بأخذ سيارة أجرة إلى مكتب طالبان بعد وصولهم كويتاً. وكل سائق هناك يعرف ذلك المكان، كما قيل لهم. وهو بالفعل كذلك. كما طُلب منهم ترك كل شيء في غرف ضيافة الطالبان - كل أمتعتهم وجوازات سفرهم، والنقود الموجودة بحوزتهم، وحتى أسماءهم. وبحسب الإجراءات المتبعة، فقد اختار كل واحد منهم اسماً جديداً: محمد الأمير أصبح "أبو عبدالرحمن". واختار جراح اسم "أبو طارق"، وأصبح الشحي "أبو القعقاع"، أما عمر فاختر اسم "عبيدة الإماراتي"⁽⁵⁾ وفي العادة تُقدم إلى المجندين الجدد ملابس أفغانية محلية، ويجري اصطحابهم إلى الحدود التي كانت حدوداً اسمية. وفي بعض الأحيان يؤخذ المجندون على درّاجات نارية عبر طرق يتجنبون من خلالها مراكز الحرس. وأحياناً يسافرون إلى نقاط العبور دون الحاجة لإبراز إثباتات الهوية الشخصية.

وعلى الرغم من كل ما حدث حولها، بقيت الحياة داخل المعسكرات كما هي دون تغيير على مدى عقد من الزمان. فقد كان يطغى عليها - كمعظم معسكرات أي جيش - الروتين والرتابة. الاستيقاظ مبكراً والنوم المبكر. وبينهما، التمارين، والتدريبات، والمحاضرات، ثم التمارين، والتدريبات، فالمحاضرات. ولولا فترات الصلاة والثوب الأفغاني الذي يلبسه كل شخص هناك، لكان من الصعب التمييز بين هذه المعسكرات وبين أي من معسكرات التدريب في أي مكان في العالم. وكان نظام المعسكرات - التي بلغت في أفضل

أوقاتها أكثر من خمسين معسكراً تحت إشراف فصائل وطنية مختلفة مقاتلة - نظاماً متدرجاً. فقد كانت المعسكرات الرئيسية تهدف إلى توزيع واستعراض للجماعات الجهادية التي تتنافس على المتطوعين. وكانت خالدين الواقعة بين قندهار والحدود الباكستانية، نقطة الدخول الرئيسية إلى القاعدة. فمن تخرج هناك من المتطوعين يجري إرساله إلى المعسكرات الأخرى. وفي العادة يتنقلون عبر اثنين أو ثلاثة أو حتى أربعة مواقع توجد غالبيتها في التلال والمناطق الجبلية من المقاطعات الجنوبية. وهذه المعسكرات في الغالب متواضعة، وتتكون من بنايات صغيرة فيها مساكن المدربين، وأماكن إلقاء التعليمات والمحاضرات. أما المجندين فإنهم يسكنون عادة في الخيام. ويتم انتقاء أفضل الرجال لتلقي تدريبات متخصصة في موضوعات محددة مثل: عمليات التخريب، حرب الشوارع، تسلق الجبال، الصواريخ، بناء الخلايا وصنع القنابل. وكانت حتى معسكرات النخبة تعاني دائماً من نقص الإمدادات والذخيرة.

ويبدأ اليوم العادي في هذه المعسكرات بصلاة الفجر. يتبعها ساعتان من التمارين الجسمانية - الركض، حمل الأثقال، التدريب على البندقية. يتبع ذلك وجبة الفطور، وأحياناً تكون هناك دروس لمدة ساعة. يليها فترة نوم قصيرة، ثم صلاة الظهر، يليها دروس دينية. ثم أشغال عادية، صلاة العصر، تدريبات جسمانية. صلاة المغرب، ثم وجبة العشاء، وفي العادة يكون النوم في الثامنة والنصف⁽⁶⁾.

كان ابن لادن يقوم بعدة جولات في المعسكرات، يقدم خلالها المحاضرات والتشجيع. وذكر بعض المتدربين أنه اجتمع معه عدة مرات. وفي إحدى تلك الاجتماعات، عرض ابن لادن أمام الطلاب نتائج استطلاع للرأي يوضح أنه أكثر شعبية من الولايات المتحدة، وكان مسروراً جداً بنتائج ذلك الاستطلاع.

تم اصطحاب الشحي ومحمد الأمير وجراح (قبل أن يلحق بهم عمر) إلى بيت الغامدي، وهو منشأة تابعة للقاعدة قرب منزل ابن لادن في قندهار. وبدا

وكانه تم استدعاؤهم رسمياً⁽⁷⁾. وكان ابن لادن نفسه في انتظارهم⁽⁸⁾. وفي تلك اللحظة، أوشكت عملية تحوّل الطلبة من هامبورغ إلى محاربين راغبين على الاكتمال.

شهدت خطة خالد شيخ محمد لمهاجمة الولايات المتحدة عدداً من التعديلات منذ أن قدمت إلى ابن لادن عام 1996. فقد تغيرت من عدة جوانب تماماً كما تغيرت القاعدة نفسها.

كانت أفغانستان، في الأعوام التي أعقبت الانسحاب السوفييتي، تتلاطم في بحر من الفوضى. "وكان كثير من الشبان العرب لا يعرفون ما الذي كانوا يفعلونه. فعندما شاركوا في الحرب الأهلية، كان يقال لهم أحياناً بأنهم ما زالوا يقاتلون الروس". كما يقول برهان الدين رباني الزعيم السياسي الطاجيكي⁽⁹⁾.

وقد وفر أسامة بن لادن والطلاب مخرجاً من هذه الفوضى. وقدم الملا عمر للأفغان رؤية لمجتمع موحد. وسواء كان هذا المجتمع يروق للآخرين أم لا، فقد كان من الواضح ماهية هذا المجتمع. وجلب ابن لادن هذا التركيز ذاته إلى الإسلام السياسي. فقد كان يبدو أن كل دولة مسلمة كانت تضم من وقت لآخر، جماعة إسلامية معارضة على الأقل أو عدة جماعات معارضة تتنافس فيما بينها. ولدى كل واحدة من هذه الجماعات مظالمها من النظام القائم وأساليبها المفضلة في العمل. وهذه الجماعات لم تختف فجأة. ولكن وعلى مدار أكثر من سنتين منذ عودته إلى جلال آباد ربيع 1996 وحتى تفجير السفارتين الأمريكيتين شرق إفريقيا صيف 1998 - أصبح ابن لادن الوجه العام المشهور للقضية. ولم يحدث ذلك بمحض الصدفة. فقد كان يروج لنفسه ولأفكاره. ومنذ البداية، تضمن مجلس شورى القاعدة موظفاً إعلامياً. وكأي عضو آخر في المنظمة، كان على موظف الإعلام أن يتخذ له اسماً مركباً. ولم يكن هناك أنسب من كنية "أبو رويتر" على اسم وكالة الأنباء الدولية رويتر⁽¹⁰⁾.

كان أبو رويتر هذا فعلاً في عمله. فقد قام ابن لادن بإجراء عدة مقابلات ذات صدى واسع مع صحافيين عرب وأوروبيين وأمريكيين، إلى جانب المقابلات التلفازية⁽¹¹⁾. وكان يتحدث بصوت لين، ولكنه كان يعد بإنزال غضب الله على السعوديين والأمريكان واليهود. ولم يكن برنامجه معقداً، إلا أن أهدافه وطموحاته كانت عالية. وبسبب طموحاته هذه، استطاع أن يهيمن على الجماعات الإسلامية المنافسة.

والقاعدة نفسها لم تكن في يوم من الأيام تلك المنظمة العملاقة كما يصورها معارضوها أحياناً. ولا يتعدى جوهرها في أفضل الظروف عن مائتي رجل. إلا أنهم يتوسطون مركز شبكة عنكبوتيه من منظمات ممتدة حول العالم تتشابه في أهدافها وغاياتها مع القاعدة. وكان لها في ذروة نشاطها شُعبٌ عملياتية في ستين دولة،⁽¹²⁾ فهي شبكة لمجموعة شبكات استطاعت أن تستغل العادات الإسلامية التقليدية في الكرم والضيافة للمسلمين. تربعت القاعدة في مركز هذه الشبكة إلا أنها لم تكن تسيطر عليها بأي حال من الأحوال. ويميل المحللون الأمريكيون إلى موازنة القاعدة بصندوق فورد⁽¹³⁾ قائلين بأن المنظمة تجلس وتنتظر من الآخرين تقديم الخطط المقترحة، ومن ثم تقبلها أو ترفضها. وهذا ما كان يحدث بالفعل. وبخاصة في أيامها الأولى عندما تعاونت مع منظمات أخرى بدلاً من أن تقوم هي بتولي تنفيذ العمليات بنفسها. ولكن عندما رجع ابن لادن إلى أفغانستان، قام هو ومساعداه - الرجل الثاني في المنظمة أيمن الظواهري - وقائد العمليات العسكرية محمد عاطف، وهما مصريان - بتحويل القاعدة إلى منظمة عملياتية صغيرة تتعاون مع الجماعات الإرهابية الأخرى، وأحياناً تتنافس معها. وقد فرض صغر حجم المنظمة قيوداً حادة على المهارات والخبرات المتاحة بين صفوف أفرادها مما دفعها إلى اللجوء خارج نطاق أعضائها لتأمين احتياجاتها الخاصة.

ومن الجوانب التي يتم تجاهلها عادة حول عمليات القاعدة هو مدى بدائية وبساطة هذه العمليات. ويميل محللو الاستخبارات عادة إلى الإشارة إلى مدى تعقيد وتقدم تلك الخطط. كما لو كان تفجير البنايات أو القوارب أو الحافلات علماً متقدماً. والحقيقة أن كثيراً من خطط القاعدة تغلب عليها العشوائية في التخطيط والتنفيذ. وعلى مدار السنين، بدت كثير من هذه الخطط هوجاء ومتهورة في أسوأ الأحوال. وغير عملية وسيئة التخطيط في أفضلها. ويجري تنفيذها من غير إعداد، ودون الأدوات اللازمة، وعلى يد رجال غير أكفاء. وكانت بعض هذه العمليات مثيرة للضحك في نهايتها الكارثية: قوارب غرقت، سيارات تدهورت، قتابل انفجرت قبل أوانها، بعض المنفذين سلموا أنفسهم من ناحية فعلية إلى الشرطة. وطمس الغباء المستفحل في التنفيذ في بعض الأحيان جسامة القصد، وأخفى كذلك عزيمة وإصرار المخططين. وبغض النظر عما فعلوه من أشياء أخرى، فإنهم لم يختفوا عن الساحة.

سيطرت القاعدة على عدة معسكرات تدريب أفغانية كانت تديرها فصائل المجاهدين في وقت من الأوقات. وموّلت بعضها الآخر مالياً. وتأرجحت أعداد تلك المعسكرات مع الزمن. وكانت هناك أوقات أدارت فيها المنظمة معسكراً واحداً فقط بسبب الضغوط المالية والأمنية⁽¹⁴⁾. وكانت ثروة ابن لادن محل اهتمام عام طيلة حياته العامة، ولا شك أن ذلك مكنه من القيام بدوره كمولد للإرهاب. إلا أن حجم تلك الثروة كان يضخم في العادة⁽¹⁵⁾. وقدرت الحكومة السعودية أنه كان يتلقى قرابة المليون دولار سنوياً من أسرته بين أعوام 1960 إلى 1994 وهي السنة التي توقفت فيها الدفعات. إلا أن الحقيقة التي لا تقل أهمية عن ثروته هي أن هذه الثروة فتحت أمام ابن لادن مدخلاً إلى الشريحة الأكثر ثراءً في المجتمع السعودي الأمر الذي جعل منه جامعاً ناجحاً للتبرعات.

توسعت القاعدة المالية للقاعدة بما يتجاوز الموارد المالية الشخصية لابن لادن والتي تذبذبت بحسب القيود المالية الدولية التي فرضت على أمواله⁽¹⁶⁾. وحلت الشبكات الخاصة لجمع التبرعات محل الدعم المالي الأمريكي والسعودي الذي مولّ الحرب ضد السوفييت. وكانت بعض هذه المصادر هي جمعيات خيرية مدعومة من الحكومة والتي ما زالت تمارس أعمالها حتى هذه اللحظة⁽¹⁷⁾.

شرق إفريقية

بينما كان ابن لادن ومعه غالبية كبار معاونيه يمضون جل وقتهم في أفغانستان في تجنيد وبناء ورعاية المعسكرات وتعزيز علاقاتهم مع طالبان، كان خالد شيخ محمد يسافر حول العالم بحثاً عن حلفاء ومجندين. وبحسب ما تبين فيما بعد، فإنه كان يقوم بنسج شبكة عالمية تمتد خيوطها إلى كل مكان. "كان ينشئ مشروعات إرهابية" كما يصف نيل هيرمان محلل مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي الذي كان يتولى مهمة تتبع محمد لعدة سنوات⁽¹⁸⁾.

استطاع محمد أن يطور علاقات شخصية مع عدد من الأشخاص الذين أصبحوا فيما بعد قادة إقليميين للقاعدة. وامتدت آثار خطاه عبر العواصم الأوروبية، والإفريقية، والخليج، ووسط وجنوب شرق آسيا، وحتى البرازيل⁽¹⁹⁾. وقام بعدة جولات في جنوب شرق آسيا انطلاقاً من كراتشي التي كان يحتفظ فيها بعدد من المساكن. ومن بين أبرز الدول التي تردد عليها ماليزيا والفلبين. وقيل بأنه اجتمع في روما مع تونسيين، وذهب إلى اليابان لشراء جرافات. وفي إحدى المرات حصلت الاستخبارات الفلبينية، ولأول مرة منذ الكشف عن خطة بوجينكا، على معلومات تفيد أن محمداً قد عاد إلى مانايلا. وكانت المعلومة محددة وتتضمن تفاصيل حول مكان وجوده والشخص الذي سيقابله هناك⁽²⁰⁾. إلا أنه اختفى قبل أن يتمكن أفراد الأمن من القبض عليه. وكان خالد شيخ محمد يسافر في مناسبات أخرى إلى دول أخرى من أجل أن يؤسس هو شخصياً خلايا إرهابية، ويقدم لهم الخطط والمال والدعم والإمدادات. وفي مرات أخرى، قد يعمل على مستويات عليا، فيتولى الإشراف على القادة المحليين الذين يقودون الخلايا الخاصة بهم.

خلال هذه الفترة، لم يكن لدى المحققين الأمريكيين أدنى فكرة عن عمق انخراط خالد شيخ محمد في القاعدة. فهو لم ينضم إلى المنظمة بشكل

رسمي، وعلى مر السنين، قاوم إعطاء البيعة والولاء لابن لادن. إلا أنه مُنح صلاحيات مباشرة للوقوف على أكبر خطط القاعدة طموحاً: مؤامرة الطائرات الأمريكية⁽²¹⁾. واصل الأمريكيان تتبع خالد شيخ محمد بسبب دوره في مؤامرة مانيلا؛ وكان ذلك كافياً لوضع مكافأة على رأسه مقدارها مليوني دولار ووضعه على رأس قائمة أشد المطلوبين لمكتب التحقيقات الفيدرالي، وتوزيع صورته حول العالم. وقد كان من دوافع دهشة المحققين أنه وعلى الرغم من كل هذا التعقب والاهتمام العالمي، إلا أنه بقي ناشطاً.

ويقول أحد كبار المسؤولين في وزارة العدل الأمريكية: "لقد بذلنا كل ما بوسعنا من الاتصال بأصدقائنا لمحاولة الإمساك به.. إلا أنه كان دائماً يختفي عن الشاشة"⁽²²⁾.

إلا أن ابن لادن لم يكن كذلك. فقد كان وبشكل متزايد، محل تركيز واهتمام محلي مكافحة الإرهاب. وفي الوقت الذي غادر فيه السودان عام 1996 واستقراره في أفغانستان، كانت أجهزة الاستخبارات تعمل على وضع حد لتحركاته. وقامت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA بإنشاء "محطة ابن لادن" وهي الدائرة الوحيدة والأولى من نوعها في تاريخ الوكالة بهدف التركيز على فرد بعينه، وكان ذلك اعتراف منها بأنه يشكل هدفاً لم يسبق لها أن رأت وتعاملت مع مثله من قبل.

يقول جورج تينيت، المدير السابق لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية: "لقد راقبنا أماكن وجوده، وضاعفنا معلوماتنا عنه وعن منظمته من خلال المعلومات التي كانت تأتينا من عملائنا ومخبرينا ومصادرنا ومن عدد كبير من أجهزة الاستخبارات الأجنبية. كنا نعمل بجد في برنامج غير مهادن لحجز أمواله وشل قدرته على القيام بعمليات إرهابية. وفي النهاية، تقديمه إلى العدالة"⁽²³⁾.

وإذا كان ابن لادن يعلم بنوايا الأمريكان، فإنه لم تصدر عنه أي إشارة أو دلالة على ذلك العلم. ففي فبراير/ شباط من عام 1998، ومن معسكر في زوار كيللي قرب خوست جنوبي أفغانستان، أصدر ابن لادن بيانه الثاني في إعلان الحرب ضد الولايات المتحدة، وأعلن فيه اندماج القاعدة بمنظمات في باكستان ومصر وإفريقية. وهذه المنظمة الجديدة لا تختلف كثيراً عن المنظمة القديمة، وكانت تتبع إستراتيجية جديدة في العلاقات العامة. وأعلن البيان أن: "قتل الأمريكان وحلفائهم المدنيين والعسكريين هو واجب فردي يقع على كل مسلم قادر في أي بلد يكون فيه ذلكم ممكناً"⁽²⁴⁾.

شكل البيان دعوة لجيل جديد من الجهاديين. وعقد ابن لادن مؤتمراً صحفياً في ذات المعسكر بعد ذلك الإعلان مكرراً الرسالة نفسها حرصاً منه على توصيل الرسالة لمن فاتته سماعها في المرة الأولى. وظهر خلفه في الصورة التي أخذت له في ذلك المؤتمر خارطة للقارة الإفريقية، وكان ذلك من الناحية الفعلية، دعاية لما سيأتي لاحقاً عن قريب.

وفي السابع من أغسطس/ آب من عام 1998، انطلقت شاحنات يقودها عملاء للقاعدة خلال حركة السير ظهيرة ذلك اليوم مقتحمتان الحواجز الأمنية في السفارات الأمريكية في كل من نيروبي في كينيا، ودار السلام في تنزانيا. وانفجرت الشاحنات المحملة بالمتفجرات في مجمع مباني السفارتين مسفرتان عن مقتل 224 شخصاً وجرح آلاف آخرين غالبيتهم من الأفارقة. ولولا المصادفة السعيدة بوجود صهريج مملوء بالماء واقف أمام السفارة في دار السلام لكانت الضحايا أكثر بعدة مئات. فقد امتص صهريج الماء صدمة الانفجار مانعاً حدوث كارثة أكبر. وعلى الرغم من ذلك، كان الهجوم فظيلاً من حيث الأضرار الفعلية وما ينذر به في المستقبل. فقد جرى الإعداد لهذا الهجوم قبل سنوات. وأرسل بعض الذين اشتركوا فيه إلى إفريقية قبل ذلك

التاريخ ببضع سنوات، وطلب منهم الانتظار والصبر لحين وصول الأوامر التي صدرت ذلك الصيف. وضخّم تزامن وقوع الهجمات من تأثيرها، وكشف عن درجة من التعقيد والجرأة لم يسبق لأحد أن وصف بها منظمة القاعدة.

وردّ جورج تينيت مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA بإعلان الحرب على ابن لادن، متجاهلاً أو غافلاً عن حقيقة أن الحرب دائرة رحاها من الطرف الآخر منذ عدة سنوات. كما أنه لم يكن يعلم شيئاً عن طبيعة وشكل المعارك التي ستأتي لاحقاً.

كانت خطة الطائرات قيد العمل لأكثر من سنتين، وخضعت لعدة تعديلات. كانت الخطة الأصلية التي اقترحها خالد شيخ محمد تقضي بأن يقوم خالد شيخ محمد نفسه بقيادة واحدة من الطائرات العشر، وبدلاً من الارتطام بها في بناية، اقترح أن يقوم بقتل كل الرجال على متنها. ثم الاتصال بوسائل الإعلام "وإلقاء خطاب يدين فيه سياسات الولايات المتحدة في الشرق الأوسط قبل أن يقوم بإخلاء سبيل الأطفال والنساء من الركاب". أعجب ابن لادن بهذا العنصر الشهم المهيّب من الخطة ولكنه لم يضع موافقته الرسمية على اتخاذ أي إجراء حتى عام 1999، عندما قلّصت الفكرة من الخطة الأصلية باختطاف عشر طائرات إلى أربع فقط⁽²⁵⁾.

رشح ابن لادن أربعة رجال لقيادة عمليات الاختطاف: سعوديين، ويمنيين. والسعوديان هما خالد المحضار ونواف الحازمي. أما اليمنيان فهما محمد بن عطاش وبراء اليمني. وكانوا جميعاً أشدّاء، ومن قدماء المحاربين في القاعدة، وممن صقلتهم المعارك وشاركوا في القتال في البوسنة والشيشان. وكان عطاش، ويعرف أيضاً باسم خلّاد، من المخضرمين الكبار في القاعدة، واشترك في الجهاد عندما كان في الخامسة عشرة من عمره حيث فقد إحدى ساقه في المعركة. وتولى بعد الحرب مهمة الإشراف على الحراس الشخصيين

لابن لادن. كما لعب دوراً رئيساً في العمليات الهجومية في الثلاث سنوات الأخيرة. لم تضع النماذج الأولية من هذه الخطة في حسابها أن يقوم هؤلاء الرجال بالتدريب على الطيران. وكانت هناك اعتبارات في استخدام وسائل أخرى للسيطرة على الطائرات، كتفجيرها أثناء تحليقها في الجو، كما كان يتصور كل من يوسف ومحمد في البداية. وكانت التدريبات الأولية للخاطفين تركز على مهارات القتال والاشتباك اليدوي⁽²⁶⁾.

تقدم الخاطفون اليمينيون المفترضون بطلبات الحصول على تأشيرات دخول إلى الولايات المتحدة بداية عام 1999، مما يدل على أن الخطة كانت موجهة نحو الألفية. وكان لدى السعوديين تصاريح دخول قبل أن يختارهم ابن لادن للمهمة. فقد كانت لديهم النية على مهاجمة الولايات المتحدة بمبادرة من أنفسهم، إلا أنه لم يكن من الواضح كيف كانوا سيقومون بذلك⁽²⁷⁾. رفضت طلبات اليمينيين في الحصول على تأشيرات الدخول إلى الولايات المتحدة برغم عدم وجود سوابق لعمليات إرهابية يمنية ضد الولايات المتحدة، كما لم يكن هناك سبب للشك فيهم. وفي ضوء هذا الرفض، قدمت نسخة جديدة من الخطة تقترح أن يتم اختطاف طائرتين في الولايات المتحدة يقوم بها السعوديان، واختطاف طائرتين في آسيا بقيادة اليمينيين⁽²⁸⁾. وفي هذه اللحظة طلب خالد شيخ محمد من صديقه القديم حنبلي أن يساعد في عملية الاختطاف في آسيا. إلا أنه تم صرف النظر عن هذه الخطة الأخيرة، وقرر مجلس القيادة العودة إلى العناصر الأساسية في خطة خالد شيخ محمد: اختطاف الطائرات بالقوة ووضع الطيارين من القاعدة لقيادتها - وهذه الخطة بالطبع تتطلب البحث عن طيارين جاهزين أو أشخاص لديهم القدرة والعزم على تعلم الطيران لتنفيذ المهمة.

تجمع رجال هامبورغ في بيت الغامدي في قندهار قبل حلول شهر رمضان عام 1999. وكان ابن لادن يحتفظ بمسكن له قرب معسكر قندهار. وفي

السابق، كان يتخذهُ للمؤتمرات والمقابلات التي كان يعلن فيها جهاده ضد الولايات المتحدة. ويستخدمه الآن لشن معركته القادمة في تلك الحرب.

سأل ابن لادن كل واحد من رجال هامبورغ عما إذا كان مستعداً للانضمام إلى صفوف منظمته، ومبايعته، والأصعب من ذلك - القبول بالقيام بعمليات انتحارية. نيل الشهادة في حرب مقدسة. وهو الشيء الذي كانوا يتحدثون عنه منذ سنين. وبعضهم كان يحلم بتلك الفرصة. وكانوا يتناقشون في أخلاقية الشهادة، وتحدثوا كيف أن الموت في سبيل الإسلام يفرق بين الموت والانتحار الذي جاء التحريم به قاطعاً. وكانوا يعتقدون أن الشهداء يصلون إلى أعلى مراتب الجنة⁽²⁹⁾. ومررت عليهم فترات وهم في هامبورغ كانوا يتحدثون فيها عن هذه القضايا كل يوم ولعدة ساعات. وكانت مسؤوليتهم ليست أمام ابن لادن أو القاعدة، بل أمام الرب؟

وقد سبق لمحمد الأمير أن قال في مناسبة سابقة بأن ابن لادن قد يملك الجواب الصحيح وقد يكون مخطئاً. رقماً يكون سائراً في الاتجاه الصحيح وربما لا يكون. وحدث قبل أشهر أحد الذين يحضرون حلقاته دروسه الدينية أن يبقى قوياً، ويتبع سبيل الهداية، ويتعد عن الجماعات المتطرفة⁽³⁰⁾. وقبل أن يأتي إلى قندهار، طلب من أمه أن يعود إلى القاهرة لكي يبقى إلى جنبها ويوليها الرعاية اللازمة⁽³¹⁾. وظهر وكأنه يطلب من شخص ما أن يحجزه عن فعل شيء يعلم هو في قرارة نفسه أنه لا يقدر شخصياً أن يوقفه.

كان على زياد جراح أن يتخلى عن شيء لم يكن لدى بقية المجموعة أدنى علم به - آيسل وكل ما تمثله. ليس فقط صديقة أو خلية، بل الحقيقة الواقعية بأنها الفتاة التي سيقضي بقية عمره معها، الشخص الذي حول الحياة الفانية إلى شيء يتجاوزها هو شخصياً⁽³²⁾.

وبدا أن عمر ومروان الشحي كان لديهما أقل قدر من الشكوك. فقد كان لدى عمر قبولاً حاملاً لكلام الله، ذلك الاعتقاد الروحاني اليمني بروعة

الإسلام. أما الشحي فكان متحفزاً منذ اللحظة التي وصل فيها إلى هامبورغ. ولم يكن ينظر إلى الشهادة على أنها نهاية حتف المرء. بل أمراً يقبل عليه المؤمن بسعادة وسرور. كان يستشرف احتمالات الشهادة ويرقص ويغني حولها. ولعل تلك المظاهر السعيدة كانت تخفي وراءها عزيمة حديدية. وربما كانت معانقة للتوقعات التي كان يفتقدها، الشيء الذي دفع المجموعة لإعطاء الجواب الذي صدر عنهم في قندهار، وهو الجواب الذي كان، طبعاً، نعم. فقد قبلوا بالمهمة التي وكلهم ابن لادن بها⁽³³⁾.

لم يمكث الشحي، الذي كان يعاني من مرض ألمّ به، طويلاً. فقد سافر إلى الإمارات. وتقدم مباشرة بطلب لاستصدار جواز سفر جديد وتأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة. وفي الثالث من يناير/ كانون ثاني، قام بشراء شريط فيديو للتدريب على الطيران من موقع على الإنترنت، في أول خطوة ثابتة للتدريب على الطيران في الخطة كلها.

وفي الوقت ذاته، أرسل ابن لادن محمداً الأمير وعمر وجراح إلى قائده العسكري، محمد عاطف، الذي قدّم لهم الخطوط العريضة لعملية الطائرات. واجتمع محمد الأمير عدة مرات بأسامة بن لادن، وتم اختياره لقيادة المجموعة. وغادر الثلاثة بعد ذلك إلى كراتشي. حيث كان خالد شيخ محمد في انتظارهم لإعطائهم مهمات أكثر تفصيلاً. وقال لهم خالد شيخ بأن عليهم العودة إلى ألمانيا والبحث هناك عن تدريبات تؤهلهم قيادة الطائرات التجارية.

أبدى الثلاثة موافقتهم، وغادروا بالطريقة نفسها التي جاؤوا بها، فرادى. قفل الأمير وجراح عائدين إلى ألمانيا، وأمضى عمر مزيداً من الوقت؛ فعاد إلى أفغانستان ولم يظهر ثانية في أوروبا إلا في مارس/ آذار في هولندا بعد أيام فقط من تسجيله شريطاً للفيديو حول الشهادة في قندهار⁽³⁴⁾.

كوالالامبور

من المؤكد أن شعوراً بالإحباط كان منتشرًا داخل القاعدة في ذلك الوقت. فقبل أسابيع، أحبطت خطة لتفجير عدة أهداف داخل الولايات المتحدة وغيرها قبل بزوغ فجر الألفية. كما ألقى القبض على شخص وهو يحاول العبور إلى الولايات المتحدة من كندا. كما أحبطت أجزاء أخرى من العمليات في الأردن، ولم تفلح محاولة لنسف سفينة حربية في اليمن. وكانت سفينة سوليفانز التابعة لسلاح البحرية الأمريكي قد رست لتوها في ميناء عدن على الساحل الجنوبي الغربي، وقام المنفذون بتحميل قارب بكمية من المتفجرات نقلت عبر الجبال الصخرية القريبة من الشاطئ. وكانوا يعتزمون صدم ذلك القارب بجانب السفينة سوليفانز وتفجير المتفجرات أملاً في إغراق السفينة. وبدلاً من ذلك، وما إن وضع القارب في الماء حتى أوشك على الغرق بفعل الحمولة الزائدة. واستطاعوا إنقاذ المتفجرات. إلا أن المهمة أحبطت.

بعد هذه الإخفاقات، كان ابن لادن متردداً في إلغاء قسم في القيادة يسمى "خطط العمليات". وفي تلك الأثناء، استمر العمل في خطة مرشحي الطيران في ألمانيا والخطة الأصلية باستخدام الجهاديين الأربعة الذين اختارهم ابن لادن لقيادة الهجمات. السعوديين: المحضار والحازمي، واليمنيين: عطاش وبراء. وعقد الأربعة اجتماعاً في ماليزيا باستضافة حنبلي الصديق القديم لخالد شيخ محمد منذ أيام الحرب الأفغانية.

استطاع حنبلي الإفلات من أعين السلطات عندما تم الكشف عن خطة خالد شيخ. ولم يعرف أحد أنه اشترك فيها. واكتشف المحققون الفلبينيون صلة تلك الخطة بالشركة الواجهة التي أسسها في كوالالامبور. إلا أن أحداً لم يربطها بحنبلي. وبقي في كوخه الصغير على جانب طريق نهر مانغيس، حيث كان يعمل على بناء شبكة إرهابية محلية وأخرى إقليمية. وهو مكان غير متوقع

لإدارة وتسيير أي شيء. فقد كان أبعد ما يكون عما يجري في العالم الخارجي. ومع ذلك، كان وبالاشتراك مع اثنين من رفاقه المنفيين من إندونيسيا يخططون بدقة في تلك القرية الماليزية الصغيرة، وينسجون بصبر وتؤدة شبكة منضبطة على نحو غير عادي، يطلق عليها الجماعة الإسلامية، التي تصلح لأن تكون نموذجاً لأي شخص يرغب في ممارسة نشاط مشابه لنشاطها في أي مكان في العالم. ولهذه الجماعة هيكل أكبر بكثير مما يمكن لابن لادن أن يحلم به، حيث تخضع لتقسيم جغرافي منضبط يغطي منطقة جنوب شرق آسيا برمتها. ولكل وحدة أو قسم جدول تنظيمي يسمى "مانيفس" يوضح التسلسل الهرمي للسلطة والمسؤوليات من الأعلى إلى الأدنى⁽³⁵⁾. وعلى العكس من المنظمات الإرهابية العربية التي يغلب عليها طابع العشوائية في أحسن الظروف، وفي أغلب الأحوال تكون ارتجالية وذات نشاط واحد، كانت الجماعة الإسلامية منظمة تنظيمياً دقيقاً ومنضبطاً. فقد كانت القيادة الإقليمية تعقد اجتماعات منتظمة وتفرض الضرائب على الأعضاء. وصحيح أن حنبلي وشريكه كانوا يقبعون في بيوت صغيرة مصنوعة من الطين الأحمر وسط الغابات الاستوائية المتوارية، إلا أن حنبلي ورفاقه كانوا أبعد ما يكون عن قلة التعقيد. عمل الثلاثة بجد وعزيمة وتأن لوقت طويل من أجل تجنيد المتطوعين. وكان الرجلان الأكبر سناً يلقيان الدروس والخطب في المساجد المحلية، بينما يجلس حنبلي بهدوء في الخلف. وكان شديد الحذر. ولا يتحدث إلا لمجموعات صغيرة سراً. ويقول أحد الأشخاص بأن أكثر ما يثير الإعجاب والدهشة ليس فقط فطنة حنبلي التي كانت ظاهرة، ولكن سلوكه الهادئ والمتواضع⁽³⁶⁾. وهي ليست من الصفات التي تتميز بها العقول المدبرة للإرهاب. ولهذا السبب كان حنبلي الأكثر خطورة.

نجح حنبلي في جمع الأموال والرجال. وجدّ بنجاح ملفت للانتباه مجموعة متنوعة العناصر من شرائح المجتمع تتكون من: تجار، وحرفيين،

وعمال مصانع، ومهندسين، ورجال أعمال، ومدراء، وأساتذة جامعات. ورأى هؤلاء الأتباع في حنبلي شخصية ذات جاذبية قيادية قوية برغم الهدوء الذي يتسم به. "لقد كان شخصاً متواضعاً جداً" كما يقول محمد سويري، وهو جندي متقاعد في الجيش الماليزي وأحد أتباع حنبلي. وسمح سويري باستخدام منزله لعقد الاجتماعات. حيث كان يجتمع فيه قرابة ثلاثين شخصاً لمناقشة الإسلام وموقعه في العالم. وباستثناء اختلاف الموقع الجغرافي، كان الحديث يشابه بشكل ملفت للنظر الحديث الذي كان يدور في هامبورغ.

"دار الحديث حول الشيشان، وأفغانستان، والبوسنة، وفلسطين ومعاناة المسلمين في الجزر الإندونيسية أمبون ومالوكو" كما يذكر سويري⁽³⁷⁾.

قام حنبلي بجولات منتظمة بين هذه المجموعات الصغيرة مروجاً لهدف واحد هو توحيد مسلمي جنوب شرق آسيا تحت لواء دولة إسلامية قوية ومؤثرة وبتعداد سكاني يصل إلى ثلاثمائة مليون مسلم في المنطقة. وهذه الدولة سوف تكون، بلا شك، أكبر دولة إسلامية في العالم. وقد قام حنبلي بالدعوة إلى تحقيق هذا الهدف مبيناً الوسيلة التي توصل إليه وهي الجهاد. وفي نهاية كل اجتماع، يدير الحضور قبعة بينهم لجمع التبرعات بمبادرة منهم وليس من حنبلي. ويقدموا له ما تم جمعه في تلك الجلسة. كما جند حنبلي أشخاصاً كان يرسلهم إلى معسكرات التدريب في أفغانستان، كما فعل هو عندما كان في شبابه⁽³⁸⁾. وكلف آخرين بمهام تنظيمية صغيرة. وتعرف حنبلي على خالد شيخ محمد في إحدى معسكرات أفغانستان، وتدريب كلاهما مع عبد[رب] الرسول سياف. ولم ينس كل منهما الآخر. فقد أشرك خالد شيخ محمد صديقه حنبلي في العملية التي استهدفت الطيران في مانिला عن طريق تمرير الأموال وتقديم المساندة والإمدادات. وقدمت شبكة حنبلي المساعدة لرمزي يوسف "الذي كان في ذلك الوقت من بين أكثر الأشخاص

المطلوبين للعدالة حول العالم. والذي دخل الفلبين سراً عن طريق الجزر الجنوبية التي تسمى الباب الخلفي.

لم تول أجهزة الاستخبارات أي اهتمام للجماعة الإسلامية باستثناء عدد قليل من أفرادها. إلا أن خالد شيخ محمد كان يراقب الأشياء عن قرب، وطلب من حنبلي أن يضم جماعته حديثة العهد إلى القاعدة. وانبهر خالد شيخ الذي تعود على بذخ شيوخ نفط الخليج، بحجم الإنجازات التي حققها حنبلي بموارده المالية الشحيحة⁽³⁹⁾. وأحضره إلى أفغانستان لكي يتعرف على ابن لادن الذي كان هو الآخر منبهرًا بحنبلي. واتفق الاثنان على توحيد جهودهما ومواردهما من أجل تحقيق الأهداف والمصالح المشتركة. وبدأ ابن لادن بتقديم الدعم المالي لمجموعة حنبلي⁽⁴⁰⁾. ولما رفضت الولايات المتحدة منح تصاريح دخول للخاطفين اليمينيين المفترضين في خطة ابن لادن، وما تم على إثر ذلك من تعديل للخطة لتشمل آسيا، لجأ خالد شيخ محمد إلى حنبلي لتقديم المساعدة مرة أخرى. ووافق هذا الأخير على تقديم المساعدة المطلوبة بكل إمكاناته.

اختيرت كولا لامبور مكاناً لعقد الاجتماعات نظراً لاعتبارات السهولة التي توفرها: فقد اعتزم اليمينيون دراسة ومعاينة إجراءات أمن وحماية المطارات المتبعة في جنوب شرق آسيا فيما يخص المهمة التي كلفوا بها بحسب الخطة. وكان عطاش الذي فقد ساقه أثناء الحرب في أفغانستان يرغب بزيارة أحد المراكز الطبية الذي زود في السابق أعداداً كبيرة من المجاهدين بأعضاء اصطناعية. كما كان السعوديان في طريقهما إلى الولايات المتحدة بهدف التدريب على الطيران، ومن هذا المنظور، تشكل ماليزيا نقطة وصل ومحطة التقاء. وأخيراً يمكن للمسلمين دخول البلاد بدون تصاريح زيارة. ولأن المحضار فاتته تدريبات أفغانستان، فإن وجودهم في ماليزيا يعتبر الوسيلة الوحيدة لاجتماع القادة الميدانيين الأربعة معاً⁽⁴¹⁾.

ودون علم القاعدة، كان كل من المحضار ونواف الحازمي تحت المراقبة من قبل أجهزة الاستخبارات الغربية التي كانت ترصد اجتماعاتهما وأسفارهما. وفي الشهر السابق، زار المحضار صنعاء العاصمة اليمنية. ويرتبط المحضار الذي يحمل الجنسية السعودية بروابط دم ومصاهرة بقبيلتين يمينيتين معروفتين بنزعتهم القتالية المشاكسة. وتشتهر إحدى هذه القبائل، وهي قبيلة الحدا التي تنتمي إليها زوجته، بكونها جماعة شرسة، وبارتباطها بأتباع ابن لادن، بالإضافة إلى نشاطاتها المحلية. وعلى مدى عدة سنوات كان ابن لادن يستخدم هاتفاً من منزل يعود لأحد أبناء تلك العشيرة كمقسم بريد لإرسال واستقبال الرسائل والمكالمات الهاتفية إلى أفغانستان. وتم الكشف عن رقم هذا الهاتف عن طريق تحقيقات سابقة. كما تم رصد وتحديد كافة المكالمات الصادرة والواردة منه وإليه. وفي خريف ذلك العام، كشفت المكالمات الواردة إلى ذلك الرقم أن كلاً من خالد ونواف وسالم يعتزمون الاجتماع بقيادة آخرين للقاعدة في كوالالمبور.

استطاع عملاء الاستخبارات تحديد هويات الأشخاص الذين وردت أسماءهم في تلك المكالمات على نحو غير متيقن. إلا أن المحضار خضع للمراقبة في أثناء سفره إلى ماليزيا وتم الحصول على نسخة مصورة من جواز سفره عندما سافر عبر دبي في الإمارات العربية المتحدة؛ وتم تقديم تلك الصورة إلى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA قبل أن يصل إلى مطار كوالالمبور الدولي. كما استطاع الأمريكيان تحديد هوية نواف الحازمي على نحو قاطع قبل وصوله. وبناءً على طلب من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA، قامت السلطات الأمنية الماليزية بتعقب الرجلين ومراقبتهما من لحظة وصولهما إلى الفندق المحلي، ومنه إلى مجمع بندر سوفي للشقق السكنية خارج المدينة⁽⁴²⁾.

وتعود ملكية إحدى هذه الشقق إلى يزيد سوفات، نائب حنبلي، وهو نقيب متقاعد في الجيش الماليزي، درس الكيمياء الحيوية في جامعة كاليفورنيا ساكرمنتو ستيت، عن طريق بعثة على حساب الحكومة الماليزية إلى الولايات المتحدة كبقية الطلبة المتفوقين في جنوب شرق آسيا كاستثمار في مستقبل ماليزيا، وحقق يزيد وزوجه التي درست هي الأخرى في الجامعة نفسها، نجاحاً كبيراً لدى عودتهما إلى كوالالامبور. حيث كانت زوجته تمتلك شركة لخدمات الحاسوب تتخصص بأعمال المساندة للمكاتب، بينما كان زوجها يمتلك شركة لإجراء الفحوصات المخبرية للكشف عن وجود متعاطي المخدرات بين موظفي الحكومة. وهو عمل مجز في مجتمع شمولي متشدد مصمم على عدم فسخ أي مجال أمام الرذائل الغربية لكسب موضع قدم لها فيه. سكن الزوجان مع أولادهما في منزل متواضع ذي طابقين، وكانت لديهما سيارة مرسيدس قديمة وسيارة بروتو تصطفان في مدخل المنزل. لم تكن حياتهما باذخة؛ ويبدو على المنزل كثير من سمات المناطق الاستوائية، حيث يطفئ الوقت والحرارة والرطوبة فيها على كل شيء؛ ويغطي الصداً الأجزاء المكشوفة من حديد السيارة، إلا أن الزوجين استطاعا شراء شقة في الطابق الأرضي كمنزل لقضاء إجازة نهاية الأسبوع في مشروع مجمع باندار سونغاي لونغ الواقع في التلال خارج المدينة. واستخدم المجمع شعار "حياة المدينة على الطريقة الريفية"، ويمكنك شراء وحدة سكنية بالتقسيط المريح. والشقق مفروشة بالكامل بأثاث مصنوع من خشب السنديان الروسي من إنتاج شركة آيكيا السويدية. ويمكن لهذا المجمع بما يحويه من ملاعب غولف ونواد رياضية وممرات المشي، ودروس تخفيض الوزن، أن يوجد في أي ضاحية من ضواحي كاليفورنيا. إلا أن الفارق هو أن سوفات كان يقرض شقته لقدماء المحاربين في أفغانستان الذين كانوا يأتون إلى المدينة لمعالجة أعضائهم المبتورة؛ ولهذا فإنه لم يكن مستغرباً مجيء مجموعة من العرب بعد احتفالات رأس السنة الميلادية

عام 2000 ومن بينهم شخص بساق واحدة⁽⁴³⁾. واستخدمت المجموعة تلك الشقة لمدة ثلاثة أيام. ثم ذهبوا في رحلة تسوق في كوالالمبور. وتم تصوير عدد منهم وهم يجرون مكالمات هاتفية بجانب بركة السباحة التابعة للمشروع السكني. ولم يستطع محللو وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية التعرف على هوية الأشخاص الذين ظهروا في تلك الصورة إلا بعد عشرة أشهر عندما تم تحديد هوية عطاش كأحد القادة الميدانيين في الهجوم على السفينة الحربية الأمريكية كول في ميناء عدن بعد وقوع ذلك الحادث.

وفي الثامن من يناير/ كانون ثاني، غادر الرجال كوالالمبور. وغادر عطاش والمحضار والحازمي ماليزيا عبر بانكوك على الرغم من أن السلطات الأمنية فقدت آثارهم ولم تتمكن من معرفة مغادرتهم إلى تايلاند إلا بعد ذلك بحين. وتوجه عطاش إلى بانكوك لكي يلتقي اثنين من عملاء القاعدة. أما المحضار والحازمي فتوجها إلى بانكوك لاعتقادهما أنها نقطة أقل إثارة للشك للتوجه إلى الولايات المتحدة⁽⁴⁴⁾. وفي الخامس عشر من يناير/ كانون ثاني، سافر السعوديان مستخدمين اسميهما الحقيقيين، من بانكوك إلى لوس أنجيلوس دون أن يشعر بهما أحد⁽⁴⁵⁾.



■ الفصل الثاني ■

التحضيرات

بوتشوم، ألمانيا

بعد أن غادر زياد جراح هامبورغ في نوفمبر/ تشرين ثاني من عام 1999، اتصل أحد الأصدقاء بآيسل سينغين في شقتها حيث كانت تتابع دراستها في طب الأسنان. وحدّر الصديق من أنه سمع إشاعات حول جراح تقول بأنه كان يعتزم فعل شيء ما، وأنه ربما ذهب إلى أفغانستان. وقال الصديق: إن أهل جراح اتصلوا من بيروت للاستفسار عن الأمر وأن أسرته قلقة وخائفة، وأنهم يرغبون في معرفة مكانه. وطبعاً لم تكن آيسل تعرف مكانه أيضاً⁽¹⁾. وكان جراح أخبرها بأنه ذاهب إلى بيروت، وهو ما لم تصدقه في حينه، إلا أن تأكيد الكذبة بتلك الصورة أثار حفيظتها أكثر من أي شيء آخر. وتساءلت في نفسها ترى ماذا عساه قال لأهله؟ لا شيء، كما تبين لها الآن. لم يتحدث بكلمة واحدة. وبدأت على الفور بالاتصال بكل من يمكن أن يعرف عنه شيئاً في هامبورغ لعلها تجد شخصاً ما يعرف شيئاً عن مكان وجود زياد. وكما كانت تفعل من قبل، عندما كان زياد يختفي عنها، اتصلت آيسل بكل الأرقام التي تعرفها وزيادة. ويبدو أن أحد الأرقام التي اتصلت بها لامس نقطة في شبكة هامبورغ، فآثار ذلك قلق أحد الأعضاء فقام بدوره بإبلاغ الجهات العليا في الشبكة. وبعد عدة أيام، انتهت إلى مسامع عمر، الذي غادر هامبورغ إلى أفغانستان وكان يتنقل بين هولندا واليمن، تساؤلات آيسل. وحدث أن أقرب أصدقاء جراح في هامبورغ كان من بين المغاربة. فاتصل عمر بمنير المتصدق

وطلب منه الاتصال بآيسل وتهدئة روعها⁽²⁾. فعل المتصدق ما طلب منه. فاتصل بآيسل وحاول أن يطمئنها. جراح بخير، قال لها، لا، لم يكن يعلم عن مكان وجوده، إلا أنه كان متأكداً أنه سيعود إلى بيته قريباً. فلا تقلقي.

لم تفلح المكالمة في طمأنة آيسل إلا قليلاً. فلم تأت هذه المكالمة بجديد، ولم تعلم شيئاً أكثر مما كانت تعرفه من قبل باستثناء أن أشخاصاً غرباء لا تعرفهم يتصلون بها لإخبارها أن لا تقلق، وهو بحد ذاته مثير للقلق. والأهم من ذلك، أنها ما زالت لا تعرف أين زياد، ومع من هو، وماذا كان يفعل. وبعد أسبوعين، وصلت رسالة إلى صندوق بريد آيسل، وكانت تحمل طابع بريد يماني، وعلى الظرف كتابة بخط اليد غير معروفة لها. وبداخلها رسالة من زياد مكتوبة بخط يده. كان بخير، بحسب ما كتبه، أرجوك لا تقلقي، سأعود قريباً. وكتب لها زياد بأنه يرغب لدى عودته بإنجاب طفل. وتقول آيسل بأن الشيء الخاص حول كلمة "طفل" أنه كتبها بعدة لغات مختلفة، وكتب لها أيضاً بأنه افتقدها كثيراً وأنه مشتاق إليها.

وبالطبع كانت آيسل مغمورة بنشوة الفرحة بتلك الرسالة.

تقول آيسل: "لقد كنت سعيدة جداً بتلك الرسالة لأنني تأكد من خلالها أنه على قيد الحياة،... وقمت بإخبار والديه فوراً بأنه وصلتني إشارة على أن زياد حي يرزق".

وبعد أسبوع، اتصل زياد. وتقول آيسل: "قال لي بأنه سيعود قريباً. إلا أنني لا أتذكر محتوى ما دار بيني وبينه بالضبط لأنني كنت منفعلة كثيراً خلال المكالمة".

لم تكن رحلة زياد في العودة إلى بيتشوم خالية من الأحداث. فبعد أن طُلب منه السفر إلى الولايات المتحدة لتلقي التدريب على الطيران، ترك وراءه خالد شيخ محمد في كراتشي، وتوجه إلى ألمانيا بعد توقف قصير في دبي

لتغيير الطائرة ومتابعة الرحلة. لاحظ موظفو الهجرة في دبي أنه ألصق بجواز سفره صورة عن صفحة من القرآن، فأوقفوه للمساءلة. ووجدوا أن أمتعته مليئة بالمواد الدينية - أشرطة ومنشورات. كما أثار مسار رحلته بعض الشكوك. فقد كان كل شاب مسلم أمضى وقتاً في باكستان بهدف الدراسة أو السياحة، وهو الادعاء المعهود الذي يلجأ إليه الجهاديون، محلاً للشك. وبخاصة إذا مكث في باكستان مدة طويلة، بحسب ما يظهر من تأشيرات الدخول والخروج على جواز سفره، كما كان شأن جراح، لذلك أخذ جانباً للتحقيق⁽³⁾.

لم يكن قد مضى سوى ساعات منذ أن افترق زياد عن خالد شيخ محمد. ويبدو أنه كان ما يزال في حالة من الذهول والاختلاط من ترسخ تأثيرات نتائج ما وافق على فعله. فتحدث إلى ضباط الأمن الإماراتيين بمنتهى الحرية والأريحية. وأخبرهم أنه كان في أفغانستان، وأنه يعتزم التوجه إلى الولايات المتحدة من أجل الدعوة إلى الإسلام ولتعلم الطيران. واستجوب الضباط زياد لعدة ساعات وخلال الاستجواب قاموا بالاتصال بالمسؤولين الأمريكيين للاستعلام منهم عما ينبغي فعله بهذه الشخصية المشبوهة.

ويقول ضابط إماراتي: "ما حدث هو أننا اتصلنا بالأمريكان ... قلنا لهم: لدينا هذا الشخص، ماذا نفعل به؟.. إنه هنا، اتصلنا بالأمريكان. وكان جوابهم لنا خلوا سبيله، وسوف نراقبه، كنا ننوي حجزه ولكنهم قالوا لنا أخلوا سبيله. لم نكن سعداء بإطلاق سراحه".

أُخلي سبيل جراح. وذهب للتسوق في سوق مطار دبي، فاشترى هدايا لآيسل، ثم استقل الطائرة المتوجهة إلى ألمانيا. وهناك، أمضى بضعة أيام في هامبورغ، وبينما هو هناك أعلن للسلطات الألمانية عن فقدان جواز سفره. وقد كان ذلك من الممارسات الاعتيادية لدى الجهاديين الراغبين في السفر إلى

الولايات المتحدة، كوسيلة لطمس آثار أسفارهم السابقة. ثم فجأة، ودون أي سابق إنذار، وفي أول أيام فبراير/ شباط، ها هو زياد يقف أمام باب شقة آيسل حالقاً ذقنه، بملابسه الأنيقة - زياد الذي عرفته في الأسابيع الأولى في غريفسوايلد، زياد الذي وقعت في حبه. قدم لها الهدايا التي أحضرها لها - مجوهرات، عسل، أحذية، وتتورة.

"بالطبع، وجهت إليه السؤال التالي: - أين كنت طوال هذه المدة؟ - ولم أسأله مرة واحدة، بل مرات، وكان الجواب الوحيد الذي تلقيته منه - لا تسأليني -، وفيما بعد أصبح جوابه - لا تسأليني، من الأفضل لك ألا تعرفي - وقد ضايقتني ذلك، فسألته - كيف يكون من الأفضل لي ألا أعرف؟ - ولم أحصل على أي جواب.

"وفي لحظة ما، قلت لنفسي، - لا بأس في ذلك -، وكنت قانعة بتلك الحال. فقد كنت سعيدة أنه موجود معي، وأن حالة الهيجان والتوتر - كما فسرتها في ذلك الوقت - قد انتهت... لقد عاد دون لحية، وكنت آمل أنه قرر ذلك من أجلي".

وفي تلك الليلة، وبينما كان زياد نائماً في سريرها، رفعت آيسل اللحاف وعايّنت بعناية جسم زياد من رأسه إلى أخمص قدميه، كل بوصة منه، باحثة عن آثار لكدمات أو إصابات أو أي شيء يمكن أن تستخلص منه أين كان أو ماذا كان يفعل. لم يكن هناك أي شيء. كان يبدو بصحة جيدة ولياقة بدنية عالية. وقالت في نفسها إنه على ما يرام. وذكرت فيما بعد بأنها أقنعت نفسها بقبول عدم تقديمه تفسيراً حول غيابه. فقد عاد إليها، وهذا هو المهم بالنسبة لها. وما حدث أصبح من الماضي. وسيكون كل شيء كما كان في البداية. فقد ظهر زياد أكثر تساهلاً في دينه، أكثر اعتدالاً. تحدث إليها قليلاً عن باكستان، ولكن كان كل حديثه منصباً على المناظر الطبيعية، وكيف أن الناس هناك يعيشون حياة بسيطة مختلفة. ولم يتحدث بكلمة واحدة عن أفغانستان، أو عن سبب

ذهابه إلى هناك. وذكر لآيسل بأنه توصل إلى قرار مهم أثناء سفره في الخارج. لقد بات يعرف الآن ماذا سيفعل في حياته: يريد أن يصبح طياراً. وقد بدا ذلك قراراً منطقياً لآيسل. فقد كان أخبرها قبل عدة سنوات كم كان يعشق الطيران في صغره ؛ وكان دائماً يرسم لوحات للطائرات.

بدأت آيسل حينها بوضع خططها على الفور. فتخيلت حياتهما معاً في التفاصيل الحاملة التي دفعتها إلى التحمس لها: سنة أخرى لاستكمال تدريبات زياد، ثم إنجاب الأولاد، وربما سنة أو اثنتين في تركيا مع أسرتهما، وإذا رغب زياد بمغادرة ألمانيا، فإن بإمكانه العمل مع الخطوط التركية ويمكنها هي أن تعمل طبيبة أسنان هناك. ثم بإمكانهما الانتقال إلى بيروت إذا رغباً في ذلك. كل شيء بدا ممكناً. خططا معاً وتحديثاً، وحلماً، كما كانا يفعلان في غريفسوويلد. والفرق هو أنهما الآن، وبدلاً من البحث عن مخرج من شرق ألمانيا الكئيب، وبدلاً من البحث عن جامعات جديدة، أخذاً ببحثان عن معاهد الطيران. اتصلا بمعاهد تدريب الطيران المحلية. إلا أنه لم يكن هناك الكثير منها قرب بوتشوم. وأخذ زياد إجازة لعدة أيام. وقام بزيارة قريب له لم يره منذ عدة سنوات، يعمل مهندساً في إحدى المفاعلات النووية. كما ذهب لزيارة أصدقائه في هامبورغ و برلين.

وفي أحد الأيام، وعندما كان زياد خارج المنزل، عادت آيسل إلى البيت من الجامعة لتجد رسالة صوتية لزياد تركت على آلة تسجيل الرد الآلي في الهاتف. وكانت الرسالة من ميونيخ، من الممثل الألماني لمعهد طيران في فلوريدا في الولايات المتحدة. وأظهرت الرسالة أنها جاءت رداً على استعلام قام به زياد. استشاطت آيسل غضباً من تلك الرسالة. فقد عاد زياد إلى عاداته القديمة: الكذب والمراوغة وإخفاء المعلومات. فواجهته عندما عاد إلى البيت. وكالعادة، كان لدى زياد تفسير جاهز: إنها أفضل تدريب موجود. والأسرع في

تحقيق الهدف. يمكنه أن يحصل على شهادة الطيران في الولايات المتحدة أسرع من أي مكان آخر، وهي أفضل شهادة يمكن الحصول عليها، وبإمكانه معادلتها في أي مكان في العالم. وإلى جانب ذلك، بحسب ما قاله لها، أراد أن يبتعد عن أصدقائه القدامى. وهذا هو السبيل الوحيد لتحقيق ذلك. اطمأنت آيسل لهذا التفسير. وهدأت أكثر من أي وقت مضى.

"قبل مغادرته إلى باكستان، أوضح زياد بما لا يدع مجالاً للشك أنه لا يرغب في العيش في ألمانيا، ولكن وبعد أن رجع وامتنع عن الحديث عن الفترة التي غابها. ظننت أنه ارتكب فعلة ما مخالفة للقانون على الأرجح؛ لأن الحرب في الشيشان كانت ما تزال مشتعلة في ذلك الوقت. وكنت أظن أنه وبسبب معتقداته الدينية قد أدى نصيبه في ذلك الشيء. وهذا ما قصده بحالة الهيجان والتوتر. وعندما عاد إلى ألمانيا دون لحيته، ظننت أن تشدده الديني قد خف، وأنه أصبح أكثر توافقاً مع طريقتي الغربية في الحياة"⁽⁴⁾.

وضعت آيسل شكوكها جانباً وقبلت بالأمر الواقع دون مناقشة. وبعد ذلك بوقت قصير، أرسلت إلى إحدى صديقاتها رسالة إلكترونية قالت فيها: "إنني أعلم أنه كذب علي... ولا أكاد أصدق شيئاً يقوله. إلا أنه من الآن فصاعداً لا يملك أن يقول شيئاً حول ما أفعل، أو كيف أتصرف. إنني أعرف أكثر مما يظن أنني أعرف"⁽⁵⁾.

وفي مارس/ آذار، ذهب زياد إلى ميونخ. ووقع عقداً ودفع دفعة أولى للتدريب على الطيران التجاري لدى فلوريدا فلايت ترينينغ سنتر (مركز فلوريدا لتدريب الطيران) الذي يقع في مدينة فينيس بولاية فلوريدا الأمريكية. على أن يبدأ التدريب في الصيف. وما لم تعلمه آيسل هو أن بعض أصدقاء زياد الملمغزين - الرجال الذين لم تتمكن من مقابلتهم - لأن النساء لا يمكنهن الذهاب إلى الأماكن التي يوجدون فيها - بحسب ما قاله لها، سيكونون في

الولايات المتحدة معه. كما أن آيسل لم تكن تعلم كذلك أن زياداً قد أخبر أحد أقربائه قبل ذلك بأنه لشرف عظيم أن يكون مسلماً شهيداً وأن الخطة لتحقيق ذلك قد بدأت بالفعل.

ساندياغو

في الوقت الذي تأكد فيه لعملاء أجهزة الاستخبارات الغربية وجودهم في بانكوك، كان خالد المحضار ونواف الحازمي ذاهبين في طريقهما إلى لوس أنجلوس على متن رحلة لشركة يونايتد إيرلاينز. ووصل الاثنان في الخامس عشر من يناير/ كانون ثاني من عام 2000. ومكثا في المدينة أسبوعين⁽⁶⁾.

وفي بداية فبراير/ شباط، وبينما كانا يتناولان طعام الغداء في أحد مطاعم كلفر سيتي، خارج حدود لوس أنجلوس، مرّ من جانبهما رجل يدعى عمر البيومي، فسقطت منه صحيفة كان يحملها، وبعد أن انحنى ليتناولها، نظر إلى الرجلين وقال لهما بأنه سمعهما يتحدثان باللغة العربية وأن الفضول دفعه إلى التعرف عليهما لأنهما من بني جلدته⁽⁷⁾. وبدأ بالتحدث إليهما. وفي الحال، قام بدعوتهما إلى ساندياغو، حيث أخبرهما أنه سيساعدهما في الاستقرار. وكان ذلك مما اعتاد البيومي فعله. فقد كان يتصرف وكأنه وكيل استقبال العرب في منطقة ساندياغو. وكان يبدو وكأنه يعرف كل مسلم جديد قادم إلى المدينة. أو كما في شأن المحضار والحازمي، قبل أن يقدموا إليها.

لم يكن من الواضح أبداً للأشخاص الذين التقوا عمر البيومي في ساندياغو من هو بالضبط عمر البيومي. ولا لمصلحة من كان يعمل، ولا لماذا قدم إلى كاليفورنيا، أو لماذا غادرها. وصل بيومي إلى ساندياغو عام 1995. وسكن هو وزوجه وأربعة من أولاده في مبنى سكني في ضواحي المدينة. وكان يقول للناس بأنه يدرس التجارة الدولية. إلا أن ذلك كان مستبعداً لأنه كان في الأربعين من عمره، والأكثر من ذلك أنه لم يسبق له أن التحق بأي معهد أو

جامعة. كما أنه لا يعمل. على الأقل ليس في وظيفة معروفة. وكان تفسيره للأشخاص الذين يسألونه عن عمله بقوله بأنه يحصل على مرتب شهري من الشركة التي عمل فيها في السابق دلة أفكو. وهي شركة ملاحه جوية في موطنه الأصلي المملكة العربية السعودية. وأخبر آخرين بأنه موجود في كاليفورنيا على حساب بعثة من الحكومة السعودية⁽⁸⁾. وكان بيومي يحمل معه دائماً كاميرا فيديو أينما يذهب؛ وكان يصور كل شيء من مباريات كرة القدم المحلية إلى تجمعات العشاء وحتى الخطب والدروس التي تلقى في مركز ساندياغو الإسلامي الذي يعتبر مركز تجمع الجالية الإسلامية البالغ تعدادها مئة ألف نسمة، والمؤلفة من مختلف الأعراق والأجناس. وكان يولي اهتماماً زائداً بالقادمين الجدد، ويمكن الاعتماد عليه في مساعدتهم في البحث عن المسكن، وفي العموم مساعدتهم في الاستقرار في الحياة الأمريكية. كما كانت لديه اتصالات قوية مع القنصلية السعودية في لوس أنجلوس، وبخاصة مع مسؤولي الشؤون الدينية هناك⁽⁹⁾. والحكومة السعودية، شأنها شأن باقي الحكومات العربية، تتابع عن كثب مواطنيها في الخارج. وتولي اهتماماً خاصاً بالشبان حرصاً منها على عدم قيامهم بأعمال قد تسبب الحرج للملكة. وافترض بعض الناس أن بيومي كان عميلاً يتلقى راتباً من الحكومة السعودية للقيام بتلك المهمة. وكان ينظر إلى ذلك العمل بأنه نشاط حميد وعمل من أعمال الخير.

وفي فبراير/ شباط، وبعد انقضاء شهر رمضان بوقت قصير، حضر بيومي المحضر والحازمي إلى المدينة، وطلب من الآخرين مساعدتهم في الاستقرار. فقد كانا يتحدثان الإنجليزية بصعوبة، وكانا بحاجة إلى استصدار بطاقة التأمين الاجتماعي والرقم الوطني، ورخصة قيادة السيارة، وفتح حساب مصرفي. واستضافهما بيومي في شقته لبضعة أيام ثم انتقل بهما إلى شقة

ذات طابقين في مجمع بارك وود للشقق السكنية في كليرمونت. وهي ضاحية جميلة تسكنها الطبقة الوسطى شمال مركز المدينة⁽¹⁰⁾. قام بيومي بعمل الإجراءات اللازمة للسكن في الشقة وأقرضهما مبلغاً من المال لدفع أجرة الشهر الأول وإيداع التأمين. وأقام لهما حفل استقبال. وأخبر بيومي الناس بأنهما جاءا إلى ساندياغو لتعلم الإنجليزية، وذلك بالرغم من أنه لا أحد بمن فيهم بيومي، يتذكر مشاهدة أي منهما يذهب إلى أي درس. وكان نواف الحازمي يقضي كثيراً من الأوقات في جامعة ساندياغو، بحسب ما يقوله أحد الأصدقاء، حيث كان يستخدم مكتبة الجامعة لعدة ساعات يومياً في تصفح الإنترنت والدخول إلى غرف الدردشة العربية. كانت إنجليزية الحازمي ركيكة، إلا أنه كان شخصاً ليّن العريكة، ذا طبيعة محببة، ومتوافقاً مع الجميع. وكان يأتي في الصباح إلى مكتب إدارة وتأجير الشقق التابع للمجمع السكني ليتناول القهوة والبسكويت. كان حليقاً، قليل البنية - كان طوله بحسب تقدير بعض الأشخاص أقل من 5 أقدام و 6 بوصات - ونحياً. يلزم غرفته عندما لا يكون في الجامعة.

أما المحضار، فكان استبطان شخصيته أصعب؛ وذلك لأنه لم يكن يتحدث الإنجليزية مطلقاً. وكان الاثنان يعرفان بعضهما بعضاً منذ أيام الطفولة في مكة، في المملكة العربية السعودية. وكانا يتحدثان دائماً عن الحرب في الشيشان، وقبلها حول الحرب في أفغانستان. وذكر الحازمي لأحد الأشخاص ذات مرة أن القتال في سبيل الإسلام هو "شرف عظيم"، ولكنه لم يذكر له أنهما (أي الحازمي والمحضار) قد شاركا في القتال في البوسنة قبل عدة سنوات. كما كان الحازمي يبدي إعجابه الشديد بأسامة بن لادن، الذي كان في نظره يعمل بالنيابة عن جميع المسلمين⁽¹¹⁾.

وقع الحازمي عقد إيجار لمدة ستة شهور للشقة الأرضية في مجمع بارك وود؛ إلا أنه هو والمحضار اشتكيا من عدم مقدرتهما على دفع الأجرة، وبعد

شهرين، وبالتسويق مع بيومي، قاما بتأجير الشقة لأحد الأشخاص واستأجرا غرفة من منزل يعود إلى أستاذ متقاعد في الآداب تعرفا عليه في المركز الإسلامي اسمه عبدالستار شيخ. ويقع المنزل في منطقة سكنية ريفية شرق ساندياغو مطلة على سبرينغ فالي. وكان هذا المنزل المكون من طابقين والواقع في حي ليمونغروف نقطة تجمع للأشخاص الشرقيين من ذوي العقدين من الزمان. وكانت تلك الاجتماعات تثير الفضول أكثر من إثارتها للشكوك. ويشتهر عبدالستار شيخ بنشاطاته في القضايا الإسلامية والمدنية. وغالباً ما يؤجر غرف منزله للشبان العرب، وكان أيضاً يعقد حلقات لتعليم القرآن. وكانت الحلقات والاجتماعات تخدم هدفين: فمن خلالها يقدم عبدالستار شيخ المساعدة للشباب، وفي الوقت نفسه يجني الفائدة المالية مما يحصل عليه من معلومات منهم. فقد كان يعمل مخبراً لحساب مكتب التحقيقات الفيدرالي (12) FBI.

وفي الربيع، أخبر الحازمي والمحضر أصدقاءهما برغبتهما في تعلم الطيران. وبعد السؤال والتحري، وعندما تبين لهما تكلفة ذلك، أخبر الحازمي أحد أصدقائه أن بإمكانه طلب تحويل المال اللازم لذلك من السعودية، إلا أنه لم يكن يملك حساباً مصرفياً. وطلب من صديقه السماح له بتحويل مبلغ خمسة آلاف دولار إلى حسابه الشخصي (13). وافق صديقه على ذلك، إلا أنه بعدما وصلت الحوالة في منتصف إبريل/ نيسان كانت قادمة من الإمارات العربية المتحدة وليس من المملكة العربية السعودية، وكان المرسل معرفاً باسم علي، وهو ما أثار حفيظة صديقه (14) الذي أخبر الحازمي أنه لن يساعده ثانية.

وكما تبين فيما بعد، لم يكن هناك حاجة لتك المساعدة. فعقب ذلك فوراً، رافق صديق آخر كلاً من الحازمي والمحضر إلى مونتغمري فيلد، وهو حقل تدريب للطيران المدني قرب المدينة. وهناك تعاقدوا على تلقي سلسلة دروس في تعلم الطيران.

يقول فريدون "فرد" سوربي مدرب الطيران في الحقل: " حضرنا إلى هنا في اليوم الأول، وقالوا بأنهم يرغبون في تعلم قيادة طائرة البوينغ، وتابع حديثه، "فقلنا لهم، عليكم أن تبدووا تدريجياً وبالتأني. إنكم لا تستطيعون القفز إلى البوينغ مرة واحدة".

قدم لهم سوربي دروساً ابتدائية في واحدة من الطائرات الصغيرة من طراز بايبر تشيروكيز، وكان كل واحد منهما يأخذ دوره في قمرة القيادة لمدة ساعة. ويذكر سوربي: "أخذناهم لكي أريهم كيف تطير الطائرة"، وفي إحدى المرات وعندما كانت الطائرة تهبط في المدرج في نهاية الرحلة، ارتعد أحدهما خوفاً، ولا يتذكر أيهما كان، وبدأ بتلاوة الصلوات والدعاء إلى الله بصوت مرتفع بينما كان الآخر يوجه الطائرة نحو مدرج الهبوط. ثم نصحهم سوربي بتأخير الدروس المتبقية: "نصحناهم بالذهاب إلى الكلية وتعلم اللغة الإنجليزية إذا كانوا يرغبون بتعلم الطيران. وقالوا لنا بأنهم يفعلون ذلك".

كانت تلك نهاية دروس تعلم الطيران، وبعد ذلك بقليل، غادر المحاضر المدينة إلى غير عودة. وأخبر معارفه هناك أن لديه بعض المشكلات العائلية في اليمن⁽¹⁵⁾. وفي الخامس عشر من يونيو/ حزيران، سافر على متن رحلة تابعة لشركة الخطوط الألمانية لوفتهانزا إلى فرانكفورت مواصلاً سفره من هناك إلى عُمان.

أما الحازمي، فقد أخبر عبدالستار شيخ بأنه يرغب بمتابعة دروس الطيران، كما أخبره بأنه يرغب بالتزوج من فتاة مكسيكية. ويقول عبدالستار شيخ: "فقتت بتعليمه بعض الجمل والعبارات الإسبانية مثل كي باسا"⁽¹⁶⁾ (التي تعني كيف حالك بالإسبانية) وقام الحازمي بوضع إعلان في موقع لوني هارتس (قلوب وحيدة) هذا نصه: "رجل أعمال سعودي يبحث عن فتاة مستعدة للإقامة هنا في الولايات المتحدة الأمريكية وفي المملكة العربية السعودية".

ويقول عبدالستار شيخ بأن ذلك الإعلان لم يحصل إلا على ردين من فتاتين مصريتين".

يقول عبدالستار شيخ: "طيلة فترة أقامته معي، لم أره قط يستخدم الهاتف. وكنت أتساءل عما إذا كان له أي أهل أو أقارب"،... وأخبرني ذات مرة أن والده حاول أن يقتله عندما كان طفلاً. ولكنه لم يذكر لي سبب ذلك، إلا أنني لاحظت على ساعده آثار جرح طويل بالسكين... وقال لي بأنه أتى إلى هنا ليتعلم الإنجليزية. إلا أنني لم أشاهده يذهب إلى المدرسة كثيراً. وأخبرني أنه يتلقى دروساً في الإنجليزية في معهد للغات وسط المدينة⁽¹⁷⁾.

وفي بعض الأحيان، بدا الحازمي وكأنه في رحلة استجمامية مدى الحياة. فقد اشترى تذاكر موسمية لدخول حديقة حيوانات ساندياغو. كما اشترى سيارة تويوتا كبيرة زرقاء اللون. وكان يسافر بها كثيراً عبر صحراء الموجيف إلى مدينة لاس فيغاس عاصمة القمار واللعو في الولايات المتحدة الأمريكية. وفي المدينة، كان يعتاد الذهاب إلى نادي شيتاه، وهو ملهى ليلي للراقصات العاريات، ويقع على مقربة من المركز الإسلامي. والمركز الإسلامي نفسه لم يكن بحال من الأحوال ملاذاً للإسلام المتطرف. بل كان تعددياً للمسلمين من مختلف الأجناس والأعراق ويدعو إلى الاندماج في المجتمع الأمريكي. وكانت جميع اللافتات بداخلة مكتوبة باللغة الإنجليزية. وعندما جاءت مجموعة من الأشخاص ذات مرة إلى المركز وحاولت توزيع منشورات تمتدح ابن لادن، قام المسؤولون عن المركز بمصادرة المطبوعات وطلبوا من الأشخاص مغادرة المكان فوراً وعدم العودة إليه.

عمل الحازمي بعض الوقت في غسيل السيارات لدى محطة تكساكو. وهي محطة يملكها فلسطينيان وكانت مكاناً لتجمع العرب الذين كانوا يجلسون في ساحة المحطة حول طاولة نزهة للحديث وشرب القهوة. وكان الحازمي

يأتي إلى المحطة ويجلس حول تلك الطاولة حتى في الأيام التي لا يعمل فيها. وفيما عدا بضعة الأسابيع التي عمل فيها في غسيل السيارات، فإنه لا يوجد أي دليل على مصدر للدخل طيلة الأحد عشر شهراً التي قضاها في ساندياغو⁽¹⁸⁾.

فلوريدا

لم يرجع محمد الأمير إلى هامبورغ من أفغانستان إلا في نهاية فبراير/ شباط من عام 2000⁽¹⁹⁾. ولم يكلف نفسه عناء استئجار شقة جديدة هذه المرة؛ فقد هياً له أصدقاؤه غرفة مؤقتة ليقوم فيها في مسكن للطلاب أو في بعض الأحيان يعيرونه غرفة في إحدى شققهم. ولم يكن هناك أي حاجة للإعداد من أجل إقامة طويلة. فقد بدأ الأمير بالاتصال بمعاهد الطيران في الولايات المتحدة الأمريكية. وفي مارس/ آذار، قام بإرسال رسائل عبر البريد الإلكتروني لأكثر من ثلاثين معهداً للطيران في مختلف مناطق الولايات المتحدة. وكتب فيها: "نحن مجموعة من الشبان (2 - 3 أشخاص) من دول عربية مختلفة. ونرغب بالبداية بالدراسة والتدريب نحو تحقيق هدفنا بأن نصبح طيارين محترفين"⁽²⁰⁾ كما قام الأمير بإرسال رسالة أخرى عبر البريد الإلكتروني إلى أحد أصدقائه القدامى ممن درسوا معه في جامعة القاهرة وقيم في فلوريدا يسأله عما إذا كان يتحتم عليه التقدم بطلب تأشيرة طالب قبل مجيئه إلى الولايات المتحدة⁽²¹⁾. وكتب لصديقه في تلك الرسالة "إنها حقاً مرحلة صعبة ولكنها أيضاً ممتعة".

قامت المجموعة كلها التي ذهبت إلى أفغانستان بتقديم طلبات تجديد جوازات سفرهم لإخفاء آثار سفرهم إلى باكستان. وحصل الشحي على جواز سفره الجديد في الإمارات العربية المتحدة قبل عودته إلى ألمانيا، وحصل عمر على جواز سفر جديد في اليمن قبل ذلك بوقت. وتلقى محمد الأمير جواز سفره الجديد بعد أن عاد إلى ألمانيا كما فعل جراح. وكلهم قالوا بأنهم فقدوا

جوازات سفرهم القديمة. وفي الثامن عشر من يناير/ كانون ثاني، كان الشحي أول من حصل على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة مستخدماً جواز سفره الجديد. وذهب محمد الأمير وعمر إلى برلين للتقدم بطلبات تأشيرات دخول إلى الولايات المتحدة. حصل محمد الأمير على التأشيرة فوراً ودون أي تأخير أو إعاقة. أما عمر فلم يكن موفقاً. فقد واجه ذات الصعوبة التي واجهها اليمينيون الذين اختارهم ابن لادن ابتداءً لتنفيذ خطة الاختطاف - وهي أن المسؤولين في السفارة الأمريكية كانوا يرفضون من حيث المبدأ طلبات الزيارة التي يتقدم بها اليمينيون. وتمت مقابلة عمر وتوصل مسؤولو السفارة إلى الاقتناع بأنه لا يرتبط بألمانيا بروابط كافية، وعلى هذا الأساس فهو مهاجر لأسباب اقتصادية وتم رفض طلبه على هذا الأساس⁽²²⁾. وحصل جراح على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة دون أي تأخير أو إعاقة في مايو/ أيار.

لحق عضوان آخران من مجموعة هامبورغ، وكلاهما مغربيان بقية المجموعة إلى أفغانستان، وهما: زكريا الصبّار ومنير المتصدق. غادر الصبّار على عجل في يناير/ كانون ثاني، وعلى نحو مفاجئ دون سابق إنذار. ولم يكن ذلك مستغرباً منه، فهو الشخص الذي تحول فجأة قبل سنتين إلى متطرف. الشخص الذي تغير خلال عدة أشهر من طالب جامعي عشوائي إلى أصولي مسعور، وكان مستعداً لقطع روابط صداقته بالآخرين في ظرف أسابيع، لكي ينصب نفسه مسؤولاً عن مراقبة تطبيق الإسلام بين أقرانه. أما المتصدق فقد كان أكثر تردداً، وبالرغم من كونه أصولياً متحمساً منذ سنوات عدة لدرجة أن السلطات الألمانية قررت مراقبة نشاطاته ووضعه على قائمة مراقبة الحدود لرصد أسفاره⁽²³⁾. إلا أنه لم يظهر أية نية لوضع نزعاته الدينية موضع التنفيذ. وبعد عودة الأمير من معسكرات أفغانستان، وجه المتصدق إليه بعض الأسئلة حول تجربته هناك. كما اجتمع بالشحي وعمر وتحدث إليهما حول

الموضوع ذاته⁽²⁴⁾. وعلى خلاف حال الكثيرين من أعضاء المجموعة، حافظ المتصدق على صلته بأسرته في المغرب وعلى نحو دائم ومنتظم، وكان يشركهم في قراراته. وكان طالباً مجتهداً في دراسته. لم يكن موهوباً ولكنه كان مجداً. تزوج من فتاة روسية مهاجرة وسعى إلى أخذ موافقة أهله على ذلك الزواج. وقبل مغادرته إلى أفغانستان، سافر هو وزوجته الجديدة إلى المغرب. لم يذكر المتصدق لأهله شيئاً عن أفغانستان، ولكنه قال لوالده بأنه ينوي السفر إلى باكستان. لم يكتف والده بالموافقة على ذلك بل قدم له مبلغ ألفين وخمسمائة دولار لتغطية مصاريف السفر والإقامة هناك. عاد المتصدق إلى هامبورغ، ومنها طار إلى اسطنبول في 22 مايو/ أيار⁽²⁵⁾.

وبعد أسبوع، أي في التاسع والعشرين من مايو/ أيار، سافر الشحي من بروكسل في بلجيكا متوجهاً إلى مطار نيويورك الدولي في ولاية نيو جيرسي. وفي اليوم التالي نزل في فندق سيتي كورتيارد التابع لفندق الماريوت في نيويورك، ثم انتقل إلى فندق بست ويسترن منتظراً محمد الأمير الذي وصل بعد خمسة أيام قادماً من براغ عبر نيويورك. وكان سفرهما عبر دول ثالثة مقصوداً لكي يصعب تقفي أثرهما⁽²⁶⁾. وكان محمد الأمير والشحي يحملان تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة لمدة ستة أشهر. وصدر تصريح محمد الأمير حاملاً الاسم الأول والأخير كما يظهر في جواز سفره. وكما هي حال كثير من العرب، لم يستخدم الأمير ولا أي أحد من أسرته الاسم الأخير، ولذلك، ومن الناحية الفعلية، فإنه قدم إلى الولايات المتحدة كشخص جديد هو محمد عطا⁽²⁷⁾.

أمضى عطا والشحي أسابيعهم الأولى في الولايات المتحدة في مدينة نيويورك. وإذا ذهب إلى أي مكان، فإن الشحي عاد إلى المدينة نهاية الشهر ليتسلم حوالة مالية ألفي دولار من عمر في ألمانيا. واشترى عطا هاتفاً خلوياً

ووقع عقد خدمة مستخدماً عنواناً في مدينة نورمان في ولاية أوكلاهوما، وهو العنوان الذي توجهها إليه لاحقاً⁽²⁸⁾. وفي بداية شهر يوليو/ تموز، وعلى الرغم من أن عطا اتصل بعدد من معاهد تدريب الطيران عندما كان في ألمانيا، إلا أنه لم يتخذ أي إجراء للاتحاق بأي منها. فقد بدا وكأنه كان يرغب بمعاينة هذه المعاهد شخصياً قبل التسجيل فيها. فأمضى هو والشحي ثلاثة أيام في مدينة نورمان، قاما خلالها بزيارة معهد إيرمان للطيران هناك. إلا أنه كان من الواضح أن شيئاً ما لم يعجبهما في ذلك المعهد⁽²⁹⁾. وخلال أسبوع كانا على شواطئ خليج فلوريدا، حيث التحقا بمعهد هوفمان للتدريب على قيادة الطائرات التجارية، وقاما بفتح حسابات مصرفية، وتولي تدابير السكن. وفي ذات الوقت الذي وصلا فيه إلى فلوريدا كان زياد جراح يتلقى تدريباته في مركز فلوريدا للتدريب على الطيران والذي لا يبعد سوى مائتي قدم عن معهد هوفمان. وكلا المعهدين يقعان في مطار فينيس. استأجر جراح غرفة واحدة في تجمع سكني صغير لا يبعد سوى مسافة بلوك واحد عن المطار. ويصعب تصور عدم التقاء العرب الثلاثة ببعضهم بعضاً في هذا المطار الصغير وفي تلك البلدة الصغيرة. إلا أنه لا يوجد دليل على أن شخصا ما شاهد الثلاثة معاً في وقت واحد. وسكن عطا والشحي معاً لمدة أسبوع في غرفة استأجراها من محاسب يعمل في المعهد، إلا أنه سرعان ما تبين أن هذه الترتيبات لم تكن مناسبة. فقد كانت الحدود متداخلة. وخلال انخراطهما في التدريبات، قاما باستئجار منزل صغير بأجرة 550 دولاراً في الشهر في مدينة كوكوميس وهي بلدة تقع شمال فينس مباشرة، ومكثا فيها لعدة أشهر⁽³⁰⁾. وعندما انتقلا إلى البيت، أحضرا معهما طبقاً من البسكويت وقدماه للوكيل العقاري الذي ساعدهما في اختيار البيت وتوقيع عقد الإيجار. وكان الوكيل مندهشاً من شدة اقتصادهما في المصاريف، إذ إنهما كانا قليلاً ما يشغلان المكيف حتى في الحرارة الخانقة والرطوبة العالية في صيف فلوريدا⁽³¹⁾.

على الرغم من أنه كان يفصل بين ساندياغو وسواحل فلوريدا مسافة تبلغ عرض القارة الأمريكية، إلا أن أوجهاً من الشبه كانت تجمع بين ساحل وسط فلوريدا حيث استقر الرجال القادمون من ألمانيا، وبين ساندياغو التي استقر فيها نظراًؤهم السعوديون؛ فكل من فلوريدا وكاليفورنيا تتمتعان بمناخ مشمس معظم أيام السنة، وتتصدران باقي الولايات الأمريكية بعدد معاهد تدريب الطيران. وقد بلغت معاهد الطيران في فلوريدا حداً من الكثرة لدرجة أن الولاية تسمى أحياناً "ولاية الطيران" كما تتميز الولايتان بسرعة تغير وتزايد السكان فيهما. وتضم ساندياغو تحديداً جالية مسلمة نشطة استقبلت المحضر والحازمي، بينما لا يوجد في المدن الصغيرة غرب فلوريدا حيث كان عطا والشحي وجراح يدرسان ويسكنان أي مسلمين، وكان فيها قلة قليلة من العرب. والغالبية العظمى من سكان تلك المنطقة هم من البيض المتقدمين في السن. كما أن عطا والشحي وبحسب طبيعتهما، كان لهما علاقات محلية أقل بكثير من العلاقات التي أنشأها الحازمي في كاليفورنيا⁽³²⁾. وفي الوقت الذي تخلى فيه الحازمي والمحضر عن متابعة تدريبات الطيران بعد أن قطعوا شوطاً في الدروس النظرية وبعض التدريبات الأولية، كان عطا والشحي وجراح طلبة مجتهدين، وكانوا يحرصون على قضاء أكبر عدد من ساعات الطيران المتاحة لهم. بل إنهم كانوا يذهبون إلى معاهد طيران مجاورة لتلقي المزيد التدريب على أجهزة الطيران المشبهة. وفيما يخص عطا والشحي، كان الإصرار من عطا. إذ لم يكن الشحي يولي كثير اهتمام بدراسته في ألمانيا، بينما كان عطا يجد ويجتهد في أي شيء يقوم به، فقد كان الجد والمثابرة شعاره دائماً.

لقيت تدريبات عطا والشحي في فلوريدا بعض الإرباك. فبعد أن استقرت بهما الحال، بدءا بتلقي حوالات منتظمة على حساباتهما المصرفية المحلية. هذه الحوالات التي بلغت خلال أربعة أشهر ما يزيد على 120 ألف دولار بما

في ذلك حوالة واحدة بقيمة 70 ألف دولار من الإمارات العربية المتحدة. وكان المرسل المعتاد لهذه الحوالات هو شخص يدعى علي عبدالعزيز علي، وهو ابن أخت خالد شيخ محمد⁽³³⁾. تعتبر الحوالات المصرفية العادية، في الظروف الطبيعية، من النشاطات المصرفية المشروعة ولا تخضع في العادة لأي تمحيص. وهي ذات الآلية التي يستخدمها، على سبيل المثال، مقرضو الرهن العقاري - وكانت الوسيلة المالية الرئيسية في تمويل الطيارين في الولايات المتحدة. وإضافة إلى الأموال القادمة من الإمارات العربية المتحدة، وصلت بعض الأموال من ألمانيا عن طريق عمر. وكانت تلك الأموال تسحب من رصيد الشحي في المصارف الألمانية حيث كانت تودع مرتباته الشهرية الخاصة ببعثة الجيش الإماراتي. وكانت تظهر الحوالات الألمانية فقط عندما يتأخر وصول الأموال من علي.

انتظم عطا والشحي في دروسهما وتلقيا تدريباتهما على الطيران، وبالحكم من خلال سجلات حساباتهما المصرفية، فقد كان أكثر تسوقهما يتم في مركز للتسوق في ساراسوتا باستثناء بعض الحالات التي كانا يذهبان فيها إلى وول مارت⁽³⁴⁾. وكانا محبيين لدى زملائهما في التدريب، وجاء وصف زملائهما لهما مشابهاً لما وصف به في ألمانيا: كان عطا جلفاً فجاً، ورسمياً. أما الشحي فكان متبسماً دائماً وودوداً. وقلما رؤيا متفرقين لدرجة أن بعض الناس كانوا يحسبون أن بينهما قرابة دم. وكانت إنجليزية عطا أفضل بكثير من لغة الشحي، إلا أنه كان يتجنب كثرة الكلام. وكان يبدو لبعض الناس الذين عرفوه كما وصف هو نفسه - إداري في شركة للحواسيب. وكان الاثنان يرتديان ملابس تشابه الملابس الدارجة في قطاع التجارة والأعمال: بلوزة بولو وسروال كاكبي. إلا أن الشحي غالباً ما كانت تبدو ملابسه غير مكوية وغير أنيقة. عمل الاثنان خلال برامج التدريب بما في ذلك التدريبات الإضافية التي تلقياها في

المراكز المجاورة. وحصل كلاهما على ترخيص لقيادة طائرات تجارية صغيرة ذات محرك واحد⁽³⁵⁾. وهي خطوة تؤهلها لتلقي المزيد من التدريبات على الطائرات الأكبر. وقد بلغت تكلفة هذه التدريبات التي تشكل الخطوة الأولى في خطة خالد شيخ محمد المعدلة أقل من 30 ألف دولار أمريكي.

وعلى خلاف عطا والشحي، عمل جراح على تكوين صداقات مع زملائه في معهد الطيران، حتى إنه رافق مجموعة منهم إلى جزر الباهاما في أثناء عطلة نهاية الأسبوع. وأخبر آيسل أن صديقه الذي كان يقود الطائرة كان ثملاً جداً من كثرة تناوله الكحول لدرجة أصبح معها غير قادر على قيادة الطائرة في رحلة العودة. فقام جراح الذي لم يكن مرخصاً بعد ولم يقطع من التدريب سوى شهرين، بقيادة الطائرة بسلام إلى فلوريدا. "كان صديقاً للجميع" كما تقول آرني كروتسهوف، مديرة مركز تدريب الطيران.

اشترى جراح سيارة - أو بالأحرى سيارتين - الأولى كانت رديئة ولم تعمل بشكل جيد، فباعها للوكيل الذي اشتراها منه أصلاً بخسارة ألف دولار، مستبدلاً إياها بسيارة ميتسوبيشي إكليس موديل 1990 بقيمة 1500 دولار⁽³⁶⁾. وسكن جراح مع اثنين من زملائه من معهد الطيران. وكان ينام على الأريكة لأنه كان لا يملك أي أثاث في مسكنه. وكان أول شخص يستيقظ من الصباح، فيصنع الشاي للبقية. وكان يطهو لهم الطعام في المساء. وقال الزميل الآخر، بالرغم من مؤشرات الصداقة والمودة هذه، فقد بقي جراح منعزلاً، وفي بعض الأحيان عدوانياً. وقال بأنه كان سريع الغضب، وعلى نحو متفجر أحياناً. وكان يظهر ثقة مطلقة و يقيناً قطعياً بشأن أشياء ليس لديه سبب لأن يكون متيقناً بشأنها - وهي قدراته على الطيران. فعلى سبيل المثال، ومنذ أيامه الأولى في التدريب، كان زياد يبدي ثقة عمياء بنفسه في قمرة القيادة. لدرجة أن أحد زملائه كان يرفض الطيران معه بحجة أن زياداً لم يكن حذراً بالدرجة المطلوبة⁽³⁷⁾.

وفي أكتوبر/ تشرين أول، قام جراح بأول زيارة له إلى أوروبا منذ مجيئه إلى الولايات المتحدة. طار إلى فرانكفورت ليأخذ آيسل، ثم توجه الاثنان إلى باريس حيث أمضيا أسبوعاً في ضيافة أخت زياد التي تسكن هناك. أكلا وشربا وزارا معظم المعالم السياحية⁽³⁸⁾. وواصلت أسرة جراح في تقديم الدعم المالي لتعليمه بمعدل 2000 دولار شهرياً وأكثر إذا هو طلب. وتقول آيسل: "كنت أعلم أنه لم يكن يعمل في فينيس، إلا أنه مع ذلك كان يعيش حياة باذخة... وعندما كنت أحتاج أنا أو هو إلى المال، كل ما علي فعله هو أن أرفع سماعة الهاتف وأتصل بوالديه وأخبرهم بالمبلغ الذي أحتاجه، وفي كل مرة كنت أتصل بوالديه، كانوا دائماً يرسلون لنا ضعفي أو ثلاثة أضعاف المبلغ الذي أطلبه"⁽³⁹⁾.

وخلال السنة التالية، تكررت المشكلات والخلافات التي كانت تطفئ على علاقتهما مرة بعد مرة. كانت آيسل فضولية وتحب التحري عن زياد دائماً. وكان زياد يقابلها بالمرأوخة والتملص. لم تكن تعثر عليه عندما كانت تطلبه، كما أنه لم يكن يرد على هاتفيه الخليوين. وكانا يتشاجران ثم يتصالحان. جاء للزيارة ثم عاد. وعندما عاد إلى فلوريدا بعد رحلة باريس لم تسمع آيسل شيئاً منه لعدة أيام.

أرجوك، إنني أناشدك بكل الرجاء أن تتصل بي. اتصل بي ولو بمكالمة قصيرة حتى أطمئن أنك بخير. إنني غاضبة لأنك لا تفكر بي. وأنا جالسة هنا أنتظر منك رسالة وأفكر بك طوال الوقت. هل يمكنك أن تفكر بحالتي مرة واحدة وتضع نفسك في مكاني. إنك تخاطر كثيراً وأنا أعرف الكثير عنك بالرغم من أنك لا تخبرني بشيء. لهذا ليس من المستغرب أنني خائفة عليك أليس كذلك؟

أحبك،

آيسل

وأخيراً رد زياد بالرسالة التالية:

لقد وصلت بسلام. آسف لأنني لم أرسل لك أي رسالة منذ وقت طويل. وصلتني رسالتك ووجدتها حلوة جداً ومليئة بالتفهم والحنان. المسألة ليست مسألة ثقة.

آيسل، إنني أحبك، ولا تقلقي⁽⁴⁰⁾.

قام زياد خلال إقامته في الولايات المتحدة بخمس زيارات لألمانيا. كما أن آيسل زارته مرة واحدة في فلوريدا. وأثناء تلك الزيارة اصطحبها زياد إلى منطقة الكيز وأراها كيف تدرّب على قيادة البوينغ عن طريق أجهزة محاكاة الطيران. وطلب منها ألا تخبر أحداً عن مكان وجوده. ووافقت على ذلك إلا أنها قالت فيما بعد "بالطبع لم ألتزم بذلك الوعد، فإذا اتصل أحد وسأل عنه كنت أخبره. وقلت لزياد ذلك، وكان غاضباً جداً".

وفي ديسمبر/ كانون أول، بدأ عطا والشحي بمعاينة الطائرات الصغيرة. وكان ذلك غالباً في المساء. وكانا لا يعودان حتى الثانية أو الثالثة صباحاً⁽⁴¹⁾. وتلقى الاثنان تدريبات إضافية على مشبهات الطيران التجاري، وهذه المشبهات تمكن الأشخاص الذين لديهم مهارات طيران بدائية كتلك التي حصلوا عليها عن طريق التدريب الرسمي، من البدء بتعلم مهارات ومقدرات أكثر تقدماً دون الحاجة إلى تكبد مصاريف ومخاطر الطيران الفعلي بالطائرات الضخمة. تلقيا تدريباتهما على المشبهات في أوبالوكا خارج مدينة ميامي. وبلغت تكلفة ستة دروس للتدريب على قيادة البوينغ 727 من خلال مشبهات الطيران 1500 دولار، وقاموا بدفع المبلغ نقداً.

وفي اليوم التالي لعيد الميلاد، غادر زياد إلى بيروت لزيارة أهله. وفي بداية العام الجديد، غادر كل من عطا والشحي فلوريدا كذلك. سافر عطا من

مدينة تمبا إلى مدريد. وفي الأسبوع نفسه، غادر الشحي إلى الدار البيضاء في المغرب. مكث جراح أسبوعاً في لبنان، ثم قفل عائداً إلى ألمانيا في الوقت ذاته الذي وصل فيه عطا إلى مدريد. وكان عمر قد عاد لتوه من لندن. وكان ثلاثة منهم على الأقل وربما أيضاً الشحي، موجودين في ألمانيا معاً للمرة الأخيرة.

هامبورغ

لم يجلس بقية أعضاء المجموعة الذين بقوا في هامبورغ مكتوفي الأيدي بينما كان زملاؤهم يتلقون تدريباتهم في الولايات المتحدة. وعاد عمر إلى ألمانيا بعد أن أمضى الريع الأول من السنة في أفغانستان، وفي نيته الالتحاق برفاقه في فلوريدا. وقبل مغادرته أفغانستان قام بتسجيل شريط فيديو يوضح فيه نيته وعزمه على الشهادة⁽⁴²⁾. وقبل أن يتحقق ذلك، ذهب يبحث عن عروس له. وفي مطلع يوليو/ تموز، وفي برلين، تعرف على فتاة، وبغض النظر عن أصلها وفصلها، كانت أبعد ما تكون عن الزوجة المسلمة. فقد كانت طالبة تدرس الرقص العصري، وقدمت إلى ألمانيا باحثة عن مدرسة مناسبة للتدريب على الرقص. أخبرت عمر أنها كاثوليكية، وكانت على ما يبدو يابانية مع أن ذلك ليس مؤكداً. وحضرت إلى برلين بعد أن شاهدت استعراضاً قامت به فرقة رقص ألمانية في جولة عالمية، فانبهرت بالأداء الرائع، وأرادت أن تكون مثلهم⁽⁴³⁾.

تعرفت على عمر مساء الأحد في مدخل نزل كانت تقيم فيه بينما كانت تقرأ الإعلانات المعلقة على مجلة الحائط ولاحظت أن عمر كان يراقبها. قدم نفسه إليها على أن اسمه رمزي، وعرض عليها الذهاب للسياحة معه ولكنها رفضت. إلا أنها قبلت دعوته لتناول طعام الغداء، فرافقته في الحافلة إلى مطعم عربي وسط برلين.

وخلال الغداء، اقترح عليها الذهاب معاً لمشاهدة فيلم في السينما، فذهبا معاً لحضور فيلم غليديتر للممثل رسل كرو. بعد ذلك، ولما اشتكت من تكلفة

إقامتها في النزل حيث كان سريرها واحداً من عشرة أسرة في الغرفة الواحدة، قال لها عمر أن بإمكانها أن تأتي معه إلى مسكن الطلاب حيث كان يقيم. رفضت العرض لأنها كانت قد دفعت أجرة تلك الليلة مقدماً للنزل، إلا أنهما اتفقا على الالتقاء ثانية صباح اليوم التالي.

جاء عمر في اليوم التالي لابساً بدلة، وبعد أن أخذت أمتعتها من النزل. استقل الاثنان سيارة أجرة إلى الشقة التي استعارها عمر من أحد أصدقائه. لم تكن هناك غرفة منفصلة لها كما وعداها، بل غرفة واحدة بسرير واحد للاثنين. في الليلة الأولى نام عمر على الأرض. واستيقظت المرأة فجر اليوم التالي مذعورة من مشاهدة عمر وهو يسجد على الأرض ويصلي بصوت مرتفع بينما كان يمسك بخنجره اليميني على وسطه.

أمضى الاثنان خمسة أيام معاً. وفي مساء اليوم الأول طلب الشبية الزواج من المرأة والانتقال معه إلى هامبورغ مدعياً أنه طالب جامعي هناك. وقال لها أيضاً بأنه أخبر أصدقاءه هناك بأنه سيحضر زوجة معه. وكان عليها طبعاً أن تغير من نفسها: أن تلبس لباساً محتشماً وتغطي نفسها كما تفعل المرأة المسلمة.

كانت علامات الغضب تظهر على عمر عندما كانت المرأة لا توافقه؛ لذلك لم تخبره مباشرة وصراحة بعدم موافقتها على الزواج منه. وقالت له ببساطة إنها جاءت إلى ألمانيا للرقص وأنها ستنتقل إلى هامبورغ إذا وجدت هناك برنامجاً مناسباً لدراستها. وقالت المرأة بأن الغضب ظهر بشكل واضح عندما كان عمر يتحدث عن غير العرب. كان يرفض دفع أجرة القطار بحجة أن الألمان لا يستحقونها، وأخبرها بأنهم جميعاً عنصريون. وكان الأمريكيان في نظره بالدرجة نفسها من السوء؛ مندداً بدعمهم لإسرائيل. وقال لها بأن اليهود هم الأسوأ.

"لقد كان أجداد أجداده، وأبائه، يكرهون اليهود، وإذا قدر له أن يرزق بأولاد فإن عليهم أن يكرهوا اليهود كذلك" هكذا كان يقول، كما نقلت عنه المرأة.

وردت عليه المرأة بأن هذه الكراهية يجب أن تتوقف في وقت ما، ولكنه استشاط غضباً حتى خافت أن ينهال عليها ضرباً. وصرخ بأعلى صوته بأن أولاده يجب أن يكرهوا اليهود. وعلى أية حال، لم تكن نزواته العصبية هي طبعه السائد. فقد يكون دافئاً ومرحاً، وقال لها بأنه ما شاهد شخصاً أكثر منها مرحاً وفكاهة.

كان طعام الشحي في غالبيته مكوناً من فطائر البيتزا بسمك التونة المجمدة التي كان يشتريها من البقالة ويعيد تسخينها في الشقة. وخلال الأيام الأربعة تجوّل الاثنان في برلين. كانت هي تجوب المحلات بينما كان عمر يتنقل بين مراكز الاتصال ومقاهي الإنترنت. وكان يتلقى باستمرار مكالمات على هاتفه الخليوي، ثم يسارع في البحث عن أقرب هاتف عمومي للرد على تلك المكالمات. ولم يوضح لها طبيعة تلك المكالمات أو الهدف منها بحسب قولها.

تحدث الاثنان كثيراً حول الفيلم الذي شاهداه، وبعد ذلك وقع عمر على رسالة أرسلها إليها عبر البريد الإلكتروني بعبارة "مليكنك، رمزي" وبعد انقضاء خمسة أيام، عاد عمر إلى هامبورغ، ولم يشاهد كل منهما الآخر بعد تلك اللحظة.

قام عمر بثلاث محاولات أخرى للحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة. وفي إحدى المرات، قام بتحويل مبلغ 2200 دولار إلى مركز فلوريدا لتدريب الطيران وهو المعهد الذي يتدرب فيه جراح، كدفعة أولى من رسوم التحاقه بالمعهد لتلقي تدريبات مماثلة. واستخدم طلب التسجيل في المعهد كأساس للحصول من خلاله على تأشيرة دخول طالب بدلاً من تأشيرة الزيارة التي كان يسعى للحصول عليها في السابق لكن دون جدوى. وقد بدا أن عمر كان مستميتاً في محاولاته اللحاق برفاقه. ففي السابع من ديسمبر/ كانون أول من عام 2000، قام بإرسال رسالة عبر الفاكس إلى مركز فلوريدا لتدريب

الطيران، يتساءل فيها بقلق عن وثائق قبوله وإقامة الطالب. وكتب بخط يده بأحرف كبيرة ملفتة ولغة إنجليزية ركيكة ما يلي:

*** عاجل جداً ***

أرجو أن تخبروني عن طريق وأي شركة قمتم بإرسال وثائق الفيزا الخاصة بي. وما هو الرقم البريدي لتلك الرسالة.

أرجوكم الرد اليوم. فالأمر ضروري جداً. أنا في انتظاركم⁽⁴⁴⁾.

وفي محاولة أخرى، هياً عمر لإيداع بضعة آلاف من الدولارات في حسابه المصرفي في اليمن حتى يظهر للسفارة أنه موسر مالياً. وباءت هذه المحاولة هي الأخرى بالفشل. فبعد أن قابله موظفو السفارة الأمريكية في كل من برلين وصنعاء ثلاث مرات على الأقل، قرر كل واحد منهم في كل مرة أنه يندرج ضمن من يحاولون الهجرة غير المشروعة إلى الولايات المتحدة لأهداف اقتصادية. وبعد المحاولة الأخيرة الفاشلة، نصحه القنصل الأمريكي في السفارة الأمريكية في برلين أن يتوقف عن المحاولة: "أرجو أن تفهم أننا لا نستطيع منحك تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة"⁽⁴⁵⁾. واستند قرار المنع إلى تعليمات السيطرة على الحدود التي تركز بالدرجة الأولى على منع الهجرة لأسباب اقتصادية. وتقضي بمنع الأفراد الذين يتبين أنهم يقصدون الولايات المتحدة بهدف العمل وحرمان الأمريكيان من الوظائف المتوفرة لهم؛ أما الأشخاص الذين يعتقد أنهم ينتمون إلى منظمات إرهابية كالمحضر والحازمي، فكانوا يعبرون الحدود ويحصلون على تأشيرات الدخول دون أي إشكال لأن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA لم تفكر بإعلان السفارات الأمريكية في الخارج بهذه الشكوك.

وفي تلك الأثناء، عاد المتصدق والصبار من أفغانستان. وعلى الرغم من أنهما تدربا على انفراد، كان المغربيان يلتقيان بانتظام في المعسكر قرب

قندهار. واستمتع الصبار بحياة المعسكر، وأمضى تسعة أشهر هناك وأخبر المتصدق أنه لا ينوي العودة إلى ألمانيا⁽⁴⁶⁾. إلا أنه، مع ذلك، رجع إلى ألمانيا في أكتوبر/ تشرين أول . ومن الواضح أن عمر طلب منه العودة. ولدى عودته قام بالإجراءات نفسها التي قام بها رفاقه بعد مغادرتهم المعسكر. فتقدم بطلب للحصول على جواز سفر جديد مدعياً ضياع جواز سفره القديم. وبعد حصوله على الوثائق الجديدة، وفي ضوء فشل عمر في الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة، تقدم الصبار بطلب للحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ويشير توقيت هذا الطلب إلى أن المجموعة كانت عازمة على البحث عن طيار رابع. ورفض طلب الصبار للأسباب ذاتها التي رفض لأجلها طلب عمر.

استقر عمر بعد محاولته الأخيرة الفاشلة في الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة، على لعب دور ضابط الاتصال بين الطيارين المفترضين - فريق الضربة - كما يسمونهم، وبين المخطط الرئيسي، خالد شيخ محمد وبقية هيكل القاعدة. كانت الأموال تأتي وتحوّل عبر عمر. وتولّى هو ومجموعة من رفاقه مهمة الإبقاء على أعضاء المجموعة مسجلين في الجامعة كطلاب دون حضور الدروس. ويبدو أن مهن الجامعة في بعض الأحيان كانت كذلك - مهن مدى الحياة - وبذلك لا يثير الغياب الطويل أي شكوك، بل لا يمكن ملاحظته. وحتى الذين بقوا في هامبورغ قاموا بشراء وثائق تأمين للطيارين المتدربين لكي يبدو وكأنهم ما زالوا في ألمانيا. وتولوا التعامل مع الرسائل الواردة إليهم وما يستجد من أمور أخرى.

وفي ديسمبر/ كانون أول، سافر عمر إلى لندن. وفي ذلك الحين كان قد استنفد جهوده كلها للحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة. كما أن الصبار فشل هو الآخر في الحصول على التأشيرة. وفي لندن، التقى عمر

مرشحاً آخر ليكون طياراً. واسم هذا الشخص زكريا موسوي، يحمل الجنسية الفرنسية، وينحدر من أصل مغربي⁽⁴⁷⁾. ونظراً لكونه يحمل الجنسية الفرنسية فإن بإمكانه الذهاب إلى الولايات المتحدة والعودة منها كما يشاء. وإلى جانب ذلك، كان لديه أكثر من مشكلة. وأكثر هذه المشكلات أنه كان ذا شخصية متقلبة. وبسبب مجاهرته المعهودة بالحديث عن الإسلام، فقد جلب أنظار الأجهزة الأمنية إليه في فرنسا وبريطانيا؛ ومن المرجح أنه كان خاضعاً لرقابة الاستخبارات المغربية إضافة إلى جهازى استخبارات لدولتين أخريين. نشأ موسوي في فرنسا في كنف أم حنونة كثيرة التنقل، رفضت الإسلام الأصولي⁽⁴⁸⁾. والتحق بالجامعات البريطانية في لندن ووجد طريقه إلى المشهد الإسلامي المتطرف. سافر إلى أفغانستان للالتحاق بالجهاد ومعسكرات التدريب التابعة للقاعدة هناك عام 1998. وبعد الانتهاء من المعسكرات عاد إلى لندن كمروّج ومتحدث عن الإسلام المتطرف.

أثار موسوي، أو بالأحرى جواز سفره الأوروبي - اهتمام مجنّدي القاعدة، ولا يعرف إن حدث ذلك في أفغانستان أم بعدها⁽⁴⁹⁾. وطُلب منه السعي نحو التدريب على قيادة الطائرات التجارية. وأُرسل إلى ماليزيا وأُعطي المال الكافي لتحقيق ذلك. واستُقبل في ماليزيا في ذات الشقة جنوب كوالالامبور ومن قبل ذات الشخص الذي استقبل المحضار والحازمي، وهذا الشخص هو يزيد سوفات، نائب حنبلي. وقيل لموسوي بأنه يستطيع التدريب على الطيران في معهد للطيران في مالكا على الساحل الغربي. إلا أنه وبعد أن عاين فرص التدريب، قرر أن المنطقة كثيرة الأمطار وأن تحقيق هدفه سيتسغرق وقتاً طويلاً⁽⁵⁰⁾. فقفلاً عائداً إلى لندن. وقبل عودته، قدم له سفات رسائل تزكية تشهد بأنه يعمل بوظيفة مندوب مبيعات لدى شركة إنفوكس، وهي الشركة التي تملكها زوجته وتتخصص بخدمات الحاسوب. وبدأ موسوي بمراسلة

معاهد الطيران في الولايات المتحدة عن طريق البريد الإلكتروني بما فيها معهد إيرمان للتدريب على الطيران في مدينة نورمان في أوكلاهوما. وهو المعهد الذي زاره عطا والشحي في صيف ذلك العام. وفي أكتوبر/ تشرين أول، أرسل رسالة إلكترونية إلى بريندا كيين المديرية التنفيذية للمعهد جاء فيها:

السيدة بريندا، مرحباً،

لقد كنت مشغولاً جداً مؤخراً وذلك للتحضير لسفري إلى الولايات المتحدة. وأرجو أن أتمكن من المجيء في الشهر المقبل (ربما خلال أسبوعين) إذا سار كل شيء على ما يرام. أعتقد أننا حين نلتقي ستتاح لنا الفرصة (على ما أمل) لمناقشة المسائل المالية بتفصيل أكثر. وحتى ذلك الحين أترك لك هذا

طيراناً موفقاً، إلى اللقاء، إلى اللقاء.

وبدلاً من أن يوقع موسوي اسمه على تلك الرسالة. استخدم الاسم الذي كان يستخدمه دائماً في مراسلاته السابقة: "زولومان تانغو تانغو".

اجتمع موسوي في لندن بعمر الذي أعطاه تعليمات بالتوجه إلى باكستان للاجتماع بخالد شيخ محمد. وعاد عمر إلى ألمانيا، وسافر موسوي إلى كراتشي حيث وافق خالد شيخ محمد على اقتراحه بالذهاب إلى أوكلاهوما في الولايات المتحدة⁽⁵¹⁾.

بعد عودة عمر إلى ألمانيا، اجتمع هناك بمحمد عطا وزياد جراح، مع أنه من غير الواضح ما إذا كان قد اجتمع بهم فرادى أم مجتمعين. وليس من المعلوم ما إذا كان الشحي اجتمع مع عمر. فقد سافر الشحي إلى المغرب، ويمكنه بسهولة أن يتوجه إلى ألمانيا، إلا أنه لا يوجد دليل على ذلك. أتمّ الطيارون الثلاثة تدريباتهم الأولية. وفي ظل حالة الشك وعدم التيقن التي

تحيط بموسوي، بقيت خطة خالد شيخ محمد تفتقر إلى طيار رابع. حاول الصبار مرة أخرى الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة، إلا أنه أخفق ثانية في الحصول عليها. ولاحقاً في ذلك الشهر، وبعد أن عاد الطيارون إلى الولايات المتحدة، سافر عمر إلى طهران ومن هناك تابع وجهته إلى أفغانستان⁽⁵²⁾.

لم يعقد خالد شيخ محمد آمالاً كبيرة على زكريا موسوي. واتفق هو وعمر على استخدامه كاحتياط أخير⁽⁵³⁾. وعلى أية حال، فقد وجد خالد شيخ المرشح الذي سيشغل مكان عمر كطيار رابع - وهذا الشخص هو شاب سعودي اسمه هاني حنجور، وهو طيار متدرب ومرخص في الولايات المتحدة كطيار تجاري. لم يستطع حنجور العثور على عمل كطيار في أي مكان. فتوجه بدلاً من ذلك إلى معسكرات القاعدة في أفغانستان، وهناك انتهى إلى مسامع القيادة العليا في القاعدة نبأ حصوله على رخصة الطيران⁽⁵⁴⁾. وبالإضافة إلى قدرته على الطيران، فإن كونه يحمل الجنسية السعودية سيجعل من اليسير حصوله على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة. وقام خالد شيخ محمد بإرساله إلى الولايات المتحدة على الفور.

فينكس

وصل حنجور إلى كاليفورنيا مطلع ديسمبر/ كانون أول من عام 2000. وقدم على تأشيرة دخول طالب حصل عليها لدراسة اللغة الإنجليزية في أوكلاند، كاليفورنيا. ولكنه لم يداوم يوماً واحداً في معهد اللغة، وذهب بدلاً من ذلك إلى جنوب كاليفورنيا، إلى ساندياغو، حيث يسكن نواف الحازمي منذ أن جاء من ماليزيا في يناير/ كانون ثاني.

كان حنجور قد أقام في الولايات المتحدة وعلى نحو متقطع خلال التسعينيات من القرن الماضي. وكانت غالبية إقامته في ولاية أريزونا، حيث

كان يتلقى تدريباته على الطيران في معاهد مختلفة هناك. وكان أول مقدمه إلى الولايات المتحدة عام 1990، لتعلم الإنجليزية في مدينة توسكان حيث كان يقيم أخوه الأكبر. ومكث هناك مدة ثلاثة أشهر ثم عاد إلى المملكة العربية السعودية. وتعتبر عائلة حنجور من الأسر التجارية الناجحة في مدينة الطائف. وهي المدينة السياحية في جبال عسير جنوب شرقي مكة. وتعتبر الطائف العاصمة الصيفية للأسرة الحاكمة السعودية. كما أنها الآن محطة اصطيف الأجيال الشابة السعودية التي تضاعفت أعدادها ثلاثة أضعاف خلال العقود الثلاثة الماضية التي شهدت فيها المملكة انفجاراً سكانياً كبيراً. وتطل الضواحي الخارجية للمدينة على سلسلة من الجبال الصخرية الوعرة وتنتشر فيها الاستراحات والحدائق السياحية، وتوجد فيها حتى مستعمرة للقروء. ويقع منزل أسرة حنجور في ضاحية جميلة في التلال المطلة على المدينة وتقطنها الطبقة الوسطى.

عاد حنجور إلى الولايات المتحدة عام 1996، وكان يعتزم العمل كمضيف في الطائرة. إلا أن أخاه عبدالرحمن حنجور أخبره بأنه إذا كان يرغب في العمل في حقل الطيران فإن من الأفضل له العمل كطيّار. وشجعه على المجيء إلى الولايات المتحدة وتلقي تدريباته فيها. ورتب لأخيه هاني مسكناً في البداية مع أسرة سوزان وعدنان خليل. وكان عبدالرحمن رجلاً سهلاً العريكة، بشوشاً، ودوداً، ومخالطاً للناس. وكان هاني على العكس منه تماماً - وديعاً وهادئاً. ولم يكن له زوّار. كان يصلي خمس مرات في اليوم، والشخص الوحيد الذي شاهدته أسرة خليل يأتي لزيارة هاني، هو الشخص الذي كان يأتي لأخذ هاني إلى المسجد. وخلال مدة إقامته مع أسرة خليل، قلما تحدث بكلمة واحدة إليهم. وتقول سوزان خليل: " كان هاني كالفأر الصغير حول المنزل،... لم يكن له أصدقاء، فيما عدا الأشخاص الذين كانوا يأخذونه إلى المسجد أو يأتون به

من المسجد. وعندما أكون في البيت ويكون زوجي في العمل، كان هاني يلزم غرفته ولا يخرج منها، يقرأ القرآن على الأرجح، أو أي شيء... كان يرغب في العودة إلى السعودية والعمل هناك كطيار في الخطوط الجوية السعودية. أو شيء مشابه. وأذكر أنه كان متحمساً لذلك. وكنت أظن أنها فكرة رائعة وأن ذلك شيئاً جيداً له" (55).

أقام حنجور مع أسرة خليل لمدة شهر، ثم انتقل إلى كاليفورنيا لدراسة اللغة الإنجليزية. ومنها إلى أريزونا، حيث التحق بمركز تدريب إدارة قمره مقصورة القيادة في سكوتسديل، إحدى ضواحي مدينة فينكس. ويقول دونكان هاستي الذي يملك المركز بأن حنجوراً التحق بالمركز في الثلاثة أشهر الأخيرة من عام 1996. وكانت تلك بداية تقدمه المتعثر نحو الحصول على رخصة الطيران التي تستغرق ثلاث سنوات. ويقول دونكان هاستي: "إن أول إنجاز للشخص الذي يلتحق بمعاهد الطيران هو القدرة على قيادة الطائرة دون وجود مدرب إلى جانبه... وهي عملية تهدف إلى بناء الثقة بالنفس. وقد نجح حنجور في ذلك، ويمكنني أن أشبه ذلك بركوب السيارة وقيادتها في شوارع المدينة وسط الزحام. وهو ما يختلف عن القيادة على الطريق الخارجي السريع" (56).

وصف هاستي حنجور بأنه ذكي، وودود، و "مؤدب جداً، ورسمي". كان شخصاً لطيفاً ولكنه طيار سيئ. وفي العادة يمكن للشخص أن يحصل على رخصة قيادة طائرة صغيرة ذات محرك واحد خلال ثلاثة شهور، إلا أن حنجوراً عاد إلى المملكة العربية السعودية شتاء ذلك العام دون الحصول على تلك الرخصة، وخلال تلك الفترة كان يتصل بالمركز بين الحين والآخر، لقد كان "يسبب لنا إزعاجاً كبيراً". لم نكن نرغب أن يعود إلينا في المعهد؛ لأنه لم يكن جاداً في سعيه لأن يصبح طياراً جيداً. إلا أنه عاد في السنة التالية، وفشل

مرة أخرى في الحصول على الرخصة، والتحق بمعهد طيران آخر. وبقي يحاول حتى بعد أن نصحه أحد الفاحصين من وكالة سلطة الطيران الفيدرالي بأن من المستبعد أن يحصل على رخصة طيران تجاري بسبب ضعف لغته الإنجليزية.

يقول عبدالله سليمان، الذي اشترك مع حنجور عام 1998 في المسكن، بأن حنجوراً كان يخصص كل وقته للدراسة والتدريب. كان يدرس، يصلي، ويذهب إلى المصرف لإحضار المزيد من المال من أجل مزيد من التدريب. "كنت أقول له، دعنا نذهب إلى السينما، فكان يقول - لا -، وكنت أطلب منه مصاحبتي للعب كرة السلة، فكان جوابه - لا - "ويضيف سليمان "كان هاني يلزم البيت ويدرس المقررات الدراسية لمعهد الطيران"⁽⁵⁷⁾.

أثمرت جهوده أخيراً عام 1999. وبعد أن تلقى التدريب في أكثر من أربعة معاهد للطيران، منحت سلطة الطيران الفيدرالي هاني حنجور رخصة طيران تجاري. عاد إلى السعودية واجتهد في البحث عن وظيفة كطيار بقدر اجتهاده في الحصول على تلك الرخصة، ولكن دون جدوى. وقد أدى فشله في الحصول على وظيفة إلى إصابته بالاكتئاب. ولم يفعل شيئاً في السنة التالية سوى تصفح الإنترنت في المقهى الذي تمتلكه أسرته، والقراءة عن الطيران. وقد كان منذ بداية حياته ملتزماً بدينه وتقياً. وبدأ الآن بالاستماع إلى أشرطة المحاضرات والخطب النارية لمختلف الأئمة التي تنتشر في المملكة⁽⁵⁸⁾. وانتهى به المطاف إلى أفغانستان، وكحال كثير من الشباب المسلم توجه إلى المعسكرات هناك. ووصل إلى هناك في الوقت الذي كان رجال خالد شيخ محمد يبحثون عن طيار رابع. فوجدوا ضالته في حنجور، فعاد إلى الولايات المتحدة ومعه فرصة، أخيراً، للطيران.

لم يمكث حنجور وحازمي طويلاً في ساندياغو بعد مقدم حنجور. فغادر الاثنان قبل عيد الميلاد، وقال حازمي لعبدالستار شيخ مالك المنزل الذي كان

يقيم فيه بأنه ذاهب إلى سان خوزيه من أجل متابعة الدراسة. وعرج الاثنان على محطة تكساكو في سيارة التويوتا كورولا الزرقاء التي يملكها الحازمي لوداع الأصحاب وهم في طريقهم خارج المدينة. واتصل الحازمي بعبداالستار شيخ وأخبره بأنه متوجه إلى أريزونا "وكان ذلك آخر مرة سمعت فيها منه". بحسب إفادة عبداالستار شيخ⁽⁵⁹⁾.

وفي فينكس، بدأ حنجر تدرياته على الطيران مرة أخرى.

بلوشستان

يقع المخيم الصحراوي خارج وادي كيش على سفح هضبة التلال الصخرية الوعرة فوق توربات، وهذا يعني أنه في وسط منطقة نائية بعيدة عن العالم الخارجي، صوب سلسلة جبال ماكران بعيداً في الصحراء الجنوبية الغربية من بلوشستان، وحوالي 75 ميلاً عن الحدود الإيرانية. ومدينة توربات نفسها، والتي يصعب وصفها بالمدينة، كانت بالرغم من ذلك مكاناً لإحدى القصور الكبيرة لناواب الأمير البلوشي الذي حكم المنطقة. كما كانت نقطة عبور لتجارة التمور البلوشية والنفط الإيراني، والهروين والحشيش الأفغاني. وعلى قمة المرتفعات، يوجد المعلم الوحيد من معالم التجارة وهو سوق الجمال الواقع على أطراف قرية صحراوية صغيرة حيث يقع المعسكر.

كان عدد الأشخاص الذين أتى بهم إلى المعسكر قليلاً، وهم مجموعة من الباكستانيين والعرب في حالة رثة وتبدو عليهم آثار التعب من السفر. كان معظمهم من البسطاء المتدينين الذين يظنون أنهم في رحلة تشبه رحلة الحج من أجل التدريب الديني. وقد تم إرسالهم من دول الخليج عن طريق جماعة التبليغ التي وعدتهم بأنهم ذاهبون إلى اجتماع سنوي تعقده الجماعة في باكستان. وبدلاً من ذلك، انتهى بهم المطاف إلى هذا المعسكر الصحراوي بعد رحلة شاقة وطويلة مرت عبر مناطق القتال في كشمير وتخللها السفر عن

طريق القطار والشاحنات امتدت على طول الحدود الباكستانية. وقد كان ذلك أكثر أو أقل مما كانوا يتوقعون.

والآن، وبعد أن أصبحوا هنا، فقد تم وضعهم في جماعات مكونة من ثلاثة أشخاص في أكشاك من الطين. وكان هناك حوالي دزينة من هذه الأكواخ في المخيم. وكان البيت الأخير منها مخصصاً للضيوف. وخصص الكوخ الأوسط لعقد الاجتماعات. وأمضت المجموعة أياماً سعيدة في المعسكر. فقد كانوا يصلون ويتحدثون، ويستمعون، ويذهبون من وقت لآخر إلى القرية. وفي نهاية الأسبوع الأول، وبعد صلاة العشاء. وصلت مجموعة من الرجال المسلحين تسليحاً كثيفاً في قافلة صغيرة مكونة من مركبات التويوتا الرمادية ذات الدفع بأربعة عجلات. وكان قائد القافلة رجلاً كثيف اللحية، انضم إلى الاجتماع وألقى عليهم الدروس. ولم يكن ذلك وعظاً عادياً كما لم يكن ذلك الشخص واعظاً عادياً. كان يحث الزوار على الحرب، وكان اسمه خالد شيخ محمد⁽⁶⁰⁾. وجماعة التبليغ هي جماعة إسلامية جديدة، تأسست في الهند في العشرينيات من القرن الماضي. ويركز قادة الجماعة على طبيعتها المسالمة وعزوفها عن التدخل في السياسة. إلا أن القاعدة، وعلى مدى العشرين عاماً الماضية، استغلت الجماعة لتجنيد أتباع لها⁽⁶¹⁾. وكان محمد يلقي الدروس بعد الصلاة مساء كل يوم من الشهر. بدءاً من منتصف أكتوبر/ تشرين أول قبل بدء تساقط الثلوج. ويقول أحد الأشخاص الذين شاركوا في المعسكر:

"كان حديثه منصباً حول - كيف نعيش عيش حياتنا -، وما يجري حول العالم. ومعظم كلامه كان عن كرهه لأمريكا واليهود. وكان مغتاضاً جداً من التدخل الأمريكي في كل مكان. أفغانستان، الشيشان، كشمير. - هذا شيء كثير. اذهبوا اقتلوهم - هذا كل ما كانوا يقولونه في المعسكر، - اذهبوا اقتلوا الناس -"⁽⁶²⁾.

حث خالد الخارجين مع جماعة التبليغ بالانضمام إلى جماعته. وقال لهم بأن بإمكانه أن يزودهم بهويات جديدة في كراتشي خلال دقائق ويرشدهم كيف يغيروا مظهرهم. وكان مرافقوه يتحدثون من خلال أجهزة لا سلكي من نوع سانيو. وفي بعض الأحيان كان بعض الأشخاص يأتون من الجبال على ظهور الخيل لحضور الاجتماع. وقائد تلك المجموعة شخص اسمه عارف شيخ، وكان محمد يلاقيه بكل حفاوة. وكان عارف أطول من خالد ولكنه كان يشبهه كثيراً لدرجة أن بعض الناس كانوا يظنون أنهم أقارب. وربما كانوا كذلك؛ وربما يكون الرجل الأخ الأكبر لخالد، عارف، الذي يعتقد أنه استقر في بلوشستان بعد مشاركته في الجهاد في أفغانستان⁽⁶³⁾. ويبعد المعسكر حوالي 50 ميلاً أو أكثر جنوب المنطقة التي تسكنها أسرة خالد وأجداده قرب بانجفور. وكان خالد شيخ محمد يتاجر بمقايضة مع السكان المحليين بشحنات النفط الإيراني الذي كان يسحب بالبراميل من خزانات التخزين في توبات. وكانوا يتحدثون عن الذهاب إلى أفغانستان من خلال إيران متجنبين بيشاور لأن الطرق القديمة كانت تخضع لرقابة مشددة. وكان خالد شيخ ثابتاً في لقاء الشبان كل ليلة لتشجيعهم وحثهم.

يعتبر عام 2000 من الأعوام الحافلة بالنشاطات المكثفة لنخب القاعدة وبالتحديد خالد شيخ محمد. وفي هذا العام تم وضع الخطة المعدلة لمهاجمة الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق الجو موضع التنفيذ. وفيما عدا تأمين الطيار الرابع، سارت المراحل الأولية من الخطة على ما يرام وبشكل غير عادي. فقد تم العثور على ثلاثة مرشحين ليصبحوا طيارين، وتم تمويلهم، وإرسالهم إلى الولايات المتحدة. وأنهوا جميعهم الجزء الأساسي من تدريباتهم دون أي عائق. كما تم العثور على مرشح ليكون الطيار الرابع، وتم إرساله في

المهمة. وتم وضع هيكل للقيادة والاتصالات يلعب عمر فيه دور حلقة الوصل. وكان عمر الشخص المثالي لهذه المهمة. فقد كان يجيد التشبيك، وكان يحظى بثقة كافة الأطراف. وكان يعرف الطيارين المرشحين معرفة جيدة منذ سنوات. ويذكر الأشخاص الذين شاهدوه في أفغانستان أن صلة خاصة نشأت بين عمر وابن لادن. وكان الاثنان يجتمعان يومياً، بحسب شهادة أحد الأشخاص. وقد رؤيا وهما مندمجين في نقاش عميق⁽⁶⁴⁾. وكان ابن لادن ينزع إلى استخدام اليمنيين في خططه بأعداد تفوق نسبة عضويتهم في المنظمة. ويثق بهم ثقة عمياء.

كان لدى خالد شيخ محمد مخاوف أخرى. فقد طوّرت القاعدة أسلوباً متتداً في عملياتها. وكان يسمح بتطوير الخطط على مدى عدة سنوات، فعلى سبيل المثال: بدأت الاعتبارات الأولى لتفجير السفارات الأمريكية في شرق إفريقيا في مطلع التسعينيات من القرن الماضي. وتم وضع المنفذين في تلك الدول قبل ستة وسبعة أعوام من وقوع الهجمات عام 1998. ويبدو أن الوقت الطويل الذي تأخذه هذه العمليات غريباً لعدة أسباب، ليس أقلها أن إطالة المدة تزيد من احتمالات تعريض سلامة وأمن المنفذين المفترضين للخطر طوال هذه المدة. وبالنظر إلى أن أعمال الاستخبارات المضادة تعتمد فيما يبدو في جزء كبير منها على الحظ، فإن طول المدة التي تتطلبها العملية سيزيد من فرص احتمالات تدخل الحظ في الكشف عنها. ويبدو أيضاً أن هذه الاحتمالات لم تكن مصدر قلق بالنسبة للقاعدة. أو على الأقل لم يكن لها أي أثر من الناحية الواقعية.

أما الأثر العملي للخطط طويلة المدى فهو فتح المجال لتخطيط عدة عمليات في وقت واحد. إضافة إلى إمكانية اشتراك الأشخاص في أكثر من عملية. وبينما كانت خطة عملية اختطاف الطائرات تأخذ مجراها في تجنيد وتجهيز الطيارين، أمضى خالد شيخ محمد ثلاثة أسابيع في روما، بداية ذلك

العام، في العمل للتحضير لمؤامرة أخرى⁽⁶⁵⁾. كما أنه قدم المساعدة في التحضير للهجوم على القوات الأمريكية في خليج عدن جنوبي غرب اليمن. حيث رافقه إلى المنطقة عبدالرحيم التشيري وتوفيق بن عطاش - أو خلاد كما كان يعرف.

كان خلاد شخصية بارزة في الاجتماعات التي عقدت ذلك العام في ماليزيا. وهو الاجتماع الذي تجسست عليه وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA وساعد فيما بعد في وضع خطة جديدة للهجوم على سفينة أمريكية. ورافقه في رحلة العودة إلى اليمن ذلك الخريف شخص واحد على الأقل ممن حضروا اجتماعات كوالالامبور وهو خالد المحضار. كما كان عمر في اليمن كذلك. حيث وصل في اليوم الذي سبق الهجوم على البارجة الأمريكية كول. وغادرها بعد أربعة أيام⁽⁶⁶⁾. وفي هذه المرة نجح المهاجمون في مهمتهم، إذ صدموا جانب السفينة كول بقارب محمل بالمتفجرات بينما كانت راسية في ميناء عدن. وأحدث الانفجار فجوة كبيرة في جانب المدمرة كادت أن تغرقها، كما وأودت بحياة سبعة عشر بحاراً أمريكياً. وأفلت خلاد والمحضار دون أن يلحظهما أحد.

وبعد تفجير السفارات عام 1998، ردت الولايات المتحدة على تلك التفجيرات بإطلاق عشرات الصواريخ من نوع كروز على معسكرات التدريب في أفغانستان، وعلى مصنع كيماوي في السودان. وتعاملت القاعدة مع هذا الرد هذه المرة. فكان ابن لادن يتنقل باستمرار حول أفغانستان لعدة أسابيع مغيراً مكان إقامته يومياً⁽⁶⁷⁾. ويبدو أنه لهذا السبب كان خالد شيخ محمد مختفياً في بلوشستان.

توضح حقيقة إحضار خلاد للمساعدة في تنفيذ الهجوم على المدمرة كول ومشاركة المحضار فيها، جانباً ملفتاً من جوانب القاعدة، ألا وهو صغر حجم

هذه المنظمة. فعلى امتداد عشرين عاماً، مرّ على معسكرات التدريب في أفغانستان عشرات الآلاف من الشباب. وفي تلك الفترة نفسها تمت نسبة عشرات الهجمات التي حدثت حول العالم إلى الأصوليين الإسلاميين. إلا أن صلة معظم هذه الهجمات وكذلك الأشخاص الذين نفذوها بالقاعدة هي صلة ضعيفة فيما عدا التوافق في الأهداف. فقد كانت غالبيتها جماعات مستقلة، تقوم بعمليات محلية. أما الهجمات التي نسبت إلى القاعدة فقد كانت المجموعة ذاتها من الأشخاص المعدودين على الأصابع متورطة في كل واحدة منها. وحتى الأفراد العاديين الذين اشتركوا في تلك العمليات تم استخدامهم مرة أخرى في عمليات أخرى. وكانت المنظمة صغيرة جداً لدرجة أن كل شخص فيها، ومن وقت لآخر، كانت له علاقة مباشرة مع القيادة العليا فيها. وكان الأشخاص الذين يأتون إلى معسكرات التدريب يجتمعون بابن لادن بشكل عادي. وذكر بعض الأشخاص الذين شاركوا في التدريب في المعسكرات ولكنهم لم ينضموا إلى المنظمة أنهم اجتمعوا عدة مرات بابن لادن وخالد شيخ محمد والقائد العسكري محمد عاطف والمسؤول عن التجنيد أبو زبيدة. وقد ساعدت القيم المشتركة للمنظمة في زيادة قوتها عن طريق تحالفها مع الجماعات الأصولية السياسية المشابهة والمستقلة ذاتياً حول العالم. وهذا الأمر جعل من القاعدة تبدو وكأنها موجودة في كل مكان. ولكنها كانت في الواقع حفنة من الرجال يلاحقون بإصرار بعض المشاريع والمغامرات القاتلة.

فيرجينيا

في 20 أكتوبر/ تشرين أول، قام محمد بلفاس مرشد عطا في هامبورغ، و أحياناً رفيق عمر في السكن، بمرافقة آغوس بيدمان، وهو معماري شاب يعرفه منذ سنوات، في رحلته من ألمانيا إلى الولايات المتحدة. وكان بيدمان، وهو إندونيسي مثل بلفاس، يزور الولايات المتحدة منذ سنوات عدة. ولديه أقارب يسكنون في ضواحي العاصمة الأمريكية واشنطن. وكان ينوي الاستقرار

بشكل دائم هناك. وقال بلفاس فيما بعد بأنه سائح عادي جاء ليشاهد الولايات المتحدة.

سكن بديمان مع أخيه، وعمل في وظيفة مسائية كسائق في خدمة توصيل طلبات الطعام إلى المنازل. وخلال الأسبوعين اللذين قضاهما بلفاس هناك، كان يرافق بديمان إلى العمل ويساعده في قيادة السيارة والتوصيل مقابل أن يساعده بديمان في الحصول على رخصة سوق أمريكية. وقال له بديمان بأنه لا يحتاج إلى رخصة سوق أمريكية لقيادة سيارة التوصيل، إلا أن بلفاس أصرّ على ذلك قائلاً بأنه يريد أن يحتفظ بالرخصة كشيء تذكاري⁽⁶⁸⁾.

وفي الرابع من نوفمبر/ تشرين ثاني، قام بلفاس وبديمان بزيارتهما الأولى من مجموع زيارتين إلى مكتب إدارة ترخيص المركبات في مركز مدينة آرلينغتون في ولاية فيرجينيا. وفي الزيارة الأولى حصل بلفاس على بطاقة هوية شخصية، وبعد ذلك شهد بديمان أن بلفاس يقيم في آرلينغتون. ورجعا بعد يومين وتقدم بلفاس بطلب للحصول على رخصة سوق من فيرجينيا وحصل عليها مستخدماً بطاقة الهوية كدليل على إقامته في الولاية. ثم عاد بلفاس إلى ألمانيا خلال أسبوع.

وهناك، وبحسب ما يقول هو، التقى صديقه عمر بطريق الصدفة في القطار، وأخبره عن رحلته إلى الولايات المتحدة وكيف حصل هناك على رخصة سوق أمريكية.



obeyikan.com

■ الفصل الثالث ■

السنة الأخيرة

المهمة الأخيرة

بعد أن رجع طيارو هامبورغ إلى فلوريدا في يناير/ كانون ثاني، تحوّل اهتمامهم من الوظيفة العادية في تعلم قيادة الطائرات إلى البدء بالإعداد للهجوم. وكان أمامهم عدة مهام:

→ الحصول على مزيد من التدريب على الطيران وتخصيص مزيد من الساعات في مشبهات الطيران التجاري حتى يتمكنوا من قيادة الطائرات التجارية ولو لفترة وجيزة.

→ دراسة ومعاينة الإجراءات التي تتبعها شركات الطيران من أجل تحديد أفضل السبل للركوب على متن الطائرة والسيطرة على قمرة القيادة في أثناء الطيران.

→ توصيل هذه المعلومات إلى الأشخاص الذين سيرسلون لمساعدتهم.

→ إيواء وإطعام هؤلاء الأشخاص، وتنظيمهم ضمن فرق عمل.

→ تحديد وقت الهجوم.

وفور عودتهم، بدؤوا بمزيد من تدريبات الطيران⁽¹⁾. مارس جراح بشكل مكثف مشبهات الطيران في ميامي. ولم يكن قد أنهى متطلبات الحصول على رخصة الطيران التجاري في السنة الماضية كما فعل عطا والشحي. ظهر عطا

والشحي في ضواحي مدينة أتلانتا في جورجيا، حيث بدأ باستئجار الطائرات للتدريب على قيادتها. وفعّلوا ذلك على نحو متقطع طوال شهر استأجرا خلاله غرفة في إحدى الفنادق ذات الأجرة المخفضة⁽²⁾. كما قاما برحلة إلى شواطئ فيرجينيا، حيث استأجرا عنوان بريد تجاري لدى شركة خاصة تقوم بتأجير صناديق بريد تجارية. وفي اليوم التالي سحبوا مبلغ أربعة آلاف دولار نقداً من حسابهما المصرفي، ثم عادا إلى فلوريدا⁽³⁾. وفي الجهة المقابلة من القارة الأمريكية، التحق هاني حنجور بمعهد جت تك لتدريب الطيران في فينكس بولاية أريزونا⁽⁴⁾. وكان المدربون في ذلك المعهد قلقين من ضعف لغته الإنجليزية. فاللغة الإنجليزية هي اللغة الدولية للطيران؛ ولا يمكن لشخص الطيران بسلامة وأمان دونها. وكان حنجور يحمل رخصة طيران تجاري ولكن لغته الإنجليزية كانت على درجة من الضعف والركاكة مما جعل المسؤولين في المعهد يتساءلون كيف حصل على تلك الرخصة، وعمّا إذا كانت رخصته شرعية أم مزورة. فقاموا بالاتصال بمدققي سلطة الطيران الفيدرالية الذين أكدوا بدورهم أن رخصة حنجور صادرة فعلاً عن الوكالة. ورأت الوكالة أن كل ما ينقص حنجور هو مدرس للغة الإنجليزية ليس أكثر. مكث حنجور عدة شهور في جت تك، وأمضى معظم وقته على مشبه لطائرة بوينغ 737 وذلك بالرغم من عدم إحرازه مزيداً من التقدم.

وفي تلك الأثناء، كان أسامة بن لادن يحث خالد شيخ محمد بالإسراع في التحضيرات. وكان يريد البدء بالهجوم⁽⁵⁾. إلا أن عطا رفض. وكان هناك أشياء يجب الانتهاء منها أولاً، كما قال عطا، وأيده في ذلك خالد شيخ محمد. كرر ابن لادن مطالبه طيلة الأشهر التالية.

وفي فبراير/ شباط، خضع والد زياد جراح لعملية في القلب. وطلبت الأسرة من زياد أن يرجع إلى لبنان ليكون إلى جانب والده. إلا أن زياداً تباطأ،

ثم حدد موعداً لزيارة لبنان في نهاية شهر مارس/ آذار، وسافر فعلاً. وفي رحلة العودة توقف في بوتشوم لرؤية آيسل. وظهر تأثره الشديد بتردي صحة والده. وقال بأنه يريد أن يجدد عهده في العلاقة بهما.

تقول آيسل: "لقد كان فعلاً متأثراً، وقال بأنه، أي زياد، يرغب في إنجاب الأولاد قريباً كي يشاهدهم أبوه ويفرح بهم قبل وفاته"⁽⁶⁾.

لاحقاً، وبعد أن عاد زياد إلى الولايات المتحدة، وبسبب عدم تحديده موعداً لانتهاه تدريباته، انتاب الغضب آيسل مرة أخرى. وزياد، كعادته، لديه تفسير جاهز؛ وآيسل، كعادتها، قبلت ذلك العذر. ذلك أن استمرار العلاقة بينهما، كان يعتمد في جزء كبير منه على مقدرة آيسل في تصديق أكاذيب زياد، حتى تلك التي تبدو واضحة جداً. وفي إحدى المرات التي زار فيها زياد بوتشوم، أبرز زياد صورة له في أثناء رحلة داخلية في الولايات المتحدة، ويبدو أن الصورة أخذت في أثناء رحلة استطلاعية قام بها زياد وبقية رفاقه لمعاينة الإجراءات الأمنية المتبعة في أثناء الرحلات الجوية، وفي جميع هذه الرحلات، كانوا يسافرون بالدرجة الأولى أو الدرجة السياحية. وسألته آيسل لماذا كان يجلس في الدرجة الثانية. فأجابها زياد بأن المضيئة طلبت منه الجلوس في الأمام، لأنني كنت لبنانياً، كما قال، وأرادوا وضعي في مكان يكون من السهل عليهم مراقبتي فيه بشكل دائم. وكان هذا الوصف أقرب ما يكون لما تريده آيسل، أن تضع زياداً في مكان بحيث يمكنها أن تجعله نصب عينيها دائماً. ولكن حتى عندما كان نصب عينيها - في ذات الغرفة وذات السرير - لم تكن آيسل ترى إلا إلى حدٍ معين. فقد جعل زياد من النظر إليه بعمق أمراً صعباً، كما أن آيسل، فيما يبدو، كانت تتعامى عما تراه، لم تكن ترغب رؤية ما هو أمامها. لقد شاهدت جراح وهو يخطو في طريقه نحو مؤامرة الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول خطوة خطوة. وبإمكانها، حتى هذا اليوم، أن تستذكر تلك

الخطوات، وما زالت تعتقد أنها لم تكن تعلم إلى أين تتجه. وبالطبع، لم تصدق آيسل الدليل، كانت تؤمن بما يؤمن به المحبون - كانت تؤمن بزيادة.

لم تكن آيسل وحدها في ذلك. فقد كانت معتقدات مجموعة هامبورغ ورفاقهم علنية جداً بحيث بدت الفكرة القائلة بأنهم كانوا خلية سرية للقاعدة أو "عملاء نائمون" وكأنها فكرة مناقضة للحقيقة. وفي بعض الأحيان بدا وكأن كل شخص عرف هؤلاء الأشخاص من هامبورغ، وبخاصة أسرهم، يمكنه أن يلاحظ أن خطأً جسيماً قد حدث في حياتهم.

تعامل الطيارون بشكل مختلف مع أسرهم. وقد كانت أسرة زياد الأسرة الوحيدة التي لديها فكرة صحيحة تقريباً عما كان يحدث - الإقامة في فلوريدا والالتحاق بمعهد للطيران. ولكن لم يكن لديهم فكرة عن السبب الذي دفع ابنهم لتعلم الطيران، ولكنهم مع ذلك كانوا بالمقارنة مع بقية أسر الطيارين أكثر علماً بما كان يجري. كان والد ووالدة عطا على علم بأن ابنهما موجود في الولايات المتحدة أيضاً، ولكنهما كانا يعتقدان أنه يتابع دراسة الدكتوراه في التخطيط الحضري. أما أسرة الشحي فكان من الواضح أنها لم تكن تعلم أي شيء عنه.

فبعد أن غادر الإمارات في ربيع عام 2000، كان مروان الشحي على اتصال مع أهله على نحو منتظم لمدة من الزمن، ثم تناقصت تلك الاتصالات إلى أن توقف أخيراً عن الاتصال نهائياً. وعندما جاء رمضان في ذلك العام في شهر ديسمبر/ كانون أول، ولم تسمع الأسرة من مروان، وهو ما يعتبر خرقاً خطيراً للعادات والمسؤوليات الأسرية، ثارت حفيظة أمه. (لم يكن أبوه على قيد الحياة فقد توفي قبل عدة سنوات من ذلك التاريخ) وحاولت أن تعرف ما الذي يجري. فاتصلت بالسفارة الإماراتية في بون عدة مرات، مناشدة إياهم التحري عنه. قامت السفارة على إثر ذلك بالاتصال بالجامعة التقنية في هامبورغ،

حيث كان من المفترض أنه يدرس فيها. وقالت الجامعة بأنه انقطع عن الدراسة منذ عام؛ وأنهم أرسلوا إليه رسالة يخبرونه فيها بأن الجامعة قامت بشطبه من سجل تسجيل الجامعة. كما أن سجلات الشرطة لم تتضمن أي شيء يتعلق به؛ ولكنها فتحت له ملف تحقيق بين الأشخاص المفقودين بعد أن تبين أنه لا يعرف مكان وجوده، إلا أن ذلك التحقيق لم يسفر عن أي شيء. وأخيراً أرسلت والدة الشحي أخاه غير الشقيق محمد إلى ألمانيا. وأمضى محمد ويرافقه موظف من السفارة الإماراتية عدة أيام في بون وهامبورغ في البحث عن مروان⁽⁷⁾.

يقول محمد عودي، أحد زملاء الشحي في بون: "سأل في كل مكان، في المساجد، وحتى في ناد عربي لكرة القدم، ولكن دون جدوى"⁽⁸⁾.

ويقول أحد موظفي الأمن الإماراتيين: "كنا نعلم أنه لم يكن يدرس في الجامعة في ألمانيا، وأن الألمان لم يكن لديهم أي علم بمكانه"، ويضيف، "كنا نحاول إعادته إلى الإمارات. وكنا نحاول تعقبه"⁽⁹⁾.

أخيراً، وعندما كانوا في هامبورغ، تحدثوا إلى منير المتصدق، وكان يحمل توكيلاً من الشحي يخوله التصرف بحساباته. وقال لهم المتصدق بأن الشحي ذهب إلى الشيشان أو أفغانستان⁽¹⁰⁾. عاد محمد إلى الإمارات العربية المتحدة، وفي ذلك الشهر، اتصل الشحي بأهله بعد أن تنبه شخص ما، على ما يبدو، وأخبر أسرته بأن المتصدق كان مخطئاً فيما ذكره عن الشيشان؛ وأنه انتقل إلى منطقة أخرى في هامبورغ. وأنه ما زال يدرس. وقال بأنه متأكد أنه سيرى النور في نهاية النفق. وبغض النظر إن كانت أسرته صدقته فيما قال أم لا، فإنهم قرروا طرح المسألة جانباً، وعاد الشحي إلى استئناف عمله.

قد يبدو من بعيد أن المجموعة الرئيسة المشتركة في هذه المؤامرة قامت بأسفار كثيرة. وقد تبدو المدة التي أمضوها في الولايات المتحدة وكأنها

تحركات غامضة وغير واضحة. إلا أنها لم تكن كذلك من الناحية الفعلية. فقد مكث الطيارون الثلاثة من هامبورغ في الولايات المتحدة مدة خمسة عشر شهراً تقريباً. وخلال النصف الأول من تلك الفترة، كانوا يقومون بأكثر من مجرد الذهاب إلى المعهد لعدة ساعات في اليوم والعودة إلى المنزل. وفي النصف الثاني من تلك المدة، فإنهم لم يفعلوا ذلك في معظم الأيام. وبشكل عام مرّت عليهم مدد زمنية طويلة لم يفعلوا خلالها شيئاً يذكر. كانوا في حالة من الانتظار. وكانوا يتناولون الغداء في المطاعم الشرق أوسطية القليلة في المنطقة - في الغالب لبنانية - التي كانوا يجدونها⁽¹¹⁾. ويتسوقون في مراكز التسوق.

كانوا يغيرون مساكنهم كل شهر تقريباً. وفي الغالب كانوا يستأجرون غرفاً مفروشة أو شققاً سكنية صغيرة في تجمعات سكنية ذات أجرة منخفضة. ولم يكن للطيارين الثلاثة اتصال مع السكان المحليين فيما عدا التعامل التجاري العادي. وعندما طلب من الشحي ذات مرة أن يسجل عنوانه الدائم في طلب استئجار، كتب "لا يوجد، فأنا شخص دائم التجوال"⁽¹²⁾.

قاموا ببعض الأسفار، وكانت بعض هذه الرحلات بهدف دراسة ومعانية إجراءات الأمن المتبعة في المطارات وفي شركات الطيران، وبهدف العثور على الثغرات التي يمكنهم استغلالها حين تحين الفرصة⁽¹³⁾. وقام عطا تحديداً، من قاعدته في فلوريدا بالذهاب إلى أوكلاهوما ونيفادا، ونيوجيرسي وفيرجينيا وجورجيا وماسيتشيوستش وماين. كما سافر مرتين إلى أوروبا. ورافق الشحي محمد عطا إلى جورجيا وفيرجينيا، وقام بعدة رحلات وحده إلى نيفادا وكاليفورنيا. كما أنه غادر الولايات المتحدة مرتين: الرحلة الأولى سافر فيها إلى المغرب وربما منها إلى ألمانيا، والرحلة الثانية كانت في الربيع إلى القاهرة حيث التقى فيها والد محمد عطا⁽¹⁴⁾. وغاب عن الولايات المتحدة مدة أسبوعين. وعلى الأرجح فيما يبدو أنه ذهب إلى الإمارات ليرضي أمه. وسافر

جراح داخل الولايات المتحدة إلى جورجيا ونيفادا وكاليفورنيا ونيوجيرسي وميريلاند. وكان بالمقارنة مع رفاقه أكثرهم سفراً إلى الخارج: رحلة إلى جزر الباهاما وخمس إلى أوروبا من ضمنها رحلة إلى بيروت.

وفي الجهة الغربية، مكث نواف الحازمي أكثر أو أقل في بيته في ساندياغو. فيما عدا الأوقات التي سافر فيها براً إلى لاس فيغاس في ولاية نيفادا. إلا أن هذه الوضع تغير بعد مقدم حنجور. فقد انتقلا إلى أريزونا لعدة أشهر، ويبدو أنهما توجهتا بعدها براً إلى ولاية فيرجينيا. وفي الطريق أوقفتهما إحدى دوريات الشرطة الخارجية غرب أوكلاهوما لإعطائهم مخالفة مرورية بسبب سرعتهم الزائدة. ويبدو أن إيقافهم من قبل شرطة أوكلاهوما حدث بطريق المصادفة. فخلال ذلك الوقت، كان خاطف محتمل آخر يتلقى تدريباته في معهد للطيران في أوكلاهوما، وهذا الشخص هو زكريا موسوي.

وموسوي هذا، هو الشخص الفرنسي ذي الأصل المغربي وصاحب المزاج المتقلب. والذي وافق خالد شيخ محمد على إرساله للتدريب على الطيران بتردد. عاد موسوي يستعلم مرة أخرى من معهد إيرمان للطيران في مدينة نورمان من ولاية أوكلاهوما، في شهر فبراير/ شباط، معتذراً عن التأخير، وقدم هذه المرة يقول: "الحياة ليست كما نقدر ونتوقع". وأراد موسوي معرفة تكلفة ومدّة التدريب لحزمة كاملة تبدأ من التدريب الأرضي وحتى الحصول على رخصة الطيران التجاري. ثم، وعلى نحو مفاجئ، أرسل رسالة إلكترونية إلى "الآنسة بريندا" في المعهد نهاية فبراير/ شباط، ورد فيها "عاجل جداً. إنني مسافر غداً بالطائرة لرؤيتك... سأكون ممتناً إذا كان في المطار من يستقبلني" (15).

وصل موسوي، ورفض ترتيبات المسكن التي اقترحتها المعهد لأنها كانت في نظره، شعبية وباهظة التكلفة، واستأجر بدلاً من ذلك غرفة، واشترى سيارة

صغيرة مستهلكة، وأودع مبلغ 32 ألف دولار في حساب مصرفي فتحه لدى أحد المصارف المحلية. ودفعت نقداً رسوم برنامج تدريب يمكّنه من الحصول على رخصة خاصة للطيران، وهي خطوة أولى أساسية نحو الرخصة التجارية. وبعد ثلاثة أشهر وأكثر من 50 ساعة طيران، لم يكن موسوي جاهزاً بعد للطيران وحده. وأخبره القائمون على المعهد أن بإمكانه متابعة التدريب معهم ولكن عليه أن يدفع رسوماً إضافية عن الساعات الإضافية التي سيأخذها. إلا أنه رفض العرض وقال بأنه سيتابع تدريباته في مكان آخر. وإذا كان هناك نية لاستخدام موسوي في عملية الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، فإن من المرجح أنها انتهت عند تلك اللحظة⁽¹⁶⁾.

الرجال الأخيرون

مع نهاية ربيع عام 2001، دخلت الاستعدادات النهائية مرحلة جادة مع وصول بقية طاقم الخاطفين، فرق الضربة، كما كان يطلق عليهم. وكانوا جميعاً من السعوديين باستثناء شخص واحد. وبدؤوا بالوصول أواخر شهر إبريل/ نيسان. ومع نهاية أواخر شهر يونيو/ حزيران، كانوا جميعاً في الولايات المتحدة. أراد خالد شيخ محمد إرسال المزيد من الرجال أي بمعدل سبعة إلى ثمانية في الطائرة الواحدة⁽¹⁷⁾. وكان هناك على الأقل ستة أشخاص من الذين اختارهم لتلك المهمة، ولكنهم لم يتمكنوا من القدوم إلى الولايات المتحدة؛ بعضهم رفضت طلباتهم للحصول على تأشيرة دخول، وبعضهم الآخر أبدى موافقته على المشاركة إلا أنهم انسحبوا قبل مغادرتهم إلى الولايات المتحدة. وكان هناك على الأقل شخص واحد لم يسمح له موظف الهجرة بالدخول إلى البلاد⁽¹⁸⁾.

ولا يعرف سوى القليل عن هؤلاء الأشخاص الذين وصلوا متأخرين. وسبب ذلك أن المملكة العربية السعودية كانت شحيحة في تقديمها المعلومات

الموجودة لديها، والتي تعتبر ذات أهمية. كما أنها جعلت من الصعب على الآخرين استكشاف هذه المعلومات. إلا أنه ليس من المستغرب، من منظور أكبر، أن يكون معظم الخاطفين من السعودية؛ فمنذ البداية، كان السعوديون يشكلون أكبر نسبة من بين الأفغان العرب. وابن لادن نفسه سعودي، وكذلك معظم الذين قدموا الدعم المالي للمجاهدين، وفيما بعد، للطالبان. كما أن أبرز جماعات ومنظمات الإغاثة التي كانت من أقوى مؤيدي طالبان التي اتهمت بتقديم العون لخطط القاعدة، كانت تتلقى معظم دعمها من السعودية، أو كانت مراكزها الرئيسية هناك.

ينحدر معظم الخاطفين السعوديين من منطقة عسير، وهي منطقة جبلية تقع جنوبي غرب المملكة. وهي منطقة وعرة، ومعزولة جغرافياً واجتماعياً عن هيكل السلطة في السعودية التي تتركز في مثلث جدّة - مكة - الرياض. وتعتبر باقي أجزاء المملكة مغلقة من الناحية الفعلية بما فيها المناطق الشرقية التي تحتوي على معظم المخزون النفطي السعودي. وابن لادن، برغم ثروته الهائلة، كان هو الآخر يعامل معاملة الغرباء لأنه لم يكن من القبائل الملكية. فهو حضرمي، كما يقول الناس، وهذا يعني أن أسرته جاءت من وسط اليمن، قاصدين أن ذلك هو كل ما يكفيك أن تعرف.

كانت مناطق جنوب غرب المملكة مستقلة عن السيطرة السعودية وتحكمها قبائل محلية حتى العشرينيات من القرن الماضي. وحتى بعد أن أصبحت جزءاً من الأمة السعودية، إلا أنها لم تندمج بشكل كامل في المجتمع السعودي وبقي سكانها معزولين. إلا أنها، بالمقابل، لقيت كامل الاهتمام من العاصمة فيما يخص المسائل الدينية. وانتشرت في أرجائها البعثات الدينية والوعاظ في القرن التاسع عشر، وحققوا فيها نجاحاً كبيراً. وأصبحت منطقة جنوب غرب السعودية، وما زالت، معقلاً قوياً لأكثر أشكال الوهابية السلفية تشدداً، وأكثر

المناطق المحافظة دينياً في المملكة. وبعبارة أخرى، تعد قيمها نسخة مشددة مما هو سائد في المملكة.

ينحدر معظم الخاطفين السعوديين من أسر تعمل في التجارة أو في الأعمال المدنية - أسر موسرة ولكنها ليست ثرية. ووصف عدد منهم بأنهم كانوا من بين أفضل أقرانهم - أذكفاء، ومحترفين - في بلداتهم. وكانوا في الغالب أشخاصاً غير متميزين ولم يكن من بينهم أي أحد متميز بنشاطه السياسي أو الديني. والتحق عدد كبير منهم بالجامعات في الرياض وجدة. ودرس ثلاثة منهم الشريعة. وكان واحد منهم على الأقل، وهو أحمد إبراهيم الحزناوي، في الحادية والعشرين من العمر. يحفظ القرآن غيباً، وهي علامة على عمق الورع والتدين، ومحل احترام وتقدير الآخرين. ورجل آخر هو وائل الشهري، كان مدرساً للتربية الرياضية. وتقول أسرة الشهري بأن وائلاً أصيب بالاكْتئاب أواخر عام 1999، فأرسله أبوه إلى إمام في الحي ليقدم له النصيحة. وصف الإمام له قراءة القرآن لعلاج الاكتئاب. وبعد ذلك بوقت قصير، غادر وائل وأخوه وليد إلى أفغانستان.

غادر أيضاً عدد آخر من الشباب، مثل الشهري، مع أصدقاء مقربين أو أقارب. وأخبر ثلثهم ذويهم بأنهم ذاهبون إلى الجهاد. وقال عدد منهم بأنهم ينوون القتال في الشيشان. واختفى بعضهم الآخر.

إن قيام عدد من الشباب المنحدرين من أسر مرموقة بمغادرة البلاد وترك أسرهم دون أن يحدث ذلك جلجلة ودون أن يحاول أحد إيقافهم، يعد دليلاً على مدى سعة وعمق الدعم داخل السعودية للجهاد. ولم يتوقف أبداً تدفق أفواج الشباب التي تضاعفت خلال الحرب الأفغانية ضد السوفييت. واستقرت العادة سواء وجد أعداء بارزون للإسلام أم لم يوجدوا. وفي ظل عدم وجود منع فعلي من الحكومة، استمر هذا التدفق دون توقف على مدى

عقد من الزمان حتى بعد اختفاء السبب الأصلي للجهاد [الاحتلال السوفييتي]. كما أن اعتياد الشباب الذهاب إلى الحرب يدل على حقيقة أخرى وهي أنه لم يكن هناك شيء أمام هؤلاء الشباب لفعله أو كان هناك الشيء القليل. فالاقتصاد السعودي ببساطة لم يخلق فرص عمل معتبرة للطبقات المتزايدة من الشباب السعودي. ومع عدم وجود عمل يربطهم، تُركوا للسقوط في الهاوية. وأمام انعدام السبل الاقتصادية، لم يكن أمامهم سوى التوجه في السبيل الذي يدعوهم إليه دينهم.

كانت شبكات التجنيد المحلية مضمنة في الهيكل الاجتماعي للدولة. وكانت تشكل جزءاً جوهرياً من المجتمع، وليست شيئاً عارضاً عليه. والمملكة العربية السعودية، وبخاصة أنه يحكمها نظام ملكي مطلق، ليس فيها ممارسة سياسية بالشكل والمضمون المعهودين في الغرب؛ ولا يوجد فيها نقاش علني عام حول السياسات والمواقف والتوجهات الوطنية. ولكن السعودية هي أيضاً واحدة من أكثر المجتمعات شديدة التدين على وجه الأرض، ودينها هو الإسلام الذي تمتزج فيه السياسة بالدين. فكل شأن سياسي هو شأن ديني بالضرورة؛ وكل شأن ديني هو أيضاً سياسي. ومسائل الدين تخضع بكثرة للنقاش. ويقول وحيد حمزة هاشم المتخصص بالسياسة السعودية، إن هذا الوضع أوجد عملية تجنيد عضوية في مختلف أرجاء المجتمع السعودي:

"في كل شارع هناك مسجد. وفي كل مسجد هناك إمام. وكل ليلة، وعقب صلاة المساء، لا يمكث الجميع في المسجد. يحدث نقاش، وهناك وجهة، وهناك نداء. وفي الإسلام، يجب أن يخضع كل شيء للتمحيص. هل هذا صحيح أم خطأ؟ فأين تتوجه لمعرفة الجواب؟ هؤلاء الشيوخ وبعض الأئمة مرتبطون ببعضهم...ومن هناك كانت البداية. وفي النهاية فإنك تتحول من نفس بشرية إلى قبلة بشرية. تتحول إلى آلة للقتل"⁽¹⁹⁾.

لم يكن هناك طريق مباشر أمام معظم هؤلاء الشباب للذهاب من الشرق الأوسط إلى الشيشان أو البوسنة للقتال. كما لم تكن هناك رغبة لدى المسلمين المقاتلين في تلك المناطق بتلقي هذه المجموعات من شباب أغرار وغير مدربين. فانتهى المطاف بأولئك الذين غادروا البلاد لكي يقاتلوا في حروب مقدسة، بغض النظر عن المكان الذي تخيلوه لتلك الحروب، انتهى بهم المطاف إلى أفغانستان. ولم تقترب هذه المجموعة من الشباب السعودي من أي ساحة تقليدية للقتال. بل تم اختيارهم من قبل مجندي القاعدة الذين كانوا يبحثون عن شباب يحملون جوازات سفر نظيفة ولديهم الاستعداد للموت في سبيل معتقداتهم. وكانت "كتائب الشهداء" بحسب وصف خالد شيخ محمد مكتظة بالمتطوعين بأكثر من طاقتها⁽²⁰⁾. وكانت الخطة الأصلية تقضي بملء المراتب الدنيا (الجنود المشاة) في الخطة بشباب من دول مختلفة لكي يتوزع الشرف بينهم. ولكن أسامة بن لادن قرر بدلاً من ذلك أن يرسل الغالبية من السعوديين⁽²¹⁾. ومهما كان سببه من وراء ذلك،⁽²²⁾ فإن حصول السعوديين على تأشيرات دخول إلى الولايات المتحدة يعد من الناحية العملية أسهل بكثير من حصول غيرهم من الجنسيات الأخرى على تلك التأشيرات. وإن كان هناك أي شك في هذا الأمر، فإن تجربة الخاطفين أثبتت ذلك وعلى نحو قاطع. وكان عدد من جوازات سفر السعوديين قد تعرضت لعمليات تزوير واضحة بهدف إخفاء سفرهم إلى باكستان. وقام معظمهم بارتكاب أخطاء جسيمة أو بإخفاء معلومات في طلبات حصولهم على تأشيرات الدخول إلى الولايات المتحدة. كما فشل عدد منهم في إثبات يسرهم المالي وهو شرط مطلوب من أجل الحصول على تأشيرات ذات مدد طويلة. ولم يكن لأي من هذه الأخطاء أي أثر⁽²³⁾. فقد حصلوا جميعاً على تأشيرات دخول. وكان الشخص الوحيد غير السعودي من بينهم، شخص إماراتي وصديق للشحى اسمه فايز بنى حماد. وهو الآخر لم يواجه أي عقبة في الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة.

تلقت المجموعة تدريبات على القتال اليدوي في معسكرات تدريب القاعدة، وتعلموا المهارات التي سيحتاجونها في أداء مهمتهم الخاصة، وهي السيطرة على طاقم الطائرة. وكان الطيارون هم القادة، وبقية الرجال هم العضلات.

كانت اللجنة مطلباً قوياً. وقبل مغادرتهم أفغانستان، قاموا بتصوير أشرطة فيديو يعلنون فيها عن رغبتهم، لا بل عن تشوقهم للشهادة. وقال عبدالعزيز العمري في شريطه: إنه يتطلع إلى ما هو آت: "إنني أكتب هذا عن كامل وعي وإرادة، وإنني أكتب هذا مع توقع النهاية التي هي قريبة. هذه النهاية هي في الحقيقة البداية. سوف نأتيكم. سوف نذلكم. ولن نتوقف عن متابعتكم.. وجزى الله خيراً كل من دربني وساعدني في هذا السبيل، وكان وراء هذا العمل الكريم. ولا ننسى ذكر القائد المجاهد الشيخ أسامة بن لادن حفظة الله. وأسأل الله أن يتقبل أعمالنا"⁽²⁴⁾.

دخل الأشخاص الثلاثة عشر - أو كتائب الإيمان، كما سماهم عمر (25) ساحة الجهاد من أبسط الطرق الممكنة: من خلال ممرات الطائرات المكيفة بالهواء البارد، ومواقف السيارات الإسمنتية في المطارات الأمريكية الحديثة. جاؤوا خلال شهرين؛ عبر أربعة مطارات مختلفة - ضواحي العاصمة واشنطن، نيويورك، أورلاندو، وميامي. وكانوا في العادة يسافرون مثتى مثتى. جاؤوا جميعاً عن طريق دبي في الإمارات العربية المتحدة، حيث قام ابن أخت خالد شيخ محمد بتزويدهم بالنقود والحسابات المصرفية، وأعطاهم فكرة مختصرة حول كيفية التصرف واللباس في الولايات المتحدة⁽²⁶⁾.

كان الأشخاص الذين في الولايات المتحدة - وهم الطيارون الأربعة بالإضافة إلى الحازمي - في استقبال الرجال الجدد فور وصولهم. وقام الحازمي وحنجور باستئجار شقة سكنية في مدينة باترسون في ولاية نيوجيرسي أواخر إبريل/ نيسان.. أما آخر أربعة وصولاً إلى الولايات المتحدة، فقدموا جواً إلى مطاري

دوليس وجي إف كيندي، واستقبلهم الحازمي هناك. أما التسعة الباقين، فاستقروا حول فورت لوديرديل شمال ميامي تحت إشراف عطا والشحي. وقطع الطيارون الثلاثة من هامبورغ عرض فلوريدا من مسكنهم في خليج فلوريدا إلى الجهة المقابلة على المحيط الأطلسي من أجل استقبالهم وتوجيههم.

سألت آيسل سينغوم، كعادتها، زياد جراح أن يفسر لها لماذا انتقل إلى منطقة ميامي. فأخبرها بأنه وجد معهداً أرخص للطيران. هذا على الرغم من أنه توقف عن التدريب ولم يلتحق بأي مدرسة للطيران. فبعد أن حصل على رخصة طيار خاص من معهد مركز فلوريدا للتدريب على الطيران في مدينة فينيس، لم يتخذ أي خطوات لاستكمال متطلبات الحصول على رخصة الطيران التجاري. واشتكت آيسل من صعوبة الاتصال بجراح حتى عندما لا يكون في حالة تنقل. "أحياناً كنت بحاجة إلى ممارسة الضغط عليه ليعطيني رقم هاتفه" هذا ما تقوله آيسل، وكان جراح يستخدم بطاقات الهاتف المدفوعة مسبقاً لإجراء مكالماته، وفي أكثر من مرة كانت تلك البطاقات تنتهي في منتصف الحديث مع آيسل،⁽²⁷⁾ ولم يكن يعاود الاتصال عندما يحدث ذلك.

ومنذ لحظة وصول العضلات وما بعدها وحتى بداية سبتمبر/ أيلول، سكن فريق الضربة على تخوم ضواحي المدن الأمريكية، في الشقق السكنية والفنادق الصغيرة. واشتركوا في نوادي اللياقة البدنية، وكانوا يتمرنون فيها يومياً. وقام جراح بالاشتراك في دورات في فنون القتال اليدوي. ويقول مدربه بأنه كان جاداً في تدريباته، وكان بإمكانه أن يبدع في هذه الرياضة⁽²⁸⁾.

وهذه الفترة هي التي أعطت المحققين فيما بعد انطباعاً عن تحركات مستعجلة ومرتبكة: استأجر أعضاء المجموعة سيارات ثم أعادوها. ثم استأجروا غيرها. وتقلوا من مدينة إلى أخرى. إلا أن معظم هذه التحركات اتخذت فيما يبدو لتجنب المكوث طويلاً في مكان واحد حتى لا يجلبوا الانتباه

إليهم. والسبب الآخر له هدف محدد. فقد قام الطيارون بحجز رحلات عشوائية حول أمريكا بهدف استطلاع الإجراءات والتدابير الأمنية المتبعة في شركات طيران مختلفة. بينما عاد حنجور والحازمي إلى أريزونا لبعض الوقت حتى يتمكن حنجور من مواصلة تدريباته على أجهزة محاكاة الطائرات.

أدرك الخاطفون المستقبليون أن شراء التذاكر بواسطة إثباتات هوية محلية تجعل من شراء كل شيء وبخاصة تذاكر السفر أمراً أسهل ويستدعي تدقيقاً أقل. وذهب عدد منهم - سبعة من بين التسعة عشر - إلى فيرجينيا تحديداً للحصول على بطاقات هوية أو رخص سوق، بعد أن تبين لهم أن فيرجينيا مكان سهل لعمل ذلك. ومن بين المصادر المحتملة لتلك المعلومة محمد بلفاس وهو من هامبورغ، والذي كان مرشداً لعطا في هامبورغ، وكان بلفاس حصل على رخصة سوق من فيرجينيا قبل عام من ذات المكتب تحديداً واتباع ذات الإجراءات التي اتبعتها المجموعة فيما بعد. ثم عندما عاد إلى ألمانيا، التقى وعن طريق الصدفة عمر، رمزي بن الشيبه، وأخبره عما حدث معه⁽²⁹⁾. واستخدم جراح العنوان المزور نفسه الذي استخدمه بلفاس عندما تقدم بطلب الحصول على بطاقة الهوية الشخصية.

ظهر فيما بعد ادعاءات برؤية المجموعة أو أفراد منها. وبالتحديد محمد عطا، بوجهه ذي الملامح المميزة والذي اشتهر على نطاق واسع بعد أن تناقلت صورته وسائل الإعلام المحلية والعالمية. ظهرت هذه الادعاءات برؤية عطا في كل مكان. أو على الأقل، هذا ما تذكره الناس بعد وقوع الهجمات. فقد قيل إنه حاول شراء طائرة تستخدم في رش المحاصيل الزراعية، وأنه تلقى علاجاً بالتسمم بالجمرة الخبيثة (الأنثراكس)، وأنه قام برحلات استطلاعية فوق عدد من المفاعلات النووية لتوليد الطاقة. وأنه كان سكراناً في إحدى الحانات على الشاطئ، وأبرز هذه الادعاءات وأكثرها خطورة ما قيل أن عطا سافر

تحت اسم مستعار إلى براغ في جمهورية التشيك أواسط إبريل/ نيسان، وأنه اجتمع هناك بجاسوس عراقي كان يخطط لتفجير برج لبث الإذاعي لراديو فري أمريكا (راديو أمريكا الحرة). وقليل من هذه الادعاءات محتمل الوقوع. وبعضها غير صحيح من الناحية العملية. ولم تثبت صحة أي منها⁽³⁰⁾.

الاجتماع الأخير

مع حلول الصيف، كان كل فرد من أعضاء الفريق قد تبوأ مكانه بحسب الخطة. وفي 8 يوليو/ تموز، سافر عطا جواً إلى إسبانيا للاجتماع بعمر. وكانت القاعدة تدرك أن اتصالاتها الإلكترونية معرضة للتجسس عن طريق التقنية المتقدمة. وإذا برزت الحاجة لتوصيل معلومات مهمة، فإن الرسائل كانت توصل عن طريق البريد السريع، أو باللقاء وجهاً لوجه. ومن مظاهر قوة المنظمات الصغيرة مثل القاعدة هو كونها صغيرة. فلو كانت القاعدة منظمة كبيرة بكل ما يتطلبه ذلك من بنية تحتية، لكانت عرضة للاختراق من قبل الاستخبارات الأمريكية. وافتقار القاعدة إلى القوة جعلها، بطريقة ما، أكثر قوة. كما أن حجمها يظهر طبيعة الخطر غير المتكافئ القادم من غير الدول. وكانت هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، بلا شك أكبر شيء حاولت القاعدة فعله. ومع ذلك، كان عدد الأشخاص الذين شاركوا في تلك العملية لا يتجاوز أصابع اليد. وقد ساعد هذا في الحفاظ على إخفاء الخطة.

حتى تلك اللحظة، كان عطا متوتراً. ففي اليوم الذي غادر فيه فلوريدا، قام بالاتصال برقم هاتف خلوي في ألمانيا أربعاً وسبعين مرة⁽³¹⁾. والمفترض أن الرقم يعود لعمر وأن عطا أراد تأكيد الاجتماع. وفي اليوم التالي لوصول عطا إلى مدريد، قام باستئجار سيارة هاينداي فضية وتوجه إلى ناراغونا، التي تبعد مسيرة ثماني ساعات بالسيارة وتقع على الساحل الذهبي. والساحل الذهبي - كما يسميه الأسبان - هو ذلك الجزء من الشاطئ المطل على البحر

الأبيض المتوسط. وفي ظهيرة ذلك اليوم، 9 يوليو/ تموز، استقل عمر رحلة سياحية تتوجه مباشرة من هامبورغ إلى ريوس في مطار صغير قرب ناراغونا. ويعتبر الساحل الذهبي منطقة سياحية مشمسة من الدرجة الثانية، مقارنة بالمنطقة الأكثر جمالاً وغلاءً الواقعة إلى الشمال منه. ويبلغ تعداد سكان سالو، وهي البلدة التي حجز فيها عطا غرفته - في الشتاء ستة عشر ألف نسمة، ثلثهم من المغاربة. وفي الصيف يرتفع عدد السكان ليبلغ 300 ألف نسمة، وغالبيتهم من السياح القادمين من إنجلترا والوسط الأوروبي. وقد وصل عطا وعمر وسط هذا الزحام. وبعد مبيتهم ليلة في فندقين في بلديتين متجاورتين، اختفى عطا وعمر لمدة أسبوع. وفيما عدا رحلتين قام بهما عطا، الأولى إلى جهاز صراف آلي ليسحب منه بعض النقود، والثانية من أجل حجز رحلة العودة إلى فلوريدا، فإنه لم يوجد أي أثر لهما - لا يوجد حجز للفندق، أو فواتير مطاعم، أو مكالمات هاتفية، والمفترض هنا أنهما اجتمعا في بيت آمن وفرته لهما شبكة الإسلاميين القوية التي نشأت على مدى العقد الماضي في إسبانيا. وكان يتزعم هذه الشبكة شخص يدعى عماد الدين بركات، وهو سوري الأصل من جماعة الإخوان المسلمين الذين عاشوا في المنفى في أوروبا.

كان بركات رجلاً بديناً، ضخماً، وذا صوت جهوري. يكتسب رزقه كبائع متجول في الشوارع، وأحياناً كان يبيع السيارات المستعملة، والمعاطف الجلدية، أو أحدث موضة قمصان لأكوست التي كان يحفظها في مؤخرة السيارة التي يمتلكها في تلك اللحظة. كما باع أشرطة الكاسيت في محطات المترو. يقول بركات واصفاً نفسه: "إنني أشتغل بكل شيء: الملابس، السيارات، العسل، السجاد"، ويضيف، "كل ما يتوفر. إنني تاجر حر. لست متخصصاً بشيء واحد"⁽³²⁾. ومع أنه على ما يبدو، لا يكسب الكثير من المال من عمله هذا، إلا إنه كان يخرج الكثير من جيبه حين تدعو الحاجة، وكان يعيش حياة تتجاوز مصادر دخله الظاهرة؛ فقد كان يسكن في شقة سكنية في الطابق العلوي في

أحد أحياء الطبقة العاملة. وكان يملك من المال ما يكفي لتمويل مشاريع إنشائية، وشراء تجمعات سكنية في الجبال المطلة على مدريد لكبار السن المتقاعدين؛ وكان هذا المجمع السكني المخصص لكبار السن غير عادي في أنه كان يضم طاقماً كبيراً من الموظفين العرب وليس فيه سوى عدد قليل من كبار السن⁽³³⁾.

وشبهه أحد المحققين في الشرطة الإسبانية بالملك بين حاشيته: "كان كالملك الذي لا يحمل النقود لأن غيره يحملها له"⁽³⁴⁾.

وكباقي قادة الشبكات الإسلامية، كان بركات كثير الأسفار. وفي الغالب إلى لندن (أكثر من عشرين مرة في إحدى سنوات التسعينيات)، وتركيا، وبلجيكا، وإيطاليا، والأردن، وسوريا، والإمارات العربية المتحدة، وماليزيا. وهذه الأسفار لا تشبه أسفار التاجر المتجول المتواضع كما يحاول أن يظهر نفسه.

ومع تقدم إسبانيا في السن، وازدهارها اقتصادياً في التسعينيات من القرن الماضي، ارتفعت موجات الهجرة إليها. وهيمن المغاربة على جموع المهاجرين من شمال إفريقية، حيث أقاموا شبكات لنقل وتهريب المهاجرين غير الشرعيين من الشواطئ وإنزالهم في قوارب التهريب على الجهة المقابلة. وكان من شأن هذا التجمع السكاني المفاجئ للمسلمين أن شكل رافداً لمزيد من المجندين لشبكات الأصوليين بين الشباب الذي هاجر سعياً للحصول على لقمة العيش عن طريق العمل في الإنشاءات والزراعة والخدمات الصناعية.

وفي عام 1994، أنشأ بركات جماعة جنود الله. وهي جماعة أصولية اصطدمت مع إمام مسجد أبو بكر الذي يتوسط مدينة مدريد⁽³⁵⁾. وتقول الشرطة: إن جماعة بركات والشبكات المتحالفة معها في شمال إفريقية عرضت وقدمت دعماً وبيوتاً آمنة تمتد من مدريد إلى باميلونا وغرناطة. ومن المستبعد أن يجهل بركات قدوم ووجود عطا وعمر في مناطق نفوذه. فقد كان صديقاً مقرباً من شخصين سوريين في هامبورغ هما محمد حيدر زمار، الذي

يعتقد أنه جند عطا وعمر في صفوف القاعدة، ومحمد داركازنلي. وهذا الأخير كان، في واقع الأمر، في إسبانيا في الوقت نفسه الذي كان فيه عمر وعطا فيها. وخططت بركات وداركازنلي للالتقاء والتنسيق بينهما⁽³⁶⁾.

وبغض النظر عن المكان الذي اجتمع فيه عطا وعمر، فإن الهدف منه كان منصباً على تقديم تقرير من قبل عطا عن وضع الفريق في الولايات المتحدة ليتم رفعه إلى القيادة في أفغانستان. وقال عطا لعمر بأن الفريق أصبح جاهزاً، وأن الأهداف عويّنت وأن الطيارين جاهزون. وقاموا بمناقشة التحضيرات النهائية والوسائل التي يمكن لعطا أن يخبر عمر من خلالها بتاريخ الهجمات التي لم تحدد بعد⁽³⁷⁾.

وكان هناك مشكلة وهي أن زياداً يواجه بعض الصعوبات وليس بالإمكان معرفة سببها على وجه التحديد. إلا أن العلاقة بين جراح وعطا قد ساءت لدرجة أن جراح هدد بالانسحاب من الخطة⁽³⁸⁾، ولم يكن الاثنان يعرفان بعضهما جيداً. وفي هامبورغ، كان زياد جراح يدرس في جامعة مختلفة ويسكن وحده في جزء مختلف من المدينة. وكان أقرب إلى عمر من أي شخص آخر. كما كان من المفروض أن يقوم عمر بالتدريب على الطيران في فلوريدا مع جراح، ولكنه بعد أن فشل في الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة ترك جراح وحده، ورفض جراح العمل تحت سلطة عطا. وبينما كان عطا والشحي يستكملان تدريباهما، لم يستطع جراح، لأي سبب كان، أن يستكمل متطلبات حصوله على رخصة طيران تجاري. ومن الصعوبات الظاهرة: علاقته المستمرة مع آيسل. وكان هذا الأمر يضايق عطا المجبول على الانضباط، بحسب قول عمر⁽³⁹⁾. وعطا، على ما نذكر، كان ينزعج عندما يقوم أفراد حلقتة في هامبورغ بالإسراع في قراءة القرآن. وكان لا يتحمل عدم التزامهم بما هو مفترض. قام عطا بنقل المشكلة إلى عمر، ورفع هذا الأخير

المشكلة إلى خالد شيخ محمد الذي أبدى عدم رضاه لما يجري، وأمر عمر بمحاولة الإصلاح بين الاثنين لأنهم لا يستطيعون خسارة جراح في هذا الوقت⁽⁴⁰⁾. وفي رسالة إليكترونية، حذر محمد من أنه "إذا طلب جراح الانسحاب، فإن ذلك سيكلفنا الكثير من المال"⁽⁴¹⁾. وبغض النظر عن الطريقة التي حقق من خلالها ذلك، استطاع عمر التوفيق بين عطا وجراح، واستأنفت الخطة سيرها نحو النهاية، بعد أن تلكأت قليلاً.

وقبل عودته إلى الولايات المتحدة بقليل، قام عطا بإرسال رسالة عبر هاتفه الخليوي إلى سعيد بهاجي واثنين من أصدقائه في هامبورغ: "سلام. هذه الرسالة لكما. عباس ومنير. ألم يأن لكما أن تخافا كلام الله. أحبكم جميعاً. أمير"⁽⁴²⁾.

الشهر الأخير

كان زكريا موسوي، كعادته، يسبق بإرسال بريد إليكتروني قبل أن يقوم بأي خطوة. واتصل، هذه المرة، بأكاديمية بان آم الدولية للطيران. وهي أكاديمية تضم عدة فروع لمعاهد الطيران مركزها الرئيس في فلوريدا:

مرحباً، أنا السيد زكريا!

بشكل أساسي، أود معرفة إن كان بإمكانكم المساعدة في تحقيق "هدفي" حلمي. أرغب بأن أصبح قادراً على قيادة واحدة من الطائرات الكبيرة بطريقة "مهنية". ويبقى أمامي أن أقرر أي واحدة من الطائرات التالية: بوينغ 747، 757، 767، أو 777 أو إيرباص 300 (وهذا كله سيعتمد على التكلفة وأي منها أسهل تعلماً).

والمستوى الذي أرغب بتحقيقه هو المقدرة على الانطلاق والهبوط والتعامل مع الاتصالات [مع برج التحكم بالملاحه

الجوية]، والقدرة على الطيران بنجاح من نقطة أ إلى نقطة ب (جي إف كيندي إلى هيثرو على سبيل المثال).

بعبارة أخرى، المقدرة على قيادة واحد من الطيور الكبيرة، حتى وإن لم أكن طياراً محترفاً... يوجد لدي حوالي 55 ساعة طيران على [طائرة سيسنا] 152. وقد اجتزت بنجاح [الامتحان] الكتابي الشهر الماضي.

إنني أعلم أن بإمكانني أن أكون أفضل، ولكنني متأكد أن بإمكانكم فعل شيء. فبعد كل شيء نحن جميعاً هنا في أمريكا. وكل شيء ممكن. طاب يومكم، منتظراً طيراناً إيجابياً. وشكراً لكم.

زاك (43).

وفي 10 يوليو/ تموز، سجل موسوي في أكاديمية بان آم الدولية للطيران في الفرع الواقع في ضواحي مينيابولوس للتدريب على مشبه للطيران. وكان ما يزال يقيم في أوكلاهوما، حيث انسحب من دورة سجل بها في السابق. إلا أنه بقي على قائمة القاعدة كطيار محتمل. وقام عمر بتحويل مبلغ آخر قيمته 4 آلاف دولار بداية أغسطس/ آب. وتوجه موسوي وصديق له اسمه حسين العطاس برأ إلى مينيسوتا. لم يكن في نيتهما المكوث طويلاً هناك. وقال موسوي لعطاس بأنه يجب عليهما مغادرة البلاد إلى باكستان بعد النصف الثاني من سبتمبر/ أيلول كحد أقصى. وفي تلك الأثناء، كان على موسوي القيام بشيئين: تعلم قيادة طائرة كبيرة، وتعليم العطاس فن القتال. وقال له موسوي: "عليك أن تعرف كيف تقاوت إذا أردت أن تشارك في الجهاد"⁽⁴⁴⁾.

استأجر الاثنان غرفة صغيرة، ودفع موسوي مبلغ 8300 دولار لمعهد الطيران. وفي 13 أغسطس/ آب، بدأ تدريباته الجديدة. ولكنه لم يقطع شوطاً طويلاً. فبعد يومين اتصلت الأكاديمية بالفرع المحلي لمكتب التحقيقات الفيدرالي وقالوا لضباط المكتب بأن لديهم ما يعتقدون أنه خاطف طائرات محتمل. وأنه تلقى بعض التدريب على قيادة الطائرات الصغيرة ذات المحرك الواحد، وأنه الآن مصر على تعلم قيادة أكبر الطائرات التجارية العاملة في العالم، وبأسرع وقت ممكن. وفي ظهيرة اليوم التالي حضر محققو مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى الأكاديمية. ومع حلول المساء كان موسوي في السجن على خلفية مخالفة قوانين الهجرة. وفي اليوم التالي، قام محققو مكتب التحقيقات الفدرالي في مينيسوتا بإخطار مسؤولي مكافحة الإرهاب في واشنطن العاصمة وبدؤوا بالسعي نحو الحصول على إذن بتفتيش ممتلكات موسوي، وبخاصة حاسوبه المحمول. وكتب أحد المحققين في هامش محضر التحقيق الذي أجراه مع موسوي بأن موسوي شخص من النوع الذي يمكنه خطف طائرة لاستخدامها في ضرب برج التجارة العالمي. وكان القلق الذي تمخض عن التحقيق على درجة من الجسامة لدرجة أن مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي لويس فريه ومدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA جورج تينيت تم إبلاغهما باعتقال موسوي. وعلى الرغم من ذلك، لم يستطع المحققون في مينيسوتا الحصول على إذن بتفتيش حاسوب موسوي. وفي ذلك الحاسوب أدلة على تعاملاته مع عمر وحنبلي.

لم يكن أحد في الحكومة الأمريكية يعلم في ذلك الوقت، طبعاً، أن خالد شيخ محمد قد أعد خطة لمهاجمة الولايات المتحدة، وأن هذا الهجوم بات وشيكاً. إلا أن الحكومة كانت تعلم أن شخصاً من القاعدة يعدّ لعمل شيء ما. وغُمرت شبكات الاستخبارات وعلى مدار عدة شهور بموجات من المعلومات

والدلائل والشكوك. وطغى شعور من القلق الشديد على أجهزة الاستخبارات في الولايات المتحدة والخارج، تمثل ببعض الإرباك في بعض الأماكن من أن شيئاً فظيماً على وشك الوقوع. وكانت الدلائل موجودة،⁽⁴⁵⁾ فقد أفرزت آليات الاستخبارات حول العالم كميات ضخمة من المعلومات لدرجة أن المحللين كانوا يجدون صعوبة في متابعة سرعة تدفق تلك المعلومات، ناهيك عن توفر الوقت لديهم للتفكير بما يجب فعله تجاهها⁽⁴⁶⁾. وكانت اللاقطات الإليكترونية، وأجهزة رصد الهواتف، وسجل المكالمات الهاتفية، والتحذيرات التي جاءت من أجهزة الاستخبارات الأجنبية، إضافة إلى المخبرين، والمذكرات الداخلية، وكل شيء تشير إلى وجهة واحدة: هناك شيء ما. وبعض هذه المعلومات كانت تخص خالد شيخ محمد بالتحديد. وتلقت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA تقارير مؤكدة تفيد أن خالد شيخ محمد كان يجند العملاء للسفر إلى الولايات المتحدة وأنه بعد وصولهم إليها يقومون بالاتصال مع عملاء موجودين فعلاً في الولايات المتحدة⁽⁴⁷⁾. وهذا بالضبط هو ما كان يفعله.

يقول توماس بيكارد، نائب مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي: "بحسب ما أذكر، خلال الفترة ما بين يناير/ كانون ثاني من عام 2001، تلقى مكتب التحقيقات الفيدرالي أكثر من ألف تهديد"⁽⁴⁸⁾. ويضيف بأن "كثيراً من هذه التهديدات كانت بالغة التحديد والدقة، وكانت التهديدات الأخرى ذات طبيعة عامة. إلا أن الزيادة في التهديدات الكلامية كانت أكثر التهديدات خطورة، ولكنها من الأكثر صعوبة في التعاطي والتعامل معها".

ويقول جورج تينيت، مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية: CIA توهجت مصادرنا لجمع المعلومات خلال تلك الفترة الحرجة"، وأضاف، "وأفادوا بأنه يجري الإعداد لعدد من الهجمات الاستعراضية، وأن بعض هذه الخطط هي في مراحلها الأخيرة،... إلا أن التقارير كانت تفتقر بشكل يبعث

على الجنون، إلى أي تفاصيل تمكنا من اتخاذ أي إجراء حيالها. وكانت أخطر هذه التقارير وأكثرها غموضاً تلك التي تفيد بضرب شيء كبير... واجتهد محللونا في محاولة العثور على الرابط بين هذه التقارير، وكذلك صلتها بالتهديدات الإرهابية السابقة والمناورات والأساليب المعهودة. لقد وضعنا في اعتبارنا احتمال أن تكون القاعدة تتعمد تمرير هذه التقارير بهدف خلق الإرباك والبلبلة عن طريق التضليل المعلوماتي. ومع ذلك توصلنا إلى نتيجة أن هذه الخطط كانت حقيقية. وعندما أفادت بعض التقارير أن هجوماً كان مزمعاً إلا أنه قد أجّل، واصلنا التركيز على أن هناك بالفعل خططاً للقيام بهجمات متعددة، وأن بضعاً منها قيد التنفيذ. وعندما تزايد قلقنا من أن معظم الأدلة تشير أن الهجمات ستقع في الخارج، استحضرننا في أذهاننا أن الطموح الأكبر لابن لادن كان منذ وقت طويل توجيه ضربة في العمق الأمريكي⁽⁴⁹⁾.

حدث ذلك كله في وقت كانت أجهزة الاستخبارات مغمورة بهذه المعلومات المخيفة التي لم نستطع فك رموزها. وكان ضباط مكتب التحقيقات الفيدرالي في مينيسوتا يحاولون جاهدين الحصول على موافقة المحكمة المحلية للسماح لهم بمعاينة حاسوب زكريا الموسوي ودفاتر العناوين التي يحتفظ بها⁽⁵⁰⁾. كما قام عملاء من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية بإبلاغ مكتب التحقيقات الفيدرالي في وقت متأخر بأن عميلين آخرين للقاعدة ربما كانا موجودين في الأراضي الأمريكية، هما نواف الحازمي وخالد المحضار. وبدأت عملية البحث عنهما بعد تسعة عشر شهراً من وصولهما البلاد⁽⁵¹⁾. وأدرك محللو وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA أخيراً أن الحازمي والمحضار اللذين كانا تحت المراقبة في ماليزيا في يناير/ كانون ثاني عام 2000 شاركا أيضاً في الشهر التالي في تفجير المدمرة الأمريكية كوكول في ديسمبر/ كانون أول.

كان السعوديان في ذلك الوقت قد اندمجا مع الطيارين من هامبورغ ومعهم الشباب الثلاثة عشر الذين وصلوا ذلك الربيع. وتنقل العرب التسعة عشر شمال وجنوب الساحل الشرقي وبمجموعات مختلفة على مدى عدة أسابيع. تدربوا في أندية اللياقة البدنية، وأكلوا البيتزا الرخيصة، وصلّوا، ودرسوا أدلة الطيران.

كان كل شيء جاهزاً، وسارت الأمور أقل أو أكثر بحسب ما هو مخطط لها، وذلك بالرغم من أن تعداد الفريق كان ناقصاً رجلاً بحسب الخطة التي كانت تفترض مشاركة عشرين شخصاً في فريق الضربة، أي بمعدل خمسة أشخاص لكل طائرة، ولم يكن لديهم سوى تسعة عشر شخصاً فقط. ولما رفض طلب الشخص الذي كان يفترض فيه أن يكمل العدد إلى عشرين، وهو جزء من مجموعة السعوديين الذين قدموا في الربيع، في الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات، ولم يستطع بسبب ذلك القدوم إلى الولايات المتحدة،⁽⁵²⁾ قام خالد شيخ محمد بمحاولتين على الأقل، وربما أكثر من أجل تعويض ذلك النقص. وفي يوليو/ تموز، تقدم ابن أخته علي عبدالعزيز علي، الذي كان يقوم بتحويل الأموال إلى الخاطفين في الولايات المتحدة، بطلب الحصول على تصريح دخول إلى الولايات المتحدة من الإمارات، فرفض طلبه هو الآخر، ليس بسبب ارتباطاته الإرهابية، ولكن لأنه كان بحسب قناعة موظفي السفارة الأمريكية مهاجراً بهدف العمل. وتقدم خالد شيخ محمد نفسه، مستخدماً إثباتات هوية سعودية، بطلب للحصول على تأشيرة دخول من السفارة الأمريكية⁽⁵³⁾ فحصل عليها، ولكن لا يوجد أي دليل على أنه حاول استخدام تلك التأشيرة.

وفي أغسطس/ آب، وصل محمد الكتاني، وهو الآخر سعودي، إلى أورلاندو قبل أن تعيده سلطات الهجرة الأمريكية إلى بلده. كان هذا الرجل لا

يملك ما يكفي لتغطية نفقات الرحلة السياحية لمدة أسبوع والتي ادعى أنه جاء ليقضيها في أمريكا. ولم يكن معه تذكرة للعودة، ولا بطاقات اعتماد، مضافاً إليها سلوكه السيئ. أخبر موظفي الهجرة في المطار أن له صديقاً ينتظره في الخارج. ثم وبعد أن ضغط عليه، تراجع عن قوله وقال بأنه لا يوجد أحد في انتظاره. وكان عطا موجوداً في الطابق العلوي من المبنى في ذلك الوقت، في انتظار كتاني على ما يبدو⁽⁵⁴⁾. إلا أن كتاني لم يخرج من قسم دائرة الهجرة في المطار. وأعيد على أول طائرة متوجه إلى دبي. وبذهاب كتاني ذهب أي سبب للانتظار.

تقرر أن يمضوا قدماً بالتسعة عشر رجلاً المتوفرين لديهم. وسيستقلون أربعة طائرات لضرب أربعة أهداف، منها ثلاثة وقع الاختيار عليها منذ وقت طويل، وهي: البرجان التوأمان لمركز التجارة العالمي في نيويورك إضافة إلى البنتاغون (مبنى مقر وزارة الدفاع الأمريكية). وجرى نقاش محتدم حول الهدف الرابع والنهائي، واستمر هذا النقاش لعدة أشهر، وكان الخيار بين البيت الأبيض و مبنى الكونغرس. فضل ابن لادن البيت الأبيض بينما كان عطا يرى أن البيت الأبيض هدف يصعب ضربه⁽⁵⁵⁾. وحسم القرار أخيراً لصالح اقتراح عطا، وتم اختيار موعد نهائي لتوجيه الضربة يكون فيه أعضاء الكونغرس مجتمعين بحيث يضرب المبنى وبداخله الأعضاء الذين كانوا هم أيضاً مستهدفين. وفي منتصف أغسطس/ آب، أرسل عطا رسالة إلى عمر عبر إحدى غرف الدردشة في الإنترنت "سيبدأ الفصل الأول خلال ثلاثة أسابيع. لا توجد أي تغييرات. الكل على ما يرام" وبدأت أطقم الضربة بشراء تذاكر سفرهم وتأكيد حجوزاتهم⁽⁵⁶⁾. وانتظر عمر مكاملة من عطا زيادة في التأكيد. وجاءت المكاملة في 29 أغسطس/ آب. وقام عمر بدوره بإرسال زكريا الصبار إلى أفغانستان ليخبر خالد شيخ محمد بالأخبار⁽⁵⁷⁾. ساعة الصفر - كما يسمونها - ستكون في الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول الذي يصادف يوم الثلاثاء.

ذاعت الأخبار عبر شبكات القاعدة. في باكستان، أخبر خالد شيخ محمد، شاباً كان يحاول تجنيده لعملية في جنوب شرق آسيا أنه بحاجة لأن يكون جاهزاً قبل الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، قاصداً أنه لن يكون من الأمان السفر بعدها⁽⁵⁸⁾. وفي أوروبا، قام بقية أعضاء مجموعة عمر - الأمير بتحضيرات للخروج من البلاد. أخبر سعيد الصبار، قبل الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول بثلاثة شهور، الشركة التي يعمل فيها عن نيته السفر إلى باكستان للاستفادة من دورة تدريبية وأنه سينتقل إلى هناك. وقال صاحب الشركة بأن الصبار كان موظفاً ممتازاً، وأنه يأسف لنيته ترك العمل⁽⁵⁹⁾.

ذكر بهاجي لأسرته قصة مشابهة حول الوظيفة التدريبية. سمعت بذلك خالته باربرا آرينز، ولكنها لم تصدق حرفاً واحداً منها. فتوجهت إلى الشرطة قبل 11 سبتمبر/ أيلول تحثهم على فعل شيء⁽⁶⁰⁾. فسألوها: مثل ماذا. لقد غادر بهاجي هامبورغ في 4 سبتمبر/ أيلول، وطار إلى كراتشي مروراً باسطنبول، ثم اختفى بعدها. كان برفقة بهاجي في تلك الرحلة شخصان جزائريان، وأقاما معه في ذات الغرفة التي استأجرها في فندق أميس في كراتشي. وأحد هذين الشخصين كان يقطن في المدينة الإسبانية نفسها التي سافر إليها عطا وعمر في يوليو/ تموز.

واختفى أيضاً من هامبورغ زكريا الصبار وعمر. غادر عمر إلى إسبانيا في 5 سبتمبر/ أيلول من مدينة داسلدورف. وأقام في منزل خاص في مدريد حيث حصل على مجموعة من وثائق إثبات الهوية المزورة. ثم توجه إلى اليونان ثم الإمارات العربية المتحدة ثم إلى خارج الخارطة⁽⁶¹⁾.

الليلة الأخيرة

خلال الأسبوع التالي، تحرك الرجال الذين انتقلوا إلى الولايات المتحدة لأخذ مواقعهم، مستأجرين غرفاً في الفنادق والموتيلات الموجودة حول

واشنطن، ونيوجيرسي وبوسطن. وقام عطا، المجبول على الدقة، في 10 سبتمبر/ أيلول بمغادرة الفندق الذي أقام فيه يرافقه عبدالعزیز العمري، واستقلا سيارة مستأجرة، وتوجها إلى مدينة بورتلاند في ولاية ماين. حيث أمضى الاثنان ليلتهما في التسوق في متجر وول مارت، وتناولوا البيتزا في مطاعم بيتزا هت قبل مبيتتهما تلك الليلة. ولا أحد من خارج الخطة يعرف سبب قيامه بذلك⁽⁶²⁾.

وأجرى عدد من السعوديين المقيمين في بوسطن سلسلة من المكالمات الهاتفية في محاولة لجلب بعض العاهرات للاستمتاع بهن في الليلة الأخيرة. إلا أنهم صرفوا النظر بعد أن تبين لهم ارتفاع أجرة خدماتهن.

ومن غرفته من فندق ديز إن، في نيويورك، كتب زياد جراح رسالته الأخيرة إلى آيسل. وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي لم يكتب عنها شيئاً:

مرحباً عزيزتي آيسل،

حبيبتي، وحياتي، وسيدتي المحبوبة. يا قلبي، أنت حياتي.

أولاً وقبل كل شيء، أريد منك أن تصدقي حقاً وأن تعي جيداً أنني أحبك بقلبي كله. يجب أن لا يكون لديك أي شك بذلك. إنني أحبك، وسوف أحبك دائماً، إلى الأبد. لا أريدك أن تحزني لأنني أعيش في مكان آخر حيث لا يمكنك مشاهدتي ولا سماع صوتي، ولكنني أراك وأعرف أحوالك. وسوف أنتظرك إلى أن تأتي إلي. كل واحد منا له أجله، وسوف أذهب للقاءه. أعترف أنني مذنب لأنني منيتك بالزواج، وحفلة الزفاف، والأولاد والأسرة، وأشياء أخرى كثيرة.

إنني كل ما تتمنين، ولكن من المؤسف أن عليك أن تنتظري إلى حين لقاتنا ثانية. إنني لم أهرب منك، إلا أنني فعلت ما يمليه علي

الواجب. ويجب عليك أن تكوني فخورة بي. إنه شرف كبير، وسوف تشاهدين النتائج، وسيفرح الجميع بها. أريدك أن تبقي قوية كما عهدتك. وأن يبقى رأسك مرفوعاً عالياً مهما فعلت، وأن يكون أمامك هدف دائماً، لا أريدك أبداً أن تكوني بلا هدف. ليكن الهدف دائماً نصب عينيك، واسألي نفسك دائماً "لماذا".

تذكري دائماً من أنت وماذا أنت. كوني مرفوعة الهامة، فالمنتصرون لا يظأطون رؤوسهم أبداً.

تمسكي بما لديك إلى أن نلتقي ثانية، وعندها سوف نعيش حياة جميلة أبدية، لا توجد فيها مشاكل، ولا أحزان، في قصور من الذهب والفضة...و...و...و.

لم أتركك وحدك. فالله معك، ومع والدي. وإذا احتجت شيئاً فاسأليه ما تريدين. إنه يسمع ويعلم ما في نفسك.

قال نبينا: "إنه رجل فقير من ليس له زوجة. وإنها امرأة فقيرة من ليس لها رجل". وسوف آخذ بيدك في جميع الأحوال ولو تزوجت بعدي ثانية فلا تخافي. أنت تعلمين أنني لا أحب كل الرجال. فكري من أنت ومن يستأهلك.

إنني أعانقك وأقبل يديك. وأشكرك وأقول لك آسف على الخمس سنوات الجميلة والقاسية التي أمضيتها معي. سوف تثابرين على صبرك هذا... بإذن الرب، أنا أميرك وسوف آخذ بيدك.

إلى اللقاء في المرة القادمة!!

رجلك دائماً.

زياد جراح

منذ 11 سبتمبر/ أيلول، كانت هناك تكهنات بأن كثيراً من، وربما معظم، الخاطفين لم يكونوا على علم بما سيحدث لهم في ذلك اليوم، ولم يعلموا أنهم سيموتون عن قريب. بل كانوا يعلمون. فقد وزعت عليهم مجموعة تعليمات مكتوبة بخط اليد تتضمن تعليمات ونصائح ومقترحات وعبارات تشجيعية. وقدمت تلك التعليمات نصائح هادئة حول القيام بالتحضيرات بكل دقة كما كان أصحاب الرسول يجهزون أنفسهم للمعركة قبل أربعة عشر قرناً من الزمان. ويقول عمر بأن التعليمات كتبها عبدالعزيز العمري، وهو الشخص السعودي الذي رافق محمد عطا إلى ولاية ماين.

قال عمر: "لم تصدر هذه الكلمات عن شخص مخدوع بآمال زائفة كما يدعي المنافقون وأهل النفاق. بل صدرت عن رجل يعلم ما يفعل، وما سيفعل، لا عن رجل جاهل، بل رجل مؤمن يستوي في نظره الظاهر والمخفي. كل شيء سواء في نظره"⁽⁶⁴⁾.

كان عنوان هذه التعليمات "الليلة الأخيرة". وتضمنت خمسة عشر بنداً محدداً من الإرشادات كان أولها "المعاهدة على قبول الموت". وآخرها الاغتسال في الصباح كي "تستغفر لكم الملائكة". وبينهما نصائح للخطافين بأن يعرفوا الخطة جيداً، وأن يشحذوا سكاكينهم، ويهيئوا أنفسهم للصعود إلى الجنة حيث سيكونون في صحبة أبدية مع الرب؛ "لقد ولّى وقت اللعب، وحان وقت اللقاء مع الحق الأبدي"⁽⁶⁵⁾.

وفعلاً، لقد حان الوقت.



■ الفصل الرابع ■

ذلك اليوم

قبل الهجوم

كان يوماً صافياً على غير العادة للطيران: سماء زرقاء وضيئة صبيحة بداية فصل الخريف، ويسطع ضوء الصباح اللامع بزاوية حادة، ومجال الرؤية غير محدود .

يقول عمر: "كانت تلك الساعات في منتهى الروعة لخوض معركة عظيمة بكل أبعادها، معركة كبيرة، ... إنها عملية عسكرية غير تقليدية ضد أكبر قوة على وجه الأرض، قوة تمتلك كل المعدات العسكرية، والاستخباراتية، وأقمار التجسس، وينتشر عملاؤها في كل أرجاء المعمورة. وها أنت تواجههم في عقر دارهم، وسط جيوشهم وعساكرهم، بمجموعة من الشباب عددهم تسعة عشر"⁽¹⁾.

توجهت مجموعة الشباب التسعة عشر في ذلك الصباح إلى أربع معارك:

أميركان إيرلاينز رحلة رقم 11. طائرة بوينغ 767 وعلى متنها 81 راكباً، إضافة إلى طاقم مؤلف من 11 شخصاً، ومتجهة من مطار بوسطن لونغان إلى مطار لوس أنجلوس الدولي، وموعد إقلاعها المقرر هو 7:45 صباحاً، ووقت إقلاعها الفعلي 7:59 .

يونائيد إيرلاينز الرحلة رقم 175، بوينغ 767 وعلى متنها 56 راكباً، إضافة إلى طاقم مؤلف من 9 أشخاص، ومتجهة من بوسطن

لوغان إلى مطار لوس أنجيلوس الدولي، وموعد إقلاعها المقرر هو 7:58، ووقت إقلاعها الفعلي 8:14 .

أميركان إيرلاينز، الرحلة قم 77، بوينغ 757 وعلى متنها 58 مسافراً، إضافة إلى طاقم مكون من 6 أشخاص، ومتجهة من مطار واشنطن دوليس إلى مطار لوس أنجيلوس الدولي. وموعد إقلاعها المقرر في 8:15 صباحاً، ووقت إقلاعها الفعلي 8:20 صباحاً.

يونايتد إيرالاينز الرحلة رقم 93، بوينغ 757، وعلى متنها 38 راكباً وطاقماً مؤلفاً من 7 أشخاص. ومتجهة من مطار نيويورك الدولي إلى مطار سان فرانسيسكو الدولي، وموعد إقلاعها المقرر 8:01 ووقت إقلاعها الفعلي 8:42.

استيقظ عطا والعمري باكراً قبل الفجر في ولاية ماين للحاق برحلة قصيرة بالطائرة تأخذهم إلى لوغان، وكان الفندق الذي يقيمان فيه يقع قبالة المطار، ولكنهما مع ذلك كادت الرحلة أن تفوتهما. غادرا فندق كمفرت إن في الساعة 5:33، وتوجها بسيارتهما المستأجرة إلى مطار في بورتلاند، تاركين خلفهما سيارتهما المستأجرة من نوع نيسان ألتما مصطفىة في موقف المطار، ونفذا عبر نقاط التفتيش والأمن في المطار قبل إقلاع الطائرة بدقائق.

وفي ذلك الصباح الباكر أيضاً، اتصل زياد جراح، من مكان قرب مطار نيويورك الدولي بآيسل سينغن للمرة الأخيرة. وكانت آيسل في العادة تشكو من قصر مكالمات زياد عندما كان يتصل، وأحياناً تقطع المحادثة عندما ينتهي وقت بطاقات الاتصال. وكانت مكالمته هذه المرة قصيرة جداً بحسب تلك المعايير. قال لها، ثلاث مرات، وبسرعة، بأنه يحبها. وبعدها قال زياد وداعاً⁽²⁾.

كما اتصل زياد في ذلك الصباح بمروان الشحي⁽³⁾. وبعدها بوقت قصير، توجه الاثنان إلى رحلتيهما الأخيرتين. وكان الشحي أمضى الأربعة والعشرين

ساعة الماضية في تهيئة نفسه. تناول الفطور مع عطا في المقهى التابع لفندق ميلنر في اليوم السابق قبل أن يتوجه عطا إلى ولاية ماين. وقام الشحي في ظهيرة اليوم التالي، بتحويل مبلغ 5400 دولار المتبقية في حسابه إلى الإمارات العربية المتحدة. وفي صبيحة اليوم التالي - اليوم الأخير - غادر فندق ميلنر وقاد سيارة ميتسوبيشي ميراج صغيرة بيضاء اللون إلى مطار لوغان، حيث جرت بينه وبين بعض الركاب مشادة كلامية حول المكان الذي سيوقف فيه سيارته في موقف السيارات أسفل الأرض.

غادر كل من نواف الحازمي وخالد المحضار وهاني حنجر فندق الماريوت ريزدنس إن، في مدينة هيرندون في ولاية فيرجينيا. وتوجهوا بسيارة تويوتا كورولا موديل 1988 التي اشتراها الحازمي في ساندياغو، إلى مطار دوليس الدولي، تاركين خلفهم السيارة وبداخلها أدلة تدريب الطيران ورسومات لمقصورة القيادة وخرائط مبعثرة هنا وهناك، في موقف للسيارات يؤجر بالساعة. وتوجهوا إلى شباك التذاكر التابع لشركة أميركان إيرلاينز.

كانت مهمة الخاطفين الأولى في ذلك اليوم هي الصعود إلى الطائرة ومعهم أسلحتهم. كان معروفاً عن إجراءات أمن المطار في الولايات المتحدة قبل 11 سبتمبر/ أيلول أنها أشبه ما تكون بالمنخل. وأظهر كل اختبار خضعت له تلك التدابير سهولة إمكانية جلب معظم أنواع المواد الممنوعة إلى متن الطائرة. ولم تكن صبيحة يوم 11 سبتمبر/ أيلول تختلف عن بقية الأيام في هذا الخصوص. حمل الخاطفون التسعة عشر معهم البخاخات الكيماوية والسكاكين والمشارط. كانت تعليمات سلطة الطيران المدني، في ذلك الوقت تسمح للركاب بحمل السكاكين الصغيرة، أما المشارط والبخاخات فكانت ممنوعة. ولكنها مع ذلك دخلت جميعها الطائرة.

يقول دون ريدت: "نجح الخاطفون جميعهم في المرور عبر نقاط الأمن وتفتيش المسافرين وتوجهوا إلى طائراتهم. كانوا تسعة عشر لتسعة عشر، 100%"⁽⁴⁾.

انطلق رنين المنبهات عند مرور بعض الخاطفين عبر نقاط تفتيش الأمن. وتسبب بعضهم في إطلاق نوعين مختلفين من أصوات الإنذار. إلا أنه أشير إليهما بالمرور والتوجه إلى الطائرة.

حاولت شركات الطيران الأمريكية أن تستخدم أنظمة حاسوبية لاختيار بعض المسافرين ليتم إخضاعهم لمزيد من التمهيص والتفتيش الإضافي قبل صعودهم إلى الطائرة. ومن الأسس التي يعتمدها الحاسوب في انتقاء المسافرين لهذا التفتيش الإضافي: شراء تذكرة ذهاب فقط، دفع ثمن التذكرة نقداً، وبالطبع، استخدام أي مؤشرات من المصادر الحكومية تفيد أن المسافر يشكل خطراً وينبغي منعه من السفر. جمعت سلطة الطيران الفيدرالية من قبل قائمة بالأشخاص ممنوعين من السفر. ولم يكن أحد من الخاطفين التسعة عشر مدرجاً في تلك القائمة. وليس هذا مستغرباً، فبعد أن تم الكشف أن خالد شيخ محمد كان يحاول تفجير دزينة من طائرات تابعة لشركات طيران أمريكية، لم يدرج اسمه في تلك اللائحة حتى بعد أربع سنوات من تاريخ الكشف عن تلك المؤامرة. وقلما وجد في تلك القائمة أي اسم. في ذلك اليوم، كانت قائمة ممنوعين من السفر تضم اثني عشر اسماً فقط. وبالمقارنة، احتفظت وزارة الداخلية بقائمة للأشخاص الذين ينبغي مراقبة دخولهم وخروجهم من البلاد وفي كثير من الأحيان منعهم من السفر. وفي ذلك اليوم، كانت القائمة تضم 61 ألف اسم. لم تكن تلك القائمة متاحة أمام شركات الطيران.

تتنقل شركات الطيران الأمريكية أكثر من مليوني مسافر يومياً. ويعد تأخير المسافرين خسارة لا يمكن تعويضها. لأن التأخير يعني أن المقاعد التي يشغلها المسافرون ستكون أقل. والمقعد الفارغ في الطائرة لدى إقلاعها، يسمى في اصطلاح صناعة الطيران التجاري "مقعداً فاسداً" فهو غير نافع، ويجب التخلص منه. وبفساد المقعد تخسر الشركة المبلغ الذي كان يمكنها كسبه لو

كان المقعد مشغولاً. وبالنسبة للطائرة تتساوى فيها كلفة المقعد الفارغ بالمقعد المشغول. فعندما تقلع الطائرة، تكون شركة الطيران قد تحملت كلفة الرحلة سواء كانت المقاعد فارغة أم مشغولة.

والنقطة هي: أن أمن المطارات مقصود منه أن يضمن رحلات جوية آمنة، ومن الناحية الفعلية كان يقصد منه تأمين رحلات جوية آمنة شريطة عدم المبالغة والتجاوز في تعطيل صعود المسافرين إلى الطائرة بما يؤثر على عائدات شركات الطيران وأرباحها. وهذه الاعتبارات ليست فارغة. إذ يجب أن تخضع كل قواعد وتعليمات سلطة الطيران الفدرالي لتحليل الكلفة - والفائدة وتجتازه بنجاح قبل أن توضع موضع التنفيذ. وعلى مدار السنين، كان لدى سلطة الطيران الفدرالي من المحللين الاقتصاديين أكثر مما لديها من مفتشي الأمن. والسبب الرئيس لعدم قيام سلطة الطيران الفدرالي بدمج قائمة وزارة الداخلية للأشخاص الذين ينبغي مراقبتهم بالقوائم الأمنية الخاصة بها، هو اعتقاد الإدارة أن شركات الطيران إما أنها ستفتقر إلى الإرادة لفحص تلك القوائم، لأسباب تتعلق بالتكلفة، أو أنها ستكون غير قادرة على فعل ذلك، لأسباب تتعلق بالتكلفة أيضاً⁽⁵⁾.

وعلى الرغم من ذلك، قام الحاسوب، في ذلك اليوم، باختيار تسعة من الخاطفين للخضوع لمعاينة إضافية في نقاط أمن المطار. وكان هذا الاختيار بسبب شراء بعضهم تذاكر ذهاب دون عودة، أو بسبب دفعهم ثمن تذاكرهم نقداً، أو بسبب تقديمهم معلومات غير كافية أو خاطئة في التعريف بهوياتهم لدى شرائهم التذاكر. والنتيجة التي تترتب على اختيار المسافر لمزيد من التمحيص عند نقاط أمن المطار هو إخضاع حقائبهم وأمتعتهم للفحص بأشعة إكس، وعدم وضع تلك الحقائب والأمتعة حتى يصعد جميع الركاب، وبخاصة الأشخاص الذين تم اختيارهم، على متن الطائرة. والنظرية التي بنى عليها

هذا الإجراء هي أنه لا يعقل أن يقوم مسافر بتفجير طائرة بواسطة قنبلة يحملها في أمتعته إذا كان هذا الشخص موجوداً على متن الطائرة، لأن ذلك سيعرض هذا الشخص إلى خطر الموت. كان ثلاثة من الخاطفين الذين اختيروا للتفتيش الإضافي لا يحملون معهم أمتعة أو حقائب، فلم يتعرضوا لإهانة التأخير. كما أن التفتيش الإضافي الذي خضعوا له لم يكن له أي أثر كان. إن نظرية سلطة الطيران الفدرالي في الحماية ضد المفجرين الذين لا يكونون على متن الطائرة لم تأخذ باعتبارها المسافرين الذين، وكما يقول عمر، يتشوقون "إلى رائحة الجنة خلف ساحة المعركة"⁽⁶⁾.

وفي جميع الأحوال، لم تؤخر سلطة الطيران الفدرالي أيّاً من الرجال التسعة عشر. كان معظمهم، إن لم نقل جميعهم، يحملون معهم سكاكين ذات حجم ووزن يكفي لقتل رجل. وجميعهم عبروا نقاط التفتيش والأمن.

كانت الخطة تقضي بالاستيلاء على الطائرات بأسرع وقت ممكن، خلال خمس عشرة دقيقة من الإقلاع، ويقول عمر في هذا الصدد: "تم توزيع العمل داخل الطائرة. كلفت مجموعة باقتحام قمرة قيادة الطائرة، بينما تتولى مجموعة أخرى دعم المجموعة الأولى في تقديم الحماية لها من الخلف لمنع أي محاولة لإحباط عملية اقتحام قمرة قيادة الطائرة. ومن الواضح أن المجموعة المكلفة باقتحام قمرة القيادة كانت مؤلفة من شخصين. وتكون أقرب مجموعة من القمرة؛ وذلك حتى تتمكن من اقتناص الفرصة عندما يفتح الباب كي يدخلوا منه بسرعة، ويسيطروا على الطائرة ويقتلوا جميع من بالداخل، ثم يأتي الأخ الطيار بسرعة ليكمل المهمة ويقود الطائرة إلى الهدف... كل هذه الأعمال يجب أن تتم في وقت قياسي، ست دقائق على الأكثر"⁽⁷⁾.

سارع الخاطفون بتنفيذ العملية من اللحظة التي أطفئت فيها إشارة ربط الحزام وقيام طاقم الطائرة بتقديم المشروبات. واستخدموا البخاخات

الكيماوية، والسكاكين، وفي حالة واحدة معروفة، هي الرحلة 77 تم استخدام المشارط. كما هددوا باستخدام القنابل في ثلاث من الطائرات. ومرة أخرى كانت الرحلة 77 مستثناة من هذا الإجراء. وفي جميع الرحلات الأربعة، قام الخاطفون بقتل أو تقييد الأشخاص الذين وقفوا في طريقهم. وأمروا بقية الركاب بالتوجه إلى مؤخرة الطائرة. وتم نقل هذه الأخبار بسرعة وعلى نحو غير متوقع من الطائرة إلى محطات الرصد من قبل طاقم الطائرة. وفي الرحلة رقم 11 للأميريكان إيرلاينز، قامت المضيفة بتي أونغ بالاتصال بنظام الحجز التابع للشركة لإعلام المسؤولين أن الطائرة تعرضت للخطف في الساعة 8:21، أي بعد 19 دقيقة من إقلاعها من المدرج. وجرت اتصالات أخرى من طائراتها والطائرات الأخرى ومن أشخاص آخرين.

كان التجاوب مع هذه الأخبار على الأرض مشوباً بالارتياب والاضطراب والإرباك والتأني. ونظراً لأن النظام لم يسبق له أن اضطر إلى التعامل مع وضع مشابه ولو من بعيد لهذه الحالة التي تعرض لها ذلك الصباح، فقد فشل في عمل أي شيء نافع. وهذا ما حدث، من وجهة نظر الدفاع الوطني، بحسب ما يرويه العقيد المتقاعد ألين سكوت الذي كان يعمل في مركز قيادة الدفاع الجوي لشمال أمريكا، والمسمى اختصاراً "نوراد":⁽⁸⁾

20 : 8 - أقلعت الرحلة 11 التابعة لأميريكان إيرلاينز من بوسطن.

16 : 8 - أقلعت الرحلة 175 التابعة لشركة يونائتد من المدرج نفسه.

19 : 8 - أقلعت الرحلة 77 التابعة لأميريكان إيرلاينز متوجهة جنوباً من مطار دوليس.

"إذن الآن الطائرات الثلاثة الأولى محلقة في السماء معاً" ويضيف: "وأول ما ظهر أن شيئاً طارئاً قد وقع، ومن خلال ما يكشفه لنا تعامل سلطة الطيران الفدرالي، من أن شيئاً غير طبيعي قد حدث كان في الساعة 8:20، عندما

انقطع الاتصال بجهاز الإرسال والتلقي الآلي (transponder) في طائرة الأمريكيان إيرلاينز الرحلة 11، بمعنى أن الطائرة اختفت من شاشة رادار أبراج المراقبة الجوية".

وجهاز الإرسال والتلقي الآلي (transponder) هو جهاز إلكتروني يرسل الإشارات التي تلتقطها الرادارات الأرضية وتوضح نوع الطائرة وهويتها وإحداثيات مكان وجودها وسرعتها ووجهتها. ويمكن للرادارات الأرضية أن تتبع طائرة مع تعطل هذا الجهاز فيها، ولكنها تصبح مهمة عسيرة وغير دقيقة.

"صدر أول إنذار من سلطة الطيران الفدرالي بحسب ما هو موجود في سجلاتنا عن احتمال تعرض الرحلة 11 للأمريكان إيرلاينز في 8:40. ولم يكن احتمال الاختطاف قد تأكد لنا في ذلك الوقت. وفي تلك اللحظة ذاتها، صدرت الأوامر فوراً عن مركز قيادة الدفاع الجوي لشمال شرق الولايات المتحدة بوضع مقاتلات إف - 15 الموجودة في قاعدة أوتيس الجوية في ولاية ماسيتشيوستس التي تبعد حوالي 153 ميلاً عن مكان الطائرة، في حالة التأهب للمعركة.

"في الساعة 8:43، وبينما كانت هذه الأحداث تتابع، أقلعت الطائرة الرابعة، وهي الرحلة 93 لشركة يونايتد، من مطار نيويورك في ولاية نيو جيرسي.

"في الساعة 8:46، وصلت آخر إشارة من الرادار من تلك الطائرة بالقرب من مركز التجارة العالمي، 8:46، الطائرة الأولى ترتطم بالبرج الأول لمركز التجارة العالمي. وفي تلك الدقيقة أقلعت طائرات الإف - 15 من قاعدة أوتيس. ومرة أخرى كانت الطائرات على بعد 153 ميلاً... وحققت في السماء في غضون ست دقائق.

"في الساعة 8:53، أي بعد دقيقة، وبحسب المعلومات الواردة من الرادار، بدأنا نلتقط إشارات الرادار من طائرات الإف - 15 التي انطلقت من قاعدة أوتيس.

"في الساعة 8:57، أي بعد سبع دقائق من ارتطام الطائرة الأولى بالبرج، كانت تلك اللحظة وبحسب سجل الأحداث اليومي لدينا، هي اللحظة التي أعلنت فيها سلطة الطيران الفدرالي عن الضربة الأولى لمركز التجارة العالمي. وهي ذات اللحظة التي بدأت فيها محطة السي إن إن بنقل الحدث للجمهور العام وبدأت صور الحدث تظهر على شاشات التلفاز، ليس لحظة الارتطام بل الدخان والنيران المتصاعدة من البرجين بعد ذلك. وعلى ذلك يمكنك أن ترى ما نعنيه في لغة الجيش عندما نتحدث عن ضباب المعركة واحتكاكاتها، وبتزايد حدة الأحداث يتزايد معها بطء انتقال المعلومات.

"في الساعة 9:02، ارتطمت الطائرة الثانية التابعة للرحلة 175 لشركة يونايتد بالبرج [الجنوبي] لمركز التجارة العالمي، وبالمناسبة لم يتوقف جهاز الإرسال والتلقي الآلي في هذه الطائرة حتى وقت ارتطامها بالبرج في الساعة 9:02. كانت المسافة التي تفصل بين طائرات إف - 15 وبرج التجارة في تلك اللحظة 71 ميلاً، أي ما يعادل 8 دقائق طيران، وكانت هذه الطائرات تطير بسرعة عالية.

"في الساعة 9:05، نقلت أعلنت سلطة الطيران الفدرالي عن احتمال اختطاف طائرة الرحلة 175 التابعة لشركة يونايتد. ومرة أخرى، كان هناك ثلاث دقائق بعد ضرب البرج. هذه هي المدة التي تستغرقها المعلومات في الانتقال عبر النظام والوصول إلى مراكز القيادة والوكالات الحكومية ذات العلاقة ومنها إلى قمرة الطيارين في سلاح الجو.

"في الساعة 9:09، تم توجيه طائرات إف - 16 الموجودة في قاعدة لانغلي إلى التأهب لحالة المعركة، بناءً على المعلومات العامة والأخبار الجديدة التي

تقلها وسائل الإعلام، والشعور العام الذي ساد البلاد حول ما يحدث في تلك اللحظة. وفي ذلك الوقت تقريباً، وبعيداً إلى الغرب، تحولت طائرة الرحلة 77 التابعة لشركة أميركان، التي توقف جهاز الإرسال والتلقي الآلي فيها، نحو اليسار عائداً باتجاه مدينة واشنطن، وظهرت مرة أخرى على شاشة الرادار. وبحسب ما فهمته أن المراقبين التابعين لسلطة الطيران الفدرالي بدؤوا بالتقاط ألوان الطائرة، ولكنهم غير متأكدين إن كانت تلك الطائرة هي للرحلة 77، ووجهوا أسئلة لكثير من الناس إن كانت تلك الطائرة هي طائرة سي - 130 متوجهة جنوباً إلى ولاية أوهايو.

"في الساعة 9:11، أعلنت سلطة الطيران الفدرالي عن حادث ارتطام بالبرج الجنوبي لمركز التجارة العالمي. ويمكنك أن ترى الآن زيادة تباطؤ وصول المعلومات من 7 دقائق بعد الارتطام الأول إلى 9 دقائق بعد الارتطام الثاني. وبإمكان أن تتصور ما كان يجري على أرضية مراكز السيطرة والقيادة في البلاد في ذلك الوقت.

"في الساعة 9:24، سلطة الطيران الفدرالي تعلن عن احتمال اختطاف طائرة الرحلة 77 [التقرير الفعلي كان بخصوص الرحلة 11 التابعة لشركة أميركان إيرلاينز] وهذا بعد مضي بعض الوقت من تتبعهم لتلك الطائرة. وفي تلك اللحظة، أقلعت طائرات إف - 16 من قاعدة لانغلي الجوية.

"في الساعة 9:27، أعلن مكتب سلطة الطيران الفدرالي في بوسطن اختفاء طائرة خامسة، وهي طائرة الرحلة 89 التابعة لشركة دلتا - لم يسمع كثير من الناس عن الرحلة دلتا 89. وأنا أسمى ذلك أول محاولة تضليلية لصرف الانتباه عما يجري في ذلك اليوم، فقد انتشر الحديث عقب الهجوم الأول عن احتمال اختطاف عدد من الطائرات الأخرى، ثم تبين خلال ساعات عدم صحة تلك التقارير. لم يتم اختطاف دلتا 89، ولكنها دخلت في النظام

لتزيد من حجم الضباب والاحتكاك ونحن نتابعها. ولكن الطائرة هبطت بعد ذلك بسبع أو ثماني دقائق لتخرج من النظام.

"في الساعة 9:30، أصبحت طائرات إف - 16 التي أقلعت من قاعدة لانغلي محلقة في السماء. وتبعد 105 أميال عن منطقة واشنطن. (تأكد فيما بعد أن تلك الطائرات توجهت شرقاً محلقة فوق المحيط الأطلسي بدلاً من التوجه شمالاً نحو منطقة واشنطن العاصمة. وعندما أمرت الطائرات أخيراً بالالتفاف والتوجه نحو بالتمور، اعتقاداً أنها ستحمي العاصمة من هجوم يأتي من الشمال)⁽⁹⁾.

"في الساعة 9:34، لم تستطع سلطة الطيران الفدرالي، أن تحدد على وجه الدقة مكان طائرة الأيرلاينز الرحلة 77 من خلال المحادثة.

"في الساعة 9:35، أعلن أن طائرات إف - 16 محلقة الآن في الجو. وفي كثير من الأحيان، لا يقصد بتحليق الطائرات في الجو الوقت الذي أقلعت فيه. بل هو عندما تصل المعلومة إلى القاعدة أن الطائرات أصبحت محلقة.

"في الساعة 9:37، تلقينا آخر إشارات الرادار من الطائرة قرب مبنى البنتاغون. [في هذا الوقت، كانت طائرات الإف - 16 قد حولت اتجاهها للتو وما زالت على بعد 150 ميلاً من مدينة واشنطن].

"في الساعة 9:40، مباشرة بعد ذلك، وهو الوقت الذي أوقف فيه جهاز الاستقبال والرد الآلي من طائرة الرحلة 93 عندما كانت في الغرب فوق أوهايو، وبدأت بالالتفاف يساراً راجعة إلى جهة الشرق...

"في الساعة 9:47، وهو الوقت الذي هبطت فيه طائرة دلتا الرحلة 89 في مطار مدينة كليفلاند، وخرجت من النظام بعد أن تبين أنها لم تكن مختطفة...

"في الساعة 10:02، آخر إشارة للرادار من طائرة يونايتد رحلة 89، وقد
وقت تحطمها بأنه وقع في 10:03.

"في الساعة 10:07، أعلنت سلطة الطيران الفدرالي عن احتمال وجود
قنبلة على متن الرحلة 93 - وهذا بعد أربع دقائق من تحطمها.

"في الساعة 10:15، أعلنت سلطة الطيران الفدرالي تحطم الطائرة.
ويمكنك أن تشاهد الآن كيف زاد الضباب والاحتكاك من تباطؤ سرعة وصول
المعلومات من سبع دقائق إلى تسع إلى خمس عشرة دقيقة مع ارتفاع مستوى
الحركة والإرباك... بدأنا بالاتصال بسيركوس، الدفاع الجوي الوطني. وبدؤوا
بإرسال الطائرات الحربية لتتحلق في الجو. وقاموا بتسليح تلك الطائرات بما
توفر لديهم من العتاد لتعزيز الدفاع. كان هذا هو التسلسل الزمني للأحداث
في ذلك اليوم".

كان الرئيس جورج بوش في ولاية فلوريدا صبيحة ذلك اليوم يقوم بزيارة
للمدارس المحلية على غرار وقائع الحملات الانتخابية. وقام نائب الرئيس ديك
تشيني، وسط عمليات الاختطاف، بإعطاء الأوامر نيابة عنه بحماية العاصمة
الأمريكية مهما كانت التكلفة، بما في ذلك إسقاط الطائرات المختطفة. علم
وزير المواصلات نورمان مينيتا الذي تشرف وزارته على سلطة الطيران
الفدرالي، بهذا الأمر عن طريق الصدفة. فسارع إلى البيت الأبيض حيث قاده
الحرس إلى ملجأ تحت الأرض حيث كان ديك تشيني يشرف منه على
العمليات. وصل هناك في الوقت الذي كان يعتقد فيه أن طائرة يونايتد رحلة
93 كانت في اتجاهها نحو واشنطن. وكان ضابط من الحرس السري يتابع
مسار الطائرة من آخر موقع رصدت فيه. لم يكن لديهم بيانات رادار فعلية.
وكان أحد المساعدين ينادي بصوت مرتفع معلناً تقدم الطائرة لنائب الرئيس:

"الطائرة الآن على بعد 50 ميلاً. الطائرة الآن على بعد 30 ميلاً - وعندما وصل إلى - الطائرة الآن على بعد 10 أميال - قال الشاب لنائب الرئيس، - هل ما زالت الأوامر نافذة؟ -

"فأدار نائب الرئيس رقبته بسرعة وقال، - طبعاً ما زالت الأوامر نافذة. هل سمعت شيئاً بعكس ذلك؟ - (10) ."

كانت الطائرة قد تحطمت قبل ذلك بوقت. كما جاء في عرض مركز قيادة الدفاع الجوي لأمريكا الشمالية NORAD، انطلقت الطائرات المقاتلة فوق منطقة الشمال الشرقي ووسط الساحل الأطلسي. والطائرات الوحيدة التي كانت في وضع يمكنها من الدفاع عن أهداف محددة في ذلك اليوم هما طائرتا الإف - 16 اللتان انطلقتا من قاعدة لانغلي. وعلى الرغم من إصدار الأوامر من الأرض بالسماح للطائرات المقاتلة بإسقاط أي طائرة مختطفة يصادفونها، إلا أن هذه الأوامر لم تصل إلى طياري الإف - 16.

كان نظام الدفاع الجوي في الحقيقة أسوأ بكثير مما ظهر في سيناريو تسلسل الأحداث الذي وضعه مركز قيادة الدفاع الجوي نوراد (NORAD) فالطائرات المقاتلة التي أقلعت من قاعدة لانغلي والتي ذكر مركز قيادة الدفاع الجوي الأمريكي نوراد أنها أرسلت عندما تبين لهم أن طائرة أميركان إيرلاينز رحلة 77 كانت متجهة نحو واشنطن، هذه الطائرات المقاتلة أرسلت تحت تأثير الاعتقاد الخاطئ أن طائرة أميركان إيرلاينز رحلة 11 التي ارتطمت في البرج أولاً، بقيت متجهة في طيرانها متجاوزة نيويورك نحو واشنطن. بعبارة أخرى أن طائرات إف - 16 أرسلت لاعتراض طائرة كانت قد تحطمت في برج التجارة قبل أن تصل إليهم الأوامر بالإقلاع بوقت طويل (11).

كانت مواعيد إقلاع الرحلات الأربع المستهدفة محددة بحيث يفصل بين الرحلة والتي تليها قرابة الخمسة عشرة دقيقة؛ وذلك تفضيلاً لحدوث المشكلات

التي وقعت فعلاً في الرحلة 93 - تغذية معلوماتية راجعة من الأرض إلى الطائرات. كانت الرحلة 93 محلقة في السماء بعد ساعتين من ارتطام الرحلة 77 ببرج التجارة العالمي. وقام أشخاص من الأرض بإخطار الركاب والطاقم بما كان يحدث ذلك اليوم، الأمر الذي وُدد تمرداً على متن الطائرة مما دفع فريق الخاطفين إلى تحطيم الطائرة عمودياً في منطقة ريفية من ولاية بنسلفانيا مؤثرين ذلك على الاستلام للركاب⁽¹²⁾. وقد استطاع ركاب الرحلة 93 المسلحين بالهواتف الخلوية وأباريق الماء المغلي الدفاع بفعالية عن عاصمة الأمة بطريقة عجزت عن مضاهاتها أنظمة الدفاع الجوي الوطنية.

في ذلك اليوم، في وسط السماء، وداخل الطائرات، بتنا نعلم اليوم أنه كان هناك جلبة وضوضاء. كانت هناك حرب. ويصف عمر سلوك الخاطفين وصفاً صحيحاً بنقله كلام أحد العلماء المسلمين وهو عبدالعباس الزهراني: "لقد جئت إليك بمذبحة ملحمة وشيكة".

وهو ما حدث. استخدمت السكاكين. وكان الموقف عنيفاً ودموياً وكثيفاً. وكان القتل أكثر من وشيك؛ فكان حقيقياً وكاملاً.

بعد الهجوم

من حيث الحجم، كان معظم برج مركز التجارة العالمي يتشكل من هواء فارغ. وهي حال معظم البنايات الكبيرة، إلا أن مركز التجارة العالمي، وعلى نحو خاص، كان أكثرها فراغاً. وكان الراحل جون سكيلينغ، رئيس مكتب الهندسة الإنشائية الذي صمم الأبراج، يتفاخر دائماً بعرض رسم بياني لأقل ناطحات السحاب وزناً في العالم. وفي شريط أصفر على قمة الرسم البياني تمثيل لأخف ناطحات السحاب التي بنيت في العالم. وكانت الناطحات التي صممها موزعة داخل ذلك الشريط؛ وبالنظر إليها كمجموعة، فقد كانت بلا منازع أخف الأبراج الشاهقة التي بناها الإنسان. وقد استطاع تحقيق هذا

المستوى من الخفة عن طريق تخفيض كمية الحديد المستخدم في البناء الأمر الذي يوفر مزيداً من المساحة المتوفرة للإيجار، مما يعني مزيداً من الدخل لمالك البناية؛ لأن الإيجار يحسب على أساس المساحة، ولأن الحديد يشكل أكثر عناصر البناء كلفة في أي بناية كبيرة. وتصل مساحة عدد كبير من هذه الناطحات حوالي مليون قدم مربع أو أكثر. أما برجاً مركز التجارة العالمي فتبلغ مساحة الواحد منهما 3.4 مليون قدم مربع. إذن، فأى تخفيض، مهما كان بسيطاً، في كمية الحديد المستخدم في القدم المربع للبناية سينعكس أضعافاً مضاعفة في الحسابات المصرفية للمالك. وفي الوقت الذي صممت فيه أبراج مركز التجارة العالمي، كان وزن ناطحات السحاب يتجاوز 75 باونداً من الحديد لكل قدم مربع. أما مركز التجارة العالمي فقد كان يزن 37 باوند لكل قدم مربع، مما وفر مئات الملايين من الدولارات.

إن تشييد ناطحات سحاب خفيفة له آثار تتجاوز ميزان الكلفة والريح المادي. وفي الواقع، هناك نوعان من القوى التي يجب أخذها بالاعتبار للتأكد من أن البناية ستبقى قائمة: قوة عمودية هي قوة الجاذبية التي تجذب البناية إلى أسفل؛ وقوة جانبية، وهي في الغالب قوة الرياح أو الزلازل، التي تدفع البناية جانباً. ونظراً لأن تأثيرات الجاذبية ثابتة ومطرده، فإن توقعها والتعامل معها أسهل، ويمكن تخفيف آثارها عن طريق تقليص وزن البناية. أما القوى الجانبية، في المقابل، فإنه يصعب التنبؤ بها؛ ولذلك فهي تشكل تحدياً أكبر بالنسبة للمهندس. ولأن الأبراج التي صممها جون سكيلينغ كانت خفيفة الوزن، فإن الرياح كانت هي دائماً الهاجس الأكبر من الناحية الإنشائية. وقد يصعب على المرء تصور أن تؤثر الرياح في بناية تزن ملايين الأطنان، إلا أن الكثافة الكلية لبنايات سكيلينغ يمكن تشبيهها بألواح خشب البالسا. تصور ما يمكن أن تفعله الرياح بلوح من خشب البالسا طوله 700 قدم.

كانت أبراج مركز التجارة العالمي في حقيقة الأمر سهلة المطاوعة والانتشاء. وكانت تميل مسافة 10 أقدام من الأعلى بفعل الرياح القوية. وكان من الممكن تصميمها بحيث تميل ميلاناً آمناً أكثر من ذلك بكثير. وكانت مسألة القدر المسموح به للأبراج الطويلة في الميلان مشكلة جديدة تحتم على المعمارين أن يتعاملوا معها على أساس راحة الإنسان وليس على أساس المهارة الهندسية. وتولّى مكتب سكيلينغ والمهندس المعماري مينورو ياماساكي مهمة تحديد مستوى التسارع - كانت سرعة تحرك البناية وليس المسافة، هي التي يبدي الإنسان الموجود داخل البناية تجاهها ردة فعل. ولتحديد ذلك، قام المكتب ببناء غرفة فوق منصة مائتة متحركة وأعلنوا عن عرض لإجراء فحص نظر مجاني. قدم الناس لإجراء فحص النظر، وفي الوقت الذي يجلس فيه الشخص على الكرسي لمعاينة الأرقام التي تعرض أمامه، كان علماء تحليل نفسي متخفون خلف مرايا ذات اتجاهين(*) يأمرّون أن تحرك الغرفة حركة "على شكل رقم 8، وهو الشكل الذي تميل على نسقه ناطحات السحاب"⁽¹³⁾.

وكانت ردود الفعل متفاوتة على حركة الغرفة. بعض الناس اشتكوا من أقل درجات التسارع. وبعضهم الآخر أمسك بالكرسي وكأنه يركب أرجوحة في مدينة الملاهي دون أن يصدر عنه أدنى اعتراض. وبعد تلك التجربة قام سكيلينغ وعلماء النفس بتحديد "الحد الأدنى من الوعي. لقد قمنا بتحديد المعدل الذي اعترض عليه بشدة 2٪ من المشاركين وجعلناه الحد الأعلى" للقدر المسموح به في الانتشاء.

(*) هذه المرايا هي عبارة عن ألواح زجاجية تبدو بالنسبة للشخص الموجود داخل الغرفة مرآة عادية ولا يمكنه مشاهدة من يقف خلفها، أما الشخص الذي يقف وراء المرآة فإنها تبدو بالنسبة له لوحاً زجاجياً شفافاً فهو يشاهد من في الغرفة دون أن يلحظه الشخص المقابل. وتستخدم في مراكز الشرطة في بعض الدول لتمكين الشاهد من تحديد هوية المتهم من بين عدد من المشتبه بهم دون الكشف عن شخص الشاهد.

كان يتحتم على أبراج مركز التجارة العالمي أن يكون لديها قدرة على التآرجح والانتشاء. ودون تلك الخاصية فإنها ستتهار تحت وطأة الضغط. وقد صممت تلك الأبراج على تحمل الضغط الصادر عن رياح إعصار قوي يسير بسرعة 140 ميلاً في الساعة. إلا أن قوة القصور الذاتي للرياح ليست مشكلة على غرار سهم كبير مدبب يسير بسرعة 500 ميل في الساعة؛ وحتى الأعاصير لا تهاجم بسرعة طائرة البوينغ 767. وكان إيريلي، وهو الآخر أحد مهندسي أبراج مركز التجارة العالمي، يتفاخر بأن الأبراج صممت بحيث تتحمل الصدمة الناتجة عن ارتطام طائرة بها؛ وكان الناس يضحكون على فكرة إمكان أن يفكر شخص بالقيام بذلك.

وفي تلك الحادثة صبيحة 11 سبتمبر/ أيلول، تصرفت البنايات كما كان متوقعاً. فقد امتص البرجان الصدمة. ومن الناحية الفعلية، أمسكا بالطائرتين، اهتزا، ومالا، وعادا خلال ثوان إلى وضعهما الثابت ينزفان دخاناً وحديداً حامياً من الثقوب التي أحدثت في جنباتها. وفي ذلك اليوم، كان قد مر على وفاة سكيلينغ زمن طويل. إلا أن جون ماغنيسون، أحد شركائه السابقين، كان يشاهد التلفاز عندما قامت الطائرة الثانية التي يقودها مروان الشحي بالارتطام بالبرج الجنوبي. وكان ماغنيسون بالطبع مذعوراً مما شاهده، إلا أنه كان فخوراً برغم ذلك⁽¹⁴⁾. فقد تعرّض البرجان لأقوى ضربة يمكن أن توجه إليهما، ومع ذلك وقفا صامدين. إلا أنهما لم يتمكنوا من تحمل ما تبع الضربة.

في الوقت الذي ارتطم فيه عطا بالبرج الشمالي وتبعه الشحي بضرب البرج الجنوبي، اشتعل 10 آلاف غالون من الكاز داخل كل بناية بما يشكل قوة مدمرة تعادل 7 ملايين إصبع ديناميت، محدثة ناراً مستعرة وصلت إلى أكثر من 1300 درجة فهرنهايت أدت في النهاية إلى إذابة الحديد، وانهيار الأعمدة،

وانهيار الطوابق واحداً فوق الآخر، إلى أن انهار البرج الجنوبي ثم تبعه البرج الشمالي، متفتتاً بشكل عمودي إلى الأرض، وشكلا كومة من الحطام بعلو بناية بسبعة طوابق، تضم كل ما احتواه البرجان العملاقان، مليون طن من الزجاج، والحجارة، والحديد، والورق، والإسمنت المسلح، والبلاستيك، والمكاتب الخشبية الفاخرة، وقرطاسية الشركات المختلفة، وأطقم الملابس، وربطات العنق، وممسحات الفراشين، وعربات القهوة، وفتائر الدونت، والكراسي، والقضايا المعقدة لدى مكاتب المحامين، وأجهزة حاسوب سريعة، وآمال عريضة، وأحلام، وذكريات، زالت كلها بالزوال المفاجئ والكامل لحياة 2.792 شخصاً في ذلك اليوم.



ملحق أ

وصية محمد عطا الأخيرة(*)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شهادة وفاة

هذا ما أريد أن يحدث بعد وفاتي، أنا محمد بن محمد الأمير عواد السيد: أشهد أن النبي محمداً هو رسول الله، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. أريد من أهلي ومن كل شخص يقرأ هذه الوصية أن يتقي الله عز وجل، وأن لا ينخدع بهذه الحياة الزائلة، وأن يخشى الله، ويأتمر بأمر الله وأمر رسوله إن كان مؤمناً حق الإيمان. وفي ذكراي، أريد منهم أن يفعلوا ما فعله النبي إبراهيم حين قال لأبنائه لا تموتن إلا وأنتم مسلمون. عندما أموت، أريد من الأشخاص الذين يرثونني أن يفعلوا الآتي:

1. يجب أن يكون الأشخاص الذين يجهزونني للدفن أن يكونوا من المسلمين الأتقياء لأن هذا يذكرني بالله وبمغفرته.
2. يجب على الأشخاص الذين يغسلونني أن يغلقوا جفني، وأن يدعوا لي بالجنة، وأن يكفنونني بثياب جديدة وليس بالثياب التي مت فيها.
3. لا أريد من أي أحد أن ينوح أو يبكي أو يشق ثيابه أو يضرب وجهه [على موتي] لأن ذلك من أمور الجاهلية.

4. لا أريد من أي شخص لم أكن على وفاق معه أثناء حياتي أن يزورني أو يقبلني أو يودعني عندما أموت.
5. لا أريد من امرأة حامل أو شخص غير نظيف أن يأتي ليودعني لأنني لا أقر بذلك.
6. لا أريد من النساء الحضور إلى منزلي للعزاء بموتي. ولست مسؤولاً عن الأشخاص الذين يذبحون الذبائح أمام جنازتي؛ لأن ذلك مخالف لتعاليم الإسلام.
7. يجب على الذين يجلسون جوار قبري أن يتذكروا الله، الرب، وأن يدعوا لي أن أكون مع الملائكة.
8. يجب على الأشخاص الذين سيتولون غسلني أن يكونوا مسلمين، ولا أريد أن يشارك في غسلني كثير من الناس إلا إذا كان ذلك ضرورياً.
9. يجب على الشخص الذي يتولى غسلني أن يلبس القفازات بيده عندما يغسل عورتي وذلك حتى لا يلمس بيده عورتي.
10. أريد من ملابسي [هكذا في الأصل الإنجليزي والمقصود هنا كفني] التي ألبسها أن تكون مكونة من ثلاث قطع من القماش الأبيض، وليست مصنوعة من الحرير أو القماش الثمين.
11. لا أريد من أي امرأة أن تأتي إلى قبري خلال تشييع جنازتي ولا في أي مناسبة بعد ذلك.
12. أريد من كل شخص يحضر جنازتي أن يلزم الخشوع؛ لأن الله ذكر أنه يحب الخشوع عند تلاوة القرآن، وأثناء الجنازة، وفي التشييع، وينبغي الإسراع بجنازتي وأن يحضرها أكبر عدد ممكن من الناس.

13. يجب أن يكون الناس الذين أدفن معهم من المسلمين الصالحين. وأن أوجه إلى جهة الشرق نحو مكة.
14. يجب أن أوضع على جنبي اليمين. ويجب أن تتشروا التراب على جسدي ثلاث مرات وتقولوا (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) بعد ذلك، يجب على كل الحضور أن يذكروا اسم الله وأنني مت على الإسلام الذي هو دين الله. وعلى كل شخص يحضر جنازتي أن يسأل الله أن يغفر لي ما فعلته في السابق (وليس ما فعلته في هذا المناسبة).
15. يجب على الأشخاص الذين يحضرون جنازتي أن يجلسوا على قبري مدة ساعة لكي أستمتع بمعيتهم وأن يذبحوا الذبائح ويوزعوها على المحتاجين.
16. اعتاد الناس على إحياء ذكرى الميت كل أربعين يوماً أو مرة في العام، إلا أنني لا أريد أن يفعل أي شيء من هذا القبيل؛ لأنها ليست من العادات الإسلامية.
17. لا أريد من الناس أن يكتبوا أشياء على الورق ويحتفظوا بها في جيوبهم كحجب. يجب أن يخصص الوقت بدلاً من ذلك في الدعاء إلى الله.
18. يجب أن تقسم أموال تركتي بحسب الدين الإسلامي وكما أمرنا الله جل جلاله أن نفعل. وأوصي بأن يوزع ثلث أموالي على الفقراء والمساكين. كما أوصي بالتبرع بكتبي لواحد من مساجد المسلمين. ويجب على من يقرأ هذه الوصية وينفذها أن يكون من رؤساء الدين السنّي. ومهما كان ذلك الشخص، فإنه يجب أن يكون من المكان الذي نشأت فيه أو من الأشخاص الذين كنت أصلي خلفهم. وسوف يتحمل الناس مسؤولية عدم اتباعهم الدين الإسلامي. وأريد من الناس الذين تركتهم خلفي أن يسمعوا كلام الله وأن لا ينخدعوا بما تقدمه هذه الحياة الدنيا وأن يكثروا من الصلاة



وأن يكونوا مؤمنين حق الإيمان. وكل من يخالف هذه الوصية فإنه يخالف أحكام الدين، وسوف يحاسب عن ذلك في النهاية.

حررت هذه الوصية في 11 أبريل/ نيسان من عام 1996، الموافق لذي القعدة من عام 1416.

كتبه محمد محمد الأمير عواد السيد.

شاهد: عبدالغني المزودي

شاهد: منير المتصدق..



■ ملحق ب ■

الليلة الأخيرة

فيما يلي جزء من التعليمات التي أعطيت لفريق الخاطفين. ويعتقد أن عبدالعزیز العمري هو الذي كتبها.

1. التبایع على الموت، تجديد النصيحة. حلق الشعر الزائد من الجسم والتطيب، والاختسال.

2. معرفة الخطة جيداً من كل النواحي، وتوقع ردة الفعل أو المقاومة من العدو.

3. قراءة سورة التوبة والأنفال وتدبر معانيها وما أعده الله للمؤمنين من النعيم المقيم للشهداء.

4. تذكير النفس بالسمع والطاعة تلك الليلة فإنك ستعرض لمواقف حاسمة لا بد فيها من السمع والطاعة (100٪) فروض نفسك وفهمها وأقنعها وحرصها على ذلك. قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾.

5. قيام الليل والتضرع إلى الله بالدعاء للنصر والتأييد والنصر المؤزر، وتسهيل مهمتنا وكرمانها.

6. كثرة الذكر واعلموا أن خير الذكر قراءة القرآن، وذلك بإجماع أهل العلم فيما أعلم ويكفي لنا أنه كلام فاطر السموات والأرض الذي أنت مقبل عليه.

7. صف قلبك ونقه من الشوائب وانس [هكذا في الأصل] وتتاس شيئاً اسمه دنيا، فقد مضى زمن اللعب وجاء الموعد الحق، وكم ضيعنا من أعمارنا في أوقات، أفلا نستغل تلك الساعات لتقديم القربات والطاعات.

8. ليكن صدرك منشرحاً فإنه ما بينك وبين زواجك إلا لحظات يسيرة بها تبدأ الحياة السعيدة الرضية والنعيم الخالد مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. نسأل الله من فضله وكن متفائلاً [هكذا في الأصل] فإنه عليه الصلاة والسلام (كان يحب الفأل في أمره كله).

9. ثم اجعل نصب عينيك أنك إذا وقعت في ابتلاء كيف تتصرف وكيف تثبت وتسترجع، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك [هكذا في الأصل] لم يكن ليصيبك، فإن هذا الابتلاء من الله جل وعلا ليرفع درجتك، ويكفر عن ذنوبك، ثم اعلم أن لحظات ثم ينجلي بإذن الله فيا هنيئاً لمن فاز بالأجر العظيم من الله، قال تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

10. ثم تذكروا قول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ... الآية﴾ وبعد ذلك تذكروا: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ... الآية﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

11. ذكر نفسك بالأدعية وإخوانك وتدبر معانيها (أذكار الصباح والمساء - أذكار البلدة، أذكار المكان، أذكار لقاء العدو.. إلخ).

12. النفث (على النفس - والشنطة - والملابس - والسكين - أدواتك - بطاقتك، تذكرة جوازك أوراقك كلها).

13. تفقد سلاحك قبل الرحيل وقبل الرحيل و (ليحد أحدكم شفرته و ليرح ذبيحته).

14. شد عليك ملابسك جيداً وهذا هو نهج السلف الصالح رضوان الله عليهم فكانوا يشدون ملابسهم عليهم قبل المعركة ثم شدّ حذاءك جيداً ولبس

[هكذا في الأصل ولعلها والبس] شراباً يكون تمسك في الحذاء ولا تخرج منه. وهذه كلها أسباب مأمورون بالأخذ بها وحسبنا الله ونعم الوكيل.

15. صل الصبح في جماعة وتدبر أجرها وأت بالأذكار بعدها ولا تخرج من شقتك إلا متوضئاً

16. لتكن ملابسك مشدودة جيداً، وهذه هي طريقة السلف الصالح رضي الله عنهم. فقد كانوا يشدون ملابسهم قبل المعركة. اربط حذاءك بإحكام والبس جوارب مشدودة تحكم الحذاء . وقد أمرنا الله بهذا. والله حسبنا ونعم الوكيل.

17. صل صلاة الفجر في الجماعة وتأمل في الجزاء والأجر أثناء الصلاة وأثناء التلاوة بعد الصلاة. ولا تخرج من منزلك دون وضوء. لأن الملائكة تستغفر وتصلي لك ما دمت على وضوء.



obeyikan.com

ملحق ج

إعلان ابن لادن الحرب عام 1996 على الأمريكان المحتلين لأرض الحرمين الشريفين (مختصراً) (*)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.
وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله...

فإنه لا يخفى عليكم أن أمة الإسلام عانت من العدوان والظلم والإجحاف
على يد التحالف الصهيوني الصليبي وأعوانهم حتى أصبحت دماء المسلمين
رخيصة، وثرواتهم نهباً في يد أعدائهم. فقد سفكت دماء المسلمين في
فلسطين وفي العراق. وما تزال الصور المروعة لمجزرة قانا في لبنان ماثلة في
الأذهان. ووقعت مجازر أخرى تقشعر منها الأبدان ويهتز من هولها الوجدان
في طاجيكستان، وبورما، وكشمير، وآسام، والفلبين، وأوغادين، والصومال،
وأريتريا، والشيشان، والبوسنة والهرسك. كل هذا يحدث على مرأى ومسمع
من العالم الذي لم يكتف بالوقوف إزاء هذه المجازر مكتوف اليدين وحسب، بل
عمل على منع السكان العزل من الحصول على السلاح للدفاع عن أنفسهم في
مؤامرة واضحة بين الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، وتحت غطاء الأمم
المتحدة الجائرة.

لقد أفاق المسلمون وأدركوا أنهم هم المستهدفون من عدوان هذا التحالف
الصهيوني الصليبي. وفضحت هذه المجازر التي ترتكب بحق المسلمين كل يوم

(*) هذه ترجمة عن الأصل الإنجليزي كما ورد في الكتاب.

وفي كل مكان حول العالم زيف الادعاءات الكاذبة والتضليل الإعلامي حول حقوق الإنسان.

وإن من أعظم وآخر هذه الاعتداءات التي شهدتها المسلمون منذ وفاة النبي ﷺ هي احتلال جيوش الصليبيين الأمريكان وحلفائهم أرض الحرمين الشريفين - مهد الإسلام، ومهبط الوحي ومصدر الرسالة ومكان الكعبة المشرفة قبله المسلمين. ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

وفي ظل هذه الظروف، وتحت راية الصحوّة المباركة التي تجتاح العالم عموماً والعالم الإسلامي خصوصاً، ألتقي معكم اليوم. وبعد الغياب الطويل الذي فرض على علماء الإسلام ودعاته على يد الصليبيين الظالمين بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية والذين يخشون أن يقوم العلماء والدعاة بتحريض الأمة ضد أعدائها، كما فعل العلماء السابقون، رحمهم الله جميعاً، من أمثال ابن تيمية والعز بن عبد السلام؛ ولذلك، فقد لجأ التحالف الصهيوني الصليبي إلى قتل واعتقال العلماء المخلصين والدعاة العاملين (الذين نحسبهم كذلك ولا نزكي على الله أحداً). فقتلوا الشيخ المجاهد عبدالله عزام، واعتقلوا المجاهد الشيخ أحمد ياسين، والشيخ المجاهد عمر عبدالرحمن في أمريكا.

وبأمر من الولايات المتحدة الأمريكية أسروا عدداً كبيراً من العلماء والدعاة والشباب في بلاد الحرمين الشريفين، ومن بينهم الشيخ سلمان العودة، والشيخ سفر الحوالي، وإخوانهم. (ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم). كما أن هذا الظلم لحقنا أنا شخصياً، وجماعتي؛ فمنعنا من مخاطبة المسلمين، ولوحقنا في باكستان والسودان وأفغانستان. وهذا ما يفسر طيلة غيابي الطويل. ولكن بفضل الله تعالى، فإن قاعدة آمنة متوفرة الآن في جبال هند كوش في خراسان؛ التي شهدت - بفضل الله ومنته - تدمير أكبر قوة عسكرية كافرة في العالم. وانهارت أسطورة القوة العظمى أمام صيحات المجاهدين الله

أكبر. وإنما نعمل اليوم من هذه الجبال نفسها من أجل رفع الظلم الذي فرض على الأمة من قبل التحالف الصليبي الصهيوني، وبخاصة بعد أن احتلوا الأرض المباركة حول بيت المقدس مسرى النبي ﷺ، وأرض الحرمين الشريفين. نسأل الله أن يؤيدنا بنصره، إنه نعم المولى ونعم النصير.

ومن هنا، نبدأ اليوم عملنا، نتحدث وناقش سبل تصحيح ما حدث للعالم الإسلامي عموماً وأرض الحرمين الشريفين خصوصاً. ونأمل أن نتدارس حول أفضل السبل التي يمكننا اتباعها لإعادة الأمور إلى وضعها الصحيح، وإرجاع الحقوق إلى أصحابها الشرعيين، وبخاصة بعد الخسائر الجسيمة، والعدوان الكبير الذي لحق بحياة الناس ودينهم، والظلم الذي أصاب الناس بمختلف فئاتهم وشرائحهم؛ من المدنيين، والعسكريين ورجال الأمن، وموظفي الحكومة، والتجار، والكبير والصغير، وطلبة المدارس والجامعات، ومئات الآلاف من العاطلين عن العمل والذين أصبحوا عرض شرائح المجتمع...

إن التفجير الذي وقع في الرياض والخبر هو إنذار من هذا الانفجار البركاني الذي ظهر نتيجة لشدة القهر، والمعاناة، والإجحاف المفرط، والذل والفقر....

من خلال ممارساته مخالفاته، فقد النظام شرعيته:

(1) تعطيل العمل بالشرعية الإسلامية واستبدالها بقانون وضعي من صنع البشر. ودخل النظام في مواجهة دموية مع العلماء المخلصين والشباب المؤمنين (الذين نحسبهم كذلك، ولا نزكي على الله أحداً، والله يزكي من يشاء).

(2) عجز النظام عن حماية البلاد، والسماح لأعداء الأمة - الجيوش الأمريكية الصليبية - باحتلال البلاد لأطول السنين. وأصبحت الجيوش الصليبية

السبب الرئيس لأحوالنا الكارثية، وبخاصة في الجانب الاقتصادي بسبب النفاقات الباهظة على هذه الجيوش. ونتيجة للسياسات المفروضة على الدولة، وخصوصاً في حقل صناعة النفط حيث يخفض الإنتاج أو يزداد وتحدد الأسعار بما يتناسب مع الاقتصاد الأمريكي مع تجاهل للاقتصاد السعودي. وفرضت الصفقات المكلفة على البلاد لشراء الأسلحة. ويتساءل الناس ما هو مسوِّغ وجود النظام إذن؟...

إن الحل الصحيح هو اتباع ما قرره أهل العلم كما ذكر ابن تيمية - رحمه الله - : يجب اجتماع المسلمين وتوحيدهم لدفع الكفر الذي يحكم بلاد المسلمين، ولو كان ذلك بتحمل الضرر الأقل لدفع الضرر الأكبر.

وإذا كان هناك أكثر من واجب يتحتم القيام به، فإن الأولوية تكون للأكثر أهمية. ومن الواضح أنه ليس هناك واجب أهم بعد الإيمان من طرد العدو الأمريكي من الأرض المقدسة، بلاد الحرمين. ولا يوجد شيء بعد الإيمان واجب أهم من إخراج العدو الأمريكي من الأرض المقدسة. ولقد أوضح أهل العلم ذلك، كما ذكر ابن تيمية: إن القتال دفاعاً عن الدين والعقيدة هو واجب يقع على الجميع؛ والعدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه. الدين. ولا يوجد شروط مسبقة لهذا الواجب ويجب قتال العدو بقدر المستطاع. (مرجع الفتوى). وإذا لم يتيسر دحر العدو إلا باجتماع المسلمين، فيقع على المسلمين واجب ترك الاختلافات فيما بينهم؛ لأن الضرر الناتج عن ترك تلك الاختلافات، هو أخف ضرراً وأهون شراً من احتلال الكفار الأرض الإسلامية. وقد أوضح ابن تيمية هذه المسألة وركز على أهمية التعامل مع الخطر الكبير على حساب الخطر الأقل. ووصف أحوال المسلمين والمجاهدين وذكر أنه حتى أفراد الجيش الذين لا يلتزمون بأحكام الإسلام لا يعفون من واجب الجهاد ضد العدو...

يجب بذل أقصى الجهود لإعداد وتحريض الأمة ضد العدو، التحالف الأمريكي - الإسرائيلي الذي يحتل بلاد الحرمين والمسجد الأقصى مسرى نبيه عليه الصلاة والسلام. ولتذكير المسلمين بعدم الدخول في حرب داخلية بينهم؛ لأن ذلك ستكون له نتائج غير خطيرها أهمها:

1. استنزاف الموارد البشرية للمسلمين؛ لأن معظم الخسائر ستكون في صفوف المسلمين.
2. استنزاف الموارد الاقتصادية والمالية.
3. دمار البنية التحتية للبلاد.
4. تمزيق المجتمع.
5. تدمير صناعات النفط.

إن وجود قوات الاحتلال الصليبي في البر والبحر والجو في دول الخليج المسلمة يشكل أكبر تهديد لأكبر احتياطي للنفط في العالم. ووجود هذه القوات في المنطقة يشكل استفزازاً لسكان البلاد واعتداءً على دينهم ومشاعرهم وكرامتهم، وسيدفعهم إلى الدخول في مواجهة مسلحة ضد المحتلين؛ لذلك فإن انتشار القتال في المنطقة يمكنه أن يعرض ثروة النفط لخطر الاحتراق. وسوف تتضرر نتيجة لذلك المصالح الاقتصادية لدول الخليج وبلاد الحرمين الشريفين، وسيتسبب ذلك في ضرر أكبر على الاقتصاد العالمي؛ لذلك فإنني أود أن أنبه إخواني المجاهدين، أبناء الأمة إلى ضرورة حماية الثروة النفطية، وألا يجعلوها هدفاً في معركتهم، لأنها ثروة إسلامية عظيمة، وهي قوة اقتصادية كبيرة ضرورية للدولة الإسلامية التي ستقوم قريباً، بمشيئة الله وتوفيقه. كما ونحذر المعتدين، الولايات المتحدة، من محاولة حرق هذه الثروة الإسلامية. (وهي جريمة يمكن أن

يقتطفوها من أجل منعها من الوصول إلى أيدي أصحابها الشرعيين في نهاية الحرب، ومن أجل إحداث الأضرار الاقتصادية لمنافسيها في أوروبا أو في الشرق الأقصى، وبخاصة اليابان التي تعتبر مستهلكاً رئيساً للنفط في المنطقة).

6. تقسيم بلاد الحرمين وضم الأجزاء الشمالية منها إلى إسرائيل. إن تقسيم بلاد الحرمين الشريفين هو مطلب أساسي للتحالف الصهيوني الصليبي، ووجود دولة كبيرة بمواردها الضخمة تحت القيادة الإسلامية القادمة - بمشيئة الله - يشكل خطراً حقيقياً على وجود الدولة الصهيونية في فلسطين. كما أن الكعبة المشرفة قبله المسلمين كافة - في أرض الحرمين تشكل رمزاً لوحدة العالم الإسلامي. إضافة إلى ذلك، فإن وجود أكبر احتياطي نفطي يجعل من بلاد الحرمين الشريفين قوة اقتصادية مهمة في العالم الإسلامي. إن أبناء الحرمين الشريفين يتصلون مباشرة بسيرة آبائهم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ويعتبرون سيرة آبائهم مثلاً يحتذى لاستعادة عزة الأمة وإعلاء كلمة الله. - كما أن وجود جيش من السكان المقاتلين في اليمن جنوباً يقاتلون في سبيل الله، يشكل خطراً إستراتيجياً على التحالف الصهيوني الصليبي في المنطقة. قال النبي ﷺ: «يخرج من عدن أبين اثنا عشر ألفاً ينصرون الله ورسوله هم خير من بيني وبينهم». رواه أحمد بسند صحيح.

7. الحرب الأهلية خطأ كبير مهما كانت أسبابها ودواعيها. إن وجود قوات الاحتلال الأمريكية سيمنحها من التحكم بنتيجة المعركة لصالح الكفر العالمي...

لم يعد مقبولاً الادعاء بأن وجود الصليبيين هو ضرورة وإجراء مؤقت من أجل حماية بلاد الحرمين الشريفين، وبخاصة بعد التدمير الهامجي للبنية

التحتية المدنية والعسكرية في العراق، والذي أظهر عمق الحقد الصليبي الصهيوني على المسلمين وأطفالهم، ورفضهم فكرة إحلال قوات إسلامية محل القوات الصليبية مؤلفة من أبناء البلاد والمسلمين. إضافة إلى ذلك، فإن أسس الادعاء والادعاء نفسه قد هدمت بالتصريحات المتتابعة التي أدلى بها ويليام بيرري، وزير الدفاع الأمريكي، في أعقاب تفجيرات الخبر قائلاً: "إن وجود القوات الأمريكية هناك هو لحماية المصالح الأمريكية". وكتب الشيخ الأسير سفر الحوالي، نسأل الله أن يعجل فك أسره، كتاباً من سبعين صفحة، قدم فيه دليلاً وبرهاناً على أن الوجود الأمريكي في شبه الجزيرة العربية هو احتلال عسكري مخطط له من قبل. ويريد النظام أن يخدع المسلمين بنفس الطريقة التي خدع فيها المقاتلين الفلسطينيين المجاهدين من قبل، وتسبب في ضياع المسجد الأقصى. ففي عام 1303 للهجرة (1936 للميلاد) بدأت الأمة المسلمة في فلسطين جهادها ضد قوات الاحتلال البريطاني، وكانت بريطانيا عاجزة عن وقف جهاد المجاهدين. إلا أن شيطانهم أوعز إليهم أنه لا سبيل لوقف النزاع المسلح في فلسطين إلا من خلال عميلهم الملك عبدالعزيز الذي نجح في خدع المجاهدين. ونفذ الملك عبدالعزيز مهمته وواجهه تجاه أسياده الإنجليز. وأرسل اثنين من أبنائه للقاء قادة المجاهدين وإخبارهم أن الملك عبدالعزيز سيضمن وعود الحكومة البريطانية بالانسحاب من المنطقة، والاستجابة لمطالب المجاهدين إذا توقفوا عن القتال. وبذلك تسبب الملك عبدالعزيز في ضياع قبلة المسلمين الأولى. وانضم الملك إلى الصليبيين ضد المسلمين، وبدلاً من أن يدعم المجاهدين في سبيل الله لتحرير المسجد الأقصى، خذلهم وأذلهم.

واليوم، يحاول ابنه الملك فهد، أن يخدع المسلمين للمرة الثانية لإضاعة ما بقي من المقدسات. وعندما رفض العالم الإسلامي وصول قوات الصليبيين إلى أرض الحرمين الشريفين، كذب الملك أمام العلماء (الذين أصدروا الفتاوى حول

وصول الأمريكان) وعلى زعماء العالم الإسلامي المجتمعين في مؤتمر الرابطة الذي انعقد في مكة المكرمة، وقال الملك: "المسألة بسيطة، قوات الأمريكان والتحالف ستغادر المنطقة في غضون بضعة أشهر". وها قد مرت سبع سنوات منذ وصول تلك القوات والنظام عاجز عن إخراجهم من البلاد. ولم يعترف النظام بعجزه، واستمر في الكذب على الناس مدعياً أن الأمريكان سوف يغادرون. ولكن لن نخدع مرة أخرى، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين! وهينئاً لمن اتعظ بأخطاء غيره!!.

وبدلاً من تحفيز الجيش، والحرس، ورجال الأمن، لمواجهة المحتلين، قام النظام بتسخير هؤلاء الرجال لحماية المحتلين، معمقين بذلك الإذلال والخيانة، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وإلى جموع هؤلاء الرجال في الجيش وقوات الأمن والشرطة الذين انخدعوا وأجبروا من قبل النظام على مهاجمة المسلمين وسفك دمائهم، فإننا نود تذكيرهم بما جاء في الأحاديث: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب» رواه البخاري. وبقوله ﷺ وفي رواية أخرى للنسائي: "فيقول القاتل: على ملك فلان".

وقد بدأ اليوم إخوانكم وأبناؤكم، أبناء الحرمين الشريفين، جهادهم في سبيل الله، لطرد العدو الذي يحتل بلاد الحرمين الشريفين. وما من شك في أنكم تحبون القيام بهذا الواجب أيضاً، من أجل استعادة عزة هذه الأمة وتحرير مقدساتها. ولكن ينبغي أن يكون من الواضح لديكم أنه وبسبب عدم توازن ميزان القوى بين قواتنا المسلحة وجيوش العدو، فإنه يتحتم اتباع أسلوب مناسب للقتال، وهو استخدام قوات خفيفة سريعة الحركة تستطيع العمل بسرية تامة. وبعبارة أخرى شن حرب عصابات يقوم بها أبناء الأمة، وليس قوات الجيش. وكما تعلمون، فإن من الحكمة في الظروف الحالية، ألا يدخل الجيش في مواجهة تقليدية مع قوات العدو الصليبي (باستثناء العمليات

الجريئة والبليغة التي تقوم بها عناصر من القوات المسلحة بصورة فردية، أي دون تحريك القوات النظامية بشكلها التقليدي، وبذلك لا يكون لها رد مباشر وعنيف ضد الجيش) إلا إذا كان لها فائدة كبيرة محتملة؛ وتوقع في صفوف العدو خسائر فادحة (تهز وتدمر قواعده وبنيته التحتية) وتساعد في طرد العدو المهزوم من البلاد.

إن إخوانكم وأبناءكم المجاهدين يطلبون منكم مساعدتهم بكل الوسائل المتاحة عن طريق تزويدهم بالمعلومات الضرورية والمعدات والسلاح. ومطلوب من رجال الأمن خاصة التغطية على المجاهدين ومعاونتهم بقدر الإمكان ضد العدو المحتل؛ وبث الإشاعات والرغبة والخوف في صفوف قوات العدو.

ونذكركم أن النظام، وسعيًا منه في خلق العداوة والبغضاء بينكم وبين المجاهدين، قد يلجأ إلى القيام بأعمال متعمدة ضد عناصر قوات الأمن، والحرس، وقوات الجيش، ونسبة هذه العمليات إلى المجاهدين. يجب عدم السماح للنظام باستغلال مثل هذه الفرصة.

إن النظام مسؤول مسؤولية كاملة عما حدث للبلاد والعباد؛ ومع ذلك فإن العدو الأمريكي المحتل هو السبب المباشر عن هذه الحالة؛ ولذلك يجب أن تركز الجهود على تحطيم، ومحاربة وقتل العدو إلى أن يهزم هزيمة ساحقة بإذن الله. وسيأتي اليوم - بمشيئة الله - الذي تؤدون فيه دوركم الحاسم لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى. وتضربون المعتدين بيد من حديد، وتعيدون الأمور إلى نصابها، والحقوق إلى أصحابها وتؤدون واجبكم الإسلامي الحقيقي. وسيكون لي حديث منفصل حول هذه الأمور إن شاء الله.

إخوتي المسلمین (وبخاصة في شبة الجزيرة العربية): إن الأموال التي تنفقونها في شراء البضائع الأمريكية تتحول إلى رصاص يستخدم ضد إخواننا في فلسطين، وغداً ستستخدم ضد أبنائنا في بلاد الحرمين الشريفين. وبشراء هذه البضائع فإننا ندعم ونقوي اقتصادهم بينما يزداد من فقرنا وحاجتنا.

الإخوة المسلمين في بلاد الحرمين الشريفين:

إن من العجب العجاب أن بلادنا هي أكبر مستورد للسلاح من الولايات المتحدة الأمريكية، وأكبر شريك للأمريكان الذين يدعمون إخوانهم الصهاينة في ترسيخ احتلالهم لفلسطين، وقتل وتشريد المسلمين هناك، عن طريق تزويدهم بالسلاح، والرجال، والدعم المالي.

إن حرمان هؤلاء المحتلين من العوائد الكبيرة من تجارتهم مع بلادنا هو مساعدة مهمة للجهاد ضدهم. وإن التعبير عن غضبنا وكرهنا لهم هو إشارة أخلاقية مهمة. وبفعلنا ذلك، نكون قد شاركنا في عملية تطهير المقدسات من الصليبيين والصهاينة وطردهم، بمشيئة الله، مخذولين مدحورين.

إننا نأمل من نساء بلاد الحرمين الشريفين وبقية الدول أن يقمن بدورهن في مقاطعة البضائع الأمريكية.

وإذا تضافرت هذه المقاطعة الاقتصادية مع عمليات المجاهدين العسكرية، فإن هزيمة العدو ستكون أقرب بإذن الله. وإذا لم يتعاون المسلمون ولم يدعموا إخوانهم المجاهدين، فإنهم من الناحية الفعلية يقدمون المساعدة المالية لجيوش العدو، ويطيلون أمد الحرب، ويزيدون من معاناة المسلمين.

ولا يمكن لأجهزة الأمن والاستخبارات في العالم كله أن تجبر مواطناً واحداً على شراء بضائع عدوه. والمقاطعة الاقتصادية للبضائع الأمريكية هي سلاح فعال لضرب وإضعاف العدو، وهي أمر خارج عن سيطرة قوات أمن النظام...

قبل عدة أيام، نقلت وكالات الأنباء عن وزير دفاع الصليبيين الأمريكيين قوله بأن "التفجيرات التي وقعت في الرياض والخبر علّمته درساً: هو عدم الانسحاب بعد التعرض لهجوم من إرهابيين جبناء".

ونحن بدورنا نقول لوزير الدفاع بأن تصريحاته تلك تثير ضحك الأم الثكلى! وتظهر الخوف الذي ألمّ بهم جميعاً. فأين كانت شجاعتكم عندما وقع الانفجار في بيروت عام 1983 م (1403 هـ). حيث تحولتم إلى جثث وأشلاء؛ وقتل 241 من مشاة البحرية. وأين كانت تلك الشجاعة حين تركتم عدن في أقل من أربع وعشرين ساعة بعد وقوع انفجارين هناك!

إلا أن أكبر مخازيكم هو ما وقع في الصومال؛ فبعد الضجة الإعلامية حول قوة الولايات المتحدة ودورها القيادي بعد الحرب الباردة في النظام العالمي الجديد - قمتم بنقل عشرات الآلاف من الجنود الدوليين، بمن فيهم 28 ألفاً من الجنود الأميركيين إلى الصومال. إلا أنه وبعد مقتل عشرة من جنودكم في معركة جانبية، وسحب أحد الطيارين الأميركيين في شوارع مقديشو، تركتم المنطقة حاملين معكم الذل، والخذلان، والهزيمة، والأموات. وظهر كلينتون أمام العالم أجمع يهدد ويتوعد بالثأر، إلا أن تلك التهديدات كانت مجرد تحضيرات للانسحاب. لقد أذلكم الله وانسحبتم؛ وأصبح من الواضح مدى ضعفكم وعجزكم. وكان من مبعث السرور على قلب كل مسلم وشفاء لصدور الأمم المؤمنة أن تشاهد هزيمتكم في ثلاث مدن إسلامية: بيروت وعدن ومقديشو.

إنني أقول لوزير الدفاع: إن أبناء بلاد الحرمين الشريفين خرجوا لقتال الروس في أفغانستان، والصرب في البوسنة والهرسك، وهامهم يقاتلون اليوم في الشيشان، وبمشيئة الله، سينصرهم الله على شركائكم الروس. وهم يقاتلون كذلك في طاجيكستان بإذن الله.

أقول: بالنظراً إلى أن أبناء بلاد الحرمين الشريفين يشعرون، ويعتقدون أشد الاعتقاد أن الجهاد ضد الكفر في كل مكان في العالم، هو ضرورة ملحة؛ فإنهم سيكونون أكثر تحمساً، وأكثر عدداً عندما يقاتلون في بلادهم - مسقط رأسهم، دفاعاً عن أقدس مقدساتهم، الكعبة المشرفة قبله المسلمين جميعاً.

وهم يعلمون أن مسلمي العالم سيقفون معهم ويساندونهم حتى النصر. إن تحرير المقدسات هو من أهم القضايا التي تهم المسلمين جميعاً؛ وهي واجب على كل مسلم في هذا العالم.

وأقول لك يا ويليام (وزير الدفاع): إن هؤلاء الشباب يحبون الموت كما تحب الحياة. لقد ورثوا العزة والمهابة، والإباء، والشجاعة، والكرم، والصدق، والتضحية، أباً عن جد. وهم أكثر عطاءً وثباتاً في الحرب. ورثوا تلك القيم عن أسلافهم (وحتى منذ أيام الجاهلية قبل الإسلام). وجاء الإسلام ليقرر ويكمل هذه القيم، كما عبر عن ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" (صحيح الجامع الصغير).

وعندما حاول الملك الجاهلي عمرو بن هند أن يهين عمرو بن كلثوم، قطع الأخير رأس الملك بسيفه، رافضاً العدوان والذل والهوان...

إن هؤلاء الشباب يعلمون أن جزاءهم على مقاتلكم، هو جزاء مضاعف على مقاتلة غيركم من غير أهل الكتاب. وليس لهم نية سوى دخول الجنة بقتلكم. وشخص كافر عدو لله مثلكم، لا يمكن أن يكون في جهنم مع قاتله المؤمن....

لذلك، فإن الاعتداء على أبناء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، بوصفهم بالجبناة وتحديهم برفضكم الخروج من أرض الحرمين الشريفين يظهر ما تعانون منه من جنون واختلال. وشفأؤه المناسب هو على يد شباب الإسلام:

إن بث الذعر في نفوسكم وأنتم تحملون السلاح في أرضنا هو واجب شرعي وأخلاقي. وهو حق شرعي معروف لكل البشر والمخلوقات الأخرى. ومثال حالكم وحالنا كمثل الحية التي دخلت إلى منزل رجل وقتلت على يديه. والجبناة هو الذي يسمح لكم بالثقل وأنتم تحملون السلاح، بكل حرية في أرضه ويضمن لكم الأمن والحماية.

هؤلاء الشباب ليسوا كجنودكم. ستكون مشكلتكم هي إقناع جيوشكم بالمعركة، بينما مشكلتنا هي في إقناع شبابنا بانتظار دورهم في القتال والعمليات....

وأذكر الشباب في العالم الإسلامي، الذين قاتلوا في أفغانستان، وفي اليوسنة والهرسك، بأموالهم وأقلامهم، وألسنتهم، وأنفسهم، أن المعركة لم تنته بعد. أذكرهم بالحديث الذي دار بين جبريل عليه السلام والرسول ﷺ بعد غزوة الأحزاب، لما رجع الرسول ﷺ من الخندق إلى المدينة فوضع سلاحه واغتسل، أتاه جبريل عليه السلام، فقال: وضعت السلاح، والله إن الملائكة ما وضعت سلاحها بعد؛ فاخرج إلى بني قريظة، ... فخرج الرسول ﷺ ومعه المهاجرون والأنصار...

هؤلاء الشباب يعلمون أن المرء إذا لم يُقتل فإن الموت آت لا محالة. وأشرف الموت هو أن يقتل الإنسان في سبيل الله. وهم الآن أكثر عزمًا بعد استشهاد الأبطال الأربعة الذين فجروا الأمريكان في الرياض. هؤلاء الشباب الذين رفعوا بتلك العملية في الرياض رأس الأمة عاليًا وأذلوا الأمريكان المحتلين. إنهم يذكرون قول جعفر القائد الثاني في معركة مؤتة، التي واجه فيها ثلاثة آلاف مسلم مائتي ألف من الرومان:

يا حبذا الجنة واقترابها، طيبة باردة شرابها، والروم روم قد دنا عذابها، عليّ إن لاقيتها ضرابها.

إخوتي المسلمين حول العالم:

إن إخوتكم في فلسطين وفي أرض الحرمين الشريفين يناشدونكم المساعدة والعون ويدعونكم إلى مشاركتهم في قتال عدوهم - وعدوكم - الأمريكان والإسرائيليين. ويطلبون منكم أن تقدموا ما في وسعكم، كل بحسب استطاعته وقدرته، من أجل في طرد العدو، ودحره و خارج المقدسات الإسلامية...

obeyikan.com

ملحق د

جهاد ابن لادن ضد اليهود والصليبيين(*)

بيان الجبهة الإسلامية العالمية

23 فبراير/ شباط 1998

الموقعون:

الشيخ أسامة بن محمد بن لادن

أيمن الظواهري، أمير جماعة الجهاد في مصر

أبو ياسر رفاعي أحمد طه، الجماعة الإسلامية المصرية

الشيخ مير حمزة، سكرتير جماعة العلماء في باكستان

فضل الرحمن، أمير حركة الجهاد في بنغلاديش

الحمد لله منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، القائل في كتابه: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحَرَّمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَدُّوهُمْ وَأَحْصِرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة 5)؛ والصلاة والسلام على نبيه محمد بن عبد الله القائل: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يُعبد الله تعالى وحده لا شريك له، وجُعِلَ رزقي تحت ظل رمحي، وجُعِلَ الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم».

لم يسبق لشبه جزيرة العرب، منذ أن بسطها الله وأوجد صحراءها، وأحاطها بالبحار، أن اجتاحتها قوة كجحافل الصليبيين الذين انتشروا فيها

(*) ترجم عن الأصل الإنجليزي كما وردت في الكتاب.

كالجراد، يأكلون خيراتها وينهبون ثمارها وأشجارها. كل هذا يحدث في وقت تداعت فيه الأمم على المسلمين كما تتداعى الأكلة على قصعتها. وفي ظل هذا الوضع الخطير وغياب الدعم، فإنه يتوجب علينا وعليكم مناقشة الأحداث الحالية، وأن نتفق جميعاً على حل المسألة.

أولاً: ما زالت الولايات المتحدة تحتل شبه جزيرة العرب، مهد الإسلام ومأوى الحرمين الشريفين لأكثر من سبع سنوات، تتهب خيراتها، وتأمّر حكامها وتذل شعوبها، وترهب جيرانها، وتحول قواعدها إلى رأس حربة تهاجم بها الشعوب المسلمة المجاورة.

وإذا ناقش أحد حول حقيقة وجود الاحتلال في السابق، فإن جميع سكان شبه الجزيرة يدركونه الآن. وأكبر دليل على ذلك هو العدوان الأمريكي المستمر ضد الشعب العراقي الذي يتخذ من شبه الجزيرة نقطة انطلاق له، وذلك على الرغم من نفي حكامها استخدام أراضيهم لذلك الغرض. ولكنهم مغلوبون على أمرهم.

ثانياً: وعلى الرغم من الدمار الفظيع الذي لحق بالشعب العراقي على يد التحالف الصليبي الصهيوني، وبرغم كثرة أعداد الذين قتلوا منه، بما يتجاوز المليون شخص... على الرغم من كل ذلك، فإن الأمريكان يحاولون مرة أخرى تكرار المجازر الفظيعة، وكأنهم لم يكتفوا بالحصار المطول الذي فرضوه عقب حربهم الشرسة وبعد كل ما أحدثوه من الدمار والخراب.

وهاهم قد جاؤوا الآن لبيدوا ما تبقى من ذلك الشعب وإذلال جيرانهم المسلمين.

ثالثاً: إذا كان للأمريكان أهداف دينية واقتصادية من وراء هذه الحروب، فإن الهدف أيضاً هو خدمة دولة يهود وتشتيت الانتباه عن احتلال القدس

وقتل المسلمين هناك. وخير دليل على ذلك هو حرصهم على تدمير العراق، أقوى دولة عربية مجاورة، ومحاولتهم تقسيم دول المنطقة مثل العراق والسعودية ومصر والسودان إلى دويلات ورقية من خلال تجزئتها بما يضمن بقاء إسرائيل واستمرار الاحتلال الصليبي الهمجي لشبه الجزيرة.

إن هذه الجرائم والفظائع التي يرتكبها الأمريكان هي إعلان مكشوف للحرب على الله ورسوله والمسلمين. وقد اتفق العلماء على مدى تاريخ المسلمين بالإجماع على أن الجهاد هو فرض عين على كل مسلم إذا دمر العدو الدول المسلمة. وقد ذكر ذلك الإمام ابن قدامة في "المغني"، والإمام الكسائي في "البدائع" والقرطبي في تفسيره، وشيخ الإسلام في كتبه حيث قال: "وأما قتال الدفع فهو أشد أنواع دفع الصائل عن الحرمة والدين واجب إجماعاً، فالعدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه".

وعلى هذا الأساس، وتنفيذاً لأمر الله تعالى، فإننا نصدر الفتوى التالية لجميع المسلمين:

إن الأمر بقتل الأمريكان وحلفائهم - مدنيين وعسكريين - هو فرض عين على كل مسلم يستطيع فعل ذلك في أي مكان، من أجل تحرير المسجد الأقصى والمسجد الحرام من قبضتهم، وحتى تخرج جيوشهم من كل الأرض الإسلامية، مهزومة مخذولة وغير قادرة على تهديد أي مسلم. وهذا ما يتفق مع قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً...﴾، وقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ﴾.

هذا بالإضافة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنَ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنَ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾.

ونحن، بعون الله، نناشد كل مسلم مؤمن بالله ويرغب في الثواب أن يستجيب لأمر الله بقتل الأمريكان وسلب أموالهم أينما وجدوا. كما أننا ندعو علماء المسلمين، وقادتهم، وشبابهم، وجنودهم، بشن غارة على جيوش الشيطان الأمريكي وأعوان الشر المتحالفين معهم، وخلق الذين يقفون خلفهم ليكونوا عبرة لغيرهم.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

وقال الله تعالى أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقال الله تعالى أيضاً: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ﴾.



■ مراجع مختارة ■

- Akbar, M.J. The Shade of Swords, Toutledge, New York, 2002.
- Azzam, Abdullah, Join the Caravan, Azzam Publications, London, 2001.
- Baer, Robert. See No Evil: The True Story of a Ground Soldier in the CIA – s War on Terrorism, Three Rivers Press, New York, 2002.
- Benjamin, Daniel and Steven Simon. The Age of Sacred Terror, Random House, New York, 2002.
- Bergen, Peter. Holy War, Inc., Touchstone, New York, 2002.
- Burke, Jason. Al Qaeda: Casting a Shadow of Terror, Tauris, London, 2003.
- Clarke, Richard A. Agisnt All Enemies, Free Press, New York, 2004.
- Coll, Steve. Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and Bin Laden, From the Soviet Invation to Septemeber 10, 2001 Penguin Press, New York, 2004.
- Cooley, John K. Unholy Wars: Afghanistan, America, and International Terrorism, Pluto Press, London, 2000.
- Edward, David. Before Taliban, Universty of California Press, Berkeley, 2002.
- Fouda, Yosri and Nick Feilding. Mastermind of Terror: The Truth Behind the Most Devastating Terrorist Attack the World Has Ever Seen, Arcade, London, 2003.
- House Permanent Select Committee on Intelligence and the Senate Select Committee on Intelligence. Report of the Joint Inquiry Committee into the Terrorist Attacks of September 11, 2001, December 2002.
- Lewis, Bernard. The Crisis of Isla.,: Holy War and Unholy Terror, Modern Library, March 2003.

- National Commission on Terrorist Attacks Upon the United States. Staff Report, 2003-2004, and Final Report, 2004.
 - Rashid, Ahmad. Taliban, Pan Books, London, 2001.
 - Reeve, Simon. The New Jackals, Northeastern Univeristy Press, Boston, 1999.
 - Ressa, Maria. Seeds of Terror, Free Press, New York, 2004.
 - Riebling, Mark. Wedge: From Pearl Harbor to 9/11, Touchstone, New York, 2002.
 - Rubin, Barnett R. The Fragmentation of Afghanistan, 2d ed., Yale University Press, New Haven, 2002.
 - Rubin, Barry and Judith Colp Rubin. Anti-American Terrorism and the Middle East, Oxford, New York, 2002.
 - Sivan, Emmanuel. Radical Islam: Medieval Theology and Modern Politics, enlarged ed., Yale University Press, New Haven, 1990.
 - Weaver, Mary Anne. Pakistan: In the Shadow of Jihad, Farrar, Straus and Giroux, New York, 2002.
- _____. A portrait of Egypt, Farrar, Straus and Giroux, New York, 1999. Yousaf, Mohammad and Mark Adkin. Afghanistan the Bear Trap: The Defeat of Superpower, Casemate Publishers, Havertown, Penn., 1992. al-Zawahiri, Ayman. - Knights Under the Prophet's Banner, serialized in the London based Al hsarq Al Awsat newspaper, December 2001.



■ شكر وامتنان ■

امتد البحث الأصلي الذي بني عليه هذا الكتاب فوق أربع قارات وفي أكثر من عشرين دولة. وقد قمت بمعظم هذه التقارير من الفترة الواقعة من سبتمبر/ أيلول 2001 وحتى يناير/ كانون ثاني 2003، عندما كنت أكتب سلسلة من المقالات والتقارير لصحيفة لوس أنجلوس تايمز. ولم أكن لأتمكن من إنتاج هذه السلسلة دون الموارد والدعم الذي قدمته منظمة رائدة في جمع الأخبار مثل التايمز. ولهذا السبب فأنا مدين لموظفي صحيفة التايمز الذين قدموا لي المساعدة بكل صدر رحب عندما كنت ألقأ إليهم. كما أنني مدين أيضاً لفريق المحررين لدعمهم وتشجيعهم لي في كتابة تلك التقارير حتى في الحالات التي كانت تبدو عديمة الجدوى. وأخص بالشكر منهم دين باكويت على تشجيعه وتحمسه، وروجر سميث على صبره وتحمله، وجون كارول على ليونته وحلمه. وتشكل سلسلة التقارير التي نشرت في التايمز الأساس الذي بني عليه هذا الكتاب.

كما قدم زملائي الصحفيون في صحيفة لوس أنجلوس تايمز إضافات لا تثنى إلى هذه التقارير. وأقول بأن هذا الكتاب ما كان له أن يخرج بهذه الصورة دون جهود وبصيرة ديريك لابس الذي عمل في هذا المشروع بعدي بوقت قصير ولم يتوقف. إضافة إلى عمله الصحافي غير المسبوق في ألمانيا، حيث فكر، وتشاجر، وعانى معي في سبيل الحصول على كل معلومة تعيسة، وخلال كل تحولٍ كئيب للأحداث على مدى ثلاث سنوات. تقارير أخرى غير مسبوقة ولا غنى عنها أنجزت على يد باتريك ماكدونيل في الكويت ونورث كارولينا؛ وجوش مايرز في باكستان وواشنطن العاصمة؛ وسباستشيان روتيليا في إسبانيا؛ وغيل ريزا في كاليفورنيا؛ و بوب دروغين في واشنطن.

كما ساعدني أيضاً، وفي بعض الأحيان، تقدمني جيش عالمي من المترجمين، والأصدقاء، والمراسلين، والسائقين، ومجموعة من كل ما هو نافع ومفيد من "المجبرين". أخص منهم بالذكر سول فانزي، وباردان كويوسامي، وهاني فارس، وجيلان زايان، ونجوى حسان، وبول شيم، ورنوى يحيى، ولينا سعيد، ومحمد السعدي، وعبدالحميد العجمي، وعلي رفعه، وأشرف فؤاد مكار، وكريستينا ماتيو - يانغواس، وماريبييل إيسكاس، ويعقوب المنصور، وذو الفقار علي، وشميم الرحمن.

كما وأتوجه بالشكر إلى وكيل أعمالني بول بريزنك، الذي ذهب إلى أبعد بكثير مما يمليه عليه واجبه المهني في تقديمه الأفكار، والعناوين، والنصائح. كما أتوجه بالشكر إلى ديفيد هيرشي، ونك تروتواين من مؤسسة هاربر كولينز لما قدماه من حسن الرعاية والعناية والتوجيه التي كان لها الفضل في تشكيل هذا الكتاب.

وفوق كل الذين ساعدوني في وضع هذا الكتاب، فإنه لا يسعني إلا أن أعتذر لأسرتي عن كثرة غيابي في الداخل وفي الخارج، وأشكرهم على حسن تحملهم، وبخاصة على مساعدتي في رؤية هذا العمل يخرج إلى النور.



■ الهوامش ■

ما لم ترد إشارة أو إحالة بغير ذلك، جميع النصوص الموضوعية بين علامتي التنصيص في ثنايا هذا الكتاب مأخوذة من المقابلات التي أجراها المؤلف شخصياً بين أعوام 2001 و 2004، أو أجراها زملاؤه الذين وردت أسماؤهم في صفحة الشكر والتقدير. أما الاقتباسات المباشرة التي تظهر في أوضاع الحوار والتي يتضح منها أن المؤلف لم يكن موجوداً وقت حدوثها، فهي مأخوذة من مقابلات أجراها المؤلف أو من محاضر تحقيقات الأجهزة الأمنية مع أحد أطراف الحوار على الأقل الذي ظهر كلامه في النص المقتبس كما أشير إليها في مواضعها. أما الاقتباسات المباشرة الصادرة عن الشخصيات الرئيسية التي شاركت في تنفيذ الهجمات فهي مستقاة من سجلات التحقيقات التي أوردت تلك الاقتباسات عنهم كما هو مبين في مواضعها.

■ تمهيد: أهلاً وسهلاً ■

- 1- كما ورد في إحدى الخطب التي ألقيت في مسجد القدس وتم تصويرها بالفيديو وعثر عليها فيما بعد المحققون الألمان. التاريخ غير معروف، ويقدر بحوالي العام 2000.
- 2- المرجع السابق نفسه.
- 3- أحد ضباط الأمن الألمان، مقابلة أجراها المؤلف، هامبورغ، فبراير/ شباط 2005.
- 4- المرجع السابق نفسه.

الكتاب الأول: جنود

■ الفصل الأول: بيت تعلم ■

1- غيرهارد روتر Gerhard Rotter، مقابلة أجراها المؤلف، هامبورغ، نوفمبر/ تشرين ثاني، 2001

2- حميدة فاتح، مقابلة أجراها المؤلف، كفر الشيخ، أكتوبر/ تشرين أول، 2001.

3- أيمن الطواهري، "فرسان تحت راية الرسول"، الشرق الأوسط، ديسمبر/ كانون أول 2001. وفي هذه المذكرات التي نشرتها الصحيفة اللندنية على حلقات، قدم الطواهري، نائب أسامة وزعيم جماعة الجهاد المصرية، سرداً لسياسات القاهرة الخفية من وجهة نظر المطلع من الداخل في تلك السنوات.

4- يوجد عدد كبير من الكتب التي ألفت حول جذور الأصولية ودورها السياسي في الشرق الأوسط. وفي بحث ديفيد زيدان بعنوان "The Islamic Fundamentalist View of Life as a perennial Battle, (نظرة الأصوليين المسلمين إلى الحياة كمعركة متواصلة) والمنشورة في مجلة Middle East Review of International Affairs المجلد الخامس، رقم 4، ديسمبر/ كانون أول 2001. كما كتب مؤرخ جامعة برينستون برينارد لويس كتباً كثيرة حول هذا الموضوع. وضمنّ وجهات نظره في كتاب The Crisis of Islam: Holy War and Unholy Terror أزمة الإسلام: حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس، Modern Library, March 2003 ومن الكتب الممتازة الأخرى كتاب The Shade of Swords ظل السيوف، من تأليف M.J.Akbar م. جي. أكبار، روتليج، 2002.

5- أسست النقابات المهنية المصرية جمعيات تعاونية يستطيع الأعضاء الحصول من خلالها على التأمين والأسعار المخفضة لرحلات الاستجمام وبرامج التعليم وغيرها. وقد ذاع على نطاق واسع أن محمد عطا انضم إلى الجمعية التابعة

لنقابة المهندسين. وبالإضافة إلى الفوائد الاجتماعية التي يحصل عليها الأعضاء، كانت جماعة الإخوان المسلمين تسيطر عليها في ذلك الوقت. وكان ذلك منطقياً بالنسبة لمحمد عطا، إلا أن بحثاً مكثفاً في سجلات الجمعية فشل في إظهار اسم محمد عطا من بين الأعضاء لا قبل تخرجه ولا بعده.

■ الفصل الثاني: وحيداً في الغربة ■

- 1- مقابلة أجراها المؤلف مع الأسرة الألمانية المضيضة، هامبورغ، ديسمبر/ كانون أول، 2001.
- 2- المرجع السابق.
- 3- روديجر بيندلين Rudiger Bendlin، مدير جامعة هامبورغ - هاربورغ التقنية، مقابلة أجراها المؤلف، هاربورغ، نوفمبر/ تشرين أول، 2001.
- 4- ديتمار ماشول Dittmar Machule، مقابلة أجراها المؤلف، هاربورغ، نوفمبر/ تشرين ثاني، 2001.
- 5- هانز هارمز Hans Harms، مقابلة أجراها المؤلف، هاربورغ، نوفمبر/ تشرين ثاني، 2001.
- 6- مارتن إيبرت Martin Ebert، مقابلة أجراها المؤلف عبر الهاتف، ديسمبر/ كانون أول، 2001.
- 7- هارمت كايزر Harmut Kaiser، مقابلة أجراها المؤلف عبر الهاتف، ديسمبر/ كانون أول، 2001.
- 8- رفيقا محمد الأمير في السكن الجامعي، مقابلة أجراها المؤلف عبر الهاتف، ديسمبر/ كانون أول، 2001.
- 9- مانفرد شودر Manfred Schroder، مقابلة أجراها المؤلف، هامبورغ، نوفمبر/ تشرين ثاني، 2001.
- 10- نقلاً عن ملفات التحقيق التي قامت بها المخبرات الألمانية Bundeskriminalamt اختصاراً BKA والتي تشبه في عملها عمل مكتب التحقيقات الفدرالي FBI في الولايات المتحدة، نسخة المؤلف، يوليو/ تموز، 2002.
- 11- فولكر هوت Volder Hauth، مقابلة شخصية مع المؤلف، هامبورغ، نوفمبر/ تشرين ثاني، 2001.
- 12- صديقة رفيق محمد الأمير في السكن، مقابلة أجراها المؤلف، نوفمبر/ تشرين ثاني، 2001.
- 13- مقابلة مع ماشول مرجع سبق ذكره.

- 14- رازان عبدالوهاب، مقابلة أجراها مايكل سلاكمان لصحيفة لوس أنجلوس تايمز، نوفمبر/ تشرين ثاني، 2001.
- 15- مقابلة هوث، مرجع سبق ذكره.
- 16- المرجع السابق نفسه.
- 17- محمد الأمير [الأب]، مقابلة أجراها المؤلف، القاهرة، أكتوبر/ تشرين أول، 2001.
- 18- مقابلة هوث سألقة الذكر.
- 19- رالف بودنستاين Ralph Bodenstein، مقابلة أجراها المؤلف بواسطة الهاتف، أكتوبر/ تشرين أول 2001.
- 20- نادر فيرجاني، "رأس المال البشري والأداء الاقتصادي في مصر" مركز المشكاة للبحوث، القاهرة، أغسطس/ آب 1998.
- 21- هوث، مقابلة، مرجع سبق ذكره.
- 22- جون صادق John Sadiq، أحد المراسلين العاملين مع المؤلف، ديسمبر/ كانون أول 2001.
- 23- جورج لوين Jorg Lewin، مقابلة أجراها المؤلف، هامبورغ، نوفمبر/ تشرين ثاني 2001.
- 24- هيلغا ريك Helga Rake، مقابلة أجراها المؤلف، هامبورغ، نوفمبر/ تشرين ثاني 2001.



■ الفصل الثالث: أصدقاء ■

- 1- سجل جامعة هامبورغ - هاربورغ التقنية، نسخة المؤلف.
- 2- هوت، مقابلة، مرجع سبق ذكره.
- 3- شهيد نيكلز Shahid Nickles، عن محضر تحقيقات المخابرات الألمانية، نوفمبر/ تشرين ثاني، 2001.
- 4- مكتب حماية الدستور، التقرير السنوي لعام 2000، برلين.
- 5- المرجع السابق نفسه.
- 6- نيكلز، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.
- 7- أحمد مكلات Ahmed Maklat، عن محضر تحقيقات المخابرات الألمانية، نوفمبر/ تشرين ثاني، 2001، نسخة المؤلف.
- 8- شهيد نيكلز، مقابلة شخصية مع المؤلف، هامبورغ، سبتمبر/ أيلول، 2004.
- 9- المرجع السابق.
- 10- مكلات، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.
- 11- المرجع السابق نفسه.
- 12- نيكلز، مقابلة، مرجع سبق ذكره.
- 13- رمزي بن الشيبة، أوسلاندر، أو تقرير مكتب تحقيقات الأجانب في ألمانيا، نسخة المؤلف.
- 14- المرجع السابق نفسه.
- 15- سجلات الشرطة المصرية، نقله محققو مكتب تحقيقات الأجانب في تقريرهم المذكور سابقاً، نسخة المؤلف.
- 16- محمد أحمد بن الشيبة، أخو عمر، مقابلة أجراها المؤلف، صنعاء، أغسطس/ آب 2003.
- 17- فارس سنباني، مستشار الرئيس اليمني على عبدالله صالح، مقابلة أجراها المؤلف، صنعاء، أغسطس/ آب، 2003.
- 18- أحمد بن الشيبة، مرجع سبق ذكره.

- 19- بكر البيحي، طالب في المسجد، مقابلة أجراها المؤلف، صنعاء، أغسطس/ آب 2003.
- 20- يقول برينارد هيكل Bernard Haykel، وهو عالم متخصص بالأصولية الإسلامية في جامعة نيويورك، بأن الإسلام متأصل في الثقافة اليمينية تأسلاً جينياً. ويضيف بأنه حتى اليمينيين الذين يعتبرون أنفسهم علمانيين ومعتدلين "قد لا يؤدون الصلاة، ولكنهم مستعدون للموت من أجل الإسلام".
- 21- معظم المجاهدين كانوا من الأصوليين السعوديين، بمن فيهم أولئك الذين اشتهروا فيما بعد. على سبيل المثال، عبدالرحيم النشيري، الذي أصبح قائداً مشهوراً للقاعدة، فكان من بين الذين رحب بهم للاستقرار في اليمين.
- 22- حسام سنباني، مقابلة مع المؤلف، صنعاء، أغسطس/ آب، 2003.
- 23- سجل المخابرات الألمانية، نسخة المؤلف، أكتوبر/ تشرين أول، 2001.
- 24- مايكل هيرسكورن Michael Hirsekorn، مدير المخيم، مقابلة أجراها المؤلف، بيتتبيرغ، ألمانيا، مارس/ آذار 2002.
- 25- ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية، نسخة المؤلف.
- 26- فولكر بروهن Volker Harun Bruhn، صديق بلفاس، مقابلة أجراها المؤلف، إبريل/ نيسان، 2002.
- 27- نيكلز، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.
- 28- مكالات، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.
- 29- ملفات سلطات الهجرة الألمانية، نسخة المؤلف.
- 30- ماريون كول Marion Koll، الناطقة باسم محكمة شيلدروغ، مقابلة أجراها المؤلف عبر الهاتف، هامبورغ، إبريل/ نيسان، 2002.
- 31- المرجع السابق نفسه.
- 32- نيكلز، مقابلة، مرجع سبق ذكره. ويقول نيكلز: "كان لديه دائماً بعض الأعمال التي تشغله".
- 33- سجلات المعونة الاجتماعية الألمانية، نسخة المؤلف، أكتوبر/ تشرين أول، 2001. واستطاع المحققون الألمان أن يحددوا نمط عاداته الاستهلاكية عن طريق استخدام كوبونات الغذاء التي كانت تقدم لطلابي اللجوء السياسي.
- 34- الرفيق الأول لمحمد الأمير في السكن الجامعي، مقابلة، مرجع سبق ذكره.

■ الفصل الرابع: حجاج ■

- 1- لوين، مقابلة، مرجع سبق ذكره.
- 2- أحد الذين كانوا يحضرون الحلقات الدراسية، مقابلة أجراها المؤلف، هامبورغ، ديسمبر/ كانون أول، 2001.
- 3- نيكلز، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.
- 4- نيكلز، مقابلة، مرجع سبق ذكره.
- 5- المرجع السابق نفسه.
- 6- قيل الكثير حول قيام محمد الأمير الذي كان يبلغ من العمر وقتها مجرد 28 عاماً بتحريير وصيته الأخيرة، إلا أن ذلك لم يكن أمراً نادراً بين صفوف الشباب المسلم. فقد كانت توزع نماذج من هذه الوصايا في المساجد وما زال. كما أن المتصدق كتب وصيته هو الآخر في الوقت نفسه. وقام آخرون بتزليل نماذج من هذه الوصايا من الإنترنت وفعلوا الشيء ذاته. وقد أوصى أحدهم في وصيته بأن تؤدي عنه الديون التي في ذمته للمسلمين فقط وأن لا يدفع شيء من ديونه المستحقة للنصارى واليهود. وهذا ليس للقول بأن ما جاء في وصية محمد الأمير لم يكن مستغرباً. ويوجد في الملحق أ ترجمة عن وصيته تلك.
- 7- أحد كبار المحققين الألمان، مقابلة أجراها المؤلف، هامبورغ، يوليو/ تموز، 2002. كان محل بيع الكتب خاضعاً لمراقبة المخابرات الألمانية، كما تم تسجيل عدد كبير من الأحاديث التي كانت تدور في المحل بواسطة جهاز تسجيل مخفي. وتمت معظم هذه التسجيلات لاحقاً بعد أن انحلت مجموعة الأمير - عمر. إلا أنها كشفت عن الدور الكبير الذي يلعبه الدين في مثل هذه الحالات.
- 8- أحد كبار المحققين الألمان، مقابلة أجراها المؤلف، هامبورغ، إبريل/ نيسان، 2002.
- 9- شكّل الفلسطينيون وجوداً فعلياً وسياسياً في حياة المنطقة التي نشأ فيها جراح، وفي مقابلة أجراها المؤلف، ذكر عاصم جراح، وهو ابن عم زياد، أنه أي عاصم، التحق بالجامعة على نفقة بعثة قدمتها له منظمة التحرير الفلسطينية.
- 10- شهادة الثانوية العامة لزياد جراح، نسخة المؤلف، أغسطس/ آب، 2001.

- 11- جمال جراح، مقابلة أجراها المؤلف، المرج، لبنان، أغسطس/ آب، 2003.
- 12- آيسل سينغن Aysel Sengun، ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية، نسخة المؤلف، نوفمبر/ تشرين ثاني، 2001. وما لم تتم الإشارة بخلاف ذلك، فإن جميع ما ورد في هذا الكتاب عن العلاقة الشخصية بين سينغن وجراح مستقى من ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية أو من شهادتها في محاكمة منير المتصدق.
- 13- عاصم جراح، ابن عم زياد الذي سبقه إلى غريفسوالد بعدة سنوات، وسكن هناك في الوقت الذي سكن فيه زياد، مقابلة أجراها المؤلف، بيروت، أغسطس/ آب، 2003.
- 14- سالم جراح، مقابلة أجراها المؤلف، غريفسوالد، إبريل/ نيسان 2002.
- 15- سييري كانينغايزر Siri Kannengiesser، رفيقة آيسل سينغن في السكن في غريفسوالد، إبريل/ نيسان 2002.
- 16- يبدو أن عبدالرحمن المخدي الذي نفى كل شيء باستثناء المعرفة السطحية بزياد جراح، هو أقرب الأشخاص المحتملين في التأثير على جراح. بدأ المحققون الألمان في مرحلة ما بمراقبة المخدي، الذي صنّفوه بأنه "مصدر خطر" على المسلمين. وفي مقابلة أجراها المؤلف، كذب المخدي كثيراً حول علاقته بزياد، والتي بحسب ما تشير سجلات التحقيقات نمت لتصبح علاقة قريبة. فقد قام الاثنان برحلات معاً في عطلة نهاية الأسبوع من غريفسوالد بما فيها رحلة واحدة على الأقل إلى آشن المدينة الواقعة غرب البلاد والتي كانت على مدى أكثر من عقد من الزمان معقلاً للإسلام المتطرف في أوروبا. إلا أنه فيما عدا الصداقة، وبحسب ما يقوله المحققون، لا يوجد هناك أي دليل على أن المخدي كان له تأثير على جراح.
- 17- آيسل سينغن وجراح، ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية الخاصة بالرسائل العادية والإلكترونية بين الاثنین، نسخة المؤلف، تواريخ مختلفة 1999 - 2001.
- 18- سينغن، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.
- 19- نيكلز، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.
- 20- مكالات، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.

- 21- قدم مسؤولون من الإمارات العربية المتحدة ملخصاً للسيرة الذاتية للشحي، وهذا الملخص يتطابق مع ما هو موجود في ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية.
- 22- محمد عبدالله محمد عودي وحامد مرزوقي، مقتبس من ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية، نوفمبر/ تشرين ثاني، 2001، نسخة المؤلف.
- 23- مرزوقي، مرجع سبق ذكره.
- 24- عودي، مرجع سبق ذكره.
- 25- لا توجد معلومات كافية في سجل التحقيقات الألمانية تسلط الضوء على رغبة الشحي في الانتقال إلى هامبورغ. وببساطة، ربما حصل على بعض المعلومات من بعض الإسلاميين في بون استنتج منها أن هامبورغ مكان أنسب وتوفر له مناخاً أكثر مواءمة له. ولا يستبعد أنه قابل شخصاً من هامبورغ، فعمر، على سبيل المثال، كان يسافر كثيراً إلى بون وصلّى في ذات المسجد الذي كان يصلي فيه الشحي.
- 26- الرفيق الثاني لمحمد الأمير في السكن الجامعي، مرجع سبق ذكره.
- 27- ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية، نسخة المؤلف، وكذلك ملفات مكتب تحقيقات الأجانب، أكتوبر/ تشرين أول 2001. كما عززت كذلك شهادة مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية جورج تينيت George Tenet هذه النظرة في شهادته أمام الكونجرس في يونيو/ حزيران 2003.
- 28- شهيد نيكلز، من شهادته في المحاكمة الثانية لمدير المتصدق، هامبورغ، 17 أغسطس/ آب 2004.
- 29- الترتيب الزمني مستقى بشكل رئيس من سجلات بطاقات الائتمان وحركة الحسابات المصرفية والجامعة، المشتملة في ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية، مدعمة بتقارير استجوابات الشرطة ومقابلات المؤلف مع المعارف.
- 30- مالك شركة (هاي كميوتينغ)، مقابلة أجراها المؤلف، هامبورغ، ديسمبر/ كانون أول 2001.
- 31- مانفريد شرودر، مقابلة أجراها المؤلف، هاربورغ، نوفمبر/ تشرين ثاني 2001.
- 32- هيلغا لينك، مقابلة أجراها المؤلف، هامبورغ، نوفمبر/ تشرين ثاني 2001.

- 33- نيكلز، شهادة، مرجع سبق ذكره.
- 34- مكالات، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.
- 35- نيكلز، مقابلة، مرجع سبق ذكره.
- 36- امرأة من برلين، من محضر شهادتها في المحاكمة الثانية لمنير المتصدق، هامبورغ، أغسطس/ آب 2004. وقد سمح لهذه المرأة أن تدلي بشهادتها سراً دون أن تكشف عن هويتها. وذكرت في تلك الشهادة أن عمر أراد أن يتزوجها، إلا أنها شعرت أنه شديد التدين بالنسبة لها. وذكرت للمحكمة عن بعض الطقوس الدينية الغربية في نظرها التي كان يؤديها عمر: منها أنه كان يستيقظ كل يوم من الفجر لابساً سرواله الأبيض وخنجره اليمني الذي كان يمسك به أثناء الصلاة.
- 37- نيكلز، مقابلة، مرجع سبق ذكره.
- 38- مكالات، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.
- 39- المرجع السابق نفسه.
- 40- نيكلز، مقابلة، مرجع سبق ذكره.
- 41- فولكر هارن بروهن، مقابلة، مرجع سبق ذكره.
- 42- نيكلز، مقابلة، مرجع سبق ذكره.
- 43- نيكلز، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.
- 44- نيكلز، شهادة، المحاكمة الثانية لمنير المتصدق. مرجع سبق ذكره.
- 45- سعيد بهاجي، ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية، أكتوبر/ تشرين أول 2001.
- 46- ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية، أكتوبر/ تشرين أول.
- 47- ثورستن ألبيرخت Thorsten Albercht، مقابلة أجراها المؤلف، هامبورغ، نوفمبر/ تشرين ثاني 2001.
- 48- مالك الشركة التي عمل فيها لهاجي، مقابلة أجراها المؤلف، هامبورغ، يونيو/ حزيران 2002.
- 49- كان بهاجي من المعجبين بمايكل شووميكر، أشهر سائقي فورميلا ون وأكبر نجم في سباق السيارات في تاريخ ألمانيا. وكان بهاجي يعلق صور شووميكر على

- جدران غرفته وكان يشاهد سباقاته من خلال كرت الفيديو الذي أضافه إلى حاسوبه. ولم يكن هذا السلوك غير طبيعي ضمن أعضاء مجموعة هامبورغ. فقد كان شخص آخر يلصق على باب غرفة مسكنه الجامعي صوراً لسيارات الفيراري التي أخذها من مجلات هواة السيارات.
- 50- باربرا آرينز Barbra Arens، مقابلة شخصية أجراها المؤلف، هامبورغ، مايو/ أيار 2002.
- 51- نيكلز، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.
- 52- بقي بهاجي غاضباً عليها، وكتب لها فيما بعد رسائل لاذعة. وصادرت المخابرات الألمانية عدة صناديق من المواد من شقة بهاجي وآلاف الملفات من حاسوبه الشخصي، بما في ذلك مراسلاته التي استقيت هذه التفاصيل منها.
- 53- نيكلز، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.
- 54- ياسر بوغلال، تحقيقات المخابرات الألمانية، نوفمبر/ تشرين ثاني 2001، نسخة المؤلف.
- 55- مكلات، تحقيقاتن مرجع سبق ذكره.
- 56- ياسر بوغلال، من محضر شهادته أمام المحكمة في المحاكمة الأولى لمدير المتصدق.
- 57- المرجع السابق.
- 58- المرجع السابق. ومن المفارقة أنه بالرغم من كون الديمقراطيات الغربية هدفاً لفضب وإدانة الإسلاميين، إلا أنها كانت أكثر استقبلاً وإيواءً لهم من دولهم الأم.
- 59- نيكلز، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.
- 60- أحمد مكلات، من شهادته أمام المحكمة في المحاكمة الأولى لمدير المتصدق. أكتوبر/ تشرين أول 2002.
- 61- المرجع السابق نفسه.
- 62- المرجع السابق نفسه.
- 63- نيكلز، شهادة، المحاكمة الثانية لمدير المتصدق.
- 64- نيكلز، مقابلة، مرجع سبق ذكره.
- 65- مكلات، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.
- 66- نيكلز، شهادة، المحاكمة الثانية لمدير المتصدق. مرجع سبق ذكره.

■ الفصل الخامس: تصاعد رائحة الجنة ■

- 1- ما لم ترد إشارة بغير ذلك، هذا السرد للأحداث تم استقاؤه من مقابلات أجريت مع المحققين الألمان والأمريكان، ومن ملفات تحقيق المخابرات الألمانية، وملفات المحاكم ومحاضر محاكمات عدد من أعضاء منظمة القاعدة في أمريكا. وبخاصة قضية الولايات المتحدة ضد أسامة بن لادن وآخرين. محكمة البداية الاتحادية، دائرة نيويورك 2001.
- 2- اللجنة الدائمة المختارة للاستخبارات في مجلس النواب الأمريكي، واللجنة الدائمة المختارة للاستخبارات في مجلس الشيوخ الأمريكي. تقرير اللجنة المشتركة في الكونغرس لتقصي الحقائق حول الهجمات الإرهابية للحادي عشر من سبتمبر 2001، ديسمبر/ كانون الأول 2002. وسيشار إليها لاحقاً بلجنة الكونغرس المشتركة لتقصي الحقائق.
- 3- ما يزال ممدوح سالم معتقلاً لدى الأمريكيان. ووجهت إليه التهمة إلى جانب ابن لادن وآخرين بتفجيرات السفارة الأمريكية، إلا أن قضيته أجّلت إلى إشعار آخر بعد أن قام بالاعتداء على أحد حراس السجن وكاد أن يقتله مستخدماً مشطاً حاداً عندما كان محتجزاً في سجن فيدرالي في مدينة نيويورك. وأقر بأنه مذنب بمحاولة قتل الحارس، وما زال ينتظر مثوله أمام المحكمة في قضية التفجيرات.
- 4- أحد كبار المحققين الألمان، مقابلة أجراها المؤلف، هامبورغ، نوفمبر/ تشرين ثاني 2001.
- 5- نيكلز، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.
- 6- ملفات المخابرات الألمانية، نسخة المؤلف. وخضع بهاجي لاحقاً لمعاينة المحققين الألمان. وكان القرص الصلب في حاسوبه مليئاً بالمواد الإسلامية.
- 7- عبد داهوك، مقابلة أجراها المؤلف، هامبورغ، إبريل/ نيسان 2002.
- 8- محمد محمد زمار، مقابلة أجراها المؤلف، هامبورغ، إبريل/ نيسان 2002.
- 9- أوليفر شروم وديرك لابس،-Oliver Schrom and Dirk Laabs The Deadly Mis-takes of the U.S. Interlligence Agency, "القاتلة لاجهزة الاستخبارات الأمريكية" ستيرن، 13 أغسطس/ آب 2003.

10- لجنة الكونغرس المشتركة لتقصي الحقائق.

11- ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية، نسخة المؤلف. وتعززت المعلومات الواردة في هذا الملخص شهادة المدير السابق لوكالة الاستخبارات المركزية جورج تينيت أمام لجنة الكونغرس المشتركة لتقصي الحقائق حول هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، وكذلك أمام اللجان الأخرى المنفصلة التابعة لمجلسي الشيوخ والنواب في الكونغرس والمكلفة أيضاً بالتحقيق في تلك الهجمات. وقُلّلت من أهمية وفائدة تلك المعلومات، قائلاً بأن ما تلقتة الوكالة كان الاسم الأول ورقماً لهاتف نقال غير مدرج في دليل الهاتف ويستحيل تعقبه في الإمارات العربية المتحدة. هذه المقولة من المدير السابق للوكالة هي محض افتراء وكذب، في جزء منها على الأقل. فقد كان قطاع الاتصالات الخلوية في الإمارات العربية المتحدة وحتى عام 2004 تابعاً لاحتكار الدولة. وكان يمكن تعقب هذا الرقم خلال خمس دقائق بحسب ما قاله مسؤولون كبار في الإمارات، إلا أن الولايات المتحدة لم تطلب منهم شيئاً في هذا الخصوص.

ومما لا يقل إثارة للدهشة هو لماذا قام الألمان بإعطاء هذه المعلومات إلى الأمريكيان ابتداءً. فمحتوى هذه المكالمات كان تافهاً وخالياً من أية أهمية. فقد اتصل الشحّي بزمار، وهذا ما جرى في المكالمات من حديث بعد السلام والترحيب، كما نقلها الألمان: -

زمار: لقد سمعت أنك عدت إلى بون.

الشحّي: نعم، هذا صحيح، وكيف كانت زيارتك إلى سوريا؟

زمار: جيدة.

الشحّي: أنا أسكن الآن مع صديق لي في بون، ولكنني سأنتقل إلى سكن للطلاب الأسبوع المقبل. والدراسية مستمرة.

زمار: ما زلت عاطلاً عن العمل، وربما سأتلقي تدريباً على عمل جديد في العام المقبل.

زمار: مروان، عليك أن تحاول زيارتنا في مارس/ آذار القادم.

الشحّي: هل تنوي السفر هذه الأيام؟

زَمَّار: لا .

الشَّحِّي: لدي امتحانات بداية فبراير/ شباط، وبعد أن أفرغ من كل امتحاناتي في مايو/ أيار، سأحاول المجيء إلى هامبورغ وأستأجر شقة هناك .

زَمَّار: هل تزوجت بعد؟

الشَّحِّي: ليس بالضبط .

زَمَّار: كيف حال أخيك محمد؟

الشَّحِّي: إنه بخير، أبلغ سلامي لأبي الفتا [ابن عم زَمَّار] ولأبي إلياس [دلركازنلي].

لا يظهر أن هذا الحوار يحمل أي أهمية، فلماذا قدّم إلى الاستخبارات الأمريكية؟ وقد تكون الإجابة المحتملة أن الأمريكيان طلبوا من الألمان كل معلومة جديدة تتعلق بزَمَّار. ولم يعلّق الطرف الألماني ولا الطرف الأمريكي على ذلك. إلا أن الاهتمام السابق بزَمَّار يوضع من بين أشياء أخرى، لماذا كان توماس فولز، ضابط وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية مصراً على محاولة تحويل داركازنلي إلى مخبر يعمل لصالح الوكالة. إضافة إلى ذلك، أخبرت وكالة الاستخبارات المركزية لجنة الكونغرس المشتركة بأنه كان لها اهتمام قديم بزمار يعود إلى ما قبل تسجيل هذه المكالمات بزمن. بعبارة أخرى، يبدو من الواضح أن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية كانت تراقب الشخص الذي جنّد الخاطفين في الوقت الذي جندهم فيه .

12- أحد كبار المحققين الألمان، مقابلة شخصية مع المؤلف، هامبورغ، نوفمبر/ تشرين الثاني 2001 .

13- لم تكن هذه النشاطات مقتصرة على أوروبا وحدها، . فقد ذكر أحد المغتربين الباكستانيين في الإمارات العربية المتحدة كيف نظمت جماعة التبليغ رحلة له وللمجموعة من رفاقه المسلمين للسفر في رحلة لتجديد الإيمان في الباكستان . وعندما وصلوا هناك وجدوا أنفسهم وسط تقاطع إطلاق النيران بين الهنود والباكستانيين في كشمير . وعندما اعترض الرجال على الوضع الخطر هناك، تم نقلهم سراً إلى معسكر للتبليغ غرب الباكستان، حيث قام مندوبون عن

- القاعدة بجهود متكررة لتجنيدهم. مقابلة أجراها المؤلف، الإمارات العربية المتحدة، يوليو/ تموز 2003.
- 14- محمد محمد زمار، مقابلة، مرجع سبق ذكره.
- 15- ملفات التحقيقات الألمانية، نسخة المؤلف.
- 16- نيكلز، من شهادته أمام المحكمة في المحاكمة الأولى لمنير المتصدق، هامبورغ، أكتوبر/ تشرين الأول 2002.
- 17- لجنة الكونغرس المشتركة لتقصي الحقائق، ص 185. ألقى القبض على داركازنلي أخيراً نهاية 2004.
- 18- شروم ولابس، أخطاء قاتله، مرجع سبق ذكره.
- 19- لم يكن معلوماً لدى فولز أو رؤسائه في وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA أن داركازنلي حتى وإن كان لديه قابلية لسماع عرضهم، فإن المال لم يكن مشكلة بالنسبة له. فقد وجد المحققون فيما بعد أن مئات الآلاف من الدولارات تنقلت عبر حساباته المصرفية، وجاء معظمها من المملكة العربية السعودية.
- 20- ماشول، مقابلة، مرجع سبق ذكره.
- 21- المرجع السابق نفسه.
- 22- وردت في ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية، نسخة المؤلف، 30 أغسطس/ آب 1999.
- 23- بشكل عام، لا يشجع الإسلام حياة العزوبية. وقد كتب يوسف القرضاوي وهو عالم يقيم في قطر ومشهور بين أعضاء مجموعة هامبورغ، في كتابه الحلال والحرام في الزواج" بأن الزواج فرض على المسلم: " ما دام أن المسلم يملك القدرة على الزواج، فإنه يحرم عليه الامتناع عن الزواج بحجة أنه يريد أن ينذر نفسه لعبادة الله وينصرف كالرهبانية والعزلة عن الدنيا".
- 24- سينغن، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.
- 25- جراح، الرسائل الإلكترونية في ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية، نسخة المؤلف، تواريخ متعددة 1999 - 2001.
- 26- سينغن، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.

- 27- المرجع السابق نفسه.
- 28- سينغن، رسائل بريد إلكتروني، منقولة عن ملفات المخابرات الألمانية، نسخة المؤلف، تواريخ متعددة 1999 - 2001.
- 29- المرجع السابق نفسه.
- 30- سيرري كانينغيسر، كما جاء في ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية، نسخة المؤلف، مرجع سبق ذكره.
- 31- رمزي بن الشبية، هامبورغ، أكتوبر/ تشرين أول 1999. تم تصوير الحفل بواسطة كاميرا فيديو شخصية. والوصف المذكور هنا مأخوذ من نسخة المؤلف من ذلك الشريط.
- 32- محمد الأمير، مقابلة، مرجع سبق ذكره.
- 33- فاتح، مقابلة، مرجع سبق ذكره.
- 34- ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية، نسخة المؤلف.
- 35- أحمد هاشم، "العالم في نظر أسامة بن لادن". نيفال وور كوليغ ريفيو (مجلة أبحاث كلية الحرب البحرية) خريف 2001، ص 18.
- 36- نيكلز، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.
- 37- أسامة بن لادن، "إعلان الحرب على الأمريكان المحتلين لأرض الحرمين الشريفين"، القدس العربي، أغسطس/ آب 1996. وتظهر نص مختصر لذلك الإعلان في ملحق ب مترجماً عن الأصل الإنجليزي.
- 38- نيكلز، مقابلة، مرجع سبق ذكره.
- 39- نيكلز، تحقيقات، مرجع سبق ذكره. والتناقض الواضح بين فلسفة عش ودع الآخرين يعيشون، و فكرة شن حرب مقدسة ضد أعداء الدين يتم كفته ببراعة في الكتابات الإسلامية عن طريق التمييز بين الفرد، الذي يجب احترام رأيه، وبين الحكومات التي تهدف فقط إلى منع المسلمين من ممارسة الحياة الإسلامية الحقيقية. ويجوز لك، أو بالأحرى يجب عليك، بحسب مذهب الإسلاميين، أن تهاجم الدول وممثليها حتى في الوقت الذي تحترم فيه الأفراد في الاختلاف معك في الرأي.

- 40- فوركر هارون برهن، مقابلة أجراها المؤلف، هامبورغ، فبراير/ شباط 2005.
- 41- أحد أفراد الشرطة الألمانية، مقابلة أجراها المؤلف، هامبورغ، مايو/ أيار 2002.
- 42- المرجع السابق نفسه.
- 43- هذه الملاحظات المؤرخة والتي تشبه المذكرات اليومية نوعاً ما، وجدت ضمن أوراق جراح أيام دراسته الجامعية ومحفوظة في ملفات التحقيقات التي أجرتها المخابرات الألمانية، نسخة المؤلف، أكتوبر/ تشرين أول 2001.
- 44- ملفات تحقيق المخابرات الألمانية، نسخة المؤلف.
- 45- نيكلز، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.

الكتاب الثاني

■ الفصل الأول: إعادة إحياء الجهاد ■

- 1- عبدالله عزام، "الدفاع عن أراضي المسلمين" مأخوذة عن موقع <http://www.religioscope.com/info/doc/jihad/azzam-defence-6-chap1.htm>.
- 2- عبدالله عزام، الحق بالقافلة، منشورات عزام، لندن، 2001 ص 9.
- 3- عبدالله عزام، الدفاع عن أراضي المسلمين، مرجع سبق ذكره.
- 4- قدم بارنيت ر. روبن تأريخاً رائعاً لأفغانستان الحديثة في كتابه " (تفتيت أفغانستان) الطبعة الثانية، منشورات مطابع جامعة بيل، نيو هيفن، 2002.
- 5- المرجع السابق، ص 179.
- 6- المرجع السابق، ص 199.
- 7- تبجح بريجنسكي فيما بعد في إحدى المقابلات، حول خديعته لإيقاع السوفييت في الفخ الأفغاني كما كان يتصور، وكما حدث فعلاً بالضبط، بتوريطهم في حرب تستمر لسنوات عديدة: "كانت تلك العملية السرية فكرة ممتازة. وكان لها أبلغ الأثر في استدراج السوفييت إلى الفخ الأفغاني، وأنت تريد مني أن أندم على ذلك؟ في اليوم الذي عبر فيه السوفييت رسمياً الحدود الأفغانية، كتبت إلى الرئيس جيمي كارتر: لدينا الآن الفرصة لتجريح السوفييت حربهم الفيتنامية. وبالفعل، وعلى مدى 10 سنوات، تحتم على موسكو أن تواصل القتال في حرب لم يكن بمقدور الحكومة السوفيتية مواصلة دعمها، ودخلت في صراع أدى إلى تثبيط الإمبراطورية السوفيتية وتفتيتها في النهاية". انظر مجلة Le Nouvel Observateur فرنسا، يناير/ كانون ثاني 15 - 21، 1998، ص 76.
- 8- وحيد حمزة هاشم، مقابلة أجراها المؤلف، جدة، المملكة العربية السعودية، أغسطس/ آب 2003.
- 9- محمد يوسف، ضابط سابق في جهاز الاستخبارات الباكستاني، يروي مشاهداته عن الجهود الباكستانية في كتاب ألفه بالاشتراك مع ماركن أدكن، بعنوان "أفغانستان فخ الدب: هزيمة قوة عظمى" Afgansitan the Bear Trap:The Defeat

- of a Superpower, كيسميت بيلشرز، هافيرتاون، بنسلفينيا، 1992. مأخوذاً من العنوان التالي: <http://www.afghanbooks.com/beartrap/english/18htm>.
- 10- أحمد راشد، طالبان، بان بوكس، لندن، 2001، ص 129.
- 11- استمر تنفيذ العقود الخاصة بالحرم لعدة عقود وعززت من نفوذ الشركة لدى العائلة السعودية المالكة. واستمرت مجموعة ابن لادن السعودية في تصدر قائمة أكبر الشركات الخاصة في الشرق الأوسط.
- 12- جين مايرز Jane Mayer، "بيت ابن لادن"، The House of Bin Laden مجلة نيويورك، عدد 12 نوفمبر/ تشرين ثاني، 2001.
- 13- بيرنارد هيكل، مقابلة عن طريق الهاتف أجراها المؤلف، فبراير/ شباط 2004.
- 14- بيرنارد هيكل، "السلفية المتطرفة"، الفجر، باكستان، 8 ديسمبر/ كانون أول، 2001.
- 15- الظواهري، "فرسان تحت راية الرسول"، مرجع سبق ذكره.
- 16- المرجع السابق نفسه.
- 17- كان هناك بعض المعسكرات التي يديرها الجيش الباكستاني، وليس لها علاقة بأفغانستان مطلقاً، ولكنها موجودة من أجل تدريب المقاتلين لحرب باكستان الأخرى مع الهند في كشمير.
- 18- أصدقاء سيف، مقابلة أجراها المؤلف، كابول، نوفمبر 2003.
- 19- أمين فارهانغ، مقابلة أجراها المؤلف، كابول، نوفمبر/ تشرين ثاني، 2003.
- 20- روبرت إيستهام، مقابلة أجراها المؤلف بواسطة الهاتف، يناير/ كانون ثاني، 2004.
- 21- المرجع السابق نفسه.
- 22- ميلتون بيردن، مقابلة أجراها المؤلف بواسطة الهاتف، ديسمبر/ كانون أول، 2003.



■ الفصل الثاني: البدون ■

- 1- ضابط كبير في قوات الأمن الكويتية، مقابلة أجراها المؤلف، مدينة الكويت، أغسطس/ آب 2003.
- 2- "بلوشستان في عهد الإمبراطوريات الفارسية". مأخوذة عن موقع <http://www.baluch2000.org>.
- 3- هاشم عبدالعزيز، مقابلة أجراها المؤلف، فحاحيل، أغسطس/ آب 2003.
- 4- مجموعة من أصدقاء أخوة محمد، مقابلة أجراها جوش مايرز لحساب صحيفة لوس أنجيلوس تايمز، إسلام آباد، باكستان، نوفمبر 2002.
- 5- شفيق غبرا، مقابلة أجراها باتريك ماكدونيل لحساب صحيفة لوس أنجيلوس تايمز، مدينة الكويت، نوفمبر/ تشرين ثاني 2002.
- 6- سيمون ريف Simon Reeve، أبناء أوى الجدد، Northeast Uni- The New Jackals، 1999، ص 113. يركز كتاب ريف على رمزي يوسف وأسامة بن لادن وهو أفضل الأبحاث التي كتبت حول الإرهاب الإسلامي وأكثرها صحة من بين الكتب الكثيرة التي كتبت أعقاب تعرض الغرب لآثار هذا الإرهاب. ويبقى ما كتبه عن يوسف دون نظير.
- 7- المرجع السابق نفسه.
- 8- اللجنة الوطنية للتحقيق في الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة، التقرير النهائي، 22 يوليو/ تموز، 2004، ص 145؛ وتعرف هذه اللجنة أيضاً باسم لجنة 9/11 وسوف يشار إليها لاحقاً باللجنة الوطنية.
- 9- اللجنة الوطنية، تعليقات الأعضاء بند 16، 16 يونيو، 2004.
- 10- بدوي هندية، مقابلة هاتفية أجراها باتريك ماكدونيل لحساب صحيفة لوس أنجيلوس تايمز، نوفمبر/ تشرين ثاني 2002. يشكل التقرير الذي أعده ماكدونيل حول سنوات خالد في الجامعة عملاً غير مسبوق وهو الأساس الذي قام عليه هذا الفصل.
- 11- الوصف المتعلق بحياة خالد شيخ محمد في نورث كارولينا مبنية في معظمها على المقابلات التي أجراها باتريك ماكدونيل لحساب صحيفة لوس أنجيلوس تايمز، أكتوبر/ تشرين أول 2002.

- 12- المرجع السابق نفلسه .
- 13- غارث د . فايل Garth D. Faile، رئيس قسم كلية العلوم في كلية تشوان، مقابلة أجراها باتريك ماكدونيل، أكتوبر/ تشرين أول 2002.
- 14- خالد أ . عبدالله، مقابلة هاتفية أجراها باتريك ماكدونيل، أكتوبر/ تشرين أول 2002.
- 15- كوينتين كلاي Quentin Clay، مقابلة هاتفية أجراها المؤلف، سبتمبر/ أيلول 2002.
- 16- سامي زيتاوي، مقابلة هاتفية أجراها المؤلف، سبتمبر/ أيلول 2002.
- 17- محمد زبيد، مقابلة أجراها باتريك ماكدونيل، مدينة الكويت، نوفمبر/ تشرين ثاني 2002.
- 18- وليد م . غملاس، مقابلة أجراها تاتريك ماكدونيل، مدينة الكويت، نوفمبر/ تشرين ثاني، 2002.
- 19- زبيد، مقابلة، مرجع سبق ذكره.
- 20- مسؤول من الإمارات العربية المتحدة، مقابلة أجراها المؤلف، الإمارات العربية المتحدة، أغسطس/ آب 2003.
- 21- محمد زبيد، مقابلة أجراها المؤلف، مدينة الكويت، أغسطس/ آب 2003.
- 22- فيصل منيفي، مقابلة أجراها باتريك ماكدونيل، مدينة الكويت، نوفمبر/ تشرين ثاني 2002.
- 23- زيتاوي، مقابلة، مرجع سبق ذكره.
- 24- هندية، مقابلة أجراها باتريك ماكدونيل، مرجع سبق ذكره.
- 25- مسؤولي كويتي، مقابلة أجراها المؤلف، مرجع سبق ذكره.
- 26- أحد الأساتذة الذين درسوا محمد، مقابلة أجراها المؤلف، مرجع سبق ذكره.
- 27- السجلات السنوية تودع وتسجل لدى لجنة التنسيق الإسلامية، بيشاور.
- 28- ريبف، The New Jackles مرجع سبق ذكره، ص 48.
- 29- مجموعة من أصدقاء أخوة محمد، مقابلة أجراها جوش مايرز، مرجع سبق ذكره.

- 30- المرجع السابق نفسه.
- 31- أحد الموظفين السابقين في وكالات الإغاثة الإسلامية في بيشاور، مقابلة أجراها جوش مايرز لحساب صحيفة لوس أنجيلوس تايمز، إسلام آباد، نوفمبر 2002.
- 32- شير علام، مقابلة أجراها المؤلف، كابول، نوفمبر/ تشرين ثاني 2003.
- 33- المرجع السابق نفسه.
- 34- برهان الدين ريباني، مقابلة أجراها المؤلف، كابول، نوفمبر 2003.
- 35- أحمد والي مسعود، مقابلة أجراها المؤلف، كابول، نوفمبر 2003. كان مسعود من بين أكثر القادة العسكريين مهابة في أفغانستان وأشدّهم معارضة للإسلام الأصولي الذي يتبناه القادة المدعومون من الولايات المتحدة الأمريكية والسعودية. ومن المفارقات العجيبة، أن مسعود أصبح فيما بعد من أقوى أنصار الولايات المتحدة في التصدي لطالبان وأسامة بن لادن. إلا أنه اغتيل على يد أعوان ابن لادن في 9 سبتمبر من عام 2001.
- 36- روبرت إيستهام Robert Eastham، مقابلة هاتفية أجراها المؤلف، يناير/ كانون ثاني 2004.
- 37- ريبف، The New Jackles ص 164.
- 38- (مجموعة الأزمات الدولية) "الجماعة الإسلامية في جنوب شرق آسيا: قضي عليها لكنها ما تزال تشكل خطراً" تقرير آسيا رقم 3.26 أغسطس/ آب، 2003، ص 4. يعتمد هذا التقرير الصادر عن المجموعة على المقابلات التي أجريت مع سجناء أعضاء المجموعة وأعدته المحللة سيدني جونز من المجموعة، التي طلب منها مغادرة إندونيسيا بسبب عمق وشمول ودقة أبحاثها.
- 39- بيتر بيرغن Peter Bergen، Holy War, Inc. تشستون، نيويورك، 2002، ص 60.
- 40- ريبف، The New Jackles ص 165.
- 41- ستيف كول، حروب الأشباح: التاريخ السري لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية وأفغانستان وابن لادن، منذ الاحتلال السوفييتي وحتى 10 سبتمبر/ أيلول 2001، بنغوين برس، نيويورك، 2004، ص 163.

- 42- جون ك. كوولي John K. Cooley، حروب غير مقدسة: أفغانستان، أمريكا، والإرهاب العالمي، بلوتو برس، لندن، 2000، ص 109. انظر أيضاً كول، حروب الشبح، ص 149. يقدم كول أكثر من غيره، تأريخاً شاملاً وعميقاً للتدخل الأمريكي.
- 43- كول، حروب الشبح، ص 158.
- 44- حتى بعد خروج السوفييت، رفضت الولايات المتحدة تصديق أنهم خرجوا فعلاً. واتصل السوفييت مراراً وتكراراً بالأمريكان في محاولة منهم للدخول في مفاوضات سلام، إلا أن الأمريكان ظنوا أن تلك خدعة. ويقدم كول سرداً موثقاً لتلك الأحداث.
- 45- روبرت أوكلي Robert Oakley، مقابلة هاتفية أجراها المؤلف، يناير/ كانون ثاني 2004.
- 46- ميلت بيردن Milt Bearden، مقابلة هاتفية أجراها المؤلف، يناير/ كانون ثاني 2004.
- 47- روبن، تفتيت أفغانستان، ص 250.
- 48- كول، حروب الشبح، صفحات من 195 - 197.
- 49- كان مركز أوجهري الواقع خارج حدود إسلام آباد، يشكل المستودع الرئيس لإمدادات العتاد العسكري لمجهود الحرب لدى الاستخبارات الباكستانية. وقد تعرض للتدمير قبيل معركة جلال آباد. وبلغت خسائر تدميره 10 آلاف طن من العتاد العسكري، بما فيها 30 ألف قذيفة، وآلاف من قتابل المورتورز، وملايين الأعبيرة النارية للأسلحة الخفيفة. انظر يوسف و أدكن، أفغانستان فخ الدب.
- 50- عبدالله عزام، "أحباب حوريات الجنة"، كما جاء في صحيفة أخبار المسلم، لندن، 3 مايو، 2003. والترجمة عن الأصل الإنجليزي كما وردت في الكتاب.
- 51- كول، حروب الشبح، صفحات 195 - 199.
- 52- روبن، تفتيت أفغانستان، ص 251.
- 53- جمال أحمد الفضل، شهادة في قضية الولايات المتحدة الأمريكية ضد أسامة ابن لادن وآخرين، 6 فبراير، 2001. تعتبر شهادة جمال المصدر الرئيس لكل ما

كتب عن ابن لادن حول الأيام الأولى من القاعدة. وكان جمال من أوائل الأعضاء في المنظمة، إلا أنه انقلب على المنظمة ليصبح أبرز مخبر للحكومة الأمريكية ضد ابن لادن.

54- هناك نقاش مستفيض حول الوقت الذي بدأ فيه ابن لادن باستخدام عبارة القاعدة للدلالة على منظمته. تستخدم هذه الكلمة في اللغة العربية للدلالة على الأساس أو ركيزة المبنى. ويعتقد كثير من الباحثين أن عبارة القاعدة كانت تستخدم في هذا المعنى اللغوي العادي في الأيام الأولى كإشارة إلى دلالة وظيفية عملية وليس على منظمة فعلية. وعلى أية حال، فإن عبارات مشابهة مثل قاعدة الجهاد أصبحت تستخدم على نطاق واسع للدلالة على ابن لادن والمجموعة الرئيسية المؤيدة له، والتي لم يتجاوز عددها أكثر من عدة مئات. جيسن بيركي، *AlQaeda: Casting a Shadow of Terror* القاعدة: إلقاء ظلال من الإرهاب، توريس، لندن، 2003، صفحات 7 - 22. ويخصص جيسن فصلاً كاملاً في نقاش جلي حول هذا المصطلح والمنظمة. ويعتبر كتاب بوركي ممتازاً على العموم؛ وفيه نزعة معتدلة على خلاف معظم ما كتب في هذا الموضوع. ويفيد الكتاب من خبرة بوركي الذي عمل مراسلاً صحفياً في المنطقة لعشرة سنوات.

55- أمر النبي محمد: "أخرجوا المشركين من جزيرة العرب". وقد فسر ابن لادن هذا الحديث ليفيد بأنه لا يجوز لغير المسلمين أن يسكنوا شبة الجزيرة العربية.

56- كول، حروب الشب، الصفحات من 221 إلى 223.



■ الفصل الثالث: حرب عالمية ■

- 1- ريتشارد كلارك Richard Clarke، مسؤول مكافحة الإرهاب في حكومتي كلينتون وبوش، مقابلة أجريت معه في مارس/ آذار 2002، مأخوذة من موقع: <http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/shows/kenw/interviews/clarke.html>
- 2- سيمون ريبف، The new Jackles أبناء أوى الجدد، ص 115، يعتمد ريبف على المحققين الباكستانيين في هذه المعلومات. ودعمت السلطات الكويتية ما جاء على لسان الباكستانيين في المقابلات، وقام عبدالباسط نفسه باستخدام عنوان منزل في بلوشستان في عقد زواجه. إلا أنه من الممكن أن تكون الأسرة انتقلت إلى بلوشستان الإيرانية بدلاً من بلوشستان الباكستانية. وكان يوسف أخبر أحد المعارف الذين قابلهم المؤلف أن زوجته وأبناءه يعيشون في إيران. وعلى الرغم من أن المنطقتين تفصل بينهما الحدود الوطنية لإيران وباكستان، إلا أنهما كانتا كياناً واحداً وينتقل الناس بينهما وكأنهما منطقة واحدة. ولا يعترف معظم الوطنيين البلوش بسيادة أي دولة فيما عدا سيادتهم هم لأنفسهم. وكان عبدالكريم والد عبدالباسط يعتبر نفسه من هؤلاء الوطنيين.
- 3- ريبف، The new Jackles أبناء أوى الجدد، لم يذكر ريبف الأخوة بأسمائهم، إلا أن الأحداث اللاحقة تشير إلى أن الاثنين اللذين ذكرهما كانا متحالفين مع المقاومة.
- 4- ستيف كول، حرب الأشباح، ص 248.
- 5- وثيقة عقد الزواج.
- 6- براين بار Brian Parr، شهادة في قضية الولايات المتحدة الأمريكية ضد يوسف وآخرين، S1293 CR. 180، 12 أغسطس/ آب، 1996، نسخة المؤلف.
- 7- مجاهرون سابقون، مقابلة أجراها المؤلف، بيشاور، نوفمبر/ تشرين ثاني 2002، وفي دبي، الإمارات العربية المتحدة، أغسطس/ آب 2003.
- 8- إدوين أنجيليس، عضو سابق في جماعة أبوسياف، نقلاً عن تقرير Philippine's Jihad inc.، تقرير غير منشور من وضع المسؤول الكبير في الشرطة الفلبينية رودولفو ميندوزا الأصغر، سبتمبر/ أيلول 2002، نسخة المؤلف.

- 9- مجموعة الأزمات الدولية International Crisis Group، التقرير الخاص بشأن "الجماعة الإسلامية في جنوب شرق آسيا"، ص 2.
- 10- عبد الحكيم مراد، تحقيقات مكتب التحقيقات الفدرالي، إبريل 1995، نسخة المؤلف.
- 11- المرجع السابق
- 12- جمال أحمد الفضل، شهادة في قضية الولايات المتحدة الأمريكية ضد ابن لادن وآخرين، 20 فبراير/ شباط، 2001.
- 13- كول، Ghost wars حروب الشبح، مرجع سبق ذكره، الصفحات 221 - 224.
- 14- صديق لأخوة محمد، مقابلة أجراها جوش ماير، مرجع سبق ذكره.
- 15- اللجنة الوطنية، التقرير النهائي، 22 يوليو/ تموز، 2004، ص 147.
- 16- عبد الحكيم مراد، محضر تحقيقات الشرطة الفلسطينية، يناير/ كانون ثاني 1995، نسخة المؤلف.
- 17- المرجع السابق نفسه.
- 18- المعلومات الخاصة بالسيارة الذاتية لأحمد محمد عجاج موجودة في محضر وقائع قضية الولايات المتحدة الأمريكية ضد سلامة وآخرين.
- 19- هذا السرد للأحداث هو الذي ذكره محامي عجاج خلال المحاكمة، أنه أي عجاج، كان يحاول العودة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأن عبدالباسط عرض عليه تذكرة السفر للعودة؛ وفيما عدا مرافقته لعبدالباسط في السفر، لم يقدم الادعاء العام سوى أدلة ضعيفة جداً تفيد أن عجاجاً كان جزءاً من أي خطة لمهاجمة الولايات المتحدة.
- 20- جميع التفصيلات حول دخول يوسف إلى الولايات المتحدة الأمريكية مستقاة من وقائع قضية الولايات المتحدة الأمريكية ضد سلامة وآخرين، وكذلك قضية الولايات المتحدة الأمريكية ضد يوسف وآخرين، وقضية الولايات المتحدة ضد إسماعيل وآخرين، نسخ المؤلف. تكررت هذه التفاصيل في كثير من القضايا الأخرى وهي موزعة هنا وهناك.
- 21- عبدالباسط، تحقيقات مكتب التحقيقات الفدرالي، فبراير/ شباط 1995، نسخة المؤلف

- 22- المرجع السابق نفسه.
- 23- قضية الولايات المتحدة الأمريكية ضد يوسف، مرجع سبق ذكره.
- 24- ورد ذكر هذا النوع من العمل المدهش لأول مرة في كتاب سيمون ريبف The New Jackles، (أبناء آوى الجدد) في ذلك الوقت، لم يكن ريبف يعلم بهوية ماجد، إلا أن المحققين أكدوا فيما بعد أنه كان في الحقيقة خالد شيخ محمد. كما أكدوا أيضاً في مقابلات أخرى قصة المياه المقدسة، ولكنها مع ذلك تبقى بعيدة الاحتمال. ولا أريد هنا أن أشكك أو أحط من قدر جهود ريبف. فكتابه يعد من أفضل الكتب التي نشرت قبل 11 سبتمبر/ أيلول حول إرهاب الإسلاميين. إلا أن صدى هذه القصص يبقى يتردد لعدة سنوات. في ذلك الوقت، ينسى المحققون من أين جاءت القصة ولا يتحرون التمييز بين الحقيقة والإشاعة. وربما أنهم قرؤوا قصة المياه المقدسة في كتاب ريبف، وهي المكان الذي قرأت فيه ذلك التقرير أول مرة، أو في الصحف الباكستانية، حيث ظهرت هناك في البداية، وبعدها ترددت هذه القصة دون أن يتحقق أحد من مدى صدقها. ولطالما سمعت المحققين يرددون أشياء أعلم تمام العلم أنهم علموا بها من تقارير كتبها أنا للصحيفة. وأنا أشك أنهم تحروا صحة ما ورد فيها.
- 25- اللجنة الوطنية، التقرير النهائي، 22 يوليو/ تموز، 2004، ص 148.
- 26- المرجع السابق، ص 147.
- 27- جميع المعلومات الخاصة بالعلاقة بين مراد ويوسف استقيت من محاضر التحقيق مع مراد على يد الاستخبارات الفلبينية، يناير/ كانون ثاني 1995، وملخص تحقیقات مكتب التحقيقات الفدرالي، أبريل/ نيسان 1995، نسخ المؤلف.
- 28- مقابلة أجرتها محطة أي بي سي نيوز مع أسامة بن لادن، 28 مايو/ أيار، 1998. مأخوذة من موقع:
- http://www.abcnes.go.com/sections/world/dailynews_miller_binladen_980609.html.
- 29- ريبف، The New Jackles أبناء آوى الجدد، صفحات 52 - 54.
- 30- المرجع السابق صفحات 63 - 65.
- 31- موير محمد يوحنا، مقابلة أجراها المؤلف، فبراير/ شباط 2002.

- Indonesia Back- International Crisis Group مجموعة الأزمات الدولية، -32
 grounder: How the Jemaah Islamiyah Terrorist Network Operates,?
 آسيا رقم 43، 11 ديسمبر، 2002.
- 33- "الحركات الأصولية الإسلامية / المتطرفة في الفلبين وصلاتهم بالمنظمات
 الإرهابية الدولية"، تقرير خاص غير منشور صادر عن قيادة الاستخبارات
 الأمنية الوطنية الفلبينية، مجموعة تحقيق خاصة، ديسمبر/ كانون أول 1994،
 نسخة المؤلف.
- 34- المرجع السابق.
- 35- تقرير الحكومة السنغافورية حول الجماعة الإسلامية في سنغافورة، يناير/
 كانون ثاني 2002.
- 36- كان يوسف يجيد مغازلة النساء ببراعة. فيما بعد، وأثناء محاكمته في نيويورك،
 حاول إقامة علاقة غرامية مع إحدى الفتيات العاملات في المحكمة في تدوين
 محاضر المحاكمة.
- 37- ماريا ريسا Maria Ressa، بذور الإرهاب، فري برس، نيويورك، 2004، من
 ص 21 - 24.
- 38- رودلفو ميندوزا الأصغر Rodolfo Mendoza Jr، مقابلة أجراها المؤلف،
 أغسطس/ آب 2002.
- 39- أنجيليس، مرجع سبق ذكره.
- 40- مراد، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.
- 41- تم تطهير تلك الأحياء بعد تلك الحادثة، إلا أن سكان المنطقة يشكون من أن
 السياسة الذين فعلوا ذلك لم يكونوا على دراية بما يفعلون. المناطق المطهرة
 أصبحت هادئة إلا أنها مملة..
- 42- مايكل غارسيا، نائب المدعي العام الفدرالي، كما ورد في قضية الولايات
 المتحدة الأمريكية ضد يوسف وآخرين، محضر جلسات القضية، نسخة المؤلف.
- 43- مراد، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.
- 44- "الحركات الأصولية الإسلامية/ المتطرفة في الفلبين وصلاتهم بالمنظمات
 الإرهابية الدولية"، تقرير خاص غير منشور صادر عن قيادة الاستخبارات

- الأمنية الوطنية الفلسطينية، مجموعة تحقيق خاصة، ديسمبر/ كانون أول 1994،
نسخة المؤلف.
- 45- أحد كبار ضباط الاستخبارات الفلسطينية، مقابلة أجراها المؤلف، مانिला،
أغسطس/ آب 2002.
- 46- ميندوزا، "مؤسسة الجهاد الفلسطيني"، مرجع سبق ذكره.
- 47- خوزيه. أتينزا الأصغر. Jose L. Atienza Jr، عمدة مانिला، مقابلة أجراها
المؤلف، مانिला، أغسطس/ آب 2002.
- 48- مراد، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.
- 49- المرجع السابق نفسه. تم العثور على الخطط كاملة ومعها أرقام الرحلات
وأسماءها المشفرة للخاطفين، في حاسوب يوسف، إضافة إلى عدد آخر من
الوثائق وأدلة الاتهام.
- 50- قام المحققون الحكوميون الذين كانوا قلقين من نشاطات نزلاء الغرفة 603 في
ضوء اقتراب موعد وصول البابا، قاموا سراً بتفعيل جهاز إنذار الحريق داخل
الشقة، وذلك بحسب ما يقوله خوزيه ل. أتينزا الصغير، الذي كان يشغل وقتها
مستشاراً في البلدية عن مقاطعة ملاتي؛ مقابلة، مرجع سبق ذكره.
- 51- قائمة الأدلة التي قامت الشرطة الفلسطينية بحيارتها، نسخة المؤلف.
52- المرجع السابق نفسه.
- 53- ميندوزا، مقابلة، مرجع سبق ذكره.
- 54- روبن رايت وجون - ثور داهلبيرغ Robin Wright and John-Thor Dahlburg،
"أعمال المجهود الجسمي، الحظ، والشبكة المحكمة حول المتهم بالتفجيرات"
مقالة في لوس أنجيلوس تايمز، 12 فبراير/ شباط، 1995.



■ الفصل الرابع: حرب بعد حرب ■

- 1- جمال أحمد الفضل، الولايات المتحدة الأمريكية ضد ابن لادن، 6 فبراير/ شباط، 2001.
- 2- المرجع السابق.
- 3- ستيف كول، حروب الشيخ، ص 222.
- 4- "أسامة بن لادن: ممول التطرف الإسلامي"، تقرير غير منشور صادر عن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، 1996، نسخة المؤلف.
- 5- المرجع السابق.
- 6- كوفر بلاك Cofer Black، المدير السابق لقسم مكافحة الإرهاب في وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، في شهادة أدلى بها أمام اللجنة المشتركة المنبثقة عن الكونجرس للتحقيق في هجمات 11 سبتمبر/ أيلول، سبتمبر/ أيلول 2003.
- 7- دبلوماسي أمريكي، مقابلة أجراها المؤلف، واشنطن العاصمة، أكتوبر 2002.
- 8- ابن لادن، 1993، كما جاء على لسان جمال أحمد الفضل في شهادته في قضية الولايات المتحدة الأمريكية ضد أسامة بن لادن وآخرين، 6 فبراير، 2001.
- 9- بلاك، مرجع سبق ذكره.
- 10- اللجنة الوطنية، تعليقات لجنة الخبراء بند 5، مارس/ آذار، 2004.
- 11- المرجع السابق.
- 12- جيسن بوركي Jason Burke، القاعدة: ظلال الإرهاب، أي بي تورييس، لندن، 2003، من صفحة 150 إلى 153. يرى بوركي أن نجاح طالبان اعتمد فعلاً على الأيديولوجية، أو بالأحرى، على انعدام الأيديولوجية السياسية. وكان تركيز الطالبان على صفاء الإسلام وقوته في كل القضايا قد حل بفاعلية محل الإسلام السياسي، الذي كان برأيه قد فشل بشكل واضح في تحقيق ما وعد به في أفغانستان وفي بقية العالم.
- 13- يوجد في الملحق ب نسخة مختصرة من "إعلان الحرب ضد الأمريكان" الصادر عن ابن لادن.

- 14- من ملفات تحقيقات الشرطة الفلبينية. كما ظهرت هذه الرسالة في قضية الولايات المتحدة الأمريكية ضد يوسف وآخرين. وظهر خلاف حول كلمة "بوجنيكا" في هذه الرسالة، فهي تبدو هنا وكأنها اسم مجموعة يمثلها خالد شيخ. كما أنها استخدمت على نطاق واسع للدلالة على خطة تفجير الطائرات في مانيتا، وليس على الأشخاص، وقيل بأنها تعني "تفجير" في اللغة الصربية - الكرواتية. إلا أن هذه الكلمة لا تظهر في أي من القواميس الصربية - الكرواتية كما أن أبناء تلك اللغة لم يتمكنوا من التعرف عليها. والأرجح أنها لفظة عامية استخدمها المقاتلون العرب في البلقان واستمروا في استخدامها بعد عودتهم إلى بلادهم.
- 15- نيل هيرمان Neil Herman، مقابلة أجراها جوش ماير لحساب صحيفة لوس أنجلوس تايمز، نوفمبر/ تشرين ثاني 2002.
- 16- مجموعة من أصدقاء عابد شيخ محمد، مقابلات أجراها المؤلف، الدوحة، مايو/ أيار 2002.
- 17- مسؤول أمريكي، مقابلة أجراها المؤلف، واشنطن العاصمة، أكتوبر 2002.
- 18- خالد محمود، مقابلة أجراها المؤلف، الدوحة، مايو، أيار 2002.
- 19- مسؤول أمريكي، مقابلة، مرجع سبق ذكره.
- 20- المرجع السابق نفسه.
- 21- ريتشارد كلارك، ضد كل الأعداء، فري برس، نيويورك، 2004، ص 152.
- 22- مسؤولين من وزارة الخارجية القطرية، نقلها عنهم مدير مكتب التحقيقات الفدرالي الأمريكي لويس فريه في المراسلات التي أرسلها لويس فريه إلى وزير الخارجية القطري، فبراير 1996، نسخة المؤلف.
- 23- ذكر كل المشاركين في ذلك الاجتماع من الذين وافقوا على إجراء مقابلات معهم، أن بيرغر كان متشدداً في إيجاد وسيلة لفعل ذلك. وعلى العموم كان بيرغر شرساً جداً فيما يتعلق بإجراءات الجلب القسري للمشتبه بهم من خارج الولايات المتحدة.
- 24- جيمي غورليك، مقابلة هاتفية أجراها المؤلف، أبريل/ نيسان 2004.

- 25- أحد الذين حضروا الاجتماع، مقابلة أجراها جوش ماير لحساب صحيفة لوس أنجلوس تايمز، نوفمبر 2002.
- 26- رسالة فريه، مرجع سبق ذكره.
- 27- ماير، مرجع سبق ذكره.
- 28- سرد الضابط المتقاعد من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية روبرت باير Robert Baer هذه القصة بأسلوب متألق، ناسباً إياها إلى الرئيس السابق لجهاز الشرطة القطري. وذكرها عرضاً في كتابه See No Evil: The True Story of a Ground Soldier in the CIA's War on Terrorism، لا تشاهد شراً: قصة جندي من ساحة المعركة في حرب وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ضد الإرهاب، ثري ريفرز برس، نيويورك، 2002، ص 270، إلا أنه قدم تفصيلات أكثر في عدة مقابلات أجريت معه فيما بعد.
- 29- رودولفو ميندوزا الأصغر، "تقرير ما بعد التحقيقات" 20 يناير/ كانون ثاني، 1995.
- 30- اللجنة الوطنية، تعليقات الموظفين بند 16، 16 يونيو/ حزيران، 2004. في البداية، نقل عدد كبير من وكالات الأنباء عدة روايات حول كيفية وصول خطة خطف الطائرات إلى القاعدة. وكان أول هذه الروايات التخمينية ما كتبه أنا في صحيفة لوس أنجلوس تايمز بتاريخ 10 سبتمبر/ أيلول، 2002 في مقالة بعنوان "الخطة" وبعد عام من ذلك، بدأ المراسلون بكتابة تفصيلات أكثر صحة وتوثيقاً فيما يتعلق بهذا الجانب من الخطة. وكان أول هذه التقارير ما كتبه كل من سوزان شميت و إلين ناكاشيما في تقرير عنوانه "موسوي ينفي مشاركته في خطة 11/9" والمنشور بتاريخ 28 مارس/ آذار من عام 2003 في صحيفة واشنطن بوست. والثاني ما كتبه جون سولون في الأسوشيتد برس بتاريخ 22 سبتمبر/ أيلول 2003، بعنوان " هجمات 11 سبتمبر/ أيلول كانت تقتضي استخدام 10 طائرات" وهذه التقارير طورت القصة بشكل كبير. وتضمن التقرير النهائي للجنة الكونغرس المشتركة للتحقيق في الهجمات والصادر في ديسمبر/ كانون أول، 2002، ص 30، أو تأكيد رسمي لتسلسل الأحداث حول إيصال خالد شيخ محمد فكرة خطة اختطاف الطائرات إلى القاعدة.

وأفصحت اللجنة المشتركة بإسهاب حول هذه النقطة. إلا أن التقارير التي صدرت فيما بعد، فشلت في التعامل مع التناقضات الواضحة والتباين بين هذا السرد وتقارير التحقيقات التي نسبت إلى رمزي بن الشيبية وخالد شيخ محمد. وإذا كان لنا أن نصدق ما جاء في تلك التقارير، فإن ابن الشيبية قدم سرداً مختلفاً عن تسلسل الأحداث، الأمر الذي يضيف ظللاً من الشك حولها جميعاً. إضافة إلى ذلك، فإن هذه التقارير المنسوبة إلى ابن الشيبية تتعارض تعارضاً جلياً ومتتابعاً مع الحقائق المعروفة، كتلك المتعلقة بوجود أشخاص معينين في أماكن معينة في أوقات معينة.

31- حكم الإدانة في قضية *USA v. Benevolence International Foundation*، صادر عن المحكمة البدائية الفدرالي التابعة للمقاطعة الشمالية من ولاية إلينوي، 29 أبريل/ نيسان، 2002. ص 15.

32- تبدو خطة خالد شيخ محمد، شأنها شأن باقي الأحداث التاريخية، وكأنها تحتوي على عنصر من الحتمية. إلا أن الحقيقة هي أنها كانت أقرب إلى المصادفة والحادث العرضي من أي شيء آخر. فقد خرجت إلى الوجود نتيجة ثلاث وقائع وأحداث منفصلة وغير متصلة ببعضها: مطاردة ابن لادن وإخراجه من السودان، مطاردة خالد شيخ محمد وإخراجه من قطر، ثم استحكام غلبة طالبان في أفغانستان. وأي واحد من هذه الأحداث بمعزل عن البقية قد لا يكون له أي أثر يتجاوز محيطه المحلي، حسناً كان ذلك الأثر أم سيئاً. ولا شك أن كل حدث من هذه الأحداث بمفرده قد أفرز مشكلات يمكن أن تكون خطيرة ولكنها قابلة للاحتواء. وبتحاديهم وتخفيفهم خلف ستار من اللامبالاة والجهل في منطقة من العالم لم يعد أحد يلقي لها بالاً، استطاعوا تجاوز حدود الاحتواء. فظهروا في أفغانستان، في أواخر التسعينيات، وبذلك استطاعوا أن يغيروا بشكل أساسي مستقبل القاعدة، ومن ثم مستقبل السياسات العالمية للقرن الحادي والعشرين.



الكتاب الثالث: الخطة

■ الفصل الأول: المجندون الجدد ■

- 1- منير المتصدق، من شهادته الشخصية في الدفاع عن نفسه في محاكمته الأولى، هامبورغ، أكتوبر/ تشرين أول، 2002.
- 2- ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية، نسخة المؤلف.
- 3- أحد الذين تدريبوا في تلك المعسكرات، مقابلة أجراها المؤلف، الإمارات العربية المتحدة، أغسطس/ آب، 2003.
- 4- شادي عبدالله، شهادة في المحاكمة الأولى لمنير المتصدق، هامبورغ، نوفمبر/ تشرين ثاني 2002.
- 5- اسم عمر المستعار مأخوذ من شهادة قدمت في محاكمة المتصدق؛ أما الأسماء التي استخدمها محمد الأمير وجراح والشحي فهي مأخوذة من ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية، ونشرتها للمرة الأولى قناة الجزيرة في برنامج يسري فودة "سري للغاية: الطريق إلى 11 سبتمبر" والذي عرض في 11 سبتمبر/ أيلول، 2002. ومن المرجح أن يكون محمد الأمير وعمر والشحي استخدموا هذه الأسماء في زيارة سابقة إلى أفغانستان. وفي الكتاب الذي ألفه يسري فودة بالاشتراك مع نك فيلدنغ وعنوانه "سادة الرعب: الحقيقة وراء أكثر هجوم مدمر شهده العالم" (أركيد بوكس، لندن، 2003)، يؤكد فوده وفيلدنغ بما لا يدع مجالاً للشك، أن محمد الأمير وعمر كانا في معسكرات التدريب عام 1998، واستشهدا بشخص عرفاه باسم "أبو بكر" واصفين إياه "بالوسيط من القاعدة"، أو أيما كان ذلك، بأنه مصدر تلك المعلومات. وأنا أتفق مع فودة وفيلدينغ أنه يحتمل أن الأمير وعمر كانا في المخيم في ذلك الوقت، إلا أن كتاب سادة الرعب مليء بالأخطاء المنتشرة بين ثيابه إلى حد يجعل من الصعب الاعتماد عليه. ومن باب الاعتراف بالفضل، فإن فوده سجل سبقاً صحفياً في ربيع 2002، عندما قام بمقابلة عمر وخالد شيخ محمد في مكان سري في مدينة كراتشي. وفي ذلك الوقت تدمر الصحفيون بأن ما فعله فوده هو أنه كان يرد على الهاتف ويذهب

إلى حيث يطلب منه. إلا أنني متأكد أن أي شخص آخر يستقبل مثل تلك المكالمات ويذهب إلى حيث يطلب منه أن يذهب يكون جديراً بتسجيل السبق الصحفي الحصري على ما فعله. قام فوده بتصوير المقابلة، إلا أنه لم يسمح له بالاحتفاظ بالشريط. وبدلاً من ذلك، أرسلت إليه أشرطة تتضمن التسجيل الصوتي الذي يدعي أنه أخذ عن الأصل، وأُبقي فيها على صوت عمر بعد أن تم تعديله إلكترونيًا حتى لا يقوم أحد بتقليده. ومُسح خالد شيخ من الشريط. وعلى كل حال، فقد عرّض فوده نفسه للمخاطر في سبيل إخراج تلك القصة وقدم خلالها معلومات مهمة يستحق عليها الثناء. وفي المقابل فإن كتابه الذي بُني على تلك المقابلات، مليء بالثغرات والعيوب مع شديد الأسف.

6- تشير التحقيقات وشهادات كثير من الجهاديين وعلى مدى السنين أن هذا الروتين بقي متبعاً بشكل ثابت على مدى سنين طويلة. وبالطبع يمكن قول الشيء نفسه فيما يتعلق بالتدريبات العسكرية الأولية.

7- لجنة الكونغرس المشتركة للتحقيق، تقرير، الصفحات 185 - 187. وهذا مستفاد ضمناً، إذ لا يوجد دليل مباشر على استدعاء أعضاء مجموعة هامبورغ. ويقول تقرير اللجنة إن محمد حيدر زمار، وهو الشخص الذي يُعتقد أنه قام بتجنيد الطيارين، كان على اتصال مباشر مع مسؤولين كبار في القاعدة في الأشهر التي سبقت مجيء أعضاء المجموعة إلى أفغانستان.

8- فودة، سادة الرعب، وكذلك اللجنة الوطنية، التقرير النهائي، 22 يوليو/ تموز، 2004، ص 166.

9- رباني، مقابلة، مرجع سبق ذكره.

10- جمال أحمد الفضل، شهادة في قضية الولايات المتحدة الأمريكية ضد أسامة ابن لادن وآخرين، 6 فبراير/ شباط، 2002.

11- طالما أنك لا تمنع من رفضه الإجابة عن الأسئلة التي توجه إليه وقيامه بدلاً من ذلك بالاسترسال في التحدث عما في ذهنه، فإن ابن لادن جيد في عقد المقابلات الصحفية. ويتوفر عدد من هذه المقابلات بشكلها المصور والمكتوب في الإنترنت. مثلاً يمكنك أن تجد بعضها في المواقع التالية:

<http://news.findlaw.com/cnn/docs/binladen/binladenintvw-cnn.pdf>
http://www.abcnews.go.com/sections/world/dailynews/transcript_binladen_981228.html.

- 12- تقديرات الاستخبارات الأمريكية، يونيو/ حزيران 2002.
- 13- ستيفن كوهن، ورد ذكره في تقرير نشرته مجلة فوربز بعنوان: تكلفة ابن لادن.
- 14- اللجنة الوطنية، التقرير النهائي، 22 يوليو/ تموز.
- 15- قامت الحكومة السعودية من الناحية الفعلية بحرمان أسامة بن لادن من ميراثه عام 1994 عندما أمرت ببيع حصة ميراثه في الشركة وتجميد عائدات تلك الحصة. كما جاء في تقرير اللجنة الوطنية للتحقيق في الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة الأمريكية. الجزء الخاص بتمويل الإرهاب، 20 أغسطس/ آب، 2004.
- 16- قدرت اللجنة الوطنية أن مجموع ثروة ابن لادن لم تزد عن 20 مليون دولار. انظر تعليق طاقم اللجنة بند 15، 16 يونيو/ حزيران، 2004.
- 17- قضية التمويل المالي للقاعدة تتجاوز حدود هذا الكتاب. والحقيقة هي أن هجمات 11 سبتمبر/ أيلول لم تكلف الكثير من المال - تتراوح كلفتها ما بين 250 إلى 500 ألف دولار. وهذا المبلغ يمكن تأمينه بسهولة. إلا أنه كان من الضروري الحفاظ على تدفق السيولة المالية من أجل إقامة البنية التحتية الإرهابية التي دعمت تلك الهجمات. وقدّرت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ميزانية القاعدة السنوية بحوالي 30 مليون دولار، وذلك بحسب ما أوردته اللجنة الوطنية في تقريرها الأخير. وكما هي حال كثير من جوانب نشاطاتها، فإن القاعدة استفادت من الممارسات الإسلامية التقليدية في بناء قاعدتها المالية. فالزكاة ركن من أركان الإسلام، والمسلمون جميعهم مأمورون بإنفاق ما لا يقل عن 10٪ من دخلهم السنوي في الأعمال الخيرية. وتشكل الزكاة بالفعل أكبر عمل خيري منظم على وجه الأرض. أضف إلى ذلك الحوافز الدينية التي تدفع الناس إلى مزيد من الإنفاق بسبب عقود من الحرب في أفغانستان وما تلتها من حروب أخرى في البوسنة وكوسوفو والشيشان، والتي كانت تعتبر حروباً مقدسة ضد الكفار. ولهذا ليس من

المستغرب في شيء أن تجد الحكومات العالمية صعوبة في وقف تدفق تلك الأموال والتبرعات.

- 18- هيرمان، مقابلة أجراها جوش ماير، مرجع سبق ذكره.
- 19- من مقابلات أجريت مع محققين من الولايات المتحدة الأمريكية ومن أوروبا، ربيع عام 2002.
- 20- المرجع السابق.
- 21- اللجنة الوطنية، التقرير النهائي، 22 يوليو/ تموز، 2004، ص 153.
- 22- مسؤول كبير في وزارة العدل الأمريكية، مقابلة أجراها جوش ماير لحساب صحيفة لوس أنجلوس تايمز، واشنطن، نوفمبر/ تشرين ثاني 2002.
- 23- جورج تينيت، "إفادة كتابية صادرة عن مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA موجهة إلى لجنة الكونغرس المشتركة للتحقيق في هجمات 11 سبتمبر/ أيلول"، 16 أكتوبر/ تشرين أول، 2002.
- 24- اتحاد العلوم الأمريكية، أرشيف الإنترنت، حصل عليه من موقع <http://www.fas.org/irp/world/para/docs/980223-fatwa.htm>.
- 25- اللجنة الوطنية، تعليقات طاقم اللجنة بند 16، 16 يونيو/ حزيران، 2004.
- 26- المرجع السابق، وكذلك مقالة جون سولومون "هجمات 11 سبتمبر/ أيلول كان يفترض أن تستخدم 10 طائرات"، الاسوشيتد برس، 22 سبتمبر/ أيلول، 2003.
- 27- اللجنة الوطنية، تعليقات طاقم الموظفين بند 16.
- 28- سولومون، هجمات 11 سبتمبر/ أيلول. مرجع سبق ذكره.
- 29- نيكلز، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.
- 30- بروهن، مقابلة أجراها المؤلف، مرجع سبق ذكره.
- 31- فاتح، مقابلة، مرجع سبق ذكره.
- 32- أدت علاقة جراح بآيسل إلى التصور التقليدي لدى بعض الناس بأنه كان شخصاً حائراً ممزقاً بين عالمين، وأنه بذلك كان أقل تطرفاً في معتقداته الدينية وأن هذا التدين مشكوك فيه. وربما يصدق العكس أيضاً، بمعنى أن معتقداته كانت أشد تطرفاً وأنه كان على درجة أكبر من التدين حتى يمكنه تجاوز التزاماته الأخرى.

- 33- اللجنة الوطنية، التقرير النهائي، 22 يوليو/ تموز، 2004، ص 166. لم يضم الاجتماع الأول عمر الذي لم يصل بعد إلى قندهار، إلا أن عمر اجتمع بابن لادن لاحقاً على حدة بعد وصوله، وأقسم له، كما فعل الآخرون، يمين الولاء والطاعة.
- 34- عُثر على شريط الفيديو مع أشرطة أخرى في منزل عاطف الموجود في كابول خلال الحرب الأمريكية الأفغانية، وعاطف هو أحد القادة الميدانيين في القاعدة. وعثر أيضاً على أشرطة أخرى مرقمة بالتسلسل تحمل تاريخ 10 مارس/ آذار، واستخدم عمر بطاقة أتمان في هولندا بتاريخ 13 مارس/ آذار ويعتقد بعض الناس (انظر هامش 43 أدناه) أنه توجه من كراتشي إلى كوالامبور لحضور اجتماع مع حنبلي هناك، إلا أنه لا يوجد دليل قاطع حول مكان وجوده في الفترة الممتدة من 3 يناير/ كانون ثاني وحتى 13 مارس/ آذار، بحسب ما تفيدته ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية، والمقابلات التي أجريت مع المحققين الألمان والأمريكان إضافة إلى مسؤولي الأمن الماليزيين، 2002.
- 35- مجموعة الأزمات الدولية، "الجماعة الإسلامية في جنوب شرق آسيا"؛ انظر أيضاً ميندوزا.
- 36- محمد سوبري، مقابلة أجراها المؤلف، سونغاي مانغيس، يونيو/ حزيران 2002.
- 37- المرجع السابق نفسه.
- 38- مجموعة الأزمات الدولية، "الجماعة الإسلامية في جنوب شرق آسيا"، ص 4، ويشير هذا التقرير إلى وجود حنبلي في معسر للتدريب تابع لعبدالرسول سياف عام 1987.
- 39- زاكاري أبوزا، مذكور في مقالة دون غرينليس، Terrorism-Still a force to be Feard، منشور في مجلة Far Eastern Economic Review, Jakarta, January 22, 2004.
- 40- اللجنة الوطنية، التقرير النهائي، 22 يوليو/ تموز، 2004، ص 150.
- 41- لم يتم إثبات أي سبب آخر لهذا الاجتماع على نحو قاطع. وكان بإمكان عدد كبير من الذين حضروا هذا الاجتماع أن يعقدوا هذا الاجتماع في أفغانستان أو أي مكان آخر. ويحتمل أن يكون وجود هؤلاء الأشخاص في هذا المكان وفي ذلك الوقت كان أقرب إلى المصادفة منه إلى المؤامرة. ويتأمل ما حدث، فإن

الشيء المهم حول هذا الاجتماع هو من كان حاضراً فيه وليس ماذا جرى فيه، والشعور المشترك السائد أن خطة 11 سبتمبر/ أيلول كان من الممكن أن تخرج عن مسارها هناك قبل أن تتاح لها فرصة الدخول حيز التنفيذ.

42- لجنة الكونغرس المشتركة للتحقيق، تقرير، ص 145.

43- مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤولي الأمن الماليزيين، والمحققين الأمريكيين والألمان، كوالامبور، واشنطن، برلين. في الفترة الممتدة من ربيع عام 2002 وحتى خريف ذلك العام. وثار خلاف حول ما يظهر في هذه الصور. ويدعي بعض الذين شاهدوا هذه الصور أنه بالإضافة إلى الأشخاص المذكورين. هناك أيضاً صور يظهر فيها رمزي بن الشيبة (عمر) في الشقة. واستطاع بعض الناس التعرف عليه من الصورة؛ ويقول آخرون بأنه ليس من الواضح إن كان هو أم لا. ويذكر أن تقارير طاقم اللجنة المشتركة التابعة للكونغرس تعرضوا بالتفصيل للاجتماعات التي عقدت في ماليزيا بالتفصيل. ولم يرد أي ذكر فيها عن وجود الشيبة هناك. كما لا يوجد دليل على سفر الشيبة إلى هناك. إلا أن الشيبة كان الشخص الوحيد ضمن مجموعة هامبورغ الذي يستخدم إثباتات هوية مزورة. وبالفعل سافر الشيبة إلى ماليزيا بعدها بثمانية عشر شهراً، في يونيو/ حزيران من عام 2001.

44- اللجنة الوطنية، التقرير النهائي، 22 يوليو/ تموز، 2004. ص 156.

45- يقول المسؤولون الأمريكيون إنهم فشلوا في معرفة أن المحضار والحازمي دخلا الولايات المتحدة الأمريكية. ويشكل ادعاء الحكومة هذا لغزاً عميقاً. فجواز سفر المحضار والذي تحتفظ وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA بنسخة منه يحتوي على تأشيرة دخول مطولة، وهي حقيقة أكدها ضباط الاستخبارات مع موظفي السفارة الأمريكية التي أصدرت التأشيرة في المملكة العربية السعودية. وبأخذ ذلك بالاعتبار، إضافة إلى اعتقادهم بأن المحضار والحازمي كانا عملاء للقاعدة وأن "شيئاً خطيراً على وشك الحدوث" على حد وصف أحد ضباط الوكالة، فإن فارق الوقت الشاسع في تعقبهما لا يمكن تفسيره بشكل من الأشكال. فالقضية لم تكن أن الوكالة كانت تعتقد أن

الاجتماع لم يكن مهماً: فقد كان هناك ثمانية محطات للوكالة حول العالم تشترك في تعقب المشاركين في ذلك الاجتماع؛ وتم إحاطة كبار المسؤولين في أجهزة الأمن القومي علماً بما يجري، بمن فيهم جورج تينيت مدير الوكالة، وساندي بيرغر مستشار الأمن القومي. أن يكون لهذا الحدث كل هذه الأهمية في أسبوع، ثم يسقط بالكامل وفجأة من اعتبارات الأجهزة الأمنية في الأسبوع التالي، يعكس لنا أمرين: أولهما: المستوى العالي لهذه النشاطات الإرهابية المشتبهة، وثانياً: عمق القصور في أجهزة الاستخبارات. والأدهى من قصور وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، هو قيام وكالة الأمن القومي التي تتخصص بجمع المعلومات واعتراض المكالمات الهاتفية والتنصت عليها، بتحديد هوية المحضار والأخوين الاثني عشر قبل عدة أشهر من اجتماع عملاء القاعدة. وقامت تلك الوكالة أيضاً بتحديد هويات المشاركين في الاجتماع وهم في طريقهم إليه، ومع ذلك، لم تبلغ وكالة الأمن القومي أيّاً من الوكالات الأخرى بهذا الأمر، كما أنها فشلت أيضاً في ملاحظة أن هؤلاء الأشخاص دخلوا إلى الأراضي الأمريكية.



■ الفصل الثاني: التحضيرات ■

- 1- استقي هذا السرد لنشاطات آيسل سينغن بشكل أساسي من ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية التي تحتوي على مراسلات آيسل والمقابلات المكثفة التي أجريت معها ومع غيرها من الذين لهم معرفة مباشرة بالأحداث. كما أنها تعتمد بشكل محدود على الشهادات العلنية التي سمعت في محاكمة منير المتصدق في هامبورغ.
- 2- المتصدق، من شهادته التي أدلى بها في محاكمته الأولى، 23 أكتوبر/ تشرين أول، 2002.
- 3- مسؤول أمني كبير، الإمارات العربية المتحدة، مقابلة أجراها المؤلف، أبو ظبي، يوليو/ تموز 2003. ويقول الإماراتيون في هذا الصدد بأنهم أوقفوا زياد جراح أولاً بسبب وجود اسمه على قائمة للأشخاص الذين ينبغي مراقبتهم والتي قدمها إليهم الأميركيان. ويقول الأميركيان بأن هذا الادعاء غير صحيح. إلا أن الولايات المتحدة اعترفت في مذكرات داخلية وفي اتصالات أجريت مع المحققين الألمان بأن الإماراتيين اتصلوا بهم فعلاً بخصوص جراح. ولكنهم رفضوا الإفصاح عما قالوه للإماراتيين. وأخبر الأميركيان نظراءهم الألمان، بحسب ما ورد في وثائق مكتب التحقيقات الفدرالي التي حصل عليها المؤلف، أن المقابلة مع جراح لم تكن ذات أهمية، وأنها كانت روتينية وعادية جداً، كما يقولون. ويرد الإماراتيون بالقول بأن هذا الكلام غير صحيح قطعياً. فالمقابلة استمرت لأربع ساعات بحسب ما تشير سجلاتهم، وأنه تم إخبار الأميركيان بما يجري في أثناء حدوثها. ومن المحتمل أن حقائق هذا الحدث ذهبت ضحية العلاقات المضطربة بين مختلف الوكالات الأمريكية. ولم يفصح الإماراتيون عن الجهة الأمريكية التي اتصلوا بها، ولعل التقدير الأقرب إلى الصحة هو أنهم اتصلوا بشعبة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA التابعة للسفارة الأمريكية في أبو ظبي، وأن تلك المعلومات لم تخرج من السفارة، أو أنها أرسلت إلى مركز الوكالة في لانغلي، وفي كلا الحالين لم توصل إلى مكتب التحقيقات الفدرالي. وحتى هذه اللحظة، وفي ضوء غياب أي توثيق من كلا الطرفين، فإن من المستحيل معرفة أي من الروايتين هي الصحيحة. ولكن تجدر ملاحظة أنه

عندما ظهرت التقارير أول مرة حول تلك المقابلة على يد جين كورين مراسلة محطة بي بي سي عام 2001 (وظهرت لاحقاً في كتاب لها بعنوان، القاعدة: شبكة الإرهاب التي تهدد العالم، ريتشن بوكس، نيويورك، 2002) مستشهدة بالمصادر الإماراتية، سارع الأمريكيان بالنفي علناً بأنه لم يتم إخبارهم بأي شيء من هذا القبيل. وكما حدث، كانت كورين مخطئة في تاريخ حصول تلك المقابلة، وربما كان الإمبريكان على صواب من الناحية الفنية بنفي علمهم بالمقابلة. وقاموا بعدها بتكرار نفيهم عدة مرات عندما ظهرت تقارير أخرى مكررة التاريخ الخاطئ. وحتى لحظة كتابة هذه السطور، لم يقم الأمريكيان بتصحيح الموقف، وكما أشرت أعلاه، فإن مكتب التحقيقات الفدرالي اعترف للمحققين الألمان أن توقيف جراح حدث فعلاً وأن الإماراتيين أخبروهم بذلك.

- 4- تحقيقات سينغن وردت في ملفات المخابرات الألمانية، نسخة المؤلف.
- 5- المراسلات المتضمنة في ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية، نسخة المؤلف.
- 6- لجنة الكونغرس المشتركة للتحقيق في أحداث 11 سبتمبر/ أيلول، تقرير، ص 173.
- 7- ذكر أحد أصدقاء الحازمي بأن الحازمي أخبره بتلك الواقعة؛ مقابلة غيل ريزا لحساب صحيفة لوس أنجلوس تايمز، أكتوبر/ تشرين أول 2001.
- وتشكل التقارير التي أعدتها ريزا الأساس الذي قام عليه هذا الجزء من الكتاب، وتم تأكيد معظم ما جاء في تلك التقارير أولاً على يد لجنة الكونغرس المشتركة، وبعدها على يد اللجنة الوطنية المكلفة بالنظر في الهجمات التي وقعت على الولايات المتحدة.
- 8- مقابلات ريزا، مرجع سبق ذكره، من سبتمبر/ أيلول إلى أكتوبر/ تشرين أول من عام 2001.
- 9- زار بيومي القنصلية السعودية في اليوم ذاته الذي التقى فيه الحازمي والمحضر.
- 10- لجنة الكونغرس المشتركة للتحقيق، التقرير النهائي، مرجع سبق ذكره.
- 11- المرجع السابق نفسه، الصفحات 131 - 132. وقدمت اللجنة المشتركة في تقريرها النهائي هذه المعلومات بخصوص خلفيتهما: "سافر الحازمي أولاً إلى أفغانستان عام 1993 وهو في سن المراهقة، وكانت بداية اتصاله بعملاء

القاعدة داخل السعودية عام 1994. وفي عام 1995، توجه كل من الحازمي والمحضار إلى البوسنة للقتال إلى جانب المسلمين ضد الصرب. وربما كانت بداية اتصال الحازمي بأبي زبيده أحد قادة القاعدة عندما زار هذا الأخير السعودية عام 1996 لإقناع الشبان السعوديين في الذهاب إلى معسكرات القاعدة في أفغانستان. وفي وقت ما قبل عام 1998، رجع الحازمي إلى أفغانستان وأقسم يمين الولاء والبيعة لابن لادن. وقاتل ضد التحالف الشمال، وعلى الأرجح إلى جانب أخيه سالم أحد الخاطفين التسعة عشر، ثم عاد إلى السعودية أوائل 1999.... وكانت أول للرحلة للمحضار إلى معسكرات التدريب في أفغانستان في أوائل عام 1996. وفي عام 1998، سافر المحضار إلى أفغانستان لأداء قسم الولاء والبيعة لابن لادن. وفي أبريل/ نيسان من عام 1999، حصل كل من نواف الحازمي وسالم الحازمي وخالد المحضار على تأشيرات دخول إلى الولايات المتحدة الأمريكية من القنصلية الأمريكية في جدة. ثم توجه المحضار ونواف الحازمي إلى أفغانستان - وشاركا في تدريبات خاصة.

12- كان عبدالستار شيخ في واقع الأمر، وبقدر ما تعكسه هذه الحقيقة من الغرابة، مخبراً مأجوراً لدى مكتب التحقيقات الفدرالي منذ زمن طويل، كما قام بالإدلاء بشهادته، بالرغم من عدم الكشف عن هويته، علناً أمام لجنة الكونغرس المشتركة للتحقيق. وذكر أمام اللجنة أنه لم يكن لديه أي فكرة أن الحازمي والمحضار كانا إرهابيين محتملين، وأنه لم يناقش أمرهما مع مكتب التحقيقات الفدرالي. كما أن مكتب التحقيقات الفدرالي هو الآخر لم يطلب منه مراقبة الأشخاص الذين يأخذون دروساً في الطيران.

13- مقابلات ريزا، مرجع سبق ذكره.

14- جاءت الأموال في حقيقة الأمر من واحد من شخصين يشكلان قنوات التمويل لهجمات 11 سبتمبر/ أيلول، وهذا الشخص هو علي عبدالعزيز علي؛ وهو ابن أخت خالد شيخ محمد.

15- أحد أصدقاء الحازمي، مقابل أجرتها غيل ريزا لحساب صحيفة لوس أنجلوس تايمز، ساندياغو، ديسمبر/ كانون أول 2001.

16- عبدالستار شيخ، مقابلة أجرتها غيل ريزا لحساب صحيفة لوس أنجلوس تايمز، ساندياغو، سبتمبر/ أيلول 2001.

17- المرجع السابق نفسه.

18- يطرح هذا الجانب من خطة 11 سبتمبر/ أيلول والخاص بملاصات ساندياغو كلها تساؤلات ملحة تستجدي التوضيح. ففي ضوء ارتباطات المحضار والحازمي السابقة، قبل وبعد قدومهما إلى الولايات المتحدة الأمريكية، يجعل من المستبعد تصديق أن السلطات الأمريكية لم تزد من درجة اهتمامها بهذين الرجلين بشكل أسرع ولم تتابع تلك المسألة بشكل أدق. فحقيقة أنهما كانا معروفين بانتمائهما إلى القاعدة، وقيام شخص يعرف على الأقل بأنه يعمل لدى الحكومة السعودية ولو بشكل غير رسمي، بمساعدتهما في الاستقرار في ساندياغو، وحدث أنهما كانا يسكنان في منزل يملكه ويسكن فيه مخبر لمكتب التحقيقات الفدرالي، هذه الحقائق مجتمعة تجعل من المرء يتساءل كيف لم يتم القبض عليهما.

إضافة إلى الحقائق المذكورة أعلاه، قام الحازمي بالاتصال من هاتف نقال مسجل باسمه في ساندياغو برقم يماني كان يخضع للمراقبة من قبل وكالات الاستخبارات الأمريكية. وكان رقم الهاتف الذي اتصل به هو الرقم ذاته التابع لقبيلة الحدا، الذي كان بدوره مصدر المعلومات التي تم اعتراضها والتعرف من خلالها على هوية المحضار والحازمي قبل توجههما إلى اجتماع كوالالمبور. وهذا الأمر لم يصرح به الأمريكان، إلا أنه يفترض استمرار مراقبة ذلك الهاتف اليمني، وأن الولايات المتحدة اعترضت المكالمات التي قام بها الحازمي. وهذا يدفع المرء إلى الاعتقاد بأن من شأن ذلك أن يدق ناقوس الخطر في أجهزة الاستخبارات، إلا أن من الواضح أن ذلك لم يحدث. ويظهر تتابع سلسلة الفرص الفائتة أنها لم تكن إخفاقات معزولة بل دليلاً على القصور المنظم في قدرة أجهزة الاستخبارات على جمع المعلومات وتحليلها.

19- ملفات المخابرات الألمانية، نسخة المؤلف، يوليو/ تموز 2002.

20- أخذت هذه الرسالة الإليكترونية من ملفات المخابرات الألمانية.

21- المرجع السابق نفسه. جاء في رد الرسالة التي بعثها الصديق: "من المفروض أن أكون أنا الغاضب، ولكنني لا أقدر. لأنني لا أجرؤ على ذلك. ولكنني كنت فعلاً

قلناً عليك. اتصلت بك في مصر ولكنهم لم يعرفوا رقمك، واتصلت بك في ألمانيا ولم يعرفوا رقمك. أين أنت يا رجل".

بخصوص متطلبات تأشيرة الدخول: سواء علم محمد الأمير بمتطلبات الحصول على التأشيرة أو لم يعلم فإنه لم يتبعها. وقد كان محقاً في تساؤله حول ما إذا كان يجب عليه الحصول على تأشيرة دخول بهدف الدراسة قبل دخوله البلاد للدراسة. وهو ما يتطلبه القانون فعلاً. وبدلاً من ذلك، سافر هو والشحي إلى الولايات المتحدة عن طريق تأشيرات دخول للزيارة، ولم يقوما بالتقدم بطلب الحصول على تأشيرات الدراسة إلا بعد التحاقهما بمعاهد الطيران، هو إجراء غير قانوني من الناحية الفنية.

22- اللجنة الوطنية، تعليق طاقم خبراء اللجنة بند 1، 26 يناير/ كانون ثاني، 2004، ص 5.

23- ملفات المخابرات الألمانية. في ألمانيا، لم يكن هذا الإجراء حادثة عادية. فلكي يدرج أي شخص في تلك القائمة يتوجب على أجهزة الاستخبارات أن توضح بشكل مفصل ودقيق للبرلمان الألماني أن الشخص المعني يشكل خطراً محتملاً على البلاد. ويستنتج من وضع المتصدق في تلك القائمة أنه خضع للمراقبة والتحقيق لفترة من الزمن. وهذا يستدعي أيضاً أنه كان يشكل عنصراً مهماً في المجموعة التي تضم محمد الأمير وعمر والشحي،، ويستنتج من هذا على الأقل أن هؤلاء الأشخاص كانوا أيضاً خاضعين للمراقبة.

24- المتصدق، في الشهادة التي أدلى بها في محاكمته الأولى، مرجع سبق ذكره.

25- أفصح عن هذه الأحداث في محاكمة المتصدق وهي موضحة بشكل واف في ملفات الادعاء العام، نسخة المؤلف.

26- رمزي بن الشيبه، مقابلة مع يسري فودة في قناة الجزيرة، كراتشي، أبريل/ نيسان 2002؛ ترجمة نوار بيود، نسخة المؤلف. شاعت قصة تقول بأن محمد عطا سافر مرتين إلى مدينة براغ قبل قدومه إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ويظهر أن مصدر هذه المعلومات هو خلط وقع فيه موظفو مصلحة الجوازات في الجمهورية التشيكية. والذي حدث هو أن رجلاً آخر يحمل اسماً مطابقاً

لاسم محمد عطا سافر في اليوم نفسه قادماً من السعودية ولكنه رفض السماح له بدخول البلاد لأنه لم يكن يحمل التأشيرة المطلوبة. وتوجه الرجل إلى ألمانيا، حيث حصل من هناك على التأشيرة. أما الأمير فقد قام بعبور بسيط خال من أي حدث عبر الأراضي التشيكية.

27- هذا الخلط في الاسم أعطى الانطباع بأن عطا كان يستخدم أسماءً مختلفة في ألمانيا أو في الولايات المتحدة. ولا يبدو ذلك صحيحاً. فاسمه الكامل هو محمد محمد الأمير عواد السيد عطا. وكان يشار إليه في عقود الإيجار التي أبرمها وبطاقات الائتمان وتأشيرات الدخول، وغيرها باسم عطا، والأمير، وأحياناً السيد. وعلى نحو مشابه، ظهر اسم القراب تحت بند الاسم الأخير في جواز سفر الشحي الإماراتي، وهو اسم لم يسبق له أن استخدمه. وكانت الإمارات العربية المتحدة قامت بتغيير أسس توثيق الأسماء في وثائقها الرسمية وأخر التسعينيات، اتبعت التعليمات الجديدة في كل الوثائق التي صدرت بعد ذلك التاريخ. وهذا يعني فيما يتعلق بالشحي أن اسم القراب أسقط وأبقي على اسم العائلة بدلاً من ذلك في الوثائق الرسمية فيما بعد.

28- ملفات تحقيق مكتب التحقيقات الفدرالي، نسخة المؤلف.

29- كان معهد إيرمان للطيران المعهد المفضل لدى متدربي القاعدة منذ سنين، وهذه حقيقة معروفة جيداً لدى أجهزة الأمن الأمريكية التي كانت تفترض أن الهدف من تدريب هؤلاء الطيارين هو لقيادة الطائرة الخاصة بابن لادن وطائرات النقل التابعة للقاعدة.

30- سجلات الحسابات المصرفية الشخصية لعطا والشحي، نسخة المؤلف.

31- كارول جي ويليامز وجون - ثور داهلبيرغ وغيل ريزا، "بالدرجة الأولى، جلسوا ينتظرون"، لوس أنجيلوس تايمز، 27 سبتمبر/ أيلول، 2001.

32- اللجنة الوطنية، التقرير النهائي، 22 يوليو/ تموز، 2004، ص 214.

33- سجلات تحقيقات مكتب التحقيقات الفدرالي، نسخة المؤلف وكدليل إضافي على قوة الروابط الأسرية، كانت أخت علي واسمها لطيفة، متزوجة من العقل المدبر للتفجير الأول لمركز التجارة العالمي رمزي يوسف.

- 34- سجلات الحسابات المصرفية الشخصية لعطا والشحي، مرجع سبق ذكره.
- 35- وعلى الرغم من نجاح الاثتين، كان أداء عطا أفضل في تلك الامتحانات. واعتبر الاثنان على درجة من المهارة في الطيران دفعت مالك المعهد إلى تقديمه عرضاً لهما للعمل كطيارين في شركة طيران كان ينوي تأسيسها.
- 36- ملفات مكتب التحقيقات الفدرالي. نسخة المؤلف.
- 37- ملفات المخابرات الألمانية، مرجع سبق ذكره.
- 38- المرجع السابق نفسه.
- 39- سينغن، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.
- 40- هذه الرسالة المذكورة في ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية، نسخة المؤلف.
- 41- سجلات معهد هوفمان للطيران، نسخة المؤلف.
- 42- عثر على هذا الشريط في وقت لاحق في كابل في منزل محمد عاطف قائد العمليات العسكرية في القاعدة، والذي توفي بفعل القصف الأمريكي للعاصمة الأفغانية أواخر عام 2001.
- 43- استقي هذا السرد من ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية مع تلك المرأة.
- 44- سجلات مكتب التحقيقات الفدرالي، مرجع سبق ذكره.
- 45- المرجع السابق.
- 46- سجل التحقيقات الخاصة بالمتصدق، ملفات المخابرات الألمانية، مرجع سبق ذكره.
- 47- قرار توجيه التهمة في قضية الولايات المتحدة الأمريكية ضد زكريا موسوي، محكمة المقاطعة الشرقية في ولاية فيرجينيا يوليو/ تموز 2002.
- 48- مارك فاينمان، "A Case of Where, Not What: Prosecutors Say Zacarias Moussaoui's Travels-from an Afghan Terrorist Training Camp to an Oklahoma Flight School-Are Key to His Indictment in the September 11 Attacks", صحيفة لوس أنجيلوس تايمز، 30 مارس/ آذار، 2002.
- 49- هذا الشخص في العادة هو أبو زبيدة (والمعروف أيضاً باسم محمد حسين زين العابدين)، وهو شخص فلسطيني كان يتولى الإشراف على معسكرات المنظمة، ويقوم باختيار أفضل المرشحين لتلقي تدريبات إضافية.

- 50- سوزان شمדת وإيلين ناكاشينا، "موسوي ينفى تورطه في خطة هجمات 11 سبتمبر/ أيلول"، واشنطن بوست، 28 مارس/ آذار، 2003.
- 51- المرجع السابق.
- 52- ملفات المخابرات الألمانية، مرجع سبق ذكره.
- 53- شميدت وناكاشيما، "موسوي..." مرجع سبق ذكره.
- 54- اللجنة الوطنية، تعليقات طاقم الخبراء بند 16، 16 يونيو/ حزيران، 2004.
- 55- سوزان خليل، مقابلة هاتفية أجراها باتريك ماكدونيل لحساب صحيفة لوس أنجيلوس تايمز، يونيو/ حزيران 2002.
- 56- ويليامز، داهلبورغ، ريزا، "جلسوا ينتظرون.." مرجع سبق ذكره..
- 57- ريتش كونيل Rich Connel، "Response to Terror Tricky Pursuit"، صحيفة لوس أنجيلوس تايمز، 21 أكتوبر/ تشرين أول، 2001.
- 58- تشارلز سينوت، "لماذا اعتمدت خطة ابن لادن على خاطفين سعوديين"، بوسطن غلوب، 3 أكتوبر/ تشرين أول، 2002.
- 59- عبدالستار شيخ، مقابلة أجرتها غيل ريزا لحساب صحيفة لوس أنجيلوس تايمز، أكتوبر/ تشرين أول 2-1.
- 60- مجند باكستاني، مقابلة أجراها المؤلف، أبو ظبي، يوليو/ تموز 2003. وذكر المجند أن محمد عرف نفسه بخالد شيخ. وقدم هذا المجند وصفاً مفصلاً لخالد شيخ محمد واستطاع تمييزه من بين عدة صور.
- 61- تسيطر جماعة تطلق على نفسها جماعة التبليغ على أحد مساجد المتطرفين في هامبورغ؛ وتقوم هذه الجماعة بتمويل رحلات سفر لعدة أشخاص إلى معسكرات التدريب في أفغانستان. إضافة إلى ذلك، فإنه يعتقد أن الطيارين من هامبورغ تم تجنيدهم على يد شخص من جماعة التبليغ.
- 62- مجند باكستاني، مقابلة أجراها المؤلف، مرجع سبق ذكره.
- 63- ضابط استخبارات رفيع المستوى من الخليج. مقابلة أجراها المؤلف، أغسطس/ آب 2003، الإمارات العربية المتحدة.
- 64- شادي عبدالله، شهادة، مرجع سبق ذكره، 27 نوفمبر/ تشرين ثاني، 2002.

- 65- محقق إيطالي رفيع المستوى، مقابلة هاتفية أجرتها سباستيان روتيليا لحساب صحيفة لوس أنجلوس تايمز، يوليو/ تموز
- 66- ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية، مرجع سبق ذكره.
- 67- اللجنة الوطنية، التقرير النهائي، 22 يوليو/ تموز، 2004، ص 191 .
- 68- قضية الولايات المتحدة الأمريكية ضد آغوس بوديمان، 16 نوفمبر/ تشرين ثاني، 2001 .

■ الفصل الثالث: السنة الأخيرة ■

1- أوشك كل من عطا والشحي أن يمنعا من العودة إلى الولايات المتحدة. فقد قدم كلاهما بموجب تأشيرة زيارة مدتها ستة أشهر، انتهت مدة صلاحيتها في الوقت الذي دخلا فيه البلاد للمرة الثانية. وكان الاثنان قد تقدما بطلبات للحصول على تأشيرات إقامة دراسية، ولما يحصل عليهما بعد. ومن الناحية الفنية، لم يكن ينبغي السماح لأي منهما دخول البلاد، وقد أوقف الاثنان للاستجواب من قبل موظفي الهجرة الأمريكيين الذين لاحظوا انتهاء فعالية التأشيرات. الموجودة على جوازات سفرهما. وتم إرسالهما عقب ذلك إلى مكتب الهجرة في المطار لإجراء مزيد من التحقيق. وأخبر كلاهما موظفي الهجرة أنهما يدرسان في معهد للطيران وينتظران صدور تأشيرات دراسية جديدة بدلاً من تأشيرات الزيارة. وعلى إثر ذلك، سمح لهما بالدخول ومنحا تأشيرات زيارة جديدة. منح الشحي إقامة لمدة ستة شهور، أما عطا وعلى نحو لا يمكن تفسيره، فقد أعطي إقامة لمدة ثمانية شهور تنتهي مدتها في 8 سبتمبر/ أيلول. لم تؤثر هذه الأخطاء على الرجلين. وفي الحقيقة، وبالنسبة لمحمد عطا، فإنها ساعدته في المكوث لمدة أطول في الولايات المتحدة. (تم تقليص مدة الثمانية شهور فيما بعد إلى المدة الطبيعية وهي ستة شهور عندما اصطحب عطا شخصاً آخر إلى مكتب دائرة الهجرة والجنسية محاولاً تأمينه بإقامة لمدة ثمانية شهور كالإقامة التي أعطيت له. إلا أن الموظف الذي نظر في هذا الطلب رفض تمديد إقامة ذلك الشخص لشهرين إضافيين وقام بتصحيح المدة على في إقامة محمد عطا. وبذلك طبق النظام بطريقة غير مباشرة).

إلا أن ما يجدر ملاحظته في موضوع تأشيرات الدخول وأذونات الإقامة ليس الخطأ الذي ارتكبه الحكومة، وهو ما حدث فعلاً كما هو باد للعيان، بل عدم مبالاة المتأمرين. الأمر الذي يبين مرة أخرى أن القاعدة ليست تلك المنظمة الزبئية المحترفة التي لا يمكن الإمساك بها لأنها لا ترتكب الأخطاء. لقد كانت ترتكب الأخطاء في كل الأوقات. لقد أفلتت القاعدة من الإمساك بها؛ لأن

الحكومات التي كانت تتعامل معها كانت ترتكب أخطاء أكثر من الأخطاء التي ارتكبتها القاعدة.

2- سجل بطاقات الائتمان المحفوظة في ملفات مكتب التحقيقات الفدرالي، نسخة المؤلف.

3- عاد الاثنان إلى شواطئ فيرجينيا بعد شهرين، أوائل إبريل/ نيسان . وفي هذه المرة قاما بسحب مبالغ نقدية بقيمة 8 آلاف دولار - وقاما بغلق حساب صندوق البريد . ولا توجد دلائل مهمة تشير إلى الغاية من ذلك، إلا أن الحازمي والحنجور كانا على وشك وصول ولاية فيرجينيا في ذلك الوقت. وربما كانت المبالغ المسحوبة لهما، وبخاصة إذا ما أخذنا بالاعتبار أنه لم يكن لهما أي مصدر للدخل. وربما كانت الرحلة الأولى بهدف التأكد من قدرتهما في الوصول إلى تلك الحسابات وإيداع مبالغ كبيرة بعيداً عن قاعدتهما في فلوريدا .

4- سجلات تحقيق مكتب التحقيقات الفدرالي، نسخة المؤلف.

5- اللجنة الوطنية، تعليقات طاقم الخبراء بند 16، 16 يونيو/ حزيران، 2004.

6- سينغن، تحقيقات، مرجع سبق ذكره.

7- ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية.

8- ورد ذكره في ملفات التحقيقات الألمانية، المرجع السابق.

9- مسؤول أمني، الإمارات العربية المتحدة، مقابلة أجراها المؤلف، أبو ظبي، يوليو/ تموز 2003.

10- المتصدق، من شهادته التي أدلى بها في محاكمته، هامبورغ، أكتوبر/ تشرين أول 2002.

11- استمات مسؤولو السلطات الأمريكية في معرفة ما الذي فعلوه ومن هم الأشخاص الذين كانوا معهم لدرجة أنهم احتجزوا النادل الذي قام بخدمتهم ذات مرة في أحد هذه المطاعم. وكتب دان كريستنسن بشكل مكثف حول هذا الحدث في صحيفة ميامي ديلي بيزنس ريفيو، انظر مثلاً في مقالة عنوانها "؟" (عبء إثبات متدن. المصادفة، تقارير غير موثقة تكفي لاعتقال نادل عربي في مدينة ديلري بيش لمدة خمسة أشهر) 14 مارس/ آذار، 2003.

- 12- مقابلة أجراها جون ثور - داهلبورغ لصحيفة لوس أنجيلوس تايمز، ديلري بيتش، فلوريدا، سبتمبر/ أيلول 2001.
- 13- اللجنة الوطنية، التقرير النهائي، 22 يوليو/ تموز، 2004، ص 252.
- 14- لا يعرف على نحو مؤكد سبب قيامه بالاجتماع بوالد محمد عطا. أخبر والد محمد أن الشحي جاء لياخذ رخصة قيادة مركبات دولية تعود لمحمد، إلا أن التحقيقات كشفت فيما بعد أن تلك الرخصة كانت موجودة بحوزة محمد.
- 15- قضية الولايات المتحدة الأمريكية ضد زكريا موسوي، محكمة مقاطعة شرق فيرجينيا، يوليو/ تموز 2002.
- 16- قدم خالد شيخ محمد ورمزي بن الشيبة إفادات متناقضة حول ما إذا كان هناك نية جادة في استخدام موسوي كطيار في عملية 11 سبتمبر. يقول الشيبة بأنه كان، بينما يقول خالد شيخ محمد بأنه لم يكن هناك نية في استخدامه في 11 سبتمبر/ أيلول وأنه كان يفترض أن يقوم بموجة ثانية من الهجمات التي لم تتفد. انظر اللجنة الوطنية للنظر في الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة، تعليق طاقم الخبراء بند 16، 16 يوليو/ تموز، 2004.
- 17- المرجع السابق.
- 18- المرجع السابق.
- 19- وحيد حمزة هاشم، مقابلة أجراها المؤلف، جدة، أغسطس/ آب 2003.
- 20- يسري فوده، "سري للغاية: الطريق إلى 11 سبتمبر/ أيلول"، قناة الجزيرة، 11 سبتمبر/ أيلول، 2002.
- 21- جون سولومون، "هجمات 11 سبتمبر/ أيلول كان من المفروض أن تستخدم 10 طائرات"، الأسوشيتد برس، 22 سبتمبر/ أيلول، 2003. يشير غياب المحضار من الولايات المتحدة طيلة هذه المدة التي تم فيها تجنيد هؤلاء الأشخاص في عملية 11 سبتمبر/ أيلول إلى احتمال أنه كان له دور في المساعدة في تجنيدهم. وكان خالد شيخ محمد، وبحسب ما جاء في تعليق طاقم الخبراء في اللجنة الوطنية، يرغب بعزل المحضار من الخطة بالكامل لأنه غادر كاليفورنيا صيف عام 2000 دون إذن. وذكر المحضار لأصدقائه وقتها في ساندياغو أنه

عائد لأسباب عائلية. وقام ابن لادن فيما بعد بالتدخل نيابة عن المحضار وأصر على إعادته إلى الفريق المكلف بالقيام بهجمات 11 سبتمبر/ أيلول. إلا أنه لا يوجد دليل يدعم الفكرة القائلة بأنه تم تكليفه بأدوار إضافية في الخطة. وتفيد محاضر التحقيقات التي أجريت مع بعض عناصر القاعدة الذين ألقى القبض عليهم فيما بعد، أن المحضار شوهد في معسكرات التدريب قرب قندهار ومعه ثلاثة من المجندين الجدد في مارس/ آذار من عام 2000. ثم عاد المحضار إلى الولايات المتحدة بعد أن غاب عنها مدة سنة وبعد خمسة أيام من وصول آخر الرجال المشاركين في الخطة.

22- ثارت تكهنات كثيرة حول قرار ابن لادن استخدام أكبر عدد ممكن من السعوديين في الهجمات. واستنتج غالبية المحللين بمن فيهم المحللين البارزين في الحكومة السعودية، أن تلك الخطوة كانت وسيلة ابن لادن في توجيه ضربة للأسرة السعودية الحاكمة لإحراجها ومن ثم إضعافها.

23- اللجنة الوطنية، تعليق طاقم الخبراء بند 1، يناير/ كانون ثاني 2004. ولمزيد من المعلومات حول المعايينة الأولية لعملية منح التأشيرات، انظر جويل موبري "5" ناشونال ريفيو، 28 أكتوبر/ تشرين أول، 2002.

24- قناة الجزيرة، 9 سبتمبر/ أيلول، 2002.

25- فودة "سري للغاية" مرجع سبق ذكره.

26- قدم خالد شيخ محمد هذه الأموال لابن أخته، علي عبدالعزيز علي، على دفعات كل واحدة منها بقيمة 10 آلاف دولار. ولا يعرف حتى الآن مصدر هذه الأموال. وعلى الرغم من أن المصارف في دبي غير خاضعة للرقابة الحكومية نوعاً ما في نشاطها المصرفي الأمر الذي يجعل من تعقب حركة الأموال أمراً مستعصياً، إلا أن علي كان يحتفظ بتلك النقود في كيس لغسيل الملابس داخل شقته في دبي، بحسب ما جاء في تقرير اللجنة الوطنية نقلاً عن مصادر استخباراتية بعد 11 سبتمبر/ أيلول. وكان علي يعمل في النهار في متجر لبيع الحواسيب بالجملة، وكان يشكو إلى خالد من عدم توفر الوقت الكافي لديه للقيام بكلتا الوظيفتين إضافة إلى عمل الجهاد. فقام خالد بإرسال عضو في اللجنة الإعلامية للقاعدة إلى دبي لمساعدته.

- 27- ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية، مرجع سبق ذكره.
- 28- تقول سينغن بأن زياد جراح كان لديه اهتمام قديم بفنون القتال اليدوي وأنه تلقى دروساً في الكراتيه أيام صباه في بيروت.
- 29- بلفاس، مذكور في ملفات تحقيقات المخابرات الألمانية.
- 30- تركز التقارير التي تحدثت عن اجتماع براغ على إفادة جاءت بعد أحداث 11 سبتمبر/ أيلول من مخبر تشيكي كان مكلفاً بتتبع رجل يقال بأن محمد عطا اجتمع به في 9 أبريل/ نيسان في مدينة براغ. ولا يوجد شيء آخر يدعم إثبات وقوع مثل هذا الاجتماع. وتقول أجهزة الأمن الأمريكية بأنها أنفقت آلاف الساعات في التحقيق في هذه المسألة. والشيء المعروف هو أن محمد عطا كان موجوداً في ولاية فيرجينيا في 4 أبريل/ نيسان، وفي فلوريدا في 11 أبريل/ نيسان. وبين هذين التاريخين، استُخدم هاتفه الخليوي في فلوريدا في 6 و9 و10 و11 من أبريل/ نيسان، بحسب سجلات مكتب التحقيقات الفدرالي المذكورة في تقرير اللجنة الوطنية المكلفة بالنظر في الهجمات الإرهابية التي وقعت على الولايات المتحدة. إضافة إلى ذلك، فإن الرجل الذي يقال بأن محمد عطا اجتمع به قد وقع في قبضة الولايات المتحدة خلال الحرب العراقية وأنكر وقوع مثل هذا الاجتماع. وتبين أيضاً أن الرجل لم يكن في براغ في التاريخ الذي قيل بأن الاجتماع وقع فيه. وقد شكل هذا الاجتماع المزعوم نقطة ارتكاز إيديولوجي في النقاش الذي دار حول صلة القاعدة بالعراق. ورفض الذين يبحثون عن أدلة لتدعيم وجود هذه الصلة، ومن أبرزهم نائب الرئيس دك تيشيني، التخلي عن الاستدلال بهذا الاجتماع برغم انعدام الدليل على وقوعه. وكما يحب وزير الدفاع أن يقول دائماً حول عمليات البحث عن الأدلة، إن عدم وجود الدليل ليس بالضرورة دليلاً على العدم. وعلى الأقل أنه من الممكن حدوث مثل هذا الاجتماع. ولكن على المرء أن يتساءل ما الذي يدفع القاعدة لأن تخاطر بمثل هذه المغامرة. وما هو الهدف المرتجى من الزج بشخص صبروا على تدريبه أكثر من عام، في مهمة سرية كالعاصفة الهوجاء المحفوفة بالمخاطر من أجل الاجتماع بجاسوس معروف. فلو كانوا يرغبون بالاجتماع بالعراقيين، ألا يكون

من الأسهل عقد مثل هذا الاجتماع في مكان آمن، أفغانستان، باكستان، بل وحتى العراق؟ ثم، ما الذي يمكن أن يقدمه العراق لخطة 11 سبتمبر/ أيلول؟ المال؟ كان لديهم الكثير منه لتحقيق ما يسعون إليه. وإذا كانت هجمات 11 سبتمبر/ أيلول تشكل الرصاصة الأولى للإيدان ببدء الحرب، فإنها كانت أقل المعارك تكلفة. الخبرة؟ لقد كان محمد عطا وليس الجاسوس هو الطيار المدرب. لقد سبق للقاعدة أن ارتكبت كل أشكال الأخطاء واتخذت الكثير من القرارات السخيفة؛ ومن المستبعد جداً أن يكون هذا القرار واحداً من بينها.

31- سجلات المكالمات الهاتفية المحفوظة في ملفات مكتب التحقيقات الفدرالي، نسخة المؤلف. كان من المقرر أن يعقد هذا الاجتماع في ماليزيا، وتوجه عمر إلى هناك مستخدماً جواز سفر سعودي مزور. إلا أن عطا، ولأسباب غير معروفة، لم يستطع الذهاب إلى هناك، فتم تغيير المكان إلى إسبانيا التي كان الوصول إليها أقرب وأسهل من شرقي الولايات المتحدة، بحسب ما جاء في تقرير اللجنة الوطنية حول الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة، 11 سبتمبر/ أيلول وأسفار الإرهابيين، 20 أغسطس/ آب، 2004، ص 5.

32- سباستيان روتيل "التحقيق مع خلية مدريد يكشف عن المدى البعيد للقاعدة" صحيفة لوس أنجلوس تايمز، 1 سبتمبر/ أيلول، 2002. تشكل التقارير التي أعدها روتيل عملاً غير مسبوق، وتشكل الأساس الذي بني عليه هذا القسم من الكتاب.

33- بعض الجيران، مقابلة أجراها المؤلف، مدريد، مايو/ أيار 2002.

34- روتيل، مرجع سبق ذكره.

35- ريان تتاري بخري، مقابلة أجراها المؤلف، مدريد، مايو/ أيار 2002.

36- سباستيان روتيل. "الأدلة تكشف عن وجود شبكة دعم في إسبانيا وألمانيا لخطة 11 سبتمبر/ أيلول، وأبرز المتهمين زمرة من المهاجرين السوريين". لوس أنجلوس تايمز، 14 يناير/ كانون ثاني، 2003.

37- خوزيه ماريًا إروجو، "المرحلة النهائية من خطة 11 سبتمبر/ أيلول تنجز في إسبانيا"، إلباسو، 2 مارس/ آذار، 2004.

38- اللجنة الوطنية، تعليقات طاقم الخبراء، بند 16، 16 يونيو/ حزيران، 2004.

- 39- المرجع السابق نفسه.
- 40- المرجع السابق.
- 41- المرجع السابق.
- 42- ملفات المخابرات الألمانية.
- 43- مارك فاينمان، A Case of Where, Not What.
- 44- موسوي، نقلاً عما ورد في ملفات مكتب التحقيقات الفدرالي، أكتوبر/ تشرين أول، 2001، نسخة المؤلف.
- 45- فيما يلي، على سبيل المثال، عناوين سلسلة من التقارير التي صدرت عن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA ووزعت على باقي الأجهزة الحكومية في تلك الفترة:
- "تنامي خطر الإرهاب السنّي" 6 فبراير/ شباط، 2001.
- "ابن لادن يخطط لشن عدة عمليات" 20 إبريل/ نيسان، 2001.
- "نشاطات ابن لادن العلنية تنذر بعزمه على شن هجوم" 3 مايو/ أيار، 2001
- "الجماعات الإرهابية تعلن عن تعاونها بشأن خطة رهائن في الولايات المتحدة الأمريكية" 23 مايو/ أيار، 2001.
- "تقدم خطط شبكة ابن لادن"، 6 مايو/ أيار، 2001.
- "هجمات ابن لادن قد تكون على وشك الوقوع" 23 يونيو/ حزيران، 2001.
- "ابن لادن وحلفاؤه يصدرون تهديدات قصيرة المدى" 25 يونيو/ حزيران، 2001.
- "ابن لادن يخطط لهجوم كبير" 30 يونيو/ حزيران، 2001
- "تهديدات ابن لادن حقيقية" 30 يونيو/ حزيران، 2001.
- "استمرار العمل في خطط هجوم ابن لادن برغم التأخير" 2 يوليو/ تموز، 2001.
- "تأخير موعد هجمات ابن لادن، ولكنها لم تلغ" 13 يوليو/ تموز، 2001.
- "تأجيل تنفيذ إحدى خطط ابن لادن، والاستمرار في خطط أخرى" 25 يوليو/ تموز، 2001.
- 46- على سبيل المثال: تضطلع وكالة الأمن القومي (National Security Agency) بمهمة جمع المعلومات الاستخباراتية حول العالم (ELINT or electronic intelligence)

أو ما يعرف بالاستخبارات الإليكترونية، بالإشارات الاستخبارية (SIGNINT or signals intelligence) أي المحادثات الهاتفية. وجمع هذه المعلومات مهمة جسيمة. وبحسب تقدير الوكالة فقد بلغ مجموع المكالمات الهاتفية الدولية عام 2003 180 بليون دقيقة. وهذا نشاط واحد من بين النشاطات التي تختص بها. وتقوم الوكالة بجمع كم هائل من المعلومات في الأيام العادية. والسياسة المتبعة في الوكالة هي عدم فرز هذه المعلومات إلا إذا طلب منها ذلك. وترى الوكالة أن مهمتها هي أن تقدم لوكالات الاستخبارات الأخرى ما تطلبه من معلومات؛ فإذا لم يأت أحد لطلب المعلومات، فإنهم لا يكلفون أنفسهم عناء إرسالها إليهم.

47- لجنة الكونغرس المشتركة، تقرير، ص 171، ويوجد لدى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA على الأقل مخبر واحد في معسكرات القاعدة.

48- توماس يكار، نائب مدير مكتب التحقيقات الفدرالي، شهادة أدلى بها أمام اللجنة الوطنية، 13 إبريل/ نيسان، 2004.

49- المرجع السابق نفسه.

50- في النهاية، تسبب القبض على موسوي بإحداث مزيد من الانتكاسات في الدوائر الأمنية الأمريكية بدلاً من اتخاذ إجراءات. ثم إخبار المسؤولين بالواقعة، ولكن لم يفعل أحد شيئاً. وربما كان لهذا الاعتقال أثر أقوى على فريق الخاطفين. فقد كان عمر على اتصال دائم مع عطا وجراح والشحي. وكان يتحدث إليهم كل يومين أو ثلاثة أو أربعة أيام. ومن المفترض أيضاً أنه كان يفعل الشيء نفسه مع موسوي. ولا شك أن انقطاع الاتصال بموسوي من نقطة زمنية محددة من شأنه أن يرسل صفارات الخطر عبر القنوات العليا والدنيا في شبكة القاعدة. وإذا كان هناك أي تفكير في تأخير تنفيذ الهجوم في ذلك الوقت، فإن اختفاء موسوي كان يشكل حجة قوية ضد أي تأخير.

51- تم التفتيش بطريقة متساهلة، بحسب وصف طاقم الخبراء في اللجنة الوطنية في البند 15. إذ أحيلت المهمة إلى موظف جديد في مكتب التحقيقات الفدرالي في أول مهمة له في مكافحة الإرهاب. وبحسب أمر التكليف، أعطي الموظف

مدة 30 يوماً لفتح ملف قضية وبذل الجهد لتحديد مكان المحضار. وبدأ الموظف عمله في القضية بعد أسبوع. وقام بفحص سجلات الجرائم في مدينة نيويورك، والمعلومات الخاصة برخص السوق كما بحث في الفندق المدرج في تأشيرة دخول المحضار إلى البلاد. وفي 11 سبتمبر/ أيلول أرسل الموظف الملف وما توصل إليه من معلومات إلى شعبة المكتب في لوس أنجلوس من أن المحضار وصل أولاً إلى لوس أنجلوس في يناير/ كانون ثاني من عام 2000.

وقد نقلت عدة وكالات للأخبار أن من بين الطرق التي كان من الممكن الوصول من خلالها إلى نتائج أسرع حول مكان المحضار والحازمي هو بالنظر في أدلة الهاتف. فقد كان الحازمي مدرجاً في دليل هاتف ساندياغو لمدة سنتين. كما كان بإمكان المكتب أن يسألوا المخبرين العاملين لديهم، وبخاصة الموجودين في كاليفورنيا وهي الولاية التي وصل إليها أولاً. مع العلم أن الحازمي والمحضار استأجرا غرفة في منزل يسكن فيه أفضل مخبر يعمل لدى المكتب في مكافحة الإرهاب في مدينة ساندياغو. ويتساءل المرء، مع هذا كله، ما الذي يعنيه أن يكون الشخص من ضمن أفضل عملاء المكتب إذا تجاهل أن يخبر أي أحد عن السعوديين اللذين يسكنان معه في غرفة النوم المجاورة لغرفة نومه.

52- اللجنة الوطنية، تعليق طاقم الخبراء بند 1.16 يناير/ كانون ثاني، 2004، ص 5.

53- المرجع السابق نفسه.

54- شهادة خوزيه ميلنديز - بيريز، موظف دائرة الهجرة والجنسية، أمام اللجنة الوطنية في جلسة استماع علنية، 26 يناير/ كانون ثاني، 2004. وقال ميلنديز - بيريز في تلك الشهادة أنه في العادة يعامل حملة الجنسية السعودية معاملة خاصة وتفضيلية. إلا أن سلوك ذلك الرجل كان على درجة من السوء تجعل التساهل معه أمراً غير وارد. ومع ذلك قام أحد زملاء ميلنديز بلفت نظره إلى أنه قد يضع نفسه في المشاكل بسبب مضايقته لهذا السعودي. كانت مدينة ديزني وورلد بما فيها من وسائل الترفيه، محطة معتادة لأفواج السياح السعوديين، وكان موظفو الهجرة يدركون أنهم إذا تعرضوا للسعوديين بالمضايقة فسوف تصل الأخبار إلى المسؤولين وقد يتعرضون للتوبيخ بسببها. وتشكل هذه

الحادثة إضافة إلى المعلومات التي توضح أن الاعتبارات الاقتصادية تتقدم دائماً على الاعتبارات الأمنية. وبرغم ذلك، أوصى ميلنديز - بيريز بعدم السماح للرجل بدخول البلاد وأن يتم إعادته إلى البلد الذي قدم منه على أول طائرة متوجهة إلى هناك. أما المعلومة حول وجود محمد عطا في مبنى المطار فمأخوذة من سجلات الهاتف الموجودة لدى مكتب التحقيقات الفدرالي، كما جاء في تعليق طاقم الخبراء التابع للجنة الوطنية.

55- اللجنة الوطنية، تعليقات طاقم الخبراء بند 16، 16 يونيو/ حزيران، 2004.

56- يسري فودة ونك فيلدنغ، سادة الرعب، ص 215.

57- رمزي ابن الشيبة، مقابلة مع يسري فودة، مرجع سبق ذكره، أخذ التاريخ من النص المطبوع لتلك المقابلة. أما بخصوص قيام عمر بإرسال الصبار فمأخوذ من تقرير اللجنة الوطنية، تعليق طاقم الخبراء بند 16، 16 يونيو/ حزيران، 2004.

58- محضر التحقيقات التي أجريت مع محمد جبارة، وهو كندي من أصل كويتي، انضم إلى القاعدة عام 2000، وتلقى التدريب في أفغانستان، ووقع الاختيار عليه بسبب مهارته باللغة الإنجليزية وجواز سفره الكندي. وكُلف بتنسيق عمل خلية في جنوب شرق آسيا كانت تعتمد القيام بحملة لتفجير عدد من الأهداف الغربية في المنطقة. وتدلل هذه الخطة على أن إصرار وعزيمة خالد شيخ محمد تجاوزت 11 سبتمبر/ أيلول إلى موجة ثانية من الهجمات. أمضى خالد شيخ محمد وحنبلي عدة أسابيع قبل 11 سبتمبر/ أيلول في تدريب جبارة على بروتوكولات الاتصالات. وكان البريد الإلكتروني إحدى وسائل الاتصال المستخدمة. وذكر خالد شيخ لجبارة أن عناوين بريده الإلكتروني هي:

Silver_crack@yahoo.com

Gold_crack@yahoo.com

أحبطت السلطات السنغافورية الخطة التي نسقها جبارة، ولكنها لم تستطع وبعد ذلك تطورت تلك الخطة إلى تفجيرات بالي الفظيعة، وقد تم شراء المواد المتفجرة التي استخدمت فيها بالأموال التي كان من المفروض أن يستخدمها موسوي في تدريباته على الطيران في ماليزيا.

59- رب العمل، مقابلة أجراها المؤلف، هامبورغ، مايو/ أيار 2002.

60- آرينز، مقابلة، مرجع سبق ذكره.

61- ملفات تحقيقات المخبرات الألمانية.

62- كانت التكهات الأولية، التي ربما تكون صحيحة، أن عطا أراد أن يخفض عدد الخاطفين الذين سيدخلون من بوابات الأمن والتفتيش الموجودة في مطار لوغان في بوسطن، وهو المطار الذي انطلقت منه طائرتان من بين الأربعة التي استخدمت في العملية. وهو ما يعني دخول عشرة خاطفين من تلك البوابات. وتبدو فكرة الذهاب إلى بورتلاند القريبة وركوب طائرة نقل صغيرة متوجهة إلى بوسطن داخل الحلقة الأمنية، وللحاق بالرحلة المستهدفة عبر مسلك مختلف، تبدو فكرة منطقية من الوهلة الأولى. فالتوجه إلى مطار صغير يفترض أن تكون الإجراءات الأمنية والتفتيش فيه أقل تشدداً من تلك المتبعة في المطارات الدولية الأكبر؛ وعلى الرغم من صواب هذا التقدير إلا أن الحقائق لم تستقم معه؛ لأن الطائرة الصغيرة التي استقلها عطا هبطت في مبنى مختلف عن المبنى الذي ستقلع منه الطائرة المستهدفة، فكان على عطا أن يخرج من مبنى القادمين ويدخل مرة أخرى في مبنى المغادرين ويخضع للإجراءات الأمنية للمرة الثانية. وبدلاً من تقليل فرص تعرضه لنقاط تفتيش أمن المطار، ضاعفها مرتين. إضافة إلى ذلك، فقد تبين أن إجراءات الأمن المتبعة في مطار بورتلاند كانت أكثر شدة من مطار بوسطن؛ حيث كان فيه كاميرات أمن وحماية على بوابات الدخول بينما لم يكن في مطار لوغان مثل هذه الكاميرات. والشريط الذي ظهر فيه عطا والعمري وهما في طريقهما إلى الطائرة مأخوذ من المطار الذي أقلعت منه الطائرة في مطار بورتلاند من ولاية ماين وليس من مطار لوغان الذي أقلعت منه طائرة أميركان إيرلاينز. أخيراً، فإن الوقت القصير الذي يفصل بين الرحلتين يزيد من مخاطر احتمالات عدم لحاق عطا والعمري بالرحلة المستهدفة في بوسطن. وكما حدث في ذلك اليوم، فقد كادت الرحلة أن تفوتهما، ووصلا إلى المطار قبل 20 دقيقة من إقلاع الطائرة. ومع أنهما وصلا في اللحظة الأخيرة لإدراك الرحلة، إلا أن حقائبهما، ولسبب ما، تخلفت

عن الطائفة. واحتوت حقائق عطا على كل الوثائق المهمة الخاصة به: وصيته الأخيرة، إرشادات "الليلة الأخيرة"، شهادته الثانوية، شهادة الماجستير، تأشيرة إقامته الأصلية في ألمانيا الصادرة في مصر، عقد وكالة عامة، شهادات توصية وخبرة للعمل، وحتى شهادته من معهد غويث الذي تلقى فيه دورة لتعليم الألمانية في القاهرة. وإذا كان عطا يرغب أن يترك خارطة طريق للمحققين لاقتفاء آثاره، فإن الحقيبة هي أفضل نقطة للبداية.

63- ملفات المخابرات الألمانية، نسخة المؤلف.

64- الشيبة، مقابلة مع يسري فودة، مرجع سبق ذكره.

65- انظر الملحق "ب" الذي يحتوي على النص الكامل لتلك التعليمات.

■ الفصل الرابع: ذلك اليوم ■

- 1- الشيبة، مقابلة مع يسري فودة، مرجع سبق ذكره.
- 2- ملفات مكتب التحقيقات الفدرالي، نسخة المؤلف.
- 3- المرجع السابق نفسه.
- 4- جون ريدت، عضو في طاقم الخبراء في اللجنة الوطنية، شهادة أدلى بها أمام اللجنة الوطنية، 27 يناير/ كانون ثاني، 2004.
- 5- يبدو أنه لم يخطر على بال سلطة الطيران الفدرالي كيف أن بإمكان شركات الطيران أن تقارن أسماء المسافرين بالقائمة الأكبر في برامجها التخفيضية للمسافرين الاعتياديين.
- 6- الشيبة، مقابلة مع يسري فودة، مرجع سبق ذكره.
- 7- المرجع السابق.
- 8- آلن سكوت Alan Scott، ضابط برتبة عقيد في سلاح الجو، شهادة أمام اللجنة الوطنية، 23 مايو/ أيار، 2004. يختلف التسلسل الزمني بعض الشيء عن التسلسل الزمني للحادث نفسه الصادر عن سلطة الطيران الفدرالي لأن التسلسل الزمني الصادر عن نوراد NORAD: North American Aerospace Defense Command وضع ليعكس الأوقات التي سجلت فيها الأحداث في سجلاتها .
- 9- اللجنة الوطنية، تعليق طاقم الخبراء بند 17، 17 يونيو/ حزيران، 2004.
- 10- نورمان مينيتا، وزير المواصلات، شهادة أدلى بها أمام اللجنة الوطنية، 23 مايو/ أيار، 2004.
- 11- اللجنة الوطنية حول الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة، تعليق طاقم الخبراء بند 17، 17 يونيو/ حزيران، 2004.
- 12- اتفق الطيارون الخاطفون فيما بينهم قبل العملية بأنهم سيقومون بتحطيم الطائرات المختطفة قبل أن يفقدوا السيطرة عليها للركاب أو طاقم الطائرة. وكان عطا ينوي تحطيم طائرته في شوارع نيويورك إذا لم يكن بإمكانه ضرب

مركز التجارة العالمي، بحسب ما جاء في تقرير اللجنة الوطنية، تعليق طاقم الخبراء بند 16، 16 يونيو/ حزيران، 2004.

13- جون سكيلينغ John Skilling، مقابلة أجراها المؤلف، سياتل، 1989.

14- جون ماغنيسون Jon Magnusson، مقابلة هاتفية أجراها المؤلف، 11 سبتمبر/ أيلول، 2001.

■ الملاحق ■

ملاحظة [للقراء بالإنجليزية] إن الملاحق أدرجت كما ظهرت بشكلها

الأصلي، مع الإبقاء على الأخطاء الإملائية واللغوية كما هي.

- الملحق أ: نشرت أصلاً في صحيفة دير شبيغل، هامبورغ، ألمانيا، وترجمتها إلى الإنجليزية محطة إي بي سي نيوز.
- الملحق ب: ترجمها إلى الإنجليزية كابتال كوميونيكيشن غروب وعماد موسى لصحيفة نيويورك تايمز، 29 سبتمبر/ أيلول، 2001.
- الملحق ج: نشرت في الأصل في صحيفة القدس العربي، لندن، أغسطس/ آب 1996.
- الملحق د: اتحاد العلوم الأمريكية. مأخوذة عن موقع

<http://www.fas.org/irp/world/para/docs/980223-fatwa.htm>.